

السلوك الاجتماعي

- الاتجاه السلوكي في نظرية علم الاجتماع -

دكتور

جمال محمد أبو شنب

أستاذ علم الاجتماع السياسي
كلية الآداب - جامعة حلوان



السلوك الاجتماعي

- الاتجاه السلوكي في نظرية علم الاجتماع -

دكتور

جمال محمد أبو شنب

أستاذ علم الاجتماع السياسي
كلية الآداب - جامعة حلوان

٢٠٠٨ م

دار المعرفة الجامعية

٤٠ ش سنسوتير - الأزديطة - ت ٤٨٧٠١٦٢
٢٨٧ ش قنال السويس - الشاطبي - ت ٥٩٢٣١٤٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ
مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ»

صدق الله العظيم

سورة المائدة، الآية رقم (٩)

إهداء

**«إلى كل زملائي من الباحثين الجادين والملتزمين
بخلق العلم وتوظيف نظرياته لصالح الإنسان
وسعادته في الحياة»**

تقديم

منذ بداية إهتمام الفكر الاجتماعى بتفسير حقيقة الحياة الاجتماعية وموضوع العلاقة بين الفرد والمجتمع هو الشاغل الأكبر لهذا الفكر، وظهرت نظريات العقد الاجتماعى تبين كيف ولماذا يدخل الفرد فى علاقة مع المجتمع. وأى كانت الإجابات التى أعطاها «توماس هوبز»، و«جون لوك»، و«جان جاك روسو» إلا أنها تعكس إهتمام الفكر الاجتماعى بهذه المعضلة.

مع بروز علم الاجتماع الوضعى كان هناك ميل للتأكيد على أهمية الجماعة فى حياة الفرد وتشكيله على النحو الذى هو عليه وكانت وحدة الدراسة فى علم الاجتماع فى التراث الوضعى هى الكل أو الجماعة، أما الفرد فهو خارج نطاق البحث الاجتماعى، وجاءت تأكيدات قاطعة فى هذا الشأن بأن علم الاجتماع هو العلم الذى يدرس الظواهر الاجتماعية التى يمكن دراستها بعيداً عن تجسيدات الفردية. وربما كان هناك سبب معقول وراود هذا التأكيد خاصة وأن أصحاب المدرسة الفرنسية كانوا محاطين بأنصار المدرسة السيكولوجية فى التفسير وكانت مهمة هؤلاء المؤسسين هى إبراز خصوصية المدرسة السوسولوجية. ولا معنى هذا أن ما ذهبت إليه المدرسة الوضعية كان له الكلمة الأخيرة. لهذا ظهر إجتاه آخر فى المدرسة الألمانية يؤكد على أهمية دراسة الفرد وتحليل ما يدور فى عقله من توجهات قيمة تساعد على دراسة الفعل الاجتماعى. ومع انتقال علم الاجتماع للمقاربة الأمريكية برزت أهمية المدخل السلوكى فى التفسيرات السوسولوجية وكثر العدد من الأعمال التى أكدت على أهمية دراسة الفرد فى محيطه الاجتماعى والثقافى.

والعمل الذى نقدم له تصدى بمقدرة لمعالم تأثير الإجتاه السلوكى أو النفسى فى علم الاجتماع المعاصر بوجه عام، وفى تراث المدرستين الأمريكية والألمانية بوجه خاص، ويجد القارئ فى العمل معالجة مستفيضة لجنور هذا الإجتاه. فى الفكر الاجتماعى وأهم القضايا والمفاهيم المستخدمة من قبل أنصار هذا الإجتاه. ومن ناحية أخرى نجد معالجة متأنية لأعمال كل من «تشارلز كولى»، و«جورج هومانز»، و

«هربرت ميد»، و«هارولد جارفينكل» كممثلين لهذا الاتجاه السلوكى فى المدرسة الأمريكية. كذلك عالج الباحث قضايا هذا الاتجاه عند كل من «ماكس فيبر»، و«جورج زيمل»، و«كارل مانهايم» كممثلين للمدرسة الألمانية.

ولاشك أن هذا العمل بكل ما يحمله من تحليل سوسيولوجى يخدم طالب الفكر الاجتماعى والنظرية الاجتماعية لما يمثله هذا الاتجاه من قضايا محورية تشغل فكر علماء الاجتماع إلى الآن. والحق أن الدكتور جمال محمد أبو شنب قد بذل الجهد فى التأصيل النظرى واستطاع بمقدرة أن يمسك بخيوط هذا الاتجاه منذ بداياته وحتى تأثيراته وتفرعاته المعاصرة.

وكل ما أتيناه أن يكون هذا الكتاب باكورة أعمال جادة تخدم التراث النظرى فى علم الاجتماع المعاصر، وتضاف للمكتبة العربية، وتساعد على تحديد الاتجاهات المعاصرة فى نظرية علم الاجتماع.

أ.د محمد أحمد يومى

أستاذ علم الاجتماع

كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

المقدمة

يعتبر الاتجاه السلوكي أحد الموضوعات الحديثة في علم الاجتماع المعاصر. حيث يجمع في تناوله للقضايا التي يهتم بدراستها بين المعرفة في علم الاجتماع وعلم النفس، ويضفي نوعاً من العمق في دراسة تلك القضايا. وبخاصة لأنه أصبح واضحاً أن الأفعال والظواهر الاجتماعية لا يمكن تفسيرها من جانب واحد فقط، بل تأخذ بعض الجوانب الأخرى أهمية عند التحليل والتفسير. وباختصار فإن الاتجاه السلوكي في علم الاجتماع هو محاولة تفسير الظواهر الاجتماعية من خلال التصورات النفسية للحياة الاجتماعية التي يرجعها البعض إلى غريزة حب التجمع. والتي تعبر عن قدرات الطبيعة الإنسانية وما تطوى عليه تلقائياً من الميل والألفة وإلى تعاون الفرد مع بني جنسه والشعور بالطمأنينة في كنفهم وتبادل المنافع معهم. كما يفسر بعض العلماء نشأة الحياة الاجتماعية بالرجوع إلى غرائز الأبوة والأمومة والبنوة التي يرجع إليها الفضل في خلق الروابط الاجتماعية والمشاركات الوجدانية^(١).

وقد جاء اختيار للموضوع، على اعتبار أن دراسة أنماط الفعل أو السلوك والظواهر الاجتماعية في ضوء المبادئ والقوانين السيكولوجية، ربما يثرى الفهم والتحليل والتفسير. ويتمشى أيضاً مع الروح الجديدة لعلم الاجتماع. ويخلق ميداناً جديداً له أهميته عند دراسة موضوعات علم الاجتماع وقضاياها المنهجية والنظرية. إذ يستفيد علم الاجتماع من الدراسات النفسية لأنها تدرس الإنسان من حيث هو كائن حي مفكر يعيش في عالم مادي يتأثر به ويستجيب لهذا التأثير، وهذه الدراسات تنصب بصفة رئيسية على بحث السلوك الإنساني والشخصية الإنسانية، والعوامل التي تدخل في تكوين وتشكيل هذه الشخصية ذلك عن طريق ما تحدثه الظواهر النفسية من إحساس وإدراك وشعور في الشخصية^(٢).

والهدف الرئيسي للدراسة هو التعرف بالاتجاه السلوكي في علم الاجتماع،

(١) أحمد الخشاب، علم الاجتماع وممارسه، القاهرة: مطبعة لجنة البيان العربي، ١٩٦٠، ص ٣٦.

(٢) حسن سفيان، أسس علم الاجتماع، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٣، ص ١٢١.

ومدى تأثيره في قضايا علم الاجتماع المعاصر وفي تراث المدرستين الأمريكية والألمانية. أما الأهداف الفرعية فهي: أولاً: التعرف بحقيقة الاتجاه السلوكي وجذوره في تاريخ الفكر الاجتماعي، وبدايات تطوره في علم الاجتماع. ثانياً: الوقوف على القضايا المنهجية والنظرية للاتجاه السلوكي في علم الاجتماع في تراث المدرستين الأمريكية والألمانية. ثالثاً: الوقوف على إسهامات الاتجاه السلوكي في علم الاجتماع الأمريكي المعاصر. رابعاً: الوقوف على إسهامات الاتجاه السلوكي في علم الاجتماع الألماني المعاصر. خامساً: إيضاح أوجه النقد التي وجهت إلى الاتجاه السلوكي في علم الاجتماع المعاصر، من خلال تراث المدرستين الأمريكية والألمانية. سادساً: استخلاص أهم النتائج التي توضح جوانب الاتفاق والاختلاف بين التيارين السلوكيين في علم الاجتماع الأمريكي والألماني، وتأثيرهما في قضايا علم الاجتماع المعاصر سواء بالنسبة لموضوعاته، أو مناهجه، أو نظريته من خلال أعمال المدرستين.

وبناء على هذا التحديد لمشكلة البحث ومشكلاته الفرعية، يمكن تصور أهمية الدراسة في هذا الموضوع، بالرغم من صعوبته المتمثلة في افتقاره إلى نظرية نفسية مقبولة بوجه عام، إذا ما أدركنا أن محاولات السعي لتطوير النظرية الاجتماعية أصبحت عرضة للاعتماد والارتكاز على اتجاهات سيكولوجية مختلفة. كما أن هناك اتفاقاً بين أغلب علماء الاجتماع على أن النظرية السوسولوجية يجب أن تركز على دراسة مشاركة الفرد في الحياة الاجتماعية^(١).

وعلى الرغم من أن الدارسين الأوائل ومن جاء بعدهم قد تشعبت اهتماماتهم، تتجلى أهمية الدراسة في ضوء إدراكنا أن هناك لمة نقاط التقت فيها وجهات نظر العلماء الذين كتبوا في هذا الاتجاه، ويمكن أن تشكل نقاط الالتقاء تلك إطاراً نظرياً متكاملًا نسبيًا في دراسة الحياة الاجتماعية.

(١) نيقولا يماشيف، نظرية علم الاجتماع طبيعتها وتطورها، (ترجمة) محمود عوده، محمد علي

محمد، محمد الجوهري، محمد الحسيني، القاهرة: دار المعارف بمصر، ١٩٧٢، ص ٢٧٩

ولهذا ربط الباحث معالجته لموضوع الدراسة، بعدد من القضايا الهامة في مجال الموضوع والمنهج والنظرية. وتهدف هذه القضايا إلى الوقوف على إمكانية تشكيلها لإطار نظري محدد المعالم. وبمثل إسهاماً لهذا الاتجاه السلوكي في علم الاجتماع. ولقد راعى الباحث في معالجته لموضوعات الدراسة السياق التاريخي والفترة الزمنية، كما راعى الإطار الفكري الذي ينتمي إليه العلماء الذين كتبوا في هذا الموضوع. وقد بنى الباحث منهجاً تقليدياً تحليلياً في تناول تراث المدرستين الأمريكية والألمانية. وراعى تركيب الحقائق للمستخلصة وإظهار التناقضات وجوانب الضعف وجوانب القوة والاسهامات الايجابية. ومن ثم قسمت فصول الدراسة بحيث تتفق مع الهدف المقصود منها. وروعى في تصنيف فقرات الدراسة أن تتابع على نحر منطقي حتى ترابط أجزاء البحث. معتمداً في ذلك على الجمع بين التعريف والتصنيف ثم التحليل والمقارنة. وفي خاتمة كل باب تعرض لوجهات نظر العلماء الدارسين وتظهر جوانب الاتفاق والاختلاف فيما بينهم.

وتقسم الدراسة إلى ثلاثة أبواب والخاتمة على النحو التالي:

الباب الأول

ونبدأ في الفصل الأول، بالتعريف بهذا الاتجاه السلوكي وجذوره في الفكر الاجتماعي. ثم لبدليات تطوره في علم الاجتماع من خلال احتمالات رواه الأوائل بوجه عام، وفي الفصل الثاني، تعرض لقضايا النزعة السلوكية في علم الاجتماع وهي: أولاً: القضايا النظرية، وذلك من خلال المفاهيم ثم القضايا التي تشغل بدراساتها تيار السلوكية الاجتماعية في إطار مداخله المختلفة في علم الاجتماع. وثانياً: عرض القواعد المنهجية التي اعتمد عليها علمائها في نطاق الإطار الفكري الذي ينتمون إليه. مع ملاحظة أن عرضنا لتلك المفاهيم والقضايا لدى علماء المدرستين الأمريكية والألمانية سيكون بصورة موجزة. حيث سنلجأ عرض ذلك في البابين الثاني والثالث. وفي خاتمة الباب الأول، نحاول تقسيم المنطق

إسهام كل من دروكيم وفرويد وعالم الاجتماع النفسى جبرائيل تارد، لما لهم من أثر بالغ فى إرساء الدعائم الأولية الإتجاه السلوكية الاجتماعية فى علم الاجتماع. ثم نحاول تحديد القضايا المنهجية والنظرية التى شغلت اهتمام علمائها من رواد المدرستين الأمريكية والألمانية.

ويتناول «الباب الثانى»

مدى تأثير الإتجاه السلوكى فى قضايا علم الاجتماع الأمريكى. واستخدام علماء المدرسة الأمريكية فى علم الاجتماع لمفاهيم هذا الإتجاه السلوكى فى دراسة «جوانب الحياة الاجتماعية». وأيضاً التعرف على النتائج التى اعتمدوا عليها فى معالجتهم للموضوعات التى تناولوها فى إطار هذا الإتجاه السيكولوجى. وذلك بغرض الوصول إلى مدى ما أسهم به رواد الاجتماع النفسى الأمريكى، فى مجال موضوع علم الاجتماع ومنهجه ونظرياته. وتنقسم إلى أربعة فصول: حيث تعالج فى «الفصل الثالث»، السلوكية الاجتماعية وفى دراسات تشارلز هورتون كولى: ومن خلال اعتماده على التدخل السلوكى فى تفسير الواقع الاجتماعى. وتبنيته النظرية العضوية الخاصة بالفهم السيكولوجى الامبريقية للجماعات الأولية، مع محاولة لمضاح الدور الذى تلعبه تلك الجماعات فى تشكيل الذات أو الطبيعة الإنسانية والمبادئ الأولية. ثم تعالج أخيراً المفاهيم السيكولوجية لدى تلك الجماعات الأولية عند كولى وفى الفصل الرابع، نستعرض السلوكية الاجتماعية فى دراسات جورج كوسيلر هومنز: بمعالجته للمفاهيم السيكولوجية فى تفسير السلوك أو الظواهر الاجتماعية ثم التفسير السيكولوجى للسلوك الإنسانى على مستويين: الأول، فى إطار علاقة هذا السلوك بالبيئة. والثانى، فى إطار علاقة السلوك بالتفاعل مع شخص آخر داخل نطاق الجماعات الاجتماعية. وأخيراً التزعة السلوكية الاجتماعية فى نظرية هومنز الوظيفية لدراسة السلوك الإنسانى فى إطار قضاياها الخمسة. و«الفصل الخامس»، عرض للاتجاه السلوكى لدى جورج هربرت ميد حيث ينصب اهتمامه على دراسات الذات الإنسانية: ونبدأ بمعالجة

المراحل الاجتماعية في تطور الذات أو الطبيعة الإنسانية لديه. ثم تعرض للدور الذي تلعبه الجماعات المرجعية في تشكيل الذات الفردية ونموها حتى تصل إلى وحدتها التامة. ثم لعناصر الضغط الاجتماعي الداخلة في تشكيل الذات السيكولوجية الفردية. وأخيراً تعرض لسيكولوجية العقيدة كما أوضحها «جورج هيربرت مينز» Georg H. Mead في إطار تلك الجماعات المرجعية.

أما الفصل السادس. فهو عرض لاتجاه السلوكية الاجتماعية لدى أحد علماء المدرسة الأمريكية المعاصرين وهو هارولد جارفينكل؛ ونبدأ بالتعريف بالنزعة السلوكية الاثنوميثودولوجية في دراساته الاجتماعية. ثم لأبعاد النزعة السلوكية في دراساته الاثنوميثودولوجية بوجه عام. وأخيراً للمداخل المنهجية التي اعتمد عليها في دراساته السلوكية الاجتماعية. وفي خاتمة الباب الثاني، نعقد مقارنة بين تلك القضايا التي أثارها تلك الاتجاهات السلوكية في دراسات العلماء الأمريكيين. وذلك في محاولة للوقوف على نقاط الاتفاق والاختلاف، ومدى ما يمكن أن تضيفه نقاط الاتفاق بين اتجاهاتهم السلوكية إلى موضوعات علم الاجتماع ومناهجه ونظريته السوسولوجية.

أما «الباب الثالث»

فهو يتعلق بمدى تأثير الاتجاه السلوكية الاجتماعية في قضايا علم الاجتماع الألماني. فيتناول اهتمامات ثلاثة من علماء الاجتماع الألمان كان لهم أثر بالغ في نمو وتطور الاتجاه السلوكي في ألمانيا بوجه خاص والنظرية السوسولوجية بوجه عام. وهؤلاء العلماء هم: ماكس فيبر، وجورج زيمل، وكارل مانهايم. ففي الفصل السابع، تعرض للاتجاه السلوكي لدى ماكس فيبر؛ ونبدأ، بعرض للاتجاه الذاتي في دراساته المنهجية المتنوعة، ثم لاستخدامه لمفهوم النموذج المثالي كأداة منهجية لتحقيق الفهم الذاتي للعلاقة بين روح البروتستانتية والرأسمالية الحديثة، ثم لتفسيره «النفسي للفعل الاجتماعي حتى نقف على حقيقة فهمه الذاتي للفعل الاجتماعي». وأخيراً تعرض للفهم السيكولوجي في دراسات ماكس فيبر للقيمة.

والفصل الثامن، يتناول الاتجاه السلوكي لدى جورج زيمل، في محاولة للوقوف على ما قدمه من خلال اهتماماته السيكولوجية في موضوعات علم الاجتماع ومناهجه واتجاهاته النظرية: وفي البداية نعرض لسيكولوجية اتجاهه الوظيفي في دراسته لتطور الشخصية الإنسانية في إطار الأشكال أو الصور الاجتماعية. ثم نعرض لتفسيره السيكولوجي للعمليات الاجتماعية ونتناول في إطاره كلا من: العمليات التفاعلية السيكولوجية. والصراع كشكل من أشكال المشاركة السيكولوجية، والمعالجة السيكولوجية لصور العلاقات الرئاسية كشكل من أشكال التفاعل. ثم أخيراً نعرض لسيكولوجية التنير في عضوية الجماعات الثنائية.

وفي الفصل التاسع، نعرض للاتجاه السلوكي في دراسات كارل مانهايم الاجتماعية ونتناول في إطاره: أولاً: المحتوى الذاتي لتوافق السلوك أو الفعل مع المعنى في إطار العمليات الاجتماعية. وثانياً: لأثر الفرائز في تشكيل العادات كنمط سلوكي. ثم للتطور في نماذج التقليد. وثالثاً: عرض للتفسيرات السوسولوجية للشخصية الإنسانية في إطار مناقشتنا لبعض من الأفكار الرئيسية في التحليل السيكولوجي وهي: اللاشعور، والكتب، والتسامي أو المثالية. وذلك باعتبار أن تلك الأفكار تمثل عمليات سيكولوجية ذات مغزى اجتماعي. وفي خاتمة الباب الثالث، لانفصل المقارنة بين وجهات نظر علماء الاجتماع النفسي الألماني. وأيضاً حصر نقاط الاتفاق والاختلاف في دراسة موضوعاتهم، والمناهج المستخدمة في دراساتهم، والإطارات الفكرية الموجهة لهم في دراساتهم. وذلك في محاولة للوقوف على ما أضافه الاتجاه السلوكي، في علم الاجتماع الألماني إلى موضوع ومنهج ونظرية علم الاجتماع الألماني بوجه.

أما الخاتمة:

فتشتمل على جزئين: الأول يتناول تحديدنا للاتجاهات النظرية والمنهجية التي شغلت اهتمام علماء السلوكية الاجتماعية من رواد المدرستين الأمريكية والألمانية على حد سواء. وفي الجزء الثاني، نحاول أن ننتهي فيه إلى عدد من النتائج،

بحيث يمكن أن تمثل حدوداً لهذا الاتجاه السلوكي في علم الاجتماع. وذلك من خلال: استجلاء البعد التاريخي له، وتطوره في تاريخ الفكر الاجتماعي. ومدى الإسهام الذي قدمه هذا الاتجاه في نطاق المدرستين الأمريكية والألمانية. ثم تحديد جوانب الاتفاق والاختلاف بين آراء علماء السلوكية الاجتماعية في كلا المدرستين الأمريكية والألمانية.

دكتور

جمال أبو شنب

الاسكندرية في: ٢٨ / ٩ / ١٩٩٧ م

الباب الأول

الاتجاه السلوكي في علم الاجتماع

الفصل الأول: الاتجاه السلوكي في الفكر الاجتماعي.
الفصل الثاني: قضايا الاتجاه السلوكي في علم الاجتماع المعاصر.
خاتمة الباب الأول.

الباب الأول

الاتجاه السلوكى فى علم الاجتماع

يعتبر الباب الأول محاولة لتناول حقيقة هذا الاتجاه السلوكى وجذوره فى تاريخ الفكر الاجتماعى، والوقوف على قضايا النظرية والمنهجية. وقد قسم الباب إلى فصلين. ويهدف الفصل الأول، إلى الوقوف على حقيقة وجذور الاتجاه السلوكى فى تاريخ الفكر الاجتماعى، ثم لبدایات تطوره فى علم الاجتماع لدى علماء القرن العشرين، وذلك من خلال آراء جبرائيل تارد، ثم اهتمامات علماء المدرستين الأمريكية والألمانية.

وفى الفصل الثانى، سنحاول أن تبين القضايا النظرية والمنهجية التى شغلت اهتمام الرواد الأوائل من علماء السلوكية الاجتماعية. ونعرض فى البداية للقضايا النظرية متناولين المفاهيم التى شغلت اهتمام هؤلاء العلماء، هى: الضمير أو الشعور الاجتماعى، الفهم التفسيرى للفعل أو التفاعل الاجتماعى فى مستوى الفهم الذاتى، التفاعل الرمزي، دراسة مفهوم الذات الإنسانية. ثم نتناول القضايا من خلال الاتجاهات النظرية فى دراسات علماء وهى: نموذج الصراع أو التنفير الثورى، ثم نموذج السلوكية الاجتماعية أو الاتجاه النفسى الاجتماعى، وأخيراً نعرض للأساليب المنهجية التى اعتمد عليها علماء للتحقق من تلك القضايا والافتراضات النظرية.

مع ملاحظة أن عرضنا لتلك المفاهيم والقضايا سيكون بصورة موجزة حيث سيلي عرضها خلال فصول الدراسة. وفى الخاتمة نحاول الوقوف على ثم مدى إسهام الفكر الدوركىمى والفرويدى ثم فكر جبرائيل تارد فى إرساء الدعائم الأولية لهذا الاتجاه السلوكى. وذلك من خلال نظريته الاجتماعية التى تقوم على التقليد والمحاكاة. وأيضاً نحاول أن ننتهى من خلال عرضنا فى الفصل الثانى للقضايا المنهجية والنظرية، إلى تحديد القضايا المنهجية والنظرية التى شغلت اهتمام رواد السلوكية الاجتماعية من علماء المدرستين الأمريكية والألمانية.

الفصل الأول

الاتجاه السلوكي في الفكر الاجتماعي

- ٢- حقيقة وجوده في تاريخ الفكر الاجتماعي.
- ٣- بدايات تطوره في فكر الرواد الأوائل في علم الاجتماع.
 - أ- الأسباب التي أدت بعلماء النفس إلى الاهتمام بدراسة الحياة الاجتماعية.
 - ب- الأسباب التي أدت بعلماء الاجتماع إلى الاهتمام بدراسة الأسس السيكولوجية للحياة الاجتماعية.
- أولاً: مدى تبنى علم الاجتماع لنظرية فرويد في علم النفس.
- ثانياً: مدى اهتمام علم الاجتماع بالأسس السيكولوجية لنظرية جابريل تارد.
- ثالثاً: معالجة مقارنة لوجهات نظر كل من (دوركيم)، (فرويد)، (وتارد).

الفصل الأول

الاتجاه السلوكى فى الفكر الاجتماعى

يهدف هذا الفصل إلى الوقوف على ماهية وحقيقة الاتجاه السلوكى فى علم الاجتماع مع عرض لجذوره فى تاريخ الفكر الاجتماعى، والتي تمتد من بدايات الفكر الفلسفى منذ أفلاطون وأرسطو. ثم تتعرض لبدايات نموه وتطوره والتي تدعمت فى نهاية القرن السابع عشر وبدايات القرن العشرين لدى الرواد الأوائل أمثال دوركيم وفرويد وبارسونز. وكان من الرواد الأوائل الذين أرسبوا دعائم هذا الاتجاه السلوكى عالم الاجتماعى الفرنسى جبرائيل تارد، والذي أقام نظريته الاجتماعية فى التغير الاجتماعى والثقافى على أسس سيكولوجية تمثلت فى التقليد والمحاكاة. وسوف يتضح مدى تطور وتأثير هذا الاتجاه السلوكى فى قضايا علم الاجتماع المعاصر من خلال عرضنا لتراث المدرستين الأمريكية والألمانية فى الأبواب القادمة.

فإذا كانت العلوم الطبيعية فى تعاملها مع المادة قد حققت إلى درجة ما التقدم المتمثل فى إطار من القوانين التى تحكم سير المادة وتعامل الإنسان معها، وإذا كان الدارسين فى مجال العلوم الإنسانية قد حاولوا نهج العلوم الطبيعية فى دراسة سلوك الإنسان والجماعات الاجتماعية، أملاً وتطلعاً فى الوصول إلى مستوى معين من التعميمات التى تحكم سير تلك الأفعال والتصرفات الفردية والجماعية. ولما كان موضوع الدراسة «مدى تأثير الاتجاه السلوكى فى قضايا علم الاجتماع المعاصر». بوجه عام وفى تراث المدرستين الأمريكية والألمانية بشكل خاص، يقع فى إطار تلك العلوم السلوكية، وعلى وجه التحديد علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعى؛ التى يهتم بدراسة سلوك الإنسان فى تفاعله مع بيئته الاجتماعية، فإنه يلزم فى البداية إيضاح مدى أهمية الدراسة فى هذا الموضوع والتي تتمثل فى محاولة الوصول من خلال موضوعات الدراسة إلى تحقيق مستوى معين فى فهم السلوك الإنسانى والحياة الاجتماعية فى إطار هذا الاتجاه السلوكى ومن خلال هاتين المدرستين.

حيث نجد في هذا الصدد أن تكرار وحدات السلوك الإنساني وانتظامها في علاقات الشخص بالأفراد الآخرين في إطار التفاعل الاجتماعي، يكون موجه نحوهم في إطار ما يتوقعه من أشياء معينة بأساليب معينة، أو ما يمتنعون عن فعله من أشياء معينة وعن الإنفعال بها بأساليب أخرى، كما أن هؤلاء الآخرون يتوقعون منا أيضاً أشياء معينة في إطار ما يقومون به من أفعال وأدوار اجتماعية بالاستحسان أو النفور بمعنى أن الإنسان كشخص هو مخلوق تاريخي ويمكن فهمه في إطار الأدوار والنظم الاجتماعية التي ولد فيها وترعرع فيها، حيث نجد أن ذاكرته، وإدراكه الحسي، والبواعث التي تدفعه إلى النشاط، وفكرته المجردة عن نفسه، ووظائفه النفسية، قد تتشكل على نحو معين من خلال الأدوار والتفاعلات الاجتماعية التي استوعبها وتمثلها الشخص في مجتمعه^(١).

وإذا ما تساءلنا عن ماهية هذا الاتجاه السلوكي أو السيكولوجي في دراسة المجتمع؟ وما هي الموضوعات التي تقع في إطار إهتمامه؟ وما هي المناهج التي يعتمد عليها في موضوعات دراسته؟ وما هي الخلفية التاريخية التي أدت إلى ظهوره، وهل كان بهذا الاتجاه السلوكي له جذور في تاريخ التفكير الاجتماعي أم لا؟

وسوف نحاول في هذا الفصل الذي يعتبر تقديم وتمهيد ذهني لموضوع الدراسة، الإجابة على تلك الأسئلة، التي تربط بحقيقته وجذوره في تاريخ الفكر الاجتماعي، ثم ببدايات تطوره في فكر الرواد الأوائل في علم الاجتماع على النحو التالي بعد هذه المقدمة:

٢- حقيقة وجذوره في تاريخ الفكر الاجتماعي.

٣- بدايات تطوره في فكر الرواد الأوائل على النحو التالي:

(أ) الأسباب التي أدت بعلماء النفس إلى الإهتمام بدراسة الحياة الاجتماعية.

(١) د. سيد عويس، محاولة في تفسير الشعور بالعدواة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة،

١٩٦٨، ص ٣٢ - ٣٣.

(ب) الأسباب التي أدت بعلماء الاجتماع إلى الاهتمام بدراسة الأسس
السيكولوجية للحياة الاجتماعية من خلال.

- مدى تبنى علم الاجتماع لنظرية (فرويد) في علم النفس.

- مدى اهتمام علم الاجتماع بالأسس السيكولوجية لنظرية «جابريل تارد».

- معالجة مقارنة لوجهات نظر كل من (دوركيم)، (فرويد)، (تارد).

٢- حقيقته وجذوره في تاريخ الفكر الاجتماعي:

الاتجاه السلوكي من النظرية الاجتماعية هو كل خط فكري يحاول أن يبحث
القضايا النفسية للحياة الاجتماعية، أو يفسر الظواهر الاجتماعية ويحل مشكلاتها
في ضوء التصورات والقوانين السيكولوجية، أو يعنى بالعلاقات الإنسانية ومواقف
واتجاهات الأفراد والسلوك الجمعي، وديناميات الجماعات، والخصائص المميزة
للوجدان الجماعي. ويدخل أيضاً في نطاق هذا الاتجاه السلوكي دراسة نفسية
الجماهير ونفسية الشعوب، والخصائص المميزة للجماعات الإنسانية والسلالات
البشرية^(١). كما يمثل هذا الاتجاه السلوكي أيضاً «الرابطه التي تربط بين العلوم
الاجتماعية وبداياتها البيوسيكولوجية. ومن ثم يهتم بدراسة عمليات ظهور الذات،
وبناء الشخصية وأبعاد توافقها أو عدم توافقها. والعمليات التفاعلية التقليدية. وأيضاً
التصورات السيكولوجية التي ينهض عليها التنظيم الاجتماعي»^(٢).

ويضرب هذا الاتجاه السلوكي جذوره في الفكر الفلسفي، إذ نجد دعواه تماثل
لدى أفلاطون (٤٢٧ - ٣٤٨) ق. م حينما نظر للدولة باعتبارها مجموع من
الأفراد وتعتبر انعكاساً للكائن الإنساني. وبالتالي بنى نظريته عن المجتمع وفقاً

(١) أحمد «خشب، التفكير الاجتماعي: دراسة تكاملية للنظرية الاجتماعية» القاهرة: دار المعارف
بمصر، ١٩٧٠، ص ٤٦٨.

(2) Woodard, G. W., «Social Psychology», In George, Gurvien &
Wilbert E. Moo e., (eds.) Twentieth century Sociology. New
York: philosophical library INC., 1945, p. 248.

لاعتقاداته عن الطبيعة الفردية، واعتقد في هذا الصدد أن روح الفرد تتكون من ثلاثة عناصر هي: العقل، والروح^(١)، والرغبة.

أما العقل، فمركزه الرأى، والشجاعة أو الروح ومركزها الصدر، والشهوة أو الرغبة ومركزها البطن. وأنه يعتقد أن صفات النفس الإنسانية وراثية ولادية غير مكتسبة ويتوقف توازن الأجزاء الثلاثة للنفس الإنسانية على تدريب الأفراد والزامهم^(٢)، وأنه لا يمكن للفرد أن يصل إلى الكمال والسعادة إلا إذا تحقق التوافق بين تلك العناصر الثلاثة. ولما كانت الدولة ما هي إلا انعكاس لتلك الروح الفردية، فقد رأى أفلاطون بصورة سببية أن الدولة لا تحقق الكمال التام إلا إذا كان هناك توازن مألوف بين أقسامها الثلاثة^(٣).

كما وضع هذا الاتجاه السلوكي لدى أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق. م)، وبصورة أكثر عمقاً عن أفلاطون. فقد أقام أرسطو نظريته العضوية عن المجتمع على أساس بيولوجي والتشابه الدقيق بين الجسد والدولة. كما اعتقد أن السلوك ليس هو الشيء الذي يفكر فيه ولكنه ينتج من طبيعة الفرد ذاته. وقد جاء هذا الاهتمام لدى أرسطو في إطار مما كان سائداً من قواعد سيكولوجية للتفكير الاجتماعي لدى فلاسفة الاغريق. وتمثل بوجه عام في إعطاء الفرد أهمية كبرى عن الدولة^(٤).

ووجدت جذور هذا الاتجاه السلوكي أيضاً في تاريخ الفكر الاجتماعي لدى جبرائيل تارد G. Tard (١٨٤٣ - ١٩١٤). ففي إطار نظريته عن التغيير الاجتماعي والثقافي، قدم نظريته عن التقليد واعتبره حجر الأساس لفكره. وأوضح تارد أن التقليد يوجد خلال عملية التعلم مع عمليتي «المعارضة» و «التكيف». ثم استخدم عملية التقليد لتعليل انتقال الصور الاجتماعية ولتعليل ثباتها، وأخضعها

(1) Willkins, E. J., An Introduction to Society, London, Donald & Evans, L. T. D, 1970, p. 4.

(٢) حسن سعيان، تاريخ التفكير الاجتماعي، القاهرة، مطبعة دار التأليف، ١٩٦٦، ص ٣٢ - ٣٣.

(3) Willkins, E. J., op. cit., pp. 4-5.

(4) Willkins E. J. Ibid, pp. 4-5.

للقوانين المنطقية وغير المنطقية على السواء، واعتبر أن المجتمع يتكون من جماعة من الناس يكونون قادرين على تقليد أجدهم للآخر. أما بخصوص المعارضة فأوضح تارد أنها توجه نحو نمطين: معارضة الصراع، ومعارضة الإيقاع. وهى تقلب الظواهر الاجتماعية. ولذلك يظهر التكيف أو الاختراع الذى ينجح فى إيجاد توازن جديد بعد الخلل الذى أحدثته المعارضة بمعنى أن التكيف يؤدي إلى التكامل^(١).

٣- بدايات تطور الاتجاه السلوكى فى فكر الرواد الأوائل فى علم الاجتماع:

لقد جاءت بدايات تطور اهتمام علماء الاجتماع بدراسة التصورات السيكولوجية للحياة الاجتماعية فى إطار قناعتهم بالروح العلمية الجديدة لهذا العلم. وعدم جدوى دراسة السلوك الفردى بمنأى عن التفاعل الاجتماعى. ويرى وليم كينكل فى هذا الصدد «أن سمات السلوك الإنسانى تفتقد بعيداً عن التفاعل. وأن السبب الأول فى تكوين شخصياتنا يرجع إلى تفاعلنا مع الآخرين. وأن الموجودات الإنسانية لديها اهتمام كبير بالارتباط مع الآخرين، وحتاج للتوافق مع الجماعات القائمة أو لتأسيس جماعات جديدة بدونها لاستطيع أن تفى باحتياجاتها، فالإنسان يحصل على إشباعاته من التفاعل مع الآخرين، ويرغب فى المصادقة والاستجابة مع الآخرين فى جماعته. كما يميل أيضاً إلى الاتحاد بهم أو إلى تحطيم الآخرين أو التعبير عن العداء لهم. إذ يؤكد علماء الاجتماع فى اهتماماتهم هذه على أهمية تلك المبادئ السيكولوجية فى تكوين السمات الإنسانية والصفات الاجتماعية للجماعات الاجتماعية»^(٢).

فقد ظهر هذا الاتجاه السلوكى فى علم الاجتماع وتطور فى نطاق الدراسة السوسولوجية العلمية للسلوك الإنسانى. والى تحتاج فى سعيها لفهم السلوك الإنسانى داخل نطاق التفاعل الاجتماعى، إلى الاعتماد على قضايا من المداخل

(١) عبد الهادى الجوهري، معجم علم الاجتماع، القاهرة: مكتبة نهضة الشرق، بجامعة القاهرة،

١٩٨٠، ص ٤٧.

(2) kenkel, W. F., Society in action. New York: Harper & Row Publishers, 1980, p. 6.

السلوكية الأخرى، والتي تشارك فى دراسة السلوك الإنسانى. وأهتم هذا الاتجاه السلوكى ببحث الأسباب العقلية والعاطفية للسلوك. ويقع فى نطاق النظرية البنائية التى تماثل بين المجتمع والكائن الحى^(١).

وقد تطور اهتمام علماء الاجتماع بهذا الاتجاه النفسى فى علم الاجتماع لينهض بمهمة التحليلات السوسيو سيكولوجية للجماعة. فهو يهدف إلى فهم وتفسير سلوك الأفراد داخل نطاق الجماعات الاجتماعية الصغيرة والكبيرة مثل: الأسرة، وجماعات الانحراف، والتنظيمات الدينية، والمدن. كما يركز أيضاً هذا الاتجاه النفسى على دراسة الصفات الاجتماعية لمجموع الأفراد بالرغم من صعوبة التمييز بين الصفات الفردية والجماعية. وقد أمكن فى ضوء هذه التحليلات فهم الاختلافات على سبيل المثال فى حجم الأسرة، وذلك من خلال ادراكنا للصفات الاجتماعية المرتبطة بقواعد نفسية وتؤثر على سلوك الأفراد بداخلها. ومن ثم يجب علينا أن نسعى لتغيير سلوك الجماعة الكلى وليس وفى عرضنا لتاريخ هذا الاتجاه سوف تناقش فكر الرواد الأوائل لهذا الاتجاه السلوكى فى علم الاجتماع والقضايا التى اهتموا بها على الوجه التالى:

- (أ) الأسباب التى أدت بعلماء النفس إلى الاهتمام بدراسة الحياة الاجتماعية.
- (ب) الأسباب التى أدت بعلماء الاجتماع إلى الاهتمام بدراسة الأسس النفسية للحياة الاجتماعية، وموضحاً فى هذا الصدد:

- أولاً: مدى تبنى علم الاجتماع لنظرية فرويد فى علم النفس.
- ثانياً: مدى اهتمام علم الاجتماع بالأسس النفسية لنظرية جابريل تارد.
- ثالثاً: معالجة مقارنة لوجهات نظرية كل من (دوركيم)، (وفرويد)، (وتارد).

(1) Bocock., op. cit., p. 5.

الأسباب التي أدت بعلماء النفس إلى الاهتمام بدراسة الحياة الاجتماعية.

أورد (روبرت بوكوك) Robert Bocock في كتابه «فرويد والمجتمع الحديث» أن النمو الأول للحدود الكبرى للنظرية السيكولوجية كان بواسطة (فرويد) خلال الأربع عقود الأولى من القرن العشرين. حين بدأ بمقدمة عن فكرة اللاوعي أو اللاشعور Unconscious وفي ربطه للأحلام بالتويم المغناطيسي، بل أيضاً حينما ذهب في استخدامه لهذا التصور لفهم تباين الدلالات العصبية Neurotic Sysmptoms. ثم أخيراً في استخدامه للاشعور ليعطي تضحاً أوسع، حيث كان فرويد يرى أن تأثيره لا يكون فقط بالنسبة لسلوك الأفراد الشواذ، ولكن أيضاً بالنسبة لسلوك الأفراد الأسوياء في النظم الاجتماعية، ويرى أن هناك فهماً أولياً للتصور عند (فرويد) قبل إعتبارات استعماله بالنسبة للنظم الاجتماعية والمجتمع بصورة عامة (١).

وإن كان (فرويد) قد رأى أن الفلاسفة والمناطق الغربية قد عالجوا مسألة «الهو» «Id» و«الأنا» «Ego»، إلا أنه وجد من الصعوبة الموافقة على تلك المعالجة وناقش إمكانية قيام تلك المعالجة الفلسفية بتضمن ظاهرة لأحلام وخصوصاً التويم المغناطيسي. ويرى أن هناك بعض من الأفكار يمكن تذكرها بسهولة بالنسبة للشعور Comsciousness، تلك التي يفكر فيها على أنها وعي مسبق Pre-conscious، كما أن هناك أفكار أخرى يبدو عملها في العقل بقوة هائلة، ولكنها لاتكون واعية أو تذكر بسرعة للشعور، وتلك يطلق عليها بالأفكار اللاشعورية (٢).

وقد كان الفهم الأولي لتصور «الاشعور» لدى (فرويد) يعني:

«أن التقسيم الثقافي إلى شعور ولاشعور يكون مقلعة هامة في التحليل النفسي فالتحليل النفسي لا يستطيع أن يضع الأصل النفسي في الشعور، ولكنه يكون مضطراً إلى الاهتمام

(1) Bocock, Robert., Freud and Modern Society; "The Unconscious" Tomas Nelson and Sons old, London, 1976, pp. 4-5.

(2) Ibid., p. 5.

وأعضائه التناسلية Faeces and Ienitals كما أن فكره «الهو» Id تتضمن تلك الفروض الخاصة بنظرية الغرائز اللاشعورية هذه، وتؤكد على عموميتها لدى كل الموجودات الإنسانية وأيضاً غموضها. وفي هذا الصدد تكون التجارب المؤلمة أو الرغبات المنوعة نتيجةً للقمع أو الكبت كما يكونا لاشعوريان أيضاً، كما أن الناس لا يولدوا بالكبت في تجاربهم ولكنهم يكتسبوه. وإن كان (فرويد) يبدو لنا على أنه يظن أن هناك بعض أجزاء من المواد المكبوتة في المستويات المبكرة يكون وراثي^(١). Inherited.

وقد وضحت بالنسبة (لروبرت بوكوك) مدى أهمية فهم العلاقة بين النسق اللاشعوري وأنساق الوعي وما قبل الوعي أو الإدراك Preconscious and Conscious ورأى أن أنساق الوعي وما قبل الوعي ربما لا تكون قادرة على التأثير في النسق اللاشعوري إطلاقاً، ولهذا السبب تملك فكرة اللاشعور مضموناً هاماً من أجل الفهم السوسيولوجي للفعل الإنساني. بمعنى أن العمليات اللاشعورية تستطيع أن تؤثر في الفعل بطرق خلفية تختلف عن الضبط الشعوري المنظم، وكما هو يكون ملاحظ في عدد من أشكال الأمراض العقلية، ومثلما يكون تماماً في الأفعال الأخرى لدى الناس الأسوياء والتي تحدث في الحلم. وبالتالي كان لتلك العمليات اللاشعورية خاصتين ناتجتين من مقدرة الدافع الغريزي على الاختراق من موضوع إلى آخر محاولاً أن يحقق إشباعاته Gratifications؛ والخاصية الأولى تتمثل كون حركتها آلية جامدة Displacement، والثانية تعني أنها تكون مركزة Condensation. وفي هذا الصدد قد وجد (فرويد) أن اللاشعور لدى بعض المرضى لم يكن تحت الضبط الكافي بواسطة نسق الوعي وما قبل الوعي، وبالتالي كان المريض لهذا السبب خطر كامن على نفسه وعلى الآخرين، وقد كان من الأعمال الرئيسية للنظرية السيكلوجية محاولة جذب «اللاشعور» تحت الضبط الشعوري الزائد، حتى يقدم الأساس الحقيقي للعمل من خلال مبدأ السعادة أو

(1) Frued., op. cit., pp. 6-7.

السلة^(١). وقد قال فرويد في هذا الصدد «إنها حقيقة ملاحظة بوضوح، أن اللاشعور لدى أى كائن يستطيع أن يتقاوم مع ما هو لدى الآخر، وبدون وجود الوعى أو الشعور على الإطلاق»^(٢).

وقد انتهى (روبرت بوكوك) في هذا الصدد إلى أن تلك العمليات اللاشعورية تكون هامة جداً في مضمونها بالنسبة لتكتيك التحليلات السيكولوجية، بالإضافة إلى مضمونها العام أيضاً في فهم الأفعال في الجماعات. وقد طور هذا المعنى (فرويد) في كتابته عن «سيكولوجية الجماعة والتحليلات المتعلقة «بالأنا» أو «الذات»، حيث اهتم السيكولوجيون في هذا الصدد بمعالجة الواقع الاجتماعى باعتباره نتاجاً للوعى أو ما قبل الوعى، ولم يفعلوا إلا القليل بالنسبة لتطور علم الاجتماع اللاشعورى A Sociology of The Unconscious^(٣).

وبما مضى يتضح لنا مدى اهتمام علم النفس بدراسة الحياة الاجتماعية فإذا ما نظرنا إلى النظرية الأساسية لدى (فرويد) ومكونات الشخصية لديه، والدور الرئيسى الذى تلعبه الغرائز فى سلوك الشخص ومدى تأثيرها على هذا السلوك سواء فى توافقه مع نفسه، أو عدم توافقه فى أعراض مرضية نفسية. فإننا إذا نظرنا إلى سلوك هذا الشخص داخل نطاق الأسرة سنجد أنه يخضع لعمليات التشبث الاجتماعية، وإذا ما نضج وخرج إلى دائرة الحياة المجتمعية فى نطاق الجماعات المختلفة، فإننا بوضوح نجد الدور الأساسى الذى تلعبه الثقافة والقيم فى تشكيل شخصيته.

وقد حلل سيلفيان مظاهر السلوك فى طور المراهقة، ورأى أن الشخص يخلص دائماً إلى جماعته ويخاف التبدل من الآخرين، وخاصة الرفاق، ويهفو دائماً إلى تبادل الحب والتعاطف معهم، ويكره الوحدة، ومن ثم يسعى الشخص المراهق إلى أن يكون محبوباً بإتتمائه إلى الزمر دائماً، كما يتفق (فروم) مع (سيلفيان) على كراهية الإنسان للوحدة وعلى أهمية الجماعات والزمر فى حياة الشخص، وكشف عن أن الإحساس بالوحدة هو مصدر كل الاضطرابات النفسية، ويوضح أن

(1) Fried , op. cit., pp. 7-8.

(2) Ibid., p. 8.

(3) Ibid., pp. 8-9.

الإحساس بالوحدة هو ظاهرة مرضية، تظهر من العام الأول من عمر الطفل ولكن المناخ الاجتماعي الذي يعيش فيه الطفل له أثره في إنداماجه في العالم، بمعنى أن الطفل منذ البداية يحتاج إلى إشباع حاجاته الحيوية والعاطفية، ويعتمد على أمه التي تمنحه الحياة بالولادة وتمنحه الحب وقود الاستمرار فيها، فإذا فقد الطفل حب الأم يولد لديه الشعور بالوحدة وكذلك النزعة إلى التدمير. وهذا ما يؤكد (فروم). كما يرى سيلفيان أيضاً أن الشخص في الطور الأخير - طور الرشد - والذي يصل فيه إلى النضج الجنسي الكامل وإشباع حاجاته الجنسية إشباعاً طبيعياً بالزواج، تتميز الذات بالاستقرار وتكوين اتجاهاتها الثابتة في المواقف المختلفة، وتصل الرحلة الإنسانية في نهاية هذا الطور إلى ذروتها، ويصبح الشخص إنساناً كاملاً تطبع ثقافة المجتمع سلوكه وأفعاله^(١).

وإذا كان (روبرت بوكوك) قد أكد على أهمية العمليات اللاشعورية في فهم الأفعال داخل إطار الجماعات. فقد كان من الأسباب الرئيسية التي أدت بعلماء النفس الاهتمام بدراسة الواقع الاجتماعي، وسواء كان ذلك من خلال العمليات الشعورية الواعية، أو اللاشعورية كما هي عند (فرويد)؛ هو محاولة فهم سلوك الأفراد في إطار «الدوافع» والتي هي عبارة عن «حالة تعباً فيها الطاقة وتوجه بصورة إنتقائية نحو أهداف يغلب أن تقع (وليس حتماً) في البيئة الخارجية»^(٢). وقد كان هذا السلوك المدفوع هو موضوع الدراسة في علم النفس الاجتماعي وديناميات الجماعة سواء في تفاعل الفرد مع فرد آخر أو مع أفراد آخرين في جماعة أو في مجتمع معين، ومن ثم يتضح لنا مدى أهمية فهم سلوك الأفراد في إطار الدوافع، داخل نطاق الجماعات الاجتماعية، وأيضاً مدى أهمية الدور الهام الذي تلعبه الجماعات في تشكيل الشخصية الإنسانية من خلال عمليات التنشئة الاجتماعية.

(١) محمد سعيد فرج: البناء الاجتماعي والشخصية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الاسكندرية،

١٩٨٠، ص ١٨١ - ١٨٤.

(٢) لويس كامل مليكه، سيكولوجية الجماعات والقيادة، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثالثة،

١٩٧٠، ص ٧.

وقد ظل الكثيرون لأجيال عديدة يعتقدون أن العمليات المعرفية مثل التفكير والتعلم ظواهر فردية تماماً، وأن التعلم والتفكير المشرعين هما نتاج المجهود الفردى، بل نظروا إلى الجهود الجماعية على أنها مضيعة للجهد والوقت لأن النشاط الخلاق ظاهرة فردية فى نظريهم، وإذا ما توصلت جماعة إلى حل مشكلة معروضة عليها فإن ذلك يرجع فى نظريهم إلى أن القائد (أو غيره من الأعضاء الممتازين) قد سخر مواهبه للوصول إلى الحل وأنه قد استخدم نفوذه للتأثير فى أعضاء الجماعة لقبول هذا الحل، فقد رأى الدكتور لويس كامبل مليكة فى هذا الصدد أن التعلم فى جماعة يكون أسهل من التعلم على إنفراد، وإن كان ذلك لايعنى أن الجماعة لا تخطئ أبداً. فمما لاشك فيه أن الجماعات الدينامية تمد أعضاءها بغرض التفاعل والمناقشة والاتصال الفعال. وهى كلها خبرات لها قيمتها فى التعلم وتكوين شخصية الفرد لأنها تتضمن نقداً ومكافأة. وإذا كان ذلك لايعنى تجاهل شخصية المتعلم ودوافعه واستعداداته، ولكنه يعنى أن هذه السمات تأخذ نمطاً مختلفاً حين يتفاعل الفرد مع الآخرين فى الجماعة، ثم أوضح لنا ذلك بمثالين من التجارب التى أجريت فى هذا المضمار من قبل علماء النفس الاجتماعى:

والتجربة (لماجورى شو) - التى قارنت فيها بين قدرات الأفراد وقدرات الجماعات المتعاونة التى يتكون كل منها من أربعة أفراد فى حل مشكلات معينة. علماً بأن هذه المشكلات لها حل صحيح واحد فقط، وتخلو من دواعى التحيز الانفعالى؛ وقد وجدت (شو) أن الجماعات تتفوق بصورة دالة احصائية على الأفراد فى عدد الحلول الصحيحة التى تصل إليها، وقد أعزت هذه النتيجة إلى أن الجماعة بعكس الفرد لا يعوق وصولها إلى الحل السليم عادات أو أنماط تفكير سابقة وجامدة. والتجربة الثانية (لتايلور وفاوست) - حيث كان يهدفان إلى المقارنة بين التدريب الفردى وبين التدريب الجماعى وأثره على تحصيل الكفاءة، وتحسن أداء الفرد، عن طريق استخدام اللعبة المعروفة بطرح عشرين سؤالاً، ويطلب تحديد حيوان أو نبات أو جماد معين عن طريق العشرين سؤال. وقد شملت التجربة ١٠٥ فرد عملوا فى حل المشكلات إما فرادى أو أزواجاً أو مجموعات مكونة من أربعة

أفراد ويعطى كل منها أربعة مشكلات فى اليوم ولمدة أربعة أيام متتالية، وفى اليوم الخامس يعمل كل فرد بمفرده فى حل الأربع مشكلات. وقد سجلا عدد الأسئلة الموجهة والزمن المستغرق فى حل المشكلة ورسمت منحنيات للتعلم. وكانت النتائج التى توصلنا إليها تعنى أن هناك تحسناً سريعاً حدث فى أداء كل من الأفراد والجماعات، ولكن رغم أن الجماعات تفوقت على الأفراد، إلا أن أداء الجماعات المكونة من أربعة أفراد لم يكن أحسن من أداء الجماعات المكونة من فردين فى معظم المتغيرات^(١).

وما يؤكد فى النهاية إهتمام علماء النفس بدراسة الحياة الاجتماعية، من خلال نظرتهم إلى علم الاجتماع على أنه علم سلوكى يهتم بدراسة سلوك الإنسان فى المجتمع، هو ما قاله (فرويد) «بالنسبة لعلم الاجتماع وعلى اعتبار أنه يتعامل مع سلوك الناس فى المجتمع، لا يمكن أن يكون أكثر من علم نفس تطبيقي، وبكلمات أوضح لا يوجد فقط سوى علمين: علم النفس الخالص والعملية، ثم العلم الطبيعى»^(٢).

(ب) الأسباب التى أدت بعلماء الاجتماع إلى الإهتمام بدراسة الأسس السيكولوجية للحياة الاجتماعية:

يرى (روبرت بوكوك) أنه فى الأيام المبكرة لعلم الاجتماع وعلى وجه التحديد فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، كان هناك عدداً من المتخصصين فى نظامى علم الاجتماع وعلم النفس، وكان هناك أيضاً عدداً من الكتاب الأوائل فى القرن التاسع عشر لم يهتموا بالفصل بين النظامين، بل أشاروا إلى أى منهما من خلال الآخر، ولكن ذلك من خلال التشابهات بين كل منهما. وكانت الفكرة المتعلقة بعلم النفس - وتكريسها لدراسة الفردية فى إنزالها عن الجماعات الاجتماعية، وعن المجتمع بصورة عامة، - كانت منبوذة بواسطة

(١) لويس كامل ملبكه، سيكولوجية الجماعات والقيادة، مرجع سابق، ص ١٦٦ - ١٧٠.

(2) Fried, Sigmund; New Introductory Lectures on Psychoanalysis (1933) Lecture 35.

كل السيولوجيون الأوائل وهم: (ماكس فيبر) Maxweber، (ماركس) Marx، و (دوركيم) Durkheim، و (سبنسر) Spencer، و (هوبس) Hobhouse، و (كولي) Cooley، و (هربرت مبد) H. Mead، وحيث كان التأكيد في هذا الصدد على الفردية باعتبارها جزء من الكل الاجتماعي الأكبر. Larger Social whole والأبعد من ذلك أنهم جميعاً كانوا يمثلون الجيل الثاني بعد (داروين) Darwin، ومن ثم تأثروا به في شيئين هامين: الأول - ويتمثل في أهمية الأساس البيولوجي للإنسان الذي يملك من خلاله بواعث حيوية ثابتة أو الغرائز التي تؤثر في سلوكه بالرغم من أنه لا يستطيع أن يحددها. وقد نظروا للجنسية في هذا الصدد على أنها تكاثر جنسى، وهى العامل الغريزي الهام لدى (فرويد) في حين أنه كان ينظر إليها على أنها تتضمن أكثر من مجرد التكاثر الجنسي Sexual Re-production وإن كانت هى أهم غريزة بيولوجية. والثاني - ويتمثل في أن بعضاً من الكتاب المؤسسين لعلم الاجتماع أخذوا فكرة الدارونية الاجتماعية، وحاولوا أن يظهروا الدور الذى يلعب بواسطة المجتمعات الإنسانية والثقافات في هذا الصدد، حيث كان هناك تأكيد بواسطة (كونت) Comte، و(ماركس)، و(سبنسر) على بقاء أنواعها Its Survivalas Species كما كانت لهم ملاحظاتهم أيضاً على أن تغير المجتمعات الإنسانية يصبح أكثر تعقيداً، وأن نظمها تتزايد اختلافاً عن بعضها، ومن هذا المنطلق كان هناك فى التاريخ الإنسانى بناء من المعرفة المتجمعة والنجاح فى التوافق مع البيئة والذى يجعل الموجودات الإنسانية أكثر سرعة فى التوافق مع المشكلات الجديدة، وبأكثر سهولة وسرعة عما إذا كانوا يعتمدون فقط على النقل الحيوى⁽¹⁾. Genetic Transmission

هذا وقد شارك فرويد هذا المنظور التطورى مع هؤلاء الكتاب الاجتماعيين الأوائل بالإضافة إلى محاولة الاعتماد على المعرفة البيولوجية فى الإنسان، فليس ما يفصله عن السيولوجيون الأوائل سوى ما يتعلق بدعاويه عن أهمية الغرائز وتفاعلها مع ثقافات الإنسان، أو تركيزه على الفرد، بمعنى أن (فرويد) قد شارك

(1) Bocock, Robert; "Sociology and Psychological prespectove", op. cit., pp. 19 - 20.

فى الاهتمام مع كل السيولوجيون المبكرين فى مجال تطور المجتمعات الإنسانية ابتداء من الجماعات الأكثر بدائية وحتى المجتمعات الحديثة ومستقبلها المحتمل . وقد قوبلت سيكولوجية (فرويد) تلك التى تشارك الكتاب الاجتماعيين فى مجال تطور المجتمعات الإنسانية، وتقدم على فهم السلوك الإنسانى أكثر من شرحه وفقاً للمعايير العلمية، بموافقة العديد من السيولوجين، فى حين قوبلت بالإهمال من جانب السيولوجين الذى نظروا إلى نظريته على أنها ذات صفة غير علمية، وعلى اعتبار أن نظرياته اعتمدت على ملاحظاته العلاجية Clinical observations، وليس على العناية والاهتمام بالتجارب المضبوطة أو أنساق المقارنات الثابتة للجماعات والجماعات الضبطية^(١).

ويتضح لنا مما سبق أنه لاغنى لعلماء الاجتماع عن الاهتمام بدراسة العوامل السيكولوجية، نظراً لأن تلك القوى النفسية تلعب دوراً هاماً فى عمليات الفهم والتفسير سواء بالنسبة للشخصية الإنسانية بما يكمن فى داخلها من عمليات غريزية كامنة، أو ما يوجد لديها من ظواهر نفسية من احساس وإدراك وشعور، تلك التى تلعب دوراً هاماً فى فهم السلوك الإنسانى. أو فى الجانب المقابل والمتعلق بالحياة الإنسانية عموماً فتلك القوى النفسية لها دورها فى تفسير تطور المجتمعات الإنسانية وفهم دوراتها وحركاتها. - وسوف نعالج ذلك بالتفصيل فيما يتعلق بنظرية فرويد -

وقد أكد الدكتور / حسن شحاته فى هذا الصدد على أن علم الاجتماع يستفيد من الدراسات السيكولوجية، لأنها تدرس الإنسان من حيث هو كائن مفكر يعيش فى عالم مادى ويستجيب لهذا التأثير، ومن حيث هو كائن حى يعيش فى مجموعة من بنى جنسه يتأثر بها ويؤثر فيها وتستجيب هى بدورها. لأن هذه الدراسات النفسية تنصب بصفة رئيسية على بحث السلوك الإنسانى والشخصية الإنسانية والعوامل التى تدخل فى تكوينها وتشكيلها، ومن ثم قام علم النفس الاجتماعى الذى يقوم بجناحين: أحدهما دراسة الإنسان من حيث هو عضو فى

(1) Bocock, Robert., op. cit., pp. 19 - 20.

جماعة يتأثر وتؤثر فيه، ثم القوى النفسية الاجتماعية Psycho-Social Forces والتي تشتمل على: الغرائز والرغبات الدقيقة، وأنواع الشعور المختلفة، والميول. وقد اعتبر أن هذه القوى هي أساس تكوين الشخصية من ناحية والحياة الاجتماعية من ناحية أخرى، وهي التي تفسر إلى حد كبير مجرى تطور الحياة الاجتماعية وأسباب تغييرها. ومن أسباب اهتمام علم الاجتماع بدراسة الظاهرة النفسية أيضاً هو احتوائها على بعض الغرائز التي لها علاقة مباشرة بالتجمع، كغريزة حب الاجتماع Greogariousness، وغريزة تأكيد الذات Self-asseration، وغريزة الخضوع Submissiveness، وغريزة المهاجمة Comhotiveness إلخ .. كما يهتم هذا العلم بدراسة نفسية الجماهير ومقارنتها بنفسية الأفراد. إلى جانب اهتمامه بدراسة العمليات الاجتماعية Social Process والتفاعل الموجود بين أفراد التجمع وما يتأتى عنه من تنافس Competition، وتصارع Conflict، وتعاون Cooperation. وأخيراً فإن علم الاجتماع يستفيد من دراسات علم النفس الاجتماعي في فرع من فروع الهامة وهو - علم الاجتماع - قياس العلاقات الاجتماعية Sociometry بين أفراد المجتمع الواحد ولذلك أطلق عليه بعلم اجتماع الوحدات الصغيرة^(١). MicroSociology -

وقد كان هناك مجال هام أدى بعلماء الاجتماع إلى الاعتماد على الجوانب النفسية واستعارة مدلولاتها. وقد تمثل هذا المجال في مشكلة العلاقة بين الفرد والمجتمع، والتي أتبرى لها علماء الاجتماع في البداية وفسروها على أساس «عضوى» organic ولكن (موريس جنزبرج) Morris Gensberg يرى أن هذا التفسير العضوى لعلاقة الفرد بالمجتمع وإن كان يؤكد على أن المجتمع ليس تدييراً آلياً أو مصطنعاً، ولكنه شئ حى ونماء طبيعى، فضلاً عن أنها وفقاً لهذا التصور ليست فى حقيقتها مماثلة للكائنات الحية إلا أنها ترتبط فى الواقع بالصفة العضوية فى تكيفها مع البيئة وعلى قابليتها للتشكل والتعديل. وإذا كانت هذه النظرية العضوية كان من العسير عليها تفسير التحولات الفجائية الجوهرية التى تطرأ على

(١) حسن شحاته سغان، أسس علم الاجتماع، مكتبة النهضة المصرية، ص ٥٨ - ٥٩.

المجتمع، إلا أن هذه النظرية قد مثلت بحق علاقة الفرد بالمجتمع الذي لانهاية لتعقده وتشابكه، ويشتمل على وحده داخل وحده، وجماعة بداخل جماعة، واختلاف علاقات الفرد باختلاف الحالات وتنوعها طبقاً لتنوع الميول إلى تلك العلاقات هذا بالإضافة إلى أن تلك النظرية قد أغفلت عناصر الصراع وعدم التوافق التي تكثر في المجتمع. فهناك في المجتمع حياة مشتركة بين الأفراد وتقييم لذاته كمجموع، ولكن ما يبلغه من الوحدة لا ينالها في أغلب الأحيان عن طريق إطلاق النشاط الحيوي وتحريره، ولكنه يصل إلى تلك الوحدة عن طريق القمع الآلي أو الكبت. كما أن النظرية العضوية تحجب عنا تلك الحقيقة التي ترى أنه بالرغم من اتصال الفرد اتصالاً جوهرياً بالمجتمع، إلا أن المجتمع ليس سوى أفراد تربطهم الوشائج والعلاقات التي لا تحتوي جملةً على كامل كيانه ولا تستنفذ كامل جهده^(١)، بمعنى أن الفرد «مركز فريد قد من مراكز الوعي والشعور لا تذيبه حياة المجموع ولا تستهلكه»^(٢).

وقد ترتب على قصور النظرية العضوية في تفسير الحياة الاجتماعية من بعض الجوانب، إن قام بعض الباحثين وعبروا عن تلك النظرية العضوية بمصطلحات سيكولوجية، فوصفوا المجتمع على أنه «عقل» أو «شخص»، وبدأت تفسيراتهم له من خلال القوى النفسية الكامنة في سلوك الأفراد أو الجماعات.

وما يؤكد هذا ما قام به (تشارلز هورنون كولي) C. H. Cooley من «تبنيه لنظريته العضوية ومنهجه السيكولوجي في دراسته للعلاقة بين الفرد والمجتمع»^(٣). وأيضاً ما قام به عالم الاجتماع (تالكوت بارسونز) Talcot Parsons من توضيح لفكرة العقلانية الحقيقية «للعقل» أو «السلوك» في «نظريته للفعل الاجتماعي» على أنها تصور يفترض أن الفعل يتكون من: الغايات Ends، والوسائل Means،

(١) موريس جينزبرج، نفسية المجتمع، (ترجمة) عبد العزيز عبد الحق، (مراجعة) محمود محمود، مكتبة الأنجلو المصرية، ص ١٨٣، ١٨٥.

Morris, Ginsberg., The psychology of Society; London, 1921, pp. 9 - 7.

(٢) نفس المرجع، ص ١٨٦.

(٣) نيقولا ليماشيف، نظرية علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ٢١٣.

والشروط Conditions، بمعنى أن عقلانية الفعل تتكون من التحديد العلمي لعلاقة المعاني بشروط الموقف. حيث ذكر (بارسونز) في هذا الصدد أن كلا جانبي الوصفية (Positivistic) وهما: العقلانية واللاعقلانية - يهدفا إلى التعديل في موضع فهم أو إدراك الفعل^(١). Rationality of action.

كما أهتم (بارسونز) أيضاً بدراسة عملية نمو الذات في أطوارها المختلفة، ولم يرى أن دراستها تكون قاصرة على علم النفس التحليلي، أو علم النفس الاجتماعي، بل إنها مجال في علم الاجتماع يوضح الفروق الاجتماعية بين الأجيال وملاحظة مدى أثر جيل الآباء على جيل الأبناء، ومدى تغير المكونات الاجتماعية لشخصية كل جيل داخل البناء الواحد، ومن بناء لبناء^(٢).

ويتضح لنا من معالجة بارسونز للشخصية أن اهتمامه بدراستها كان راجعاً للدور الهام الذي تؤثر من خلاله على السمات المجتمعية العامة من خلال مكوناتها النفسية التي تطبع السلوك الفردي وبالتالي السلوك المجتمعي بطابع خاص يميزه عما عداه، بل يميز السمات العامة للمجتمع من جيل إلى جيل.

وفي نهاية الحديث عن الأسباب التي أدت بعلماء الاجتماع إلى الاهتمام بدراسة الظواهر النفسية، نصل مع (روبرت بوكوك) إلى أنه إذا كان هناك القليل من الكتاب الذين رأوا أن هناك روابط ممكنة بين «علم الاجتماع ونظرية فرويد»، وأنهم تدبروا المدخل بين علم «النفس الاجتماعي وعلم الاجتماع»
Social psychology and Sociology

أمثال: «أعضاء مدرسة فرانكفورت» Frankfort School و (وليهيلم ويتش) Wilhelm Reich الذي أبدى، - مرة لربط (فرويد) (بماركس)، هذا وقد حاول (تالكوت بارسونز) أن يربط على الاجتماع النظرى عنده مع واجهات نظرية (فرويد) عن تطور الشخصية. كما رأى (بوكوك) أيضاً في النهاية أنه رغم كل

(1) Martindale, Don.; The Nature and Type of sociological Theory; «Further Development in social action» Rotledge & Kegan paul, London, 1961, p. 422.

(٢) د. محمد سعيد فرح، البناء الاجتماعي والشخصية، مرجع سابق، ص ١٨٥.

تلك المحاولات من بعض السوسيولوجيون والفلاسفة الاجتماعيين إلا أن (فرويد) قد بقى مطالباً بضرورة التدعيم والحفاظ على علم الاجتماع^(١).

أولاً: مدى تبنى علم الاجتماع لنظرية (فرويد) فى علم النفس ..

وبعد أن انتهينا من تناول الأسباب التى أدت بعلماء النفس والاجتماع من تبادل الاهتمام فى دراسة كل من الظواهر النفسية والاجتماعية، أحاول الآن أن أقف على مدى تبنى علم الاجتماع لنظرية (فرويد) الأساسية فى علم النفس، ومدى الإسهام الذى قدمه (فرويد) إلى علم الاجتماع من خلال نظريته هذه: وسوف أتناول فى هذا الصدد لنظريته الأساسية فى مكونات الشخصية، وجوهر الرابطة بين المجتمع والشخصية. ثم نعرض بعد ذلك لكل من علم الاجتماع اللاشعورى، وعلم الاجتماع والتحليل النفسى فى دراسات (فرويد).

ويرى (روبرت بوكوك) أن (فرويد) Fried لدى العديد من الناس يعنى شيئاً واحداً وهو الجنس Sex. حيث كتب فى بداية القرن العشرين عن الجنسية عند الأطفال، والتى كانت فى هذا الوقت إسهام أساسى لفهم الموجودات الإنسانية، وأيضاً بالنسبة للمشكلات التى طور عدداً منها فى مرحلة النضج المتأخرة. وإن كان لايزال الكثير مما قاله (فرويد) غير متماثل فى الواقع مع الطرق التى يتحدث بها ويسلكها الأطباء، والمرضى، والمدرسين، والقضاة، حيث توجد هناك سوفسطائية خادعة فى فهمنا للجنسية Pseudo - Sophistication وعلاقتها بالأفعال الإنسانية وبالتالى يكون من الصعب علينا أن ندرك كم من الصعوبة أن نقبض على كل مظاهرها المختلفة. وربما أرجع (بوكوك) أن تلك الصعوبة فى فهمنا للجنسية، يرجع إلى أن ما يعنيه (فرويد) بالجنسية Sexuality يكون أوسع بكثير فى مضمونها عن الجماع التناسلى Genital intercourse بين الذكر والأنثى، كما يعزى أيضاً فى جزء منه إلى تأكيده على أنه لا يوجد أساس اجتماعى لوراثة الغريزة فى الناس، حيث يتمثل المفهوم الضمنى لهذا التأكيد الأخير فى أن «القوة» أو «النشاط» Energy الناجم عن الجنسية يكون مستخدم فى ربط الناس معاً فى جماعات اجتماعية من كل الأنواع مثل: الأسر، الأصدقاء، جماعات العمل، المدن، والشعوب، ثم أخيراً التنظيمات العالمية. هذا وقد كان (وليهلم ريتش) أول

(1) Bocock, Robert., op. cit., p. 20.

من طور تلك المضامين للفعل السياسى من خلال مطلب الحرية الجنسية Sexual liberation والذي يؤدى إلى التغيرات السياسية والاقتصادية ودون أن ينتج عن ذلك شكل جديد من أشكال السلطة. ويرى (بوكوك) فى هذا الصدد أن (وليهم) قد أخذ فقط نصف نظرية (فرويد) وأجهل دور الغرائز التى طورت فى نظريته الأخيرة عن التحليل النفسى^(١).

وكان لهذا التأكيد السابق على وجود الطبيعة الجنسية للروابط الاجتماعية أثر بالغ فى اهتمام السيولوجيون بفحص التصورات والملاحظات التى قادت (فرويد) إلى هذا الوضع، بمعنى أنهم قد نظروا إليه على أنه قد ورث «المشكلة الهوبزنية» Hobbesian فى النظام، وبدأ من خلال إدعائه بأن الناس لا يتفاعلون بالطبيعة فى المجتمع، ومن ثم بحث عن تفسير كيفية أن المجتمع يمكن من وجود الحالة الطبيعية «للحرب عند الكل ضد الكل»^(٢)، ويضيف (بوكوك) فى هذا الصدد «أنه مما لاشك فيه أن نظرية فرويد قد أحتوت على تصور تلك الحالة الهوبزنية للطبيعة والتى تكون فيها قدرة وشهوانية وقصيرة»^(٣) وقد أدعى فرويد أيضاً فى هذا الصدد «أن هناك دفع نحو التعاون والاجتماعية والذي ينتج من الصفة الجنسية»^(٤).

وترتيباً على ما سبق يتضح لنا أن فرويد قد منح «الغرائز الجنسية» دوراً هامة فى فهم وتفسير الحياة الإنسانية، وأفرد لها الدور الرئيسى فى تشكيل الشخصية الإنسانية بالإضافة إلى دفعها للدخول فى مختلف أنواع النشاطات الإنسانية ومن خلال الأشكال المجتمعية بدرجاتها المتفاوتة. وجدير بالذكر فى هذا الصدد أن تلك «الغرائز الجنسية» بما تحتويه من بواعث ورغبات شهوانية، قد خصص لها فرويد مكانها فى جانب «الهو» Id من شخصية الفرد، وسوف يتضح لنا من خلال مناقشة تطور الذات العليا أو الأنا الأعلى The development of Super-Ego أن فرويد حاول أن ينتقل إلى مستوى آخر فى ربط الفرد بالمجتمع.

(1) Bocock, Robert., «Society and character» op. cit., p. 38.

(2) Ibid., pp. 38 - 39.

(3) Ibid., p. 39.

(4) Ibid., p. 39.

وقد أكد (روبرت بوكوك) في هذا الصدد «أنه لا يوجد أكثر وضوحاً من عدم إمكانية الفصل بين الشخصية الفردية والجماعات الاجتماعية الأوسع التي تنتمي إليها كعضو فيها»^(١) ويبدو ذلك بوجه خاص فيما يتعلق بتحليل تطور الضمير Conscience في نظرية (فرويد) والتي تسمى «بالذات العليا» Super-Ego تلك التي وفقاً لها يكون غير ممكن تحليل الأنساق المجتمعية على أنها تتكون من المثل والقيم والعلاقات القوية، وبدون أن نفحص الطريق الذي من خلاله تهبط فعلياً على الأفراد، لأن هذه المحاولة تؤدي بنا إلى تجريد نجد من خلاله المجتمعات والأنساق تبدوا على أنها تتصرف بدون أى إشارة إلى الناس المتضمنين فيها. وقد كان (تالكوت بارموتز) واحد من السوسيولوجيون الذين أدركوا ذلك وحاول أن يربط تحليلاته للأنساق الاجتماعية بتحليلات (فرويد) للذات العليا كنقطة إرتكاز بين المجتمع والثقافة والأنساق الاجتماعية، فقد قام (فرويد) في هذا الصدد بتطوير فكرة «الذات العليا» والجزء الذي تلعبه في نظريته، حيث ذكر في البداية تصوره عن «الذات المثالية» Ego-Ideal في كتابه عن «تقديس الذات» On Narcissism (١٩١٤) ثم مائل أخيراً بين تطور الذات المثالية، والذات العليا في كتابه عن «الذات والهوى» The Ego and the Id (١٩٢٣) حيث أوضح في هذا الخصوص أن الأطفال يعوضون عن فقداتهم التقديس الذات في طفولتهم - وحينما كانت تعتبر مثالهم الخالص - «بالذات المثالية أو الذات العليا» والتي تعتمد على المقربين جداً إليهم عارة وهم الآباء والمعلمين وكل من توجد لديهم بعض من المشابهة مع آباؤهم، بمعنى أن الأولاد سوف يرغبون عادة في مشابهة آباؤهم عند كبرهم، والبنات سوف يرغبون في مشابهة أمهاتهن، و«الضمير» Conscience في هذا الصدد يمثل وظيفة تلك «الذات المثالية»، بل ويكون متقد إذا فشل في معايشة تلك الذات والتهوض بوظائفها»^(٢).

وقد لوحظ على عمل (فرويد) الأخير «الذات والهوى» أن تحليله النفسى لنظرية الغريزة قد تغير بالنسبة «للغرائز الجنسية» Sexual Instincts، وغرائز الذات Ego

(1) Bocock, R., «The Development of Super-Ego», p. 48.

(2) Ibid, p. 48 - 49.

Instincts تلك إلى تحدث عنها من خلال «تقديس الذات أو بقاء النوع» Nor- cissism ورأى أن «الذات العليا أو الأنا الأعلى» لديه يكون ينتج من عاملين هامين: الأول - بيولوجى Biological ويعتبر نهاية للفترة التي يعتمد فيها الطفل على مساعدة ورعاية الوالدين. والثانى - تاريخى Historical ويتمثل فى أن الذات العليا تبرز من محاولة الطفل أن يكبح عقد أوديب Oedipus Complex وهذا يعنى أن الأولاد والبنات يقوموا بتحقيق ذواتهم مع آبائهم وأمهاتهم، وأن قوة هذا التحقيق فى العلاقة سوف يعتمد على درجة التخت Bisexuality فى الفرد، فكلما كانت البنت أكثر رجلاً Masculine فتكون أكثر رغبة فى تحقيق ذاتها بقوة مع والدها، وكلما شب الأطفال وكانوا أكثر أنثوية فى مزاجهم فكلما كانوا أكثر قوة فى تحقيق ذواتهم مع أمهاتهم وفى نفس الوقت يكونوا أقل قوة فى تحقيق ذواتهم مع آبائهم. ولذلك كانت عمليات النمو بعيداً عن «عقدة أوديب» معقدة جداً. وتختلف من فرد إلى آخر معتمدةً فى ذلك على ميزان عوامل التذكير والتأنيث فى التركيب البيولوجى لجسم الشخصى، ومن ثم كانت «الذات العليا» هى جزء من «التراث القديم Archic heritage وباعتباره نتيجة للتطور الفردى الخاص، كما أن «الديانة» Religion و «الأخلاق» Morality تصبح أجزاء هامة فى فهم «الذات المثالية» لجماعات الناس والأفراد الذين هم أعضاء فى تلك المستويات، بل والجماعات السلالية والشعوب. وبالإضافة إلى ذلك فإن الأحاسيس الاجتماعية تظهر أيضاً من خلال تحقيق الذات مع ذوات الأعضاء الآخرين فى الجماعة والذين يمثلون نفس الذات المثالية فى داخلهم^(١).

ولقد أوضح (روبرت بوكوك) أن (فرويد) قد أنتقل من معالجته «للذات العليا» تلك التى من خلال تحقيقها مع ذوات الأعضاء الآخرين فى الجماعة يمكن أن تؤدي إلى ظهور الأحاسيس الاجتماعية المتشكلة، إلى معالجة ما يطلق عليه بعلم «الاجتماع اللاشعورى»^(٢) والذى سوف «يهتم بفهم الدور الذى تلعبه العمليات

(1) Bocock, Robert, op. cit., pp. 49 - 50.

(٢) يورد (بوكوك) أن هذه الكلمة استخدمت بواسطة (وليهيلن ريتش) Wilhelm Reich فى كتابه «الثورة الجنسية» The sexual Revolution، لندن، ١٩٥١، ١٩٧٢، ص ٨.

العاطفية اللاشعورية في كل من تكوين واستمرار وجود المجتمعات^(١). بالإضافة إلى أن هذا العلم يشير أيضاً إلى تلك الإدراكات والمفاهيم في حدود المقاصد الشعورية Conscious Intentions والتي لا تكون مفهومه في الجماعات خلال العلاقات الاجتماعية، أو قد يكون توقعها الآخرين، وقد بدأ (فرويد) نفسه في تطوير نظرية عامة عن العمليات العاطفية اللاشعورية في المجتمعات الإنسانية^(٢).

وقد كان المجال الرئيسى لاهتمام «علم الاجتماع اللاشعورى» Sociology of Conscious يكمن في تحليلات الضبط الاجتماعى - Analysis Social Control، فالطفل أو الرضيع منذ الولادة يمتص قيمة الأخلاقية، ويتعلم ضبط رغباته الغريزية حتى لا يعاقب من الوالدين أو الفاعلين الآخرين معه بالمشاركة Other agents of socialization هذا بالإضافة إلى أن كل النظم المتمثلة في: الديانة، التعليم، السياسة - تلعب دورها في عمليات المشاركة والضبط الاجتماعى. وأيضاً نظم أخرى مثل: النظم القانونية والسجون prisons، والمستشفيات العقلية mental Hospitals تصبح مهمة بالبحث عن المشاركة Resocialitation وذلك عندما تلاحظ حدوث الانحراف Deviance اجتماعياً وبصير الفعل موجه ضد الشخص. وبالتالي فقد كانت تلك النظم الاجتماعية تحتوى على تلك الأفعال ذات الطبيعة الغريزية، بل وعندما تكون ذات صفة عنيفة وهائية في حدوثها^(٣).

وقد أوضح لنا (روبرت بوكوك) في هذا الصدد أن الثقافات الإنسانية تحدد الأفعال الجنسية لأعضائها، بمعنى أن الفعل والغاية يكونا مضبوطان مسيوثقافياً Socio-Culturally، وإن كانت المجتمعات تختلف في النقطة التي تعتبر فيها الانحراف الجنسى Sexual deviance دلالة خطيرة أو جريمة، ولكنها في نفس الوقت تضبطه بطريقة أو بأخرى. وبالمثل أيضاً توجد هناك ضوابط ثقافية على أفعال العنف ضد الآخرين أو الحيوانات أو الملكيات، بل أن المجتمعات تغير من تلك الضوابط على طول الوقت وكمثال: عندما يكون المجتمع في حالة حرب مع مجتمع آخر.. وبعض من الأفراد لا يجدون لديهم الشجاعة الفعلية لقتل الآخرين

(1) Bocock, Robert; op. cit., p. 8.

(2) Ibid., p. 8.

(3) Ibid., pp. 8 - 9.

من القِدة المعادية، فإن العقوبة التي توجد في ذلك الحين «كالسخرية» Ridicule، أو «السجن» Imprisonment، أو حتى «الموت» Death قد لا تكون على نفس هذا المستوى في غير أوقات الحرب^(١).

ويرى (روبرت بوكوك) «أن ذلك المجالين الرئيسيين في النشاط الإنساني يشكلوا مركزاً لنظرية فرويد وتطبيقاتها في المجتمعات الإنسانية»^(٢) فالجاليين الرئيسيين المتداخلين في نظرية (فرويد) وهما «الجنسية»، و «العنف» violence يعينان أن طاقة «الليبدو» Libidinal التي تتبع من «الجنسية» تكون متلائمة في استخدامهما في خلق واستمرار المجتمع والثقافات، وحيث نجد في هذا الصدد أن القمع الغريزي لكل من الجنسية والدوافع العدوانية العنيفة يكون ضرورياً لأمكان قيام أي مجتمع. وهذا يعني أن نظرية (فرويد) في أعلى درجاتها وضوحاً هي الطريق الذي من خلاله تكبت أو تقمع النظم الاجتماعية مثل: الأسرة، الدين، التعليم، القانون، والنظم السياسية - تلك الدوافع الغريزية في الناس، وهذا يمكن الجماعة الإنسانية من التعاون في العمل مجتمعة حتى يحمي الأفراد أنفسهم من النتائج السيئة للطبيعة Worst Effects of nature ويحصلوا على أمان أكبر مما لا قد يحتمل حدوثه، وحيث يكون الضرر هنا متعلق بتجارب اللذة pleasurable Experience التي تنتج من الإشباع السريع للدوافع الغريزية المباشرة، والتي يجب أن تستخدمها المجتمعات الإنسانية من أجل أغراض أخرى أكثر من تلك الإرضاءات الفردية الوقعية. ونجد ذلك متمثلاً في نمو وتطور الحضارة الإنسانية التي لا تقودنا إلى زيادة السعادة الإنسانية وتوقعها على أنها «منفعة» Utilitarianism وبدلاً من ذلك تبدو السعادة الإنسانية في الحجم الهائل من الاقبال بين الناس على أكبر نسبة من أقسام التعليم بين طبقات المجتمع^(٣).

و تقريباً على ماسبق يتضح لنا مدى إهتمام (فرويد) بالدور الهام الذي تلعبه الدوافع اللاشعورية في سلوك الفرد والمجتمعات، مما يؤكد لنا في هذا الصدد أهمية الاهتمام بالدور الهام للتحليل النفسي الفرويدي في فهم الحياة الاجتماعية بوجه

(1) Bockock, Robert., op. cit., p. 9.

(2) Ibid., p. 9.

(3) Ibid., pp. 9 - 12.

عام. وإن كانت محاولة جعل غلم الاجتماع أكثر مشابهة بالعلوم الطبيعية، وتحقيق أكبر قدر من الموضوعية في دراسة موضوعاته تقف في الجانب المقابل في دراسات (دوركيم) الذي يرى «أن التجليات الفردية قد تشير إلى ظواهر اجتماعية ونفسية يهتم بها عالم الاجتماع على نحو غير مباشرة»^(١). ويتجلى ذلك في نظريته إلى أن الظواهر الاجتماعية تستمد أصولها من المظاهر الجمعية للمعتقدات والممارسات الجماعية التي تتصف بالاستمرار بجانب العمومية، بمعنى أن الفكرة التي تحقق في شعور كل فرد لاكتسب لهذا السبب صفة الاجتماعية لأن هناك تمييزاً هاماً بين الظواهر الفردية والاجتماعية. إلا أن (روبرت بوكوك) يصدد أهمية العمليات اللاشعورية الفرويدية في التحليل النفسي - يؤكد على أهميتها - وبين أن (دنيس روج) Deniswrong في معالجته العامة لتصور «المشاركة المفتوحة للإنسان في المجتمع الحديث» أشار إلى أن السسيولوجين الآخرين أمثال (هومانز) Homans، (انكلير) Inkeles قد أدركوا أن علم الاجتماع لا يستطيع أن يتدبر أمره بدون نظرية عن الطبيعة الإنسانية Human nature وحتماً على الأقل إن لم تكن واضحة في نظرياته، وقد وجدت هذه النظرية في علم الاجتماع في عام (١٩٥٠) وبدايات (١٩٦٠) وكانت تقوم على دعوى أن الإنسان يلعب دوراً مستمراً في البحث عن التوافق الاجتماعي، والمركز، ومن ثم فالتاس يتوافقون مع التوقعات المعيارية Normative Expectations من أجل الحصول على هذا التوافق لدى نظرائهم المفضلين أو غير المفضلين. وقد كانت وجهة نظر (روج) هذه عن المشاركة المفتوحة للطبيعة الإنسانية وهو يصدد تعليقه على نظرية (فرويد) عن الطبيعة الإنسانية التي يرى فيها أن الغرائز لا تتسبب مباشرة في السلوك وهي متجاهلة للقيم الثقافية المحيطة، حيث يؤكد في هذا الصدد على أن تصور المشاركة المفتوحة للإنسان في المجتمع، وأيضاً تأثير الفينومينولوجيا phenomenologia على علم الاجتماع، وبطرق مختلفة كان ينظر إليه في البداية على أنه غير متوافق مع نظرية (فرويد)^(١).

(١) نيقولاسايف، نظرية علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ١٦٠.

(1) Bocock, Robert.: «Sociology and Psychonalysis», op. cit., p. 32 - 33.

ثانياً: مدى اهتمام علم الاجتماع بالأسس النفسية لنظرية «تارد» Gabriel Tard

ولد تارد في المدينة الصغيرة والأكثر عزلة التي تسمى «سارلات» Sarlat والتي تقع على بعد مائة ميل شرق «بوردكس» Bordeaux منذ العصور الوسطى عن أم محافظة ووالداً كان قاضياً في سارلات ثم مات حينما كان (تارد) في السابعة من عمره. وقد تلقى تعليمه التخصصي المنظم في «مدرسة الجزويت»، ثم حصل على درجة الثانوية في الإنسانيات، وكان قد أتمجه في البداية للتزود بالعلم والرياضيات في «المدرسة البلوتكنيكية» ثم عرض في عينة جعله يغير من خطته. ثم درس القانون في جامعة «تولوسوى» Toulouse حيث عاد إلى (سارلات) كقاضياً As A Magistrate، ثم تدرج في مناصب الإقليم رافضاً مغادرة (سارلات) اقليمه القومي الذي تقطنه والدته، ودون أن يتطلع إلى وظيفة جذابة في باريس. وقد كرس (جابريل تارد) بعد ذلك طاقته لتطوير نسق النظرية الاجتماعية، وكان الإطار العام لنسقه متأثراً أساسياً بكل من ليبنيز Leibniz، (وهيجل) Hegel، (وكورنوت) Cournot ثم (سبنسر) Spencer وبين عامي (1883 - 1890) نشر «علم الإجرام المقارن»، و«فلسفة العقاب» وذلك من خلال مقالات قصيرة عن الإجرام والعقاب تلك التي اكتسبت سمعة حميدة كواحد من المؤسسين الفرنسيين لعلم الإجرام. وبعد وفاة والدته في عام (1894) أصبح (تارد) مديراً لقسم الجريمة في وزارة العدل الفرنسية. وقد تمثلت أعماله الضخمة في المجالات السسيولوجية والفلسفية وفي مؤلفاته الرئيسية وفي محاضراته التي ألقاها في كلية ليبرو للعلوم الاجتماعية، وقد عين في (1900) أستاذاً للفلسفة الحديثة في الكلية الفرنسية ثم انتخب في أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية الفرنسية بعد ذلك. وقد تمثلت مؤلفاته الرئيسية في علم الاجتماع في «قوانين المحاكاة» (1890) Laws of imitation، «المنطق الاجتماعي» (1894) Social Logic، و«التعارض الكوني» (1897) Universal opposition، «والقوانين الاجتماعية» (1898) Social

Lows، وقد لخص في هذا الكتاب كتبه الثلاثة السابقة هذا وقد وافقت المنية (جابريل تارد) في عام ١٩٠٤ (١)

ولما كان (تارد) حاكماً وقاضياً فقد تعامل باستمرار مع جرائم مألوفة ومتكررة، تلك الخبرة التي أثرت في نظره إلى الجريمة Criminology كمجال لدراسته، وأيضاً في تطويره للنظرية التي من خلالها يلعب «التقليد» Imitation دوراً مركزياً، حيث يجده ياهتمام غالب قد تعامل مع «الأفراد» أكثر من «الجماعات» أو «التنظيمات الكبرى». وقد كانت نقطة الانتقال الكبرى لدى (تارد) متمثلة في عمليات التفاعل أو كما أستخدم على تسميتها «النشاط العقلي - أو الداخلي -» Inter Mental activity حيث شعر في هذا الصدد بأن الشخصيات الإنسانية تحتوي في تفاعلها على مادتان خام هما: «المعتقدات والرغبات» Beliefs and desires وفي إطار نظريته هذه توجد ثلاثة عمليات رئيسية هي: «الاختراع» In-vention، و «التقليد» Imitation، و «المعارضة» Opposition (٢).

وهكذا يتضح لنا اهتمام تارد بدراسة الشخصيات الإنسانية من خلال عمليات التفاعل الاجتماعي وفي إطار ومحتوى نفسى خالص يتمثل في المعتقدات والرغبات التي توجد لدى الأفراد، ومن ثم قد تركزت النظرية السوسيولوجية عند (تارد) حول عملية المحاكاة، بمعنى أننا نجد في نطاق البحث العلمي ثلاث عمليات كبرى دائمة هي: التكرار Repetition، والتعارض opposition، والتوافق Adaptation، حيث وجد (تارد) في هذا الصدد أن كل ضروب التشابه ترجع إلى التكرار الذي اعتبره قانوناً كونياً، ويتجلى هذا التكرار في العالم الطبيعي في الموجات، وفي علم الحياة يتمثل في التوالد، أما على المستوى النفسى والاجتماعى فإن هذا التكرار يأخذ صورة «المحاكاة». ومعنى ذلك أن الظواهر الاجتماعية إنما ترجع بصفة نهائية إلى العلاقة بين شخصين يمارس أحدهما تأثيراً عقلياً على

(1) TERRY N. CLARK., «Gabrile Tard» En Eneyclopidia of Social Science; (ed.) David L. Sills volume 15, The Macmillan Company & The Free Press, New York, 1968, pp. 509 510.

(2) Terry. N. Clark, «Gabril Tard» op. cit., p. 50.

الآخر، بل إن المجتمع يأخذ في الظهور حينما يتجه الفرد نحو جعل سلوكه على نمط سلوك الآخرين^(١).

وفي عرضنا للعناصر الثلاثة للنظرية العامة لدى (جابريل تارد) نجد أنها تقوم في تفسيرها للحياة الاجتماعية بوجه عام والعملية الاجتماعية بوجه خاص، على الإجابة الخاصة «بماذا يكون شخصاً معيناً بالذات نموذجاً لشخص آخر؟ .. وبجيب تارد في هذا الصدد إلى أن ذلك يشير إلى التباين، أى ما يترتب على اختراع الفرد أو مبادئه من أشياء». وهذا معنى كما سوف تبين من مناقشة النظرية أن الاختراع والمحاكاة يمثلان النمط المميز للعملية الاجتماعية.

الاختراع: Invention

ويورد (تيرى كلارك) Terry Clark في هذا الصدد أنه يبدو أن (تارد) قد تابع وجهة نظر (داروين) Darwin التي ترى أن الاختراعات «هى نمط من النشاط مخترع بواسطة الإنسان لمساعدته على التوافق مع البيئة المتغيرة»^(٢). بمعنى أن كل اختراع وتقدم إنسانى يتسلخ من المشاركات الخالقة فى العقول الفردية، بالإضافة إلى أنه هو الشكل الاجتماعى لتوافق العمليات الاجتماعية. ويبدو أن (تارد) قد تابع أيضاً عمل (جالتون) Galton «عبقريّة الإنسان» Men of Genivs واقترح أن إمكانية الاختراع لدى الناس فى وقت ما تكون محدودة بمدى قدرات أعضائه من الأفراد، فإذا كانت كل العوامل الأخرى ثابتة بين الأعضاء فإن هناك أكثر إمكانية فى أن يكون هناك مشاركة منظمة فى الأفكار سوف تبدو^(٣).

وإذا كان تارد قد أضاف إلى عملية الاختراع والتجديد العنصر الاجتماعى على اعتبار أنها تعنى جمع ووضع مواد اجتماعية قديمة فى شكل جديد يصبح نمطاً يقتدى به الآخرين، أو أنها تشير إلى عملية التحور والتبدل الذى يطرأ على النمط حين ينتقل بالمحاكاة من جيل إلى جيل أو من شخص إلى آخر بالوسائل

(١) نيقولا كيماشيف، نظرية علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ١٥٣.

(2) Terry. N. Clark; op. cit., p. 510.

(3) Ibid., p. 510.

الاجتماعية إلا أن (تارد) قد ركز في هذا الصدد على أهمية الدور الذي تلعبه شخصية المخترع أو عبقرية الرجل العظيم لأن التيارات الاجتماعية لاثير نفس النتائج في عقلية كل فرد، وهذا يعنى أن هناك نوعاً من الاختراعات الفردية تتميز عن الاختراعات ذات الطبيعة الجمعية والتي تحدث على هيئة دورات تمثل تكيف المجتمع بمراحل تطوره^(١)

وفيما يتعلق بالتقليد أو المحاكاة: Imitation

وهو الجزء الثانى فى نظرية تارد «التي تقوم على دراسة الأرجاع النفسية والعقلية بين الأفراد والفئات»^(٢) يرى (نيرى كلارك) أن آلاف من الاختراعات تنهض ولكن عدداً قليلاً منها هو الذى يتتشر، وقد وصف (تارد) العمليات التى تجعل من اختراعاً ما ناجحاً فى تحليلاته «لقوانين التقليد والمحاكاة»، حيث يرى أن المبدأ الوحيد فى هذا الوصف لتلك العمليات يتمثل فى أن الاختراعات تبنى إتجاهاً عاماً نحو «الانتظام» و «التقدم»، وكما تتأثر موجات الصوت والضوء بالمادة التى تسافر من خلالها، فإن التقليديات تكون «منكسرة» Refracted بواسطة البيئة، فالعوامل الفيزيائية والبيولوجية تؤثر فى تقدم «التقليديات» Imitations ولكن (تارد) اعتبرها أقل أهمية من المتغيرات السيسولوجية، بمعنى أن «الاختراعات» تكون أكثر تأثيراً وأهمية حينما تكون متشكلة منطقياً من خلال الواجهات العقلية للثقافة، وحيث يحاكي الأفراد نموذجاً بالذات لأنهم يعتقدون أنه أكثر نفعاً أو أكثر توافقاً مع النماذج السائدة من قبل، ثم تنتشر محاكاة هذه النماذج من مركز معين إلى بقية قطاعات المجتمع. وإن كانت هذه النماذج تتعدل من خلال وسائل الاتصال البيئية، وقد أطلق (تارد) على تلك المحاكاة المتعلقة بالاختراعات المتشكلة منطقياً من خلال الواجهات الثقافية العقلية «بالقوانين المنطقية للمحاكاة»^(٣).

أما عن القوانين فوق المنطقية والتي تؤثر فى انتشار الاختراعات فهى ثلاثة:

(١) أحمد الخشاب، التفكير الاجتماعى، مرجع سابق، ص ٤٧١

(٢) نفس المرجع، ص ٤٧٣.

(3) Terry Clark; «Gabril Tard». op. cit., p. 510.

والقانون الأول: هو التقليد من «الداخل إلى الخارج» تأثراً بالمعرفة المسبقة التي تسبق السلوك، بمعنى أن الأفكار ربما تكون منقولة قبل الكلمات المستخدمة للتعبير عنها «والغايات» قبل «الوسائل».

والقانون الثاني: هو بناءات المكانة العليا والتي تعتبر ممرات للتقليد، بمعنى أن الاختراعات المقدمة من خلال المستويات العليا الاجتماعية يكون مرغوب أكثر في تقليدها من تلك التي تكون مقدمة من خلال المستويات الاجتماعية الدنيا Social in-feriors .

والقانون الثالث: في هذا النسق لقوانين التقليد والمحاكاة في قابلية وجود أنواع مختلفة من الاختراعات، فهي - إما أن تكون «قديمة» و «تقليدية» أو أن هناك رغبة في التزود بالاختراعات يكون موافق عليها في الوقت الحاضر (١) - وفي نفس الوقت تكون تلك المتغيرات في واجهتها التطبيقية على مستوى كل مجالات المجتمع «لغة» Lanfuage، «ديانة» Religion، و «حكومة» Government، و «اقتصادية» Economic و «أخلاق» Morality، و «فنون» Arts. ويرى (تيري كلارك) أن هذا العامل الثالث من العوامل الاجتماعية فوق المنطقية والمؤثرة في انتشار الاختراع ويتوازي مع اهتمام (تارد) أيضاً بمستوى التطور العقلي، بمعنى أن كلاهما يتبأ بأن «الختراعات الثقافية» يكون مرغوب فيها بصورة غالبية ويحتمل حدوثها عندما تتشابه مع العناصر النظامية في إطار الثقافة (٢).

المعارضة: Opposition

ومع نشر (تارد) لعمله «المعارضة الدائمة» في عام (١٨٩٧) Le opposition universelle يكون قد أضاف إلى العمليتين الرئيسيتين في نظريته تصوراً جديداً وهو «المعارضة» أو «الصراع». ولقد درّس (تارد) «التعارض الفيزيقي» وتأثيره على حركة وطاقة الحشود، كما حدد أهمية «التعارض البيولوجي» وإسهامه في تطور

(١) ويعبر نيقولا تيماشيف عن ذلك اصطلاحياً بعبارة التقاليد (محاكاة للماضي)، أو انتشار «الموضة» Fashion (محاكاة النماذج البطيئة)، ص ١٥٣.

(2) Terry, Clark., «Gabril Tard», op. cit., p. 510.

الأجزاء، كما أكد أيضاً على «الصراع النفسى» متمثلاً فى صراع الأفكار والدوافع فى إطار العقل الفردى والذى ربما ينتج فى محيط توافق الاختراعات. أما بالنسبة «للصراع الاجتماعى» فقد أعتقد بأنه يميل إلى الحدوث حينما تكون عناصر المخترعات المتباينة فى حالة احتكاك وتفاعل بعضها مع بعض^(١). وقد أورد (نيقولاتيماشيف) وهو يصدد تحليله لهذا الجزء من نظرية (نارد) أنه يرى «أن التعارض الذى يأخذ شكل الصراع، يعبر عن التقاء موجات متباينة من المحاكاة يمكن تمييزها فى حالات الحرب، والمنافسة، والمجادلات اللفظية» ففى الصراع الذى يحدث فى حالة الحرب التى تحدث عندما يبلغ التعارض أقصى درجاته، نجده يميل نحو الاختفاء تدريجياً، أما المنافسة فهى السمة الغالبة على النشاط الاقتصادى، بينما ينتشر التعارض اللفظى القائم على الجدل فى ميادين الدين، وفلسفة القانون، والعلم^(٢).

وفى مجال توافق الاختراعات والدور الذى تلعبه الاختراعات الفردية وما تقوم عليه من أسس نفسية متمثلة فى الرغبات Desires والعقائد Beliefs، يرى (نارد) أن تلك الاختراعات الصغيرة تتجمع وتكون اختراعات كبيرة تنسجم وتتوافق مع طبيعة التطور الاجتماعى العام. فإذا ظهرت فكرة جديدة فى عقول الأفراد لا يلبث الآخرون فى تقليدها ومحاكاتها وتكرارها، وبذلك تنتشر فى حدود الشكل الاجتماعى الصغير الذى يمثله (بالحشد) Growd. ولكن لا يلبث أن تصطدم بموجة أخرى من المحاكاة تأتى من مركز آخر فى الوحدة الاجتماعية الكبرى المتمثلة فى (الجمهور) public، ومن ثم يحدث بينهما نوع من المقاومة أو المعارضة مما ينتج عنه إما إختفاء الموجتين معاً أو إنتصار إحداها على الأخرى، أو تكيف إحدهما مع الأخرى وظهور نمط جديد من «الاختراع» وعلى هذا فإن الحياة الاجتماعية تقوم على أساس تلك الدورة المستمرة والدائمة بين «الاختراع» و «التقليد» و «المقاومة» والتى تؤدى إلى موجة جديدة من الاختراعات^(٣). وتلك

(1) Terry, Kark, op. cit., p. 510.

(٢) نيقولاتيماشيف، نظرية علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ١٥٥.

(٣) أحمد الخشاب، التفكير الاجتماعى، مرجع سابق، ص ص ٤٧١ - ٤٧٢.

الحركة هي التي «تمثل التفاعل السيكولوجي المتبادل بين الأفراد الذين تجمعهم علاقات اجتماعية متبادلة، كما تمثل أيضاً إطاراً نفسياً مرجعياً لتلك العمليات» (١).

ولقد ناقش أيضاً (تيرى كلارك) في نظرية (تارد) تلك الجوانب الخاصة بالعلاقة بين وسائل الاتصال الجمعية والتأثير الشخصي، ويرى أنه قام بدراسة المجال الاجتماعي الخاص بتلك التطورات التكنولوجية في وسائل الاتصال الجمعية مثل: التلجراف، والتليفون، الكتب، والاعلانات، والأخبار، تلك التي تعتمد في هيئتها الحديثة على الاختراعات والنقل والاتصال وعلى وجه الخصوص في المجتمعات الصناعية، مما جعل لها أهمية كبرى في تحقيق «الضبط الاجتماعي» Social Control من خلال قيامها بظهور «الجماهير» publics، أى تجميع الأشخاص المنزولين وتنمية درجة معينة من الشعور الذاتي لديهم - Certain degree of self-consciousness وهذا يعنى أنه من خلال تلك الجماهير يرى (تارد) أن (الأخبار - أو الجرائد) News papers تعتبر القوة العظمى في خلق تلك التجمعات الثانوية Secondary groups مثل: المستويات السياسية، والقومية، وتنظيمات العمل، والشخصيات الدينية، بل إن تشابك تلك الولاءات الممتدة بين الأفراد يؤدي إلى وظيفة مزدوجة عند (تارد) كما هو عند (زيميل) George Simmil حيث تؤدي إلى ازدياد حجم الجماعة كما تؤدي إلى ازدياد حرية أعضائها (٢).

ولكن (تيرى كلارك) يرى في النهاية أن «الاتصال غير الشخص في إطار نظرية (تارد) لا يكون ذو فاعلية في ذاته» (٣). Impersonal Communication is not Effective حيث يشير في كتابه «الرأى والجماعة» L'opinion Et la Foule إلى أن الناس إذا لم يتشافهوا سوف يكون غير مفيد أن تنشر أخباراً، ولن يكون هناك تأثير عميق، وهم في هذا يكونوا متشابهين بالوتر المهتز دون يصدر عنه أى صوت

(١) أحمد الخشاب، ص ٤٧٢.

(2) Terry N. Killark; op. cit., pp. 511 - 512.

(3) Ibid., p. 512.

خارجي. وهذا يعني أن تكوينات (تارد) تكون قريبة لما هو معروف بأن هناك «خطوتين تبنيان من الاتصال» Two-Step flow of Communication ومضمونهما: أن الاتصالات الجمعية تؤثر بإتساع من خلال الوجود الإنساني كما تتوافق في نفس الوقت مع خصوصيات الأفراد بواسطة «آراء القادة» Opinion Leaders، تلك الفكرة التي تعني في نظرية (تارد) أن الأفكار الجديدة New ideas - الاختراعات Invention - المنبثقة من خلال الاتصال غير الشخصي تنتشر في المجتمع بواسطة عمليات التقليد. في حين أن مبدأ التقليد Principle of imitation يكون أكثر توافقاً في مجال التأثير الشخصي على اعتبار أن «التقليد أو المحاكاة» يتقدم من المستوى الأعلى إلى المستوى الأدنى^(١).

ثالثاً: بين دوركيم وفرويد وتارد:

أما الآن وبعد أن حاولت الوقوف على مدى تبني علم الاجتماع لنظرية (فرويد) Frued في علم النفس، ثم على مدى إهتمام علم الاجتماع بالجوانب النفسية لنظرية (تارد) Tard في تفسير الحياة الاجتماعية، سأحاول في هذا الصدد الدخول في موقف مقارن بين وجهات نظر كل من (دوركيم) و (فرويد) و (تارد) وذلك بهدف الوقوف على نقاط الاتفاق والاختلاف لدى كل منهم^(٢).

وسوف أبدأ بعرض لوجهة النظر الدوركيمية في دراسة الحياة الاجتماعية بوجه عام وموقفه من وجهة النظر النفسية في دراسة الفرد والمجتمع:

ولد (أميل دوركينم) (١٨٥٨ - ١٩١٧) في مدينة «أينال» Epinal التي لا تبعد كثيراً عن «استراسبورج» Strastiborg عن أبوين يهودين. ولقد لازم «مدرسة المعلمين العليا في باريس» وكان معه كل من (هنري بيرجسون) و (جين جيريس) و (بيرى جانيت). وكان إهتمامه الأول بالفلسفة، ثم ملك إهتماماً واستعداداً قوياً للاهتمام بالتصنيفات السياسية والاجتماعية والتي حافظ عليها طوال حياته، وقد كان تعيينه الأكاديمي الأولى في العديد من المديريات الإقليمية

(1) Terry, Klark., op. cit., p. 512.

(2) Porsons, Talcot.; «durkheim Emile» Encyclopedia of Social.

كمدرس. وبين عامي (١٨٨٥ - ١٨٦٨) أخذ دوركيم أجازة لمدة عام، والسفر للدراسة إلى ألمانيا، حيث كان متأثراً بالعمل السيكولوجي لدى (ويلهيلم فوننت) Ihelm Wundt أستاذ العلاقات بعلم الاجتماع. وقد أسس وأخذ رئاسة تحرير أهم مجلة فرنسية هي «المجلة السيكولوجية الفرنسية» L' année Sociologique، ثم بعد ذلك وفي مناسبات هامة أحتوت (دوركيم) الاهتمامات السياسية: أثناء أوقات الأزمات، وأثناء الحرب العالمية الأولى World War I، وبالإضافة إلى هذا كانت له إهتماماته النشطة بعلم الاجتماع التطبيقي Applied Sociology، وربما كان ذلك ملاحظ بصورة أكثر في مجال التعليم^(١).

وربما يطلق على (دوركيم) أنه واحد من الاثنین المؤسسين للواجهة الحديثة للنظرية السيكولوجية الحديثة مع (ماكس فيبر) Max Weber زميله الأصغر منه، ومن خلال أعماله الأربعة العظمى: تقسيم العمل (١٨٩٣) The Division of Labor، «قواعد المنهج في علم الاجتماع»، «والانتحار» Suicide، و «الأشكال الأولية للديانة» Elementary forms of the Religion. حيث أسس (دوركيم) في هذا الصدد واجهة متسعة فيما يتعلق بتحليل الأنساق الاجتماعية التي تعد نقطة إرتكاز لعلم الاجتماع وعدداً من النظم المرتبطة به مثل الأنثروبولوجيا في ذلك الوقت، ولكن واجهة التحليل الرئيسية في اهتمامه الخاص كانت تتركز باستمرار على طبيعة النسق الاجتماعي وعلاقة هذا النسق بشخصية الفرد، كما كانت تنصب في نفس الوقت على مشكلات الإنسان والمجتمع^(٢).

وقد أورد (روبرت بيرستدت) Kober Bierstedt أنه من أكثر التصورات المشهورة لدى (دوركيم) والتي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمعالجة للظواهر الاجتماعية، هو ذلك التصور الخاص «بالضمير الجمعي» Common conscience، والذي تأسس في اللغة مع مشكلة متمثلة فيما إذا كانت ترجمته على أساس أنه «ضمير» Conscience. أو على أنه «شعور أو وجدان» Consciousness، فإما أن نمناه

(1) Sciencies; (ed.) David L. Sills; volume 4, p. 311.

(2) Parsons, Talcot.; «Durkheim Emile», op. cit., p. 311.

تجديداً أخلاقياً أو تجديداً سيكولوجياً، ويرى أنه لسوء الخط لم يكن هناك إجابة سليمة لهذا السؤال، تحدد استخداماتها بكلا الأحاسين، حيث يرى (دوركيم) في هذا الصدد أن هذا المجموع الخاص بالعقل الجمعي يشكل نظامه الخاص ويملك حياته الخاصة، وهذا الضمير الجمعي ليس له أصل خاص ولكنه يكون منتشر خلال المجتمع بأكمله، بمعنى أنه يستمر في استقلاله عن أفراد المعنيين من حيث أنه يسبق وجودهم في المجتمع ويبقى بعد رحيلهم^(١). وعلى هذا الأساس يعرفه (دوركيم) «بأنه مجموع المعتقدات والعواطف العامة والجمعية - المتوسط الأعضاء في نفس المجتمع»^(٢).

ويستند (دوركيم) في تصوره هذا للعقل أو الضمير الجمعي إلى أن «الحالات النفسية التي تمر بشعور الجماعة تختلف في طبيعتها عن الحالات التي تمر بشعور الأفراد»^(٣). بمعنى أنها تصورات من جنس آخر، حيث تختلف عقلية الجماعات عن عقلية الأفراد، كما أن الفرد لا يستطيع أن يفسر مادة الحياة الاجتماعية بعوامل نفسية محضة، أي ببعض حالات الشعور الفردي، لأن التصورات الاجتماعية لا تعبر في الواقع عن شيء آخر غير تفكير الجماعة في الصلات التي تربطها بالأشياء التي تؤثر فيها، وفي نفس الوقت يكون تركيب الجماعة مخالف لتركيب الفرد، وبالتالي تختلف طبيعة الأشياء التي تؤثر فيها عن طبيعة الأشياء التي تؤثر فيه، وفي هذا الصدد يصل (دوركيم) إلى حد أنه لو كان يظن بعض الناس من أن بعض القوانين التي تخضع لها عقلية الجماعة تشبه بالفعل بعض القوانين التي أهدى إليها علماء النفس وقرروها بصدد الشعور الفردي، فليس معنى ذلك أن القوانين الأولى تكون مجرد حالة خاصة من القوانين الثانية، بل معناه أنه إلى جانب أوجه الخلاف الهامة بين هذان النوعان من القوانين، يوجد هناك أوجه شبه يمكن

(1) Bierstedt, Robert.; op. cit., pp. 52 - 53.

(2) Ibid., p. 53.

(٣) أميل دوركيم، قواعد المنهج في علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ٣٢.

استنباطها فيما بعد بعملية التجريد، ولكن ما برحت هذه الأوجه الأخيرة مجهولة حتى الوقت الحاضر^(١).

وقد أوضح لنا (روبرت برستيدت) في كتابه «أميل دوركايم» أن ظاهرة تقسيم العمل عنده كانت أكثر أهمية للغاية مما يدعيه الاقتصاديون، نظراً لأنها تعتبر في الحقيقة واحدة من العمليات الاجتماعية الرئيسية التي تؤدي إلى التضامن الميكانيكي (الآلي) Mechanical - والذي يختلف عن التضامن العضوي organic الذي يسود في المجتمعات الأكثر تطوراً - حيث يؤدي بناء هذا التضامن الآلي إلى وجود الضمير الجمعي Collective Conscience والذي يفسر لنا الوحدة والكمال Unity and Integration عند أكثر المجتمعات بدائية^(٢).

(١) نفس المرجع، ص ٣٢ - ٣٧

(2) Bierstedt, Robert.; «The Collective Conscience», op. cit. p. 61.

أما عن التضامن العضوى فقد قال دوركيم فى هذا الصدد

«أن كل مجتمع هو مجتمع أخلاقى، والفرد الذى يعمل من خلال تقسيم العمل يجب أن يكون واضحاً أنه يعتمد على الأعضاء الآخرين، وكم يكون ذلك حقيقياً من خلال أنه يتلقى منه كل شئ يحتاجه، بالإضافة إلى أن التعارف يساعده على تشكيل عواطفه ويمنح تعاونه صفة أخلاقية»^(١).

هذا بالإضافة إلى أن من أغلب تعليقات (دوركيم) الهامة والمتماثلة مع تصوره للضمير الجمعى هو تصوره الخاص «بالثقافة» culture واستخداماتها فى العلم الاجتماعى الحديث، حيث يرى أنها مستقلة عن الأفراد وتتعلق بكل ما هو عام وكمى، وتشكل شيئاً ما يتحرك من خلال الوقت من تميم إلى آخر فى «التراث الاجتماعى» Social heritage ذلك التراث الذى يمثل وحده الثقافة التى تحدد المجتمع، وإن كان أبدى (دوركيم) أيضاً فى هذا الصدد إلى أن هناك إختلافات بين الثقافة والضمير الجمعى، حيث نجد يضيف على الثقافة تأكيداً أخلاقياً عميق وعلى اعتبار أن الضمير الجمعى فى نظره لايشتمل على الأشياء المادية التى تحتوى عليها الثقافة والتى يملكها أعضاء المجتمع»^(٢).

وترتيباً على تصور (دوركيم) للضمير الجمعى يضيف (روبرت برستيدت) أنه عالج المشكلة المتعلقة بالعقوبة والتى تعتبر ذات مغزى دينياً، فى كتابه The Elementary of the Religious Life، ويرى فى هذا الصدد أن القانون الجزائى Penal Law يكون بالضرورة دينى فى أصله، بل إن الديانة فى ذاتها تكون بالضرورة ظاهرة اجتماعية Social phenomenon تلك التى ربما قد كان هناك اعتقاد خاطئ بصدها وتمثل فى أنها توجد من أجل الأفراد، بل تكون مستخدمة بواسطة من أجل متابعة وتحقيق الحاجات الشخصية، بمعنى أن الديانة بالتحديد تشبه المجتمع ذاته، لأنها تكون خارجة على الفرد وتظهر ضغطاً معيناً عليه»^(٣).

(1) Biersted, Robert; op. cit., p. 61.

(2) Ibid., p. 53.

(3) Ibid., pp. 54 - 55.

ويتضح لنا مما سبق أن دوركيم قد أنتقل بتفكيره إلى مستوى آخر أعلى من مستوى الفرد، وتمثل هذا المستوى في وجود ما يسمى «بالضمير الجمعي» وفي نفس الوقت يعزى إلى هذا الضمير الجمعي تفسير كل المظاهر المجتمعية من «ثقافة» و «دين» و «جزاء» بين أفراد المجتمع، وبالتالي لا يرى أن علم النفس يفيد في دراسة ظواهر هذا «الضمير الجمعي» الذي يختلف في تركيبه وخصائصه عما يوجد لدى الفرد من ظواهر وتصورات نفسية فردية، وعلى اعتبار أن مكونات هذا الضمير المجتمعي تكون هابطة وملزمة على أفراد المجتمع وخارجة عن شعورهم، ومن ثم يجب دراستها على أنها أشياء وكما هي في الواقع.

بمعنى أن (دوركيم) يرى في هذا الخصوص أن تلك الضمائر الفردية Individual consciences - النوعية - التي تشكل النمط السيكولوجي psychological - Type للمجتمع، تختلف في خصوصياتها كما هو في النماذج الفردية، عن ذلك «الضمير الجمعي» Collective conscience الذي هو عبارة عن حاصل «الضمير الاجتماعي» Social conscience^(١)، والذي يمتد ليشتمل على أكثر من الحياة النفسية للمجتمع وخصوصاً في المجتمعات المتقدمة، والتي لا تشكل الحياة النفسية إلا جزءاً منها - والتي تتمثل في تلك الوظائف الخاصة ذات الطبيعة النفسية طالما أنها تتكون من أنساق الاستجابات والتصرفات - بمعنى أن تلك الوظائف الخاصة بتلك الأنساق ذات الطبيعة النفسية تكون خارجة عن نطاق الضمير الجمعي Common Conscience^(٢).

«بين دوركيم وفرويد» :

وفي مجال المقارنة بين نظريتي (دوركيم) و (فرويد) ووجهات نظر كل منهما في دراسة الحياة الاجتماعية وتفسيرها: سوف نبدأ بمناقشة «ظاهرة الانتحار»

(١) يشير روبرت بيرستيدت في هذا الصدد إلى أن دوركيم يستخدم لفظ Social (اجتماعي مرادف للفظ Collective (جمعي)، كما يستخدم Common or Collective Conscience في كتاباته الاجتماعية المختلفة. ص ٥٥.

(2) Ibid., pp. 64 - 65.

Phenomenon of suicide في محاولة للوقوف على كيفية معالجة «الوجهة الاجتماعية» لها عند (دوركيم) ثم «وجهة النظر النفسية» عند (فرويد)، وعمّا إذا كان هناك إتفاق أو إختلاف بينهما:

ويورد (دوركيم) في هذا الصدد أن هناك نوعين من الأسباب الاجتماعية الخارجية Extra-Social Causes والتي وفقاً لها يعزى الفرد الإسهام الأولى والتأثير في معدل الانتحار Suicide Rate : الميول السيكولوجية العضوية organic-psychoic dispositions ، ثم طبيعة البيئة الفيزيائية physical Environment وعلاقتها بتكوين الأفراد، بمعنى أن هناك احتمال في أن يكون الانحراف مختلف في درجة حدته في مستويات الأفراد، بل من قطر إلى قطر، ومن ثم يقود الإنسان مباشرة إلى الانتحار الذي يمكن أن يحدد في طريقتين مختلفتين: فإما أن يطلق عليه في ذاته على أنه مرض مستقل وصورة جزئية من الانحراف، وهذا الرأي يرجع إلى (بوردين) Bourdin . أو يطلق عليه أنه ليس له أنواع مميزة ولكنه يكون في بساطة نتيجة متضمنة في واحد أو أكثر من الانحرافات العديدة، ولا يكون لدى الأصحاء في عقولهم، وهذا هو رأي (إسكوريال) Esquival (الذي قدم الانتحار على أننا نراه فقط كظاهرة ناتجة من أسباب عديدة مختلفة والتي تظهر تحت أشكال مختلفة عديدة) (١).

ويرى أن المتخصصين قد تركوا تصنيفات معينة لأنواع إنتحار الجنون، وربما تشتمل الأنماط الأربعة التالية على أغلب الاختلافات الهامة والعناصر الرئيسية لتصنيفاته وهي (٢) :

إنتحار الهوس أو الجنون: Maniacal suicide

وهذا النوع من الانتحار يرجع إلى الهوس أو الجنون أو الخلط في الكلام

(1) Durkheim, Emile., Suicide; «Suicide and psychopathic stats» (Trans by) John N. Spoulding & George, Simpson; The Free Press, New York, 1951, p. 58.

(2) Ibid., pp. 63 - 67.

والتصورات الهازية.. بمعنى أن المريض أو العليل يقتل نفسه ليهرب من الخطر
الرومى أو الشين أو الفضيحة Imaginary danger ، وهو فى ذلك يطيع الهائف
الغامض الهابط عليه من أعلى. ويرى (دوركيم) أن الدافع لهذا النوع من الانتحار
يعكس الطباع العامة للمرضى والتي يدفع إليه ويسمى بالهوس أو الجنون Mania .

الانتحار الأسود - Melancholy suicide

وهو ذلك النوع من الانتحار الذى يرتبط «بالخضوع التام» Extreme
depression ، و «الحنن البالغ» Exaggerated sadness والذى يسبب لدى المريض
عدم الرغبة فى أن تكون لديه روابط صحيحة تربطه بالناس والأشياء التى بداخله ،
كما أن التعادة لا يرغب فيها بل يرى كل شئ على أنه «سحابة مظلمة» Adark
cloud ، وبالتالى تبتدئ الحياة إليه على أنها مؤلمة. وعلى اعتبار أن هذه الأفكار
والاحساسات تكون متصلة ومزمنة لدى المريض ، فإن الأفكار المتعلقة بالانتحار تكون
أيضاً على نفس المستوى.

انتحار الذهول - Obsessive suicide

وهو ذلك النوع الذى لا يسببه أى «دافع حقيقى» أو «وهم» ، بل شيئاً فشيئاً
ومن خلال الأفكار المختلطة والمتعلقة بالموت ، وبدون أى سبب واضح ، نجد أن تلك
الأفكار تأخذ تملك كامل على عقل المريض ، حيث يكون المريض فى هذا النوع
من الانتحار «مذهول» obsessed بالرغبة فى قتل نفسه رغم إدراكه التام بأنه لا يملك
أى دافع حقيقى يكون سبباً لفعله هذا وتلك الرغبة فى الذهول تشكل حاجة
غريزية تكمن خلف رد الفعل كما هو فى الحاجة إلى «السرقه» ، «والقتل»
«والإيذاء» Commit .

الانتحار الاندفاعى Impulsive suicide

لا يكون أيضاً مدفوع مثل انتحار الذهول ، ولا يكون له سبب سواء فى الواقع أو فى
وهم المريض Patient's imagination وبدلاً من أن يكون ناجم من أفكار الذهول
المختلطة ، فإن العقل خلال فترة طيلت أو قصرت يؤثر فى «الإرادة» will ، ومن ثم

ينتج من باعث فجائى ومباشر لا يقاوم. ويرى «دوركيم» أن هذا الاتجاه نمو الانتحار يبدو فى تقليد أوتوماتيكى وليس مقدم من خلال أى سوابق عقلية بل من خلال تصورات هازية فجائية، فقد يكون الفرد فى حالة مشى مع أصدقائه بجانب «الهو» وفجأة «يقفز» ويسقط فى الماء، ثم ينقذ فى الحال ويسأل عن دافع هذا السلوك الخاص به، ولا يعرف شيئاً عنها، حيث يكون فى هذا التصرف مرتبط بقوة لا تقاوم . Irresistable force

وفى هذا الصدد يرى (دوركيم) من تلك التصنيفات الأربعة السابقة لانتحار الأشخاص المجانين لانتحل كل أنواع الكامل للانتحار، ولكنها تشكل فقط نوعاً منه. بمعنى أن الحالات السيكوباتية (النفسية العاطفية) psychopatic states التى تشكل خلافاً عقلياً لدى المرضى المتحررين لاتعطينا كتلة الاتجاه الكلى للانتحار فى عمومية. حيث يوجد نوع آخر من الانتحار الشاذ يتحد تحت اسم «النورستانيا» Neurasthenia، ولقد أراد (دوركيم) أن يختبر مدى دورها فى تحديد أسباب الانتحار فى الحالات البعيدة عن «انتحار الجنون أو الخلل العقلى» - السيكوباتية - ؟ ... ويجب على ذلك بأن «النورستانيا» هى نوع من الجنون الأولى، ويكون لها نفس المستوى من التأثير السابق فى إحداث الانتحار، بل تكون حالاتها أكثر إنتشاراً من حالات الجنون وتتزايد بصورة عامة نظراً لأن طبيعتها تقوم على المعاناة^(١). كما يضيف (دوركيم) أنه بجانب «النورستانيا» يوجد نوع آخر من «الانتحار الشاذ» ويعتمد فى طبيعته على درجة التأثير وعلى الأخص لدى الناس الذين يبدون فى تأثيرهم مقاومة أقل، وما يصاحب ذلك من شدة الألم الناتج من الصدمة العنيفة جداً على النسق العصبى. ومن ثم فإن الحياة بهذا تكون عرضة لأن تفقد فى طبيعتها أهميتها ومغزاها بالنسبة لتلك المعاناة. وبالتالي أيضاً يكون مجال مفضل لفكره الانتحار. ويرى (دوركيم) «أن هذا النموذج السيكولوجى من الانتحار psychological type، ولأسباب السابقة من المحتمل جداً أن يكون هو الأكثر عمومية من بين أنواع الانتحار»^(٢).

(1) Durkheim, Emile.; suicid: op.cit., pp. 67 - 68.

(2) Ibid.. pp. 68' - 69.

ويضيف (دوركيم) في متعاليته لظاهرة الانتحار أن هناك من العلماء من يرى أنه يمكن أن يكون ناجماً من تركيب الفرد، بمعنى أنه يتكون من ظاهرة سيكولوجية خالصة وبدون أى ضرورة لمشاركة تلك الضلالات الخاصة بالجهاز العصبي - والتي يطلق عليها بحالات الانتحار النفسية السيكوباتية الشاذة - وقد بنى هؤلاء الكتاب رأيهم هذا على اعتبار أن كل سلالة تكون محددة ومختلفة عن غيرها من السلالات من خلال «شخصيتها» النفسية العضوية organic psychic characteristics حيث يترتب على أنه إذا كان معدل الانتحار بالفعل يختلف باختلاف السلالات، فإن هذا سوف يكون أساساً لارتباطه الكبير مع بعض من الميول القطرية العضوية⁽¹⁾.

ولما كان (دوركيم) يرى أن السؤال الخاص بالعلاقة بين السلالة والانتحار لا يزال غير ثابت، فيجده - بصدد مناقشته لرأى تلك المجموعة من الكتاب الذين يرجعوا الانتحار إلى أسباب سيكولوجية خالصة - يبدأ بتعريف السلالة «على أنها أصبحت تفهم في الوقت الحاضر على أنها نفس مجموع الأفراد المشتركين في السمات العامة»⁽²⁾ بمعنى أنه يمكن أن تقدم من خلال السلالة

«فكرة رابطة الدم idea of filiation or hinship حيث يكون واضح جداً من خلال الصفات المباشرة للملاحظة، أن أفراد الجماعة يميل ويشابه كل منهم الآخر، بل ويدين أو يعتقد بنفس الاعتقاد، وبالتالي فإن الشخصية المميزة تكون ماثلة في ذلك التشابه الوراثي»⁽³⁾.

ثم ناقش (دوركيم) بعد ذلك الأنماط السلالية الأربعة الأوربية الكبرى التي قدمها (مورسيللي) Morselli ومن خلالها يكون الأفراد مقسمين ومتفقيين على أن يحملوا اسم السلالات:

النمط الألماني: بأنواعه ويشتمل على الاسكندنافيان، والانجلوساكسون Anglo-saxon ، والفلميش The Flemish :

(1) Durkheim, Emile., «sucide» op.cit., pp. 82 - 83.

(2) Ibid., p. 83.

(3) Ibid., p. 85.

نمط السليف: أى نمط العبيد The slave type . ثم اليودال ألتيك : - Ural

Altice type . وأخيراً نمط السيلتو الرومانى : Celto - Roman type ، ويشتمل على البلقانى، والفرنسى، والايطالى، والأسبانى. ويرى وفى هذا الصدد أن هذا التصنيف وتلك الفروض السابقة تكون مقبولة ظاهرياً، إذا كانت كل جماعة من الناس التى تدرج تحت سن واحد تملك إجتاهاً متساوياً وقوياً نحو الانتحار. ولكننا نرى مثلاً أن «نمط اليورال ألتيك» لا توجد لديه إلا القليل من إمكانية تمثيله لتلك العلاقة بين سلالاته والانتحار، على عكس «سلالة الهنجارىان» Hungarians فى بعض من المقاطعات الروسية التى تلتقى فى تناسبها مع معدلات الانتحار. وفى حين أيضاً نجد أن الثلاث سلالات الأخرى تتابع فى نظام تناقضى فى درجة توافقها مع الانتحار على الوجه التالى: بينما نجد بصورة عامة أن «نمط السليف» لديه ميل قليل نحو تحطيم الذات self-destruction نجد أن سلالتى - البوهيميا، والمورافيا - تكونا مستشتيان من هذا النمط حيث يوجد لدى «البوهيميا» عدد ١٥٦ متحر فى المليون، كما يوجد لدى «المورافيا» عدد ١٣٦ متحر فى المليون، فى حين نجد أن - الكارنيلا يوجد فيها عدد ٤٦ ، والكروتيا يوجد فيها عدد ٣٠ ، والدالمتيا يوجد فيها عدد ١٤ ، وذلك بالرغم من أن تلك السلالات تدرج نفس النمط. وبالمثل نجد بين أفراد نمط السلتو الرومانية الشعب الفرنسى توجد لديه ١٥٠ حالة انتحار فى كل مليون، بينما فى ايطاليا التى تدرج تحت نفس هذا النمط يوجد ثلاثين حالة انتحار فقط. ومن ثم لم يتفق (دوركيم) مع (مورسيللى) على أن تقسيم الناس فى أنماط سلالية يمكن أن يعطينا معدلات مضبوطة للميل نحو الانتحار^(١).

ويضيف (دوركيم) أن تلك النظرية السابقة التى ترى أن السلالة هى العامل الهام فى الميل نحو الانتحار، تتضمن أيضاً أن السلالة تكون وراثية Cthic characteristic . ومن ثم يتساءل هل ثبتت وراثية الانتحار بالتالى ؟ ... وهل الملاحظة تظهر لنا وجود تلك الوراثة ؟ ويرى أنه إذا ثبت بالفعل أن الاجتاه نحو

(1) Durkheim, Emile.; «sucide», Ibid., pp. 85 - 86.

الانتحار يكون منقول بالتناسل، فسوف يترتب على هذا أنه يعتمد بدقة على حالة عضوية organic state، بمعنى أنه عندما يكون الانتحار وراثية «فهذا يعني بالتأكيد أن الأطفال المنتحرين بوراثة استعداد آياهم الفطري يكونوا مائلين للتشابه في الأمور الشخصية وأن يتصرفوا مثلهم، وبالتالي لا يكون الانتحار وراثياً وما يكون منقول هنا هو الطبع أو المزاج العام في التركيب الفردى Individual Constitution والذي غالباً ما يظهر تحت اسم «النورستانيا» على تباين أشكالها، تلك التي لا تقدم سبباً للتباينات الظاهرة في معدل الانتحار. حيث يرى (دوركيم) في هذا الصدد أن السيكولوجيين قد تحدثوا كثيراً عن الوراثة بإحساس مختلف جداً، بمعنى أنها تتمثل في الاتجاه نحو فناء الذات الذي يمر مباشرة من الآباء إلى الأبناء، ويعطينا المصدر الكلى والانتوماتيكى للانتحار^(١). «هذا هو المصدر السيكولوجى أو الميكانيزم السيكولوجى للانتحار والذي يعتمد بالضرورة على أسباب فردية»^(٢).

كما يرى أيضاً أن الملاحظة إذا كانت بالفعل تظهر لنا وجود وراثة الانتحار في نفس العائلة وبانتظام وشكل مخيف كما هو في حالة مستر «جى» مالك الأرض Mr. G. A landowner الذى ترك سبعة أطفال وميراث مكون من إثنين مليون، وبقي منهم «سنة» مكثوا في باريس وأجوارها واستبقوا على ثروة والدهم بل إن بعضهم زاد عليها وكانوا جميعاً مستمتعين بالصحة ... ومع ذلك فقد انتحرو الأخوان السبعة في خلال الأربعينات من سنهم. إلا أن دوركيم يرى ضرورة ألا ترسم نتائج طائشة بخصوص تلك الأسئلة المتعلقة بوراثة الانتحار، نظراً لأن تكرار نفس المرض في نفس الأسرة قد لا يكون راجع إلى الشخصية الوراثية للسلالية ولكن يكون راجع إلى الطابع العام General Temperament المستقبل له، وأيضاً إلى فرصة إنتشاره وظروف نموه، بمعنى أن ما يكون منقول في هذا الصدد ليس هو البلوى Affliction في ذاتها ولكنها فقط ذلك المجال الذى يعتبر مفضل لنموها أو تطورها^(٣).

(1) Durkheim, Emile.; «sucide», Ibid., pp. 93 - 94.

(2) Ibid., p. 94.

(3) Ibid., p. 94.

ومن ثم يخلص (دوركيم) إلى أن ما سبق يثبت «أن السبب في تباينات معدلات الانتحار لا يرجع إلى الباعث المتجانس - الثابت - ولكنه يرجع إلى الفعّال أو السلوك الناجح في الحياة الاجتماعية وعلى اعتبار أن الانتحار يظهر مبكراً أو متأخراً معتمداً في ذلك على المرحلة التي يدخل الناس فيها الحياة الاجتماعية»⁽¹⁾.

ويتضح لنا مما سبق أن (دوركيم) في معالجته لظاهرة الانتحار ومحاولة الوقوف على الأسباب التي تؤدي إليها لا ينفي الدور الهام التي تقوم به العوامل النفسية العاطفية (السيكوباتية) والتي تبدو في شكل السلوك الشاذ، كما أنه لا ينفي أيضاً الدور الهام لتلك الجوانب النفسية الخالصة في شخصية الفرد والتي تشتعل على العوامل السلافية والوراثية. ولكن يمكننا القول في هذا الصدد أنه قد أعطى الاهتمام الأول «للوّسط الاجتماعي» والطابع العام الذي يكون متصلاً بنمو الانتحار وتطوره، وهنا يتضح لنا الفارق بين الاهتمام (الفرويدي) الذي يركز على دراسة الشخصية الإنسانية بمكوناتها الشعورية واللاشعورية، ويمنح «الفرائز» الدور الرئيسي في فهم الحياة الإنسانية وتغيرها وتطورها بجانب سلوك الفرد بوجه عام، فإذا كنا بصدد دراسة ظاهرة الانتحار هذه بمدلولاتها فسوف يضع (فرويد) الاعتبار الأول لتلك الجوانب النفسية في شخصية الفرد سواء أكانت في جانبها السيكوباتي أو النفسي الخالص. ويرى روبرت بوكوك في هذا الصدد أن هناك ملاحظات مستمرة في تفكير (فرويد) تتمثل في اهتماماته المختلفة بما يسمى بفهم العصائين Understanding of Neurosis وحيث توصل في هذا الصدد - فرويد - إلى نظرية لا تكون غير متشابهة مع نظرية «دوركيم» ولكنه يركز على تلك الجوانب السيكوباتية ويمنحها الدور الرئيسي في جعل السلوك الفردي في حالة سيئة⁽²⁾.

وللتدليل على ذلك إذا ما انتقلنا إلى أسلوب معالجة كل منهما للسلوك الشاذ والذي قد يأخذ شكل «الجريمة» Crimenology سوف نجد أن (فرويد) في معالجته لها وإن كان «لا يغفل دور الضوابط السسيوثقافية على الأفعال العنيفة ضد

(1) Durkheim, Emile.; «sucide», Ibid.; p. 102.

(2) Bocock, Robert., «Emile Durkheim», op. cit., p. 139.

الآخرين، أو الحيوانات أو الملكيات»^(١). وهو ذلك الدور الذي تنهض به نظم اجتماعية مثل النظم القانونية، والمستشفيات، والتي تلعب دورها في البعد عن المشاركة والضبط الاجتماعي، ولكن تحليله الجوهرى لهذا السلوك الاجرامى يكون فى إطار علم الاجتماع الاشغورى وما يحتويه الفرد بداخله من رغبات غريزية فجأة^(٢). أما معالجة دور كيم «للجريمة» نجد أنها تكون فى إطار التزامه بتبنى منهج العلوم الوضعية فى دراسة الحياة الاجتماعية والظواهر الاجتماعية على أنها أشياء توجد فى الواقع الاجتماعى، ومن خلال تصوره عن الضمير الجمعى الذى يمتد ليشتمل على أكثر من مجرد الحياة النفسية للأفراد والتي لا تشكل إلا جزءاً فيه، وقد خلص (روبرت بيرستيدت) من خلال معالجته لتصورات دور كيم للفعل الاجرامى إلى «أن الفعل يكون إجرامى عندما يسىء بقوة إلى حالات الضمير الجمعى»^(٣) بمعنى أننا ندرك أن الجريمة تنتهك وتكون متشرة، وندرك أيضاً أن كل فعل مذنب يكون «مذخور» فى عموميته وأن هذا «الذجر» يرجع إلى تلك الذنوب المتضمنة فيه، ولكن ماذا نعني بتلك الذنوب التي يستهجنها المجتمع من خلال أسلوب العقوبة المنظمة، وهنا يأتى «الضمير الجمعى» نتيجة لواحد أو أكثر من الصفات العامة لكل نماذج الجريمة Criminology Types ثم يصف الفعل أو السلوك بأنه إجرامى إذا ما كان هناك تعارض بين هذا النوع من الفعل والعواطف الجمعية الثابتة.

بين «تارد» و«دوركيم»:

وإذا ما انتقلنا إلى مجال المقارنة بين نظريتي «تارد» و«دوركيم» ووجهات نظر كل منهما فى دراسة الحياة الاجتماعية فى محاولة للوقوف على نقاط الاتفاق والاختلاف بينهما: نجد أن (جابريل تارد) كان أكثر اهتماماً من (دوركيم) بدراسة العلاقات الاجتماعية بين الأفراد والجماعات الصغيرة على امتداد المجتمع الكبير، بمعنى أن الحياة التي عاشها تارد كحاكماً وقاضياً ومتعاملاً باستمرار مع جرائم

(1) Bocock, Robert., «Emile Durkheim», op.cit., p. 9.

(2) Bierstedt, Robert., op. cit., p. 65.

(3) Ibid., pp. 55 - 66.

مألوفة ومتكررة قد أثرت على نظريته الاجتماعية في تفسير الحياة الاجتماعية والتي يلعب فيها «التقليد أو المحاكاة» Imitation دوراً مركزياً ومن هنا كان اهتمامه وتعامله مع الأفراد أكثر من الجماعات أو التنظيمات الكبرى مما وضعه من موقف متعارض مع (دوركيم) من خلال الواجهة السيكلولوجية لأعماله^(١). حيث وجد (تارد) أن هناك عمليتين رئيسيتين تحكمان المجالات الاجتماعية وهما المحاكاة والتقليد ثم الاختراع والتجديد - على ما ورد تفصيله سابقاً - كما أعطى للرغبات Desires والعقائد Beliefs أهمية كبرى في نظريته باعتبارها القوى المسيرة للحياة الاجتماعية عن طريق نقلها بالمحاكاة من فرد لآخر ومن فئة اجتماعية إلى أخرى، فإذا كانت «الرغبة» تعبر عن الميل الذاتي للسلوك نحو شيء معين سواء أكان هذا الشيء موضوعياً أو ذاتياً، فإن «العقيدة» تمثل الفكرة المتعلقة بالشيء الذي هو موضوع الرغبة^(٢). ومن ثم يتضح لنا التعارض بين نظريتي (تارد) التي تؤكد على المحاكاة باعتبارها عملية نفسية فريدة، ونظرية (دوركيم) التي تؤكد على أن القهر الاجتماعي هو المظهر الرئيسي للواقع الاجتماعي^(٣).

وإذا كان تارد يرى في إطار دراسته للجريمة أنها تكون بالضرورة ظاهرة اجتماعية Sociaphenomenon وقابلة للشرح والتفسير Explicable وفقاً للقوانين الاجتماعية العامة، وإذا كان أيضاً لم ينكر الأصل الاجتماعي للجريمة Socialorigin، إلا أنه نبذ وجهة نظر (دوركيم) التي ترى أن الجريمة ظاهرة طبيعية Normal phenomenon، وذلك على أساس أن هذه الوجهة من النظر لا تكون مسئولة أخلاقياً، حيث رأى (تارد) في هذا الصدد أن مسؤولية الأفعال الإجرامية يجب أن تبقى مع الشخص القائم بهذه الأفعال الإجرامية^(٤).

ويمكن لنا في النهاية أن نقول بأن (جابريل تارد) لم يكن متمثالاً من أى من

(1) Clark, Tarry., op. cit., p. 510.

(٢) د. أحمد الخشاب، التفكير الاجتماعي، مرجع سابق، ص ٤٦٨ - ٤٧٠.

(٣) نيقولا تيماشيف، نظرية علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ١٥٦.

(4) op. cit., p. 510.

البناءات الغالبة في نسق النظريات ولم يلتزم بأى منها على حدة، وكان مستمراً في بحث الدلالات الامبريقية، والمثالية وذلك بغرض إمكانية اختبار تصميماته المتسعة، حيث يرى (تيرى كلارك) في هذا الصدد أنه قد اعتمد على المدخل التاريخي للدراسة المقارنة، وأقتنع بالاستحالة الغالبة في تحقيق الاختبار العلمى فيما يتعلق بالمتغيرات السيكولوجية psychological variables المتضمنة في عمليات الاختراع، وإن كان قد اعتبر أنه يمكن دراستها في إطار الوسائل التكنيكية المنطقية مثل: المجتمعات، والفترات التاريخية حيث تقوم فيها تلك الاختراعات المتباعدة لأول وهلة. وهذا يعنى أن «التقليد» imitation و «المعارضة» opppsition لدى تارد تكون دراستها جيدة مع مدى تقويمى واسع، وبالتالي قد قاد هذا الاتجاه المنطقى لديه إلى تفضيله التحليلات المتعلقة «بالتتابع الزمنى» على الثبات الفاشل الذى يوجد فى «المجال الجغرافى» و «الجنس» sex و «العمر» age، و «العمل» occupation وبالتالي أيضاً توصل (تارد) إلى أن انتشار الاختراع بدون حدوث «صراع الاختراعات» بواسطة المنافسة لا يكون إلا فى مجال «التقدم العلمى» على عكس ما يحدث فى «المنافسة» التى توجد فى نطاق الاختراع وكونه ذاتياً⁽¹⁾. وقد أدى هذا الاتجاه السلوكى لدى تارد إلى تقريره فى كتابه «قوانين المحاكاة»:

«لتلك التقويمات السيكولوجية الفريدة ومجدداً بدايتها ونهايتها
ومسجلاً لبداية ونهاية المعتقدات والرغبات الفردية الخاصة ... فإذا
كانت تلك المعتقدات والرغبات الفردية ممكنة الوجود على وجه
الخصوص، فهى تعطى المعنى العميق الذى يكمن فى خلفية
الأشكال الممنوحة من خلال التقويمات النظامية»⁽²⁾.

ومن ثم نخلص مما سبق إلى أن (جابريل تارد) كان أحد الدعائم الرئيسية فى هذا الاتجاه السلوكى فى علم الاجتماع وكان من أوائل العلماء الذين وضعوا العوامل النفسية أساساً لفهم علاقات وسلوك الأفراد والحياة بوجه عام. ويرى تيرى

(1) Clark, Tarry., op.cit., pp. 510 - 511.

(2) ibid., p. 511.

كلارك في هذا الصدد أنه في الوقت الذي عبر فيه السيكلوجيون عن معارضتهم بوجهة النظر السيسولوجية، والعكس بالعكس، جاءت تكوينات (تارد) في التفاعل الاجتماعي ومدى تأثيره على الأفراد والجماعات والمجتمع ككل مزودة لنا بالأسس الجوهرية لظهور النظم السيكولوجية الاجتماعية^(١). Discipline of social psychological.

وبالتالي وفي إطار أن هذا القصور السابق في دراسة الجريمة لدى «تارد» على أنها يجب أن تفسر في حدود الأطر التقويمية للفرد التي يمنحها على الفعل أو السلوك في ضوء رغباته ومعتقداته، تختلف بالفعل مع تصور (دوركيم) لها الذي ينظر إليها على أنها ظاهرة طبيعية من خلال انتشارها واتساعها وأنه يجب دراستها في الواقع الاجتماعي وليس في حدود المفاهيم التقويمية، ولكن يرى دوركيم في هذا الصدد أن فعل ما يهز أو يصدم الضمير الجمعي لأنه يكون إجرامى، بل هو يكون إجرامى لأنه يهز الضمير الجمعي، بمعنى أننا لانستهجن الفعل لأنه يكون فعل إجرامى، ولكنه يكون إجرامى لأنه نستهجنه في إطار المعتقدات والعواطف الجمعية التي يتشكل منها الضمير الجمعي^(٢). ويقول في هذا الصدد «أن الميل أو العاطفة أى كانت بدايتها أو نهايتها فهي توجد في كل الضمائر مع درجة ثابتة من القوة والدقة، وكل فعل يتتهك فهو يكون جريمة»^(٣).

ولقد أصبح واضحاً أن تطور الاهتمام بالاتجاه السلوكى أو السيكولوجى من قبل العديد من علماء الاجتماع والنفس - ممن ظهوروا في نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين - قد جاء في إطار إدراكهم التام لحقيقة أن الفرد هو جزء من البناء الاجتماعى الأكبر .. وأيضاً نتيجة تأثيرهم بداروين وإدراكهم لأهمية الأساس الغريزى للإنسان. وبما يحتويه من دوافع وغرائز ثابتة تؤثر في سلوكه»^(٤).

(1) Klark, Terry.; op.cit., p. 513.

(2) Bierstedt, Robert., op. cit., p. 66.

(3) Ibid., p. 66.

(4) Bocock, R., Fried and Modern Society. London: Tomas Nelson ad sons, 1976, p. 20.

٤- خاتمة الفصل الثاني:

بعد أن عرضنا لدعوى الاتجاه النفسى من خلال الوقوف على حقيقته وجذوره فى تاريخ الفكر الاجتماعى لدى الرواد الأوائل. يمكن القول بأن هذا الاتجاه النفسى لم يكن حديث النشأة فى علم الاجتماع. بل امتدت بداياته إلى جذور الفكر الفلسفى لدى أفلاطون وأرسطو. ووضح ذلك فى إطار اهتمام فلاسفة الإغريق بالفرد أكثر من الدولة.

بل تجدر الإشارة إلى أن كونت وحسنر لم يتحررا نهائيا من مبادئ هذا الاتجاه السلوكى فى نظريتهما الاجتماعية. فقال كونت «أنه من الواجب ألا نسلم نهائيا بصحة أى قانون يتعلق بالتطور الاجتماعى مهما كانت قيمة الطرى/قة التاريخية التى هدتنا إلى الكشف عنه. إلا إذا أمكن ارجاعه بطريقة عقلية مباشرة أو غير مباشرة إلى النظرية الوضعية الخاصة بالطبيعة الإنسانية»^(١). واتفق معه فى ذلك هربرت سبنسر فى رؤيته «أن البيئة الكونية والتركيب العضوى النفسى لدى الفرد هما العاملان الأساسيان فى وجود الظواهر الاجتماعية»^(٢). كما أن هيئته فى مداها تعتمد على شخصية الأفراد المشكلين له. ولا يوجد سبيل للوصول رلى نظرية حقيقية إلا من خلال طبيعة تكوين الأفراد وانتهى إلى أن خصائص الأجزاء هى التى تحدد خصائص المجموع»^(٣).

وفى الحقيقة أن بدايات تطور هذا الاتجاه السيكولوجى كاتجاه أساسى فى علم الاجتماع قد جاءت على يد علماء الاجتماع ممن ظهوروا فى بدايات القرن العشرين. وقد جاء ذلك فى إطار قناعتهم بأن الدراسة السوسولوجية العلمية للسلوك الإنسانى، يجب أن تكون فى إطار التفاعل الاجتماعى. كما يجب أن تأتى دراسة

(١) أميل دوركيم، قواعد المنهج فى علم الاجتماع، (ترجمة) محمود قاسم، السيد محمد الحسنى، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٤، ص ٢٠٧.

(٢) أميل دوركيم، المرجع السابق، ص ص ٢٠٧ - ٢٠٨.

(3) Coser, L. A., Masters of sociological Thought, New York: Harcourt Brace Jovanovich Inc., 1977, p. 98.

السلوك الإنساني أيضاً في ضوء التصورات النفسية للحياة الاجتماعية، وتأتى القضايا السلوكية التى تدرس السلوك أو الفعل فى ضوء أسبابه العقلية والعاطفية، وقد وضع ذلك من خلال الفكر الدوركىمى والفرويدى.

ويمكن القول أيضاً أن عالم الاجتماع الفرنسى جبرائيل تارد، كان أول من دعم مفهوم هذا الاتجاه السيكلوجى على بدايات القرن العشرين. وجاء ذلك فى إطار نظريته الاجتماعية، والتى أقام دعائمها على الاختراع والمحاكاة والمعارضة. وهى «عمليات نفسية تمثل النمط المميز للعملية الاجتماعية لدى تارده»⁽¹⁾.

(1) Kark, T. N., op. cit., p. 50.

الفصل الثانى

قضايا السلوكية الاجتماعية فى علم الاجتماع المعاصر

٢- القضايا النظرية للسلوكية الاجتماعية.

أ- المفاهيم التى اعتمد عليها علماء السلوكية الاجتماعية.

ب- القضايا النظرية التى شغلت تيار السلوكية الاجتماعية.

٣- قواعد المنهج فى دراسات السلوكية الاجتماعية.

٤- خاتمة الباب الأول .

الفصل الثانى

قضايا السلوكية الاجتماعية فى علم الاجتماع المعاصر

انتهينا من الفصل السابق بعرض لحقيقة إتجاه السلوكية الاجتماعية، وجذورة فى تاريخ الفكر الاجتماعى. ثم بدأ آيات تُمَوِّه وتطورة فى علم الاجتماع ونحاول فى هذا الفصل الثانى تحديد قضايا النظرية والمنهجية، التى شغلت اهتمام علمائة وذلك من خلال تراث المدرستين الأمريكيتة والألمانية، ومع ذلك سوف يكون عرضنا فى هذا الفصل بصورة عامة لتلك القضايا والمنهج، فى محاولة لتحديد ما وبراها، وسوف يلى تفصيل تلك القضايا والمنهج لدى كل عالم. وبيان مدى ما اضافته الى موضوع علم الاجتماع ومنهجه ونظريته من خلال الفصول التالية.

وعليه تناول فى البداية قضايا السلوكية الاجتماعية النظرية على الوجه التالى:

أولاً- من خلال أطار المفهومات مثل: الشعور الاجتماعى، والفهم التفسيرى للفعل والتفاعل على المستوى الذاتى، والتفاعل الرمضى، وأخيراً بناء الشخصية أو ذات الانسانية.. مع ايضاح المقصود بتلك المفاهيم واستخداماتها بين أكثر من عالم وتطورها فى الدراسات المعاصرة. ثم تناول القضايا النظرية التى انشغلت بدراستها الاتجاهات النظرية للمنزعة السلوكية فى علم الاجتماع. وفى الجزء الثانى- نعوض لقواعد المنهج لدى علماء المدرستين الأمريكية والألمانية. وإمكانية تقسيمهم فى اعتمادهم على الأساليب المنهجية وفقاً لاتجاهاتهم النظرية. وذلك فى محاولة لحصر تلك الأساليب المنهجية والوقوف على مدى اسهامها فى مجال مناهج البحث فى علم الاجتماع بوجه عام على النحو التالى:

- القضايا النظرية للسلوكية الاجتماعية.

أ- المفاهيم التى أعتمد عليها علماء السلوكية الاجتماعية.

ب- القضايا النظرية التي شغلت تيار السلوكية الاجتماعية.

- قواعد المنهج فى دراسات السلوكية الاجتماعية.

٢- القضايا النظرية للسلوكية الاجتماعية .

أ- المفاهيم التى اعتمد عليها علماء السلوكية الاجتماعية

Concepts of social Behaviourism

وفى مجال الأسس السيكولوجية للحياة الاجتماعية يرى كل من كمبل (يوج) Kimbiley Young ، (ريموند ماك) أنه إذا كان فى إمكاننا أن نقول بأن التفاعل الاجتماعى Social Intenaction بإعتباره أساساً للعمليات الاجتماعية Social Processes هو الاصطلاح المتسع لوصف العلاقات الاجتماعية الديناميكية، وإذا كان أيضاً أساسياً بالنسبة لبقاء الانسان فضاله من أجل الحصول على جاحاته المادية، فإن هناك أيضاً «إتابات ثقافية» أخرى تحدد على أنها «رغبات» فى اطار هذا النضال. والأشكال الرئيسية لهذا النضال تتمثل فى المعارضة Opposition التى تحتوى على كل من - المنافسة Competition ، والصراع Conflict - ثم التعاون Coperation فإذا نظرنا إلى المعارضة والتعاون نجد أنهما يحدثان فى أى مجتمع بالرغم من أن شكلها وإتجاهها يكونان متشكلاً من خلال زمن الثقافة والمكان. (١)

إلا أن المعارضة يمكن أن توصف على أنها «نضال ضد الآخر أو الآخرين من أجل حاجة مادية أو هدف أو قيمة» (٢) والتعاون بإعتباره «نضال مع الآخر أو الآخرين من أجل حاجة مادية أو هدف أو قيمة» (٣)

ويضيف (كمبل يوج)، (ريموند ماك) فى هذا الصدد أن مصدر كل من

(1) Kimble, Young & Raymond W. Mack; Systimatic Sociology; "Universial Social Process", Affllated East-West Put-Ltd., New Delhi, 1920, p. 103.

(2) Ibid. P. 103.

(3) Ibid. P. 103.

«المنافسة» والمعارضة» يبدو في كونه إحباط Frustration أو اصطدام يأتي من خلال العمل بين الدافع والانجاز السريع للهدف أو الاثابة، ولا يرجع مصدرهما فقط إلى الدوافع الملازمة للعواطف Emotions^(١)

وقد كان هذا الاتجاه قديماً جداً، نجد آثاره في تفكير أرسطو حين يحاول تفسير وتبرير التفاوت بين الأجناس على أساس التكوين الفطري والانتقال الوراثي لصفات المادة الحيوية من الأصول إلى الفروع، فهو يرى أن الطبيعة قد أعدت كل جنس أعداداً خاصاً وشكلته على نحو معين وأمدته بعناصره الأصلية متمثلة في غرائزه الكامنة واستعداداته الفطرية التي تنتقل بالوراثة من جيل إلى جيل في المورث السيكولوجي الذي يحتفظ بخصائصه المميزة بصفة مستمرة، ومن هنا كان التفاوت أمراً محتوماً ودائماً ولا سبيل إلى التخلص منه، وكان هذا التفاوت بين الأجناس أساس نفس للتفرقة العنصرية. وكثيراً ما كان يلجأ بن خلدون إلى الاعتبارات النفسية في بحوثه، ويعقد فصلاً في أن المغلوب يكون دائماً مولع بالاعتداء بالغالب في شعاره وسائر أحواله وعوائده، ويعلل ذلك أن النفس أبداً تعتقد الكمال فيمن غلبها وأنقادت إليه، وإما لنظرة بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه، ومن ثم فهي تتصل به وتتصل جميع مذاهبه وتشبه بها وهذا هو الاقتداء أو لما تراه والله أعلم، ولذلك نرى المغلوب يتشبه أبداً بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه وسائر أحواله، ومثلما نجد الأبناء متشبهين دائماً بأبائهم وما ذلك إلا لاعتقاد الكمال فيهم.

كما تمثل هذه المدرسة السلوكية في علم الاجتماع (جريريل تار) Gabriel Tard الذي يعلن «تفوق الدراسة السيكولوجية على الدراسة البيولوجية»^(٢) ويرى أن المحاكاة هي الظاهرة الاجتماعية الأصلية ويفسرها بطريقة سيكولوجية واضحة، حيث شعر بأن الشخصيات الإنسانية تحتوي في تفاعلها على مادتين خام هما :

(١) د. أحمد الخشاب . التفكير الاجتماعي ، مرجع سابق ، ص ٤٦٨ ، ٤٦٩ .

(٢) جامستون بوتول . تاريخ علم الاجتماع (ترجمة) غنيم عبدون (مراجعة) جلال حسن صادق - مجموعة الشرق والغرب ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ص ٩٨ .

«المعتقدات والرغبات "beriefs and Dsires" وفي اطار نظريته في تفسير الحياة الاجتماعية هذه يورد ثلاثة عمليات رئيسية : «الاختراع» Inovention ، «التقليد» Imitation ، و «المقاومة» .^(١) Opposition

ويقول (جيرالد فيليبس) Gerald Phillips ، (يوجيني أريكسون) Eugene C. Eqickson بصدد العمليات الداخلية للشخصية الانسانية :

«أنا يجب أن نقرر في هذا الصدد أنه من المستحيل أن نستجيب إلى مادة الواقع بنوع خاص لأن ما يوجد في رؤوسنا ليس هو الواقع الخارجى ، ولكن الواقع يكون مشكل مسبقا بواسطة إحساسنا وأيضاً العمليات الاستتاجية لدينا. فما نستطيع أن نكون قادرين على الشعور به ، بجانب بعد الاختيار المتوافق لدينا سوف يشكل التصور «بالنسبة لما نستجيب ويزودنا بالمتغيرات التى يمكن أن نختار منها إستجاباتنا» .^(٢)

بمعنى أن البناءات الفينومينولوجية Phenomenological Gonstructs تجعل من الممكن فحص التصورات الداخلية بالنسبة لما نستجيبه ، وهذا يتأتى من الاعتقاد الرئيسى المتمثل فى أننا نستجيب إلى الانسانيات الأخرى على اعتبار أننا قادرين على الفعل - وليس بإحساس الشكل المثالى للاستجابة - وذلك من خلال الادراكات التى أستقرت فى الذاكرة مثل «الرموز» المتمثلة فى الكلمات ، و«التعميمات» Evaluations التى نملكها فى عقولنا. فكل منا لديه مجموعة متفردة من الخبرات التى تتصل فى بعض منها بالمعنى العام الذى نشارك فيه جميعاً ، ومن ثم من منطلق تلك المشاركة العامة فى المعانى تبدو خبراتنا فى كونها كافية مثل تلك التى توجد لدى الآخرين.^(٣)

(1) Tery, Clarkn; "Gabrile Tarnd " En Encyclopedia of Social S-cience, (ed) David L-Sills; Volume 15, The Macmillan Company & The Freepress.; New York: 1968, P. 510.

(2) Gerald M. Phillips, & Euge C-Erickson; Interpersonal Doynamics in the Innal groups; Ranclom House , New York , 19-70, P. 133.

(3) Ibid.; PP. 133-134.

ويحدد (ديفيد كنتجزلي) Daviskingsley معالم هذا الاتجاه السلوكي في حديثه عن المجتمع الانساني بآثنا " لا نملك في عقولنا مجرد المجموعة الموضوعية من العلاقات الاجتماعية بين الاعضاء ، ولكن أيضا نملك المجموعة الذاتية. من الأنماط الاجتماعية أيضا، فإذا لم نعرف بكللا الاثنين فنحن الانستطيع أن نفهم المجتمع، ومن أجل هذا فهما لا يكونان متشابهان. فالنظام المعيارى لا يمكن أن يكون مستتج تماما من المعرفة الخاصة بالنظام الواقعى، والعكس بالعكس" (١).

كما أن هناك سمة فريدة فى المجتمع الانساني تلك التى تجعل من واقع التجمع الأولى حقيقة واضحة، تلك السمة التى تتمثل فى نسق "الاتصال الرمزى Symbolic Communicatin"، وتلك المواقف النظامية الخاصة بالنسق، لدرجة أنه يوجد دائما فى المجتمع الانساني ما يطلق عليه بواقعين إثنين: أحدهما يطلق عليه "النسق المعيارى" Normative system ويعتمد على ما ينبغى أن يكون What out to be والآخر هو "النظام الواقعى" Factual order ، ويقوم على ما هو كائن بالفعل، وطبيعة تلك النظامين لا يمكن أن تقوم على التشابه التام، كما أنها لا يمكن أن تقوم على الانفصال التام. (٢)

وأن كان علم الاجتماع يرى أن (فرويد) قد أعطى اهتماماً أقل للأسباب الاجتماعية للسلوك، وأن الصفات اللاعقلية للسلوك وحدها هى التى أحتلت مكانة مميزة فى نظريته، أما الأسباب العقلية والشعورية للسلوك والتى قد توجه الانسان لتحقيق غرض معين، قد أحتلت مكانة ثانوية عنده، حيث أهتم باستقصاء الدوافع الأساسية الفطرية واللاشعورية لهذا السلوك الشخصى، والتى تكمن وراء الأغراض فى الموقف. إلا أن (فرويد) قد أحتل مكانة بارزة فى تاريخ التفكير الانسانى منذ الجدل القديم بين (دوركيم) حيث يرى (دوركيم) وأتباعه أن فرويد وأنصاره يقدمون مجموعة من الأفكار تؤكد إرجاع النظم الانسانية إلى عوامل نفسه (٣).

(1) Kingsly, Davis; Human Society; "Social Norms" The Macmilan Company, New York, 1948-1949, p. 53.

(2) Ibid . p. 52.

(3) Inkles , Alex., Sociological Theoty in Relation To Psychology" In Dohn Mchinney and Edward Tiryakian (ed) Prespective and development- Grafits, p. 410.

ويرى (دوركيم) أن نفس التعابير السابقة هي نفس التعابير التي أستخدمها (أوجست كونت) «في دروسه الوضعية» حيث كان يعتقد في أن الظاهرة التي تسيطر على الحياة الاجتماعية بأسرها ليست شيئاً آخر سوى ظاهرة التقدم، كما كان يعتقد من جهة أخرى بأن هذا التقدم يترتب على عامل نفس محض، ويعنى بالميل الذي يدفع الإنسان إلى تنمية قواه الطبيعية إلى أكبر حد ممكن. وبناء على هذا الرأي تنجم الظواهر الاجتماعية بطريقة مباشرة جداً عن الطبيعة الانسانية، إلى درجة أنه يمكن إستبطان الظواهر الاجتماعية الخاصة بالعصور التاريخية الأولى من خصائص هذه الطبيعة المباشرة، ودون حاجة إلى الاستعانة على ذلك بالملاحظة. وإذا كان (كونت) يرى أن هناك استحالة في تطبيق تلك الطريقة القياسية، إلا أنه رأى أن تلك الاستحالة كانت قياسية وليست عقلية، بمعنى أنها لم تحجب الحقيقة المتمثلة في إمكان الاعتماد على التحليل لمعرفة العلاقة التي تربط بين القوانين الأساسية التي تخضع لها الطبيعة الانسانية وبين آخر النتائج التي وصل إليها التقدم، فليست أحد صور الحضارة تعقيداً إلا بعض المعاني النفسية التي خرجت إلى غير الوجود (١).

أما (هربرت سبنسر) Herfert Spencer في تعريفه هذا لإتجاه السلوكية الاجتماعية «يرى أن النقطة التي يبدأ منها علم الاجتماع هي تلك الوحدات الاجتماعية التي تخضع للشروط التي تتركب تركيباً عضوياً وإنفعالياً وعقلياً، وتحتوى إلى جانب ذلك على بعض المعاني» (٢).

وأخيراً يمكن لنا القول مع (آرنولد جرين) Aronld Gren بأن «المعنى هو المادة الرئيسية للإنسان في المجتمع» (٣).

(١) أميل دوركيم، قواعد المنهج في علم الاجتماع، ترجمة محمد قاسم (مراجعة) د. السيد محمد بلنوي، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٤، ص ٢٠٥ - ٢٠٦.

(2) Spencer, Herbert; Principles le Sociology , p. 553.

(3) Arnoldw W. Gren.; Sociology "An Analysis of Life in Modern Society" Mc Graw-Hill Book Company, Inc., New York, Toranto, London, 1960, P. 1.

وأن كنت قد تناولت العديد من التعريفات والمفاهيم التصورية لهذا الاتجاه بصورة عامة في هذا الصدد لدى الرواد الأوائل ذلك بفرض استجلاء البعد التاريخي لهذا الاتجاه السلوكي في دراسة المجتمع منذ القدم، إلا أن حدث التطور الأساسي خلال بدايات القرن العشرين وظهور هذا الاتجاه بشكل رئيسي في علم الاجتماع، بما يمكن أن نطلق عليه «علم الاجتماع النفسي»^(١) ويتمثل في اتفاق أغلب علماء الاجتماع على أن النظرية السيسولوجية يجب أن تركز بالضرورة على دراسة مشاركة الفرد في الحياة الاجتماعية. وقد أدى هذا الاتفاق بهم إلى «قبول علم النفس كدعامة من دعائم علم الاجتماع»^(٢).

وسوف يعرض فيما يلي لمفاهيم السلوكية الاجتماعية التي شكلت فكر علمائها واعتمدوا عليها في تناول ودراسة الموضوعات والقضايا النظرية التي انشغلوا بها سواء لدى الرواد الأوائل أو في تراث المدرسين الأمريكيين والألمانية على النحو التالي، ثم يلي ذلك عرض للقضايا النظرية :

(أ) المفاهيم التي اعتمد عليها علماء السلوكية الاجتماعية :

(١) «الشعور الاجتماعي»^(٣) . Social Consciousnes .

استخدم مفهوم الضمير أو الشعور الاجتماعي لدى دوركايم وهو يحدد تعريفه للظواهر الاجتماعية وتحديد خواصها والقواعد الخاصة بتفسيرها. ويقصد به في البداية «المجموع الكلي للمعتقدات والعواطف العامة بين أفراد مجتمع معين. والتي تشكل نسقا محظدا خاص بحياته يطلق عليه الضمير الجمعي»^(٤).

(١) نيقولا نيماشيف . نظرية علم الاجتماع وطبيعتها وتطورها (ترجمة) د. محمد حمودع، د.

محمد الجودي د. محمد علي محمد ، د. السيد محمد الحيني (مراجعة) د. محمد عاطف

غيث ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٢ ، ص ٢٠٧ .

(٣) نفس المرجع ص ٢٧٩ - ٢٨٠ .

(٣) يلاحظ أن الترجمة قد تمي الضمين الجمعي أو الشعور الاجتماعي، أو لارادة العامة.

(4) Bierstedt, R. , Emile Durkheim New York : Oellpublishing , 1966. p. 40.

ثم اتخذ دوركايم لمفهوم الضمير الجمعي بعدا جديدا في كتابه قواعد المنهج في علم الاجتماع وهو يصدد ايضا حه عن أن المجتمع ليس مجرد مجموعة من الأفراد، بل يتشكل من تركيب الضمائر الفردية فيما بينها على نحو خاص. وكذلك من اندماج نفوس الأفراد فيما بينها وتجاذبها والذي يكون مدعاة للتأثير في بعضها البعض بحيث ينتج كائن جديد له شخصية نفسية جديدة أطلق عليه بالشعور الجمعي. وفي نفس الوقت يملك هذا الشعور الجمعي خاصية الجبر والالزام على تلك الضمائر الفردية ويختلف نوعيا في تركيب الحالات المكونة له عن الشعور الفردي. والذي ينجم عن الحالات النفسية الفردية المركبة عضويا ونفسيا لدى الفرد^(١).

ويتضح من التعريف السابق أن دوركايم قد انتقل بالخصائص النفسية التي تشكل الضمائر الفردية إلى مستوى اجتماعي أكبر. وذلك في حالة اتحادها وتجاذبها مما ينتج عنه خصائص نفسية جديدة من نوع آخر. وتتمثل تلك الخصائص في واجهة كلية أطلق عليه دوركايم بالضمير أو الشعور الاجتماعي، يملك خاصية القهر على كل أفراد المجتمع. وقد أخذ هذا المفهوم لديه دورا هاما في تفسير الظواهر الاجتماعية وتحديد سلوك الأفراد، ويرى جراهام كينلوشن في هذا الصدد أن هذا المفهوم لدى دوركايم قد لعب أهمية كبرى في البدايات الأولى لهذا الاتجاه السلوكي، في نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين. وأن كان اهتمامه جاء في إطار علم النفس الاجتماعي، وفي شكل الإرادة الجمعية التي تملك وجودا مستقلا. كما يشار إلى تلك الإرادة في إطار الحاجات المجتمعية، كما تحدد سلوك الأفراد في إطارها من خلال التأثير الجبري لأبنيته النمطية الواقعية العامة في المجتمع^(٢).

(1) Durkheim, Emile, Op. Cit., pp. 213-214.

(2) Kinloch, G.G., Sociological theory. New York : M.C. Grow-Hill, Inc., 1977. P. 86.

وقد تابع علماء الاجتماع استخدام دوركيم بهذا المفهوم فى الدراسات المعاصرة فيما بعد مؤكدين على أهمية الدور الذى لعبه فى البدايات الأولى لهذا الاتجاه النفسى فى علم الاجتماع من خلال علم النفس الاجتماعى. وقد أوضحت اليزابيث ويلكنز فى كتابها مقدمة فى علم الاجتماع «طبيعة مفهوم الشعور الاجتماعى»، باعتباره العنصر الرئيسى فى حياة المجتمع. وارتباطه بالاستجابات العاطفية لدى أعضائه، والتى تؤدى إلى التضحية بانتماءاتهم الذاتية من أجل الصالح العام. وتحدث تلك التضحية حتى فى الحالات التى لم يتوافر فيها عنصر الإلزام من قبل شخص آخر. وأن هذه الوحدة العاطفية يشار إليها بروح الجماعة وتتجلى طبيعتها فى حين تتخذ استجابة الحشد العاطفية صورة عنيفة تلقائية. ويبدو ذلك فى انقلاب المتظاهرين على البوليس إذا قبض على فرد منهم بطريقة عنيفة. ويمثل هذا الموقف استجابة فجائية فى إطار الوحدة العاطفية لدى أفراد المجتمع، والتى تنمى لديهم استجابات عاطفية عامة (١).

وفى ضوء ما انتهى إليه دوركيم من تحديده لخصائص ومكونات مفهوم الشعور الاجتماعى لديه والتى حددها «بالعقائد والميول والعادات الجمعية العامة»، ويكون تشكيلها من خلال الظروف الاجتماعية. وتجد انعكاساتها فى ضمائر الأفراد ولكنها تكون منفصلة فى نفس الوقت عن تجسدها الفردية (٢). يمكننا القول أن محتوى مفهوم هذا الشعور الاجتماعى لدى دوركيم، قد تدعم وتطور فيما بعد من خلال الاتجاه السلوكى فى دراسات ماكس فيبر الاجتماعية. والذى تمثل فى اهتمامه بدراسة القيم والقواعد الأخلاقية التى توجه السلوك وتشكل محتوى لهذا الشعور الاجتماعى. وقد أورد نيقولا تيماشيف ما ذهب إليه فيبر فى هذا الصدد من أنه يتعين على العلوم الاجتماعية أن تدرس القيم بشرط ألا

(1) Wilkins, Elizabth, J., An Introduction to Sociology. London : Macdonald & Evans, Ltd., 1970. P. 40.

(2) Durkime, Emile, Op. Cit. PP. 58 - 59.

تفصل عنها المعايير والمثاليات التي تشتق منها الموجهات التي تضبط السلوك الواقعي،^(١).

(٢) الفهم التفسيري للفعل والتفاعل على المستوى الذاتي :

Subjective Interpretation of Action or Interaction

ويعتبر الفهم التفسيري من المفاهيم الهامة التي ارتبطت باهتمامات بأفكار السلوكية الاجتماعية في علم الاجتماع. وبدراسات عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر على وجه الخصوص. والذي عرف علم الاجتماع « بأنه العلم الذي يحاول أن يقدم الفهم التفسيري للفعل الاجتماعي، من أجل الوصول إلى أسبابه ونتائجه، »^(٢).

ويتضح لنا من التعريف السابق مدى ارتباط مفهوم الفهم التفسيري للفعل بالاتجاه السيكولوجي في علم الاجتماع - والذي ينهض بمهمة تفسير الظواهر والسلوك الإنساني في ضوء التصورات والمفاهيم السيكولوجية - وذلك إذا ما عرفنا أن فيبر قد ربط محاولة فهمه التفسيري للفعل من أجل الوصول إلى أسبابه ونتائجه، « بالحقيقة التي ترى أن المعاني الذاتية ترتبط بالفعل من خلال سلوك الأفراد. تلك المعاني التي تأخذ أهمية في سلوك الأفراد الآخرين، وبالتالي تكون الأفعال الاجتماعية موجهة في طبيعة فهمنا لها، »^(٣)

ويتعدد اهتمام فيبر بتلك المعاني الذاتية المرتبطة بالفعل وتحقيق له الفهم التفسيري، يرى « أن القيم الاجتماعية لا تتعارض مع تحقيق الفهم التفسيري للفعل على المستوى الذاتي، باعتبارها عناصر أولية موضوعية تساهم في تحقيق هذا الفهم. وأوضح أن الفهم التفسيري يختلف في مستوى عقلانيته : فهناك الفعل التقليدي

(١) نيقولا تيماشيف ، مرجع سابق ، ص ٢٥٤ .

(2) Weber, Max The Theory of Social and Economic Organization (Trans by) Parsons , Talcot., New York : Oxford University Press, 1974. P. 290.

(3) Weber. Max, Op. Cit., P. 59.

الموجه فى ضوء التقاليد والفعل الاجتماعى العاطفى الذى يتخذ سلوكا عاطفيا والفعل الاجتماعى الموجه فى ضوء معايير القيمة الواعية. وأخيرا الفعل الاجتماعى الرشيد الذى يحدث عند اختيار الوسائل بطريقة صحيحة للوصول إلى أهداف محددة (١).

وقد تطور مفهوم التفسيرى فى دراسات ماكس فيبره وما ينطوى عليه من أفكار نفسية تتمثل فى المعانى الذاتية التى تربط بسلوك الأفراد. ونجده يربطه بمعالجة قضايا هامة فى علم الاجتماع. وقد أشار لويس كودر فى هذا الصدد فى كتابه «علماء التفكير الاجتماعى» إلى أن معالجة فيبر لقضايا هامة مثل الجماعة والنسق والمشاركات، قد جاءت باعتبارها تشكل اطارات معينة للتفاعل الاجتماعى. وأن الغرض الرئيسى لعلم الاجتماع هو تحقيق الفهم للفعل فى نطاق الأفعال التى تمثل المشاركة بين الأفراد. كما اعتبر أن الفرد وفعله يمثلان الوحدة الرئيسية محل الاهتمام للسلوك ذات المعنى. ومن هنا جاء تركيزه على الاتجاهات المتبادلة بين الفاعلين، وايضا فهم دوافع أفعالهم بهدف تحقيق الفهم الكامل لتلك الأفعال (٢) ومن ثم أتخذ فيبر لنفسه، اتجاها ذاتيا فى محاولة تحقيق هذا الفهم التفسيرى الذاتى للدوافع التى تكمن خلف الأفعال الفردية. وأنه يجب على عالم الاجتماع تحليل كيفية تصرفه، إذا كان فى نفس الموقف الذى يوجد فيه الفرد (٣).

وهكذا أصبح الفهم التفسيرى للفعل وما يرتبط به من معانى ذاتية تتعلق بسلوك الأفراد، له علاقة وثيقة بدراسة قضايا علم الاجتماع المعاصرة مثل قضايا الجماعة والنسق والمشاركات. وذلك باعتبار أنها تشكل اطارات معينة للتفاعل. ويمكننا فهم الأفعال التى تحدث بداخلها من خلال ارتباطها بالدوافع والمعانى

(1) Kinloch, G.C., P[. Cit., PP. 139-140.

(2) Coser, L.A., Op. Cit., P. 218.

(3) Wilkms, E.J., Op. Cit., P. 17.

الذاتية للفاعلين. وقد أوضح د. عاطف غيث في هذا الصدد «أن الفهم التفسيري للفعل يعتبر أهم اتجاه تفرع عن السلوكية الاجتماعية، وحلا نظريا للمسائل العامة التي انشغلت بها السلوكية من خلال اهتمامات علمائها أمثال : فيبر، ومانهايم، وروبرت ماكيفر، فلوريان زنانيكى، وتالكوت بارسونز. وتأكيدهم على المعانى الذاتية فى موقف التفاعل، وضرورة دراسة التفاعل فى ضوء القيم الخاصة به وتوقعات الفرد لاستجابات الآخرين .. وقد نظر هؤلاء العلماء إلى الفعل باعتباره الوحدة الرئيسية للبحث. كما يكتسب الفعل صفة الاجتماعية حينما يتوافر القصد فى توجيه سلوك الفاعل أو مجموع الفاعلين ..»^(١).

(٣) «التفاعل الرمزي» Symbolic Interaction

أوضح روث والاس، والسون وولف أن مفهوم التفاعل الرمزي قد ارتبط بهربرت بلومر منذ قيامه بكتابه فصل عن علم الاجتماع النفسى فى كتاب «الفرد والمجتمع». إذ اعتبر هذا الكتاب مقدمة هامة لروح ومناهج العلوم الاجتماعية. وقد استخدم هربرت بلومر اصطلاح التفاعل الرمزي لايضاح وجهات نظر علماء الاتجاه السلوكى فى علم الاجتماع فيما يتعلق بالطبيعة الانسانية. كما أوضح أن علم الاجتماع النفسى يهتم بشكل متسع بالتطور الاجتماعى للفرد. ويمثل هذا الاهتمام هدفه الرئيسى نتيجة لمشاركات الفرد فى الجماعة. وانتهى روث والاس، والسون وولف إلى أن مفهوم التفاعل الرمزي لدى بلومر قد اتخذ واجهة نفسية. وتوضح تلك الواجهة النفسية فى اهتمامه بدراسة الذات الفردية والتفاعل بين أفكار الداخلية للفرد وعواطفه وسلوكه الاجتماعى. كما تبدو تلك الواجهة النفسية كذلك للتفاعل الرمزي فى إطار العمليات التى من خلال يتخذ القرار وتشكل الآراء^(٢).

(١) محمد عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع. القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩، من ص ١٦ - ١٧.

(2) Wallace, R & Wolf, A., Contemporary Sociological theory. New York : Prentic- Hall, 1980. PP. 219 - 220.

وكان ممن أسهموا بصورة مباشرة في إثراء مفهوم التفاعل الرمزي في إطار المدرستين الأمريكية والألمانية كل من : جورج زيمل (١٨٥٨ - ١٩١٨)، ماكس فيبر (١٨٦٤ - ١٩٢٠)، تشارلز هورتون كولي (١٨٦٤ - ١٩٢٩)، وجورج هيرت ميد (١٨٦٣ - ١٩٣١)، وهارولد جارفينكل. وقد جاءت اسهامات جورج زيمل في ظهور مفهوم التفاعل الرمزي من خلال اتجاهه النفسي في علم الاجتماع «ودفاعه عن دعائم هذا الاتجاه الرمزي في مراحله المبكرة وقيامه بتحليلات الاجتماعية للعديد من العلاقات الانسانية في نطاق التفاعلات الاجتماعية ورؤيته أن اهتمامات الناس تجاه بعضهم البعض أما تتجه نحو السعادة أو التعاسة، العمق أو السطحية، أو الطابع الشعوري أم اللاشعوري. وقأتى تلك المستويات من العلاقة في نطاق الاطار الشكلي للعلاقات التفاعلية الرمزية والذي يشكل اطاراً للروابط التي تربط الناس ببعضهم البعض»^(١).

أما اهتمام ماكس فيبر بمفهوم التفاعل الرمزي فيبدو واضحاً في تحديده لمهمة علم الاجتماع بأنه العلم الذي يسعى إلى تحقيق الفهم التفسيري للفعل الاجتماعي. وربطه بتحقيق هذا الفهم التفسيري، في ضوء ادراكنا لمعاني الرموز التي توجد لدى الأفراد في إطار التفاعل الاجتماعي. إذ ترتبط تلك الرموز بالمعاني الذاتية التي تقف خلف كل سلوك انساني. وينتهي فيبر إلى أن الفعل يكون اجتماعي من خلال ارتباطه بالمعنى الذاتي والرموز، والتي توجد في سلوك الأفراد وتأخذ أهمية في سلوك الآخرين. وبالتالي يكون الفعل الاجتماعي موجه في طبيعته^(٢).

وكان كولي من السابقين إلى الاهتمام بمفهوم التفاعل الرمزي. وجاءت اسهاماته الكبرى من خلال تصويره عن مرآة الذات العاكسة Looking glass self. إذ يعتبر كولي أن فهمنا للذات يكون من خلال المعلومات المتعكسة في دواتنا

(1) Wallace, R & Wolf, A., Op. Cit. PP. 221 - 222.

(2) Ibid., P. 221.

الداخلية. كما يأتي هذا الفهم في ضوء أحكام الأفراد الآخرين الذي تتفاعل معهم. ثم حدد كولى ثلاثة عناصر لمراة الذات العاكسة تتمثل في : تصورنا لمظهرنا بالنسبة للشخص الآخر. ثم تصورنا لحكمة على هذا المظهر، ثم بعض من الاحساس الذاتى أما بالزهو أو الخجل^(١).

ولقد تطور مفهوم التفاعل الرمزي من خلال دراسات ميد الاجتماعية النفسية. وفي نطاق السلوكية الاجتماعية وكان ذلك من خلال تصوره عن الذات ككائن متفاعل. وليس من خلال التفاعل السلبى الذى يستجيب فقط للدوافع. وأن الفاعل يرتبط ذاته بالتفاعل الاجتماعى بواسطة أخذه بأدوار الآخرين. وأيضا من خلال أخذه بتلك الأدوار واستجابته لاتجاهات الآخرين. بحيث أصبح المفهوم الخاص بتفاعل الذات بشكل عمقا جوهريا فى تصور ميد لهذا الاتجاه النفسى فى علم الاجتماع^(٢).

كما أضاف ميد بعدا جديدا لمفهوم التفاعل الرمزي من خلال اتجاهه النفسى فى علم الاجتماع مما يثرى اسهامه فى مجال القضايا النظرية لهذا الاتجاه. وقد وضع ذلك فى اهتمامه بدراسة أصل كل من الشعور والذات، وذلك من خلال امكانية النمو التدريجى منذ الطفولة. ثم قيام الذات بدور الآخر فيما تقوم به من انجازات، أى من وجهة نظر الآخرين. ومن ثم انتهى إلى أن التفاعل الانسانى يكون ممكن فقط فى حالة وجود الرمز فى ذات الفرد . كما يوجد أيضا فى ذات الفرد الآخر^(٣).

ويعتبر استخدام هارولد جارفيثكل تطورا معاصرا لمفهوم التفاعل الرمزي داخل نطاق الاتجاه النفسى فى علم الاجتماع الأمريكى. وقد جاء اسهامه فى نطاق النمط الطبيعى من النظرية النفسية الاجتماعية^(٤). ولقد ارتبط هذا الاسهام

(1) Wallace , R. & Wolf, A. , Op. cit . P. 223 .

(2) Ibid ., PP. 224 - 225 .

(3) Coser , L. A., Op. Cit. P. 325.

(4) Kinloch, G. C. Op. Cit. P. 262.

بدراسة جارفينكل للانثوميثودولوجي Ethnomethodology والكلمة لفظيا تعنى بحث أو دراسة مناهج الناس^(١). أما علميا فتعنى «الغرض المتعلق بدراسة الخصوصيات العقلية المرتبطة بالأفعال الواقعية. كما يهتم بالطرق اليومية التي من خلالها يتفاعل الأفراد ويشكلون احساسهم بالواقع الاجتماعي. وبالتحديد من خلال المحادثة والتفاعل. وذلك باعتبار أن التنظيم الاجتماعي أو الأخلاقي يوجد من خلال التفاعل، وهو السبيل الذي بواسطته يفسر الأفراد الواقع^(٢)».

ولقد أوضح الدكتور عاطف غيث «أن اهتمام العلماء الأمريكيين بدراسة التفاعل الرمزي قد شكل اتجاها نظريا مشتركا في اطار السلوكية الاجتماعية. وخاصة فيما يتعلق بتكوين الذات واعتبر أن عمليات التفاعل الانساني هي عمليات تكوين ايجابية، يقوم المشاركون فيها بتحديد اتجاهاتهم السلوكية وفقا لتفسيرات دائمة للأفعال التي يؤدونها. أو يقوم الأفراد من خلال عمليات التفاعل تلك بتعديل أو تغيير اتجاهاتهم وفقا لاستجابات الآخرين ورغباتهم ومشاعرهم. كما ينظرون في مدى ملائمة المعايير والقيم التي يعتقدونها حتى يستطيعون التكيف والتوافق في موقف التفاعل. وأخيرا وفي اطار التفاعل الرمزي يعتبر أي فعل أو سلوك مستمر بين شخصين له تاريخه الخاص وانتظامه، وكذلك تكراره وفقا للتورم والتعرف المشترك على الموقف بين هذين الشخصين^(٣)».

(٤) بناء الشخصية أو الذات (Struction of Personality or The Self)

شغل مفهوم بناء الشخصية أو الذات اهتمام علماء السلوكية الاجتماعية في علم الاجتماع في بدايات القرن العشرين، لا على اعتبار أن كلا علمي النفس والاجتماع يعرفا من خلال اتخاذ الفرد والمجتمع موضوعا للدراسة، ولكن على

(1) Cuizort, R.P. & King, E. W., 20th Century Social thought. New York: Holt, Ronehart and Winston, 1980, p. 314.

(2) Op. Cit., P. 314.

(٣) د. محمد عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ٤٧٩.

اعتبار أن كلاهما يمثلان أنساق للفعل. بحيث أصبح من الأهمية لتحقيق أى منهما أن يهتم بواجبات معينة من الآخر. وتأتى هذه الأهمية فى إطار احتوائهما على عناصر وخصوصيات وأنماط من العلاقات المتفاعلة بين تلك العناصر^(١).

ويرى أليكس إنكلس فى هذا الصدد أن المهتمون بدراسة المفهوم الاجتماعى للشخصية أو الذات - بناؤها ووظائفها وسماتها - يرون امكانية تحقيق الترابط بين علم نفس وعلم الاجتماع. ويرفضون الاهتمام بالعامل النفسى وحده فى تفسير العمليات الانسانية أو العامل الاجتماعى وحده لفهم العمليات الاجتماعية. وبالتالي يرون أن التفسير والفهم السليم لما يحدث داخل البناء الاجتماعى يتطلب تحليل المتغيرات بداخله. وايضا دراسة مدى فاعلية البناء فى التأثير على سلوك الأفراد ومدى تماسك عناصر أو تفككها، وايضا المعرفة الكاملة التى تحدث فى بناء الشخصية أو الذات^(٢).

ويصدد الدور الهام الذى يمكن أن يلعبه مفهوم بناء الذات أو الشخصيات باعتبارها ميكانيزم نفسى فى فهم الأنساق الاجتماعية وجعلها أكثر وضوحا وشرى فهمها وتحقيقا بذلك الترابط بين علمى الاجتماع والنفس، ومدعما لجذور هذا الاتجاه النفسى فى علم الاجتماع. وقد قدم أليكس إنكلس فى هذا الصدد تحليلا يعتمد على ثلاث نقاط توجزه فيما يلى : أولا - دورها فى تحديد المؤثرات على مستوى النطاقات البنائية المختلفة للنسق الاجتماعى. ويأتى هذا الدور فى ضوء تأثير أى من تلك النطاقات البنائية على الأخرى. والذى يكون معتمد فى جزء منه على مدى تأثيره فى الشخصية الانسانية. ومن هنا جاء الاهتمام بدراسة بناء الشخصية،

(1) Inkles, Alex., "Sociological theory in relation to Psychology", Indohn C Mekinny and Esward A. Tiryakian., (eds.) Theoretical Sociology. New York : Meredith Corporation, 1970. p. 406.

(٢) محمد سعيد فرج، نظرية فى مدى إراء علم النفس للنظرية الاجتماعية، مقالة فى كتاب دراسات فى علم الاجتماع والأنثروبولوجيا . (مجموعة من أسئلة علم الاجتماع)، القاهرة، دار المعارف بمصر، ١٩٧٥، ٨٢.

واعتباره متغير أساسى بين المتغيرات الأخرى له مشاركته فى تحليل النسق الاجتماعى. ثانيا - دور بناء الشخصية فى تحديد مدى تلائم العناصر المكونة لوظيفة أى من الانبياق الاجتماعية. ويتحدد ذلك فى ضوء معرفة السمات التفصيلية للسكان والتي تشكل السمات الشخصية للنسق ككل. وتعتبر هذه واحدة من مفاتيح فهم وظيفة فهم وظيفة النسق، واحدى النقاط الرئيسية للربط بين النظرية النفسية والنظرية الاجتماعية. ثالثا - أن مفهوم بناء الشخصية لعب دوراً هاماً فى إيضاح أن أغلب المجالات السيكولوجية المتخصصة والمرتبطة بها مثل: دراسة التعلم والمعرفة والادراك توجد لديها مقدرة كبرى للتوافق مع فهمنا للعمليات الاجتماعية الكبرى»⁽¹⁾.

ويتضح لنا من التحليل السابق مدى ارتباط مفهوم الذات أو الشخصية بتحقيق الفهم النفسى للنسق الاجتماعى من خلال التفاعل الاجتماعى. ويأتى هذا الفهم فى ضوء مشاركته فى تحليل نطاقات النسق الاجتماعى وتحديد السمات الشخصية للنسق ككل ووظائفه. كما يقوم كذلك باضفاء نوع من الوضوح والتوافق فى فهم العمليات الاجتماعية الكبرى من خلال دراسة عمليات مرتبطة بالذات مثل : التعلم والمعرفة والادراك. وقد انتهى أنكليس فى هذا الصدد إلى أن تلك الواجهات السابقة تظهر أهمية علم النفس فى فهم المشكلات الاجتماعية. وهذا لا يعنى ارجاع علم الاجتماع إلى علم النفس ... ولكن المقصد هو إيضاح السبل التى من خلالها يمكن لعلم النفس أن يستخدم ويساعد فى حل المشكلات التى يركز عليها علم الاجتماع ... وايضا استخدام المعرفة الراسخة عن الشخصية كعنصر التحليل السوسولوجى»⁽²⁾.

وقد أدى الاهتمام بدراسة مفهوم بناء الذات من قبل العديد من علماء الاجتماع إلى تحقيق التقارب مع علم النفس. وبالتالي «اتجهوا إلى إقامة دراسات

(1) Ankles, Alex, Op. Cit., PP. 406 - 407

(2) Ibid, P. 407.

علم الاجتماع على قواعد تحليلية لمجموع من المتغيرات النفسية. وكذلك اثرء الاتجاه النفسى فى علم الاجتماع بقضايا جديدة مثل : دراسة الحاجة إلى الانجاز، والاتجاهات نحو السلطة، وأساليب التشئة الاجتماعية. مما ساعد على فهم الكثير من الدوافع الانسانية الكامنة وراء السلوك، ورغم مغالاة دوركيم فى رفضه لهذا الاتجاه الذى أثرته دراسات فرويد عن بناء الشخصية الكلية، وتأكيده على قوة الالتزام الاجتماعى وبالتالى ضرورة الفصل بين علم الاجتماعى وعلم النفس إلا أنه وجد معارضة من علماء المعاصرين أمثال تارد الذى أكد على امكانية قيام صلة ضرورية بينهما. وأن الظواهر الاجتماعية توجد فى بداية تكوينها بصورة فردية نتيجة العلاقة المتبادلة بين شخصين يؤثر أحدهما فى الآخر. فالفرد يوجد أولا ثم الجماعات فالظواهر وأخيرا المجتمع. كما وجد دوركيم معارضة شديدة من كولى، وميد، وبالدين، ووليم توماس الذين أعطوا منزلة عالية للفرد (١).

وفى الدراسات المعاصرة يبدو لنا أن متابعة بارسونز لنظرية فرويد عن بناء الشخصية، ومحاولة تحليلها والوقوف على نقاط الالتقاء التى يمكن أن تساهم فى تفسير السلوك الانسانى، وما يمكن أن تفيد به فى مجال التحليلات الاجتماعية، أدى به إلى محاولة تدعيم مفهوم بناء الشخصية. وقد أوضح بارسونز فى هذا الصدد «أن التحليل النفسى المرتبط بالتفكير السوسولوجى فى دراسة بناء الشخصية وما يقابله فى علم الاجتماع بما أصطلح على تسميته بالنسق الاجتماعى، يسلح لاقامة واجهة التقاء عامه يطلق عليها السوسولوجيون بنظرية الفعل الاجتماعى. وهى الواجهة النظرية التى أراد بارسونز أن يدخل من خلالها فى تحليل مفهوم الذات العليا. وذلك على اعتبار أن مشاركة القيم الأخلاقية

(١) «وهم العلماء الذين تميزوا بنزعة سوسولوجية أكثر وضوحا فى دراسة الذات الاجتماعية، ويدعون أن الفرد من خلال أخذ دور الآخرين ضمنيا يشكل تصورا عن ذاته يقوم على استجابات الآخرين «معجم على الاجتماع» مرجع سابق، ص ٢٣.

(2) Parsons, Talcot, Social Structure and Personality, New York : The free press, 1970. P. 18.

كجزء جوهري في بناء الشخصية ذاتها يمكن أن يشكل نقطة التقاء أولية تنمية علوم السلوك الانساني (١).

وأخيرا يمكن أن ننتهي إلى أن اهتمام علماء الاجتماع بدراسة مفهوم بناء الشخصية قد اتخذ ثلاثة مستويات رئيسية أدت إلى تحقيق التفاعل بين الشخصية والبناء الاجتماعي على الوجه التالي : «الأول - يرى أن الذات الاجتماعية امتداد للترعات النفسية الشعورية والسلوك العقلي المباشر. إذ اهتم كولي - وميد، بظهور الذات الاجتماعية من خلال حجم العلاقات الشخصية المتداخلة كما اهتم سيلفيان الذي أكد على العنصر الشخصي للفعل الفردي والتوافق السيكونديناميكي» (٢) والمستوى الثاني - «يؤكد على الطابع الاجتماعي للذات كما هو عند فروم، ويدرس بناؤها في المجتمعات المختلفة. وقد رفض انكلس وجود نمط عام للشخصية يسود المجتمع ككل نتيجة التغير الاجتماعي الحديث. والذي يؤدي إلى تباين المجتمع وبالتالي إلى وجود أكثر من نمط للشخصية» (٣) أما المستوى الثالث - «فيرى أن مفهوم الدور يشكل أحد العناصر الرئيسية في التفكير السوسولوجي على مستوى البناء الاجتماعي. وكذلك من خلال مجموع التوقعات العامة ونمط الحقوق والواجبات، والتي تضطلع بها الشخصية مع من يشاركونها في نفس النسق الاجتماعي» (٤)

(ب) القضايا النظرية إنشغل بها تيار السلوكية الاجتماعية :

بعد أن تناولنا مفاهيم الاتجاه السلوكي في إطار قضايا النظرية. ننتقل إلى معالجة القضايا النظرية التي انشغلت بدراستها علماء. ولكن يجدر بنا أولاً تحديد

(1) Parsons, Talcot, Social Structure and Personality, New York : The free press, 1970. P. 18.

(2) Ankles, Alex, Op. Cit . PP. 409 - 401.

(٣) محمد سعيد فرج، مرجع سابق ، ص ٨٦.

(4) Ankles , Alex, Op. Cit. 413.

مفهوم الاطار النظرى واهتمامات الاتجاهات النظرية السوسيولوجية بوجه عام. فقد أشار وليم كينكل إلى «أن الاطار النظرى هو مجموعة من القضايا أو الفروض المتعلقة بنسق ما يراد فهمه. ويستخدمها الباحث لفهم التفاعل الإنسانى ونتائج»^(١) كما أورد جراهام كينلوشن فى تحديد اتجاهات النظرية السوسيولوجية، أن اهتماماتها تختلف فى مستوى تركيزها وشكلها وسماتها. فمنها ما اهتم بالمجتمعات باعتبارها كيانات عضوية وظيفية، أو اعتبار الأنساق الاجتماعية كمجموعة متصارعة من القوى، أو تصور المجتمع كمجموعة متفاعلة من الأفراد بحيث تمخضت تلك الاتجاهات الاجتماعية عن ثلاثة أنماط كبرى من النظرية السوسيولوجية^(٢).

وبصد تناولنا القضايا النفسية التى تضمنتها النظرية السوسيولوجية فى واجهتها البنائية والتى تناولت التركيب البنائى للمجتمعات ونظرت له باعتباره كيانات وظيفية عضوية^(٣) أوضح جراهام كينلوشن أن هناك عددا من القضايا الافتراضية ارتكزت فى جوهرها على مبادئ سيكولوجية ومنها الاهتمامات السيكلوجية الاجتماعية لدى دوركيم وتويتز اللذان افترضا -حدد عدد من القواعد الأمبريقية. وأن تلك القواعد تعمل بطريقة آلية وعضوية وتتضمن أنساق المجتمع الذى تربط أجزاؤه بطريقة وظيفية. كما افترضا أن المجتمع يشبه الكائن العضوى الذى يعتمد على وظائف أجزائه، وبالتالي يعتمد على المثل والارادة الاجتماعية التى تربط الأفراد بالواقع الاجتماعى^(٤).

يورد (دوركيم) فى كتابة قواعد المنهج فى علم الاجتماع أن الطريقة التى يتبعها علماء الاجتماع بصفة عامة فى تفسير الظواهر، هل قبل كل شئ طريقة نفسية وغائية هى نفس الوقت - فمن وجهة نظره - إذا لم يكن المجتمع شيئا آخر

(1) Kinkel, W. F., Ibid., Cit., P. 18.

(2) Kinloch, G.C., Ibid., Cit., 30.

(3) Kinloch, G.C., Ibid., Cit. P. 31.

(4) Ibid., PP. 31-33.

سوى مجموعة الوسائل التي يحددها الناس لتحقيق غايات معينة، فليس من الممكن إلا أن تكون هذه الغايات فردية، وذلك لأنه لا يمكن أن يسبق المجتمع في هذا المجال سوى الأفراد . وبالتالي يصبح الفرد هو ذلك المنبع الذي تفيض منه المعاني والحاجات التي كانت سبباً في نشأة المجتمع، كما أنه إذا لم يحتو المجتمع من جهة أخرى على شيء آخر سوى ضمائر الأفراد، لأصبحت هذه الضمائر تبعاً لذلك مبنياً لكل تطور اجتماعي، وحيث أن فليس من الممكن إلا أن تكون القوانين الاجتماعية تبج للقرائن شديدة العموم التي يحتوى عليها علم النفس . كما يترتب على ذلك أن خير تفسير للحياة الاجتماعية سوف ينحصر في بيان أن هذه الحياة وليده الطبيعة الانسانية العامة، وسواء في ذلك أستنبطها الباحث من تلك الطبيعة مباشرة ودون الاعتماد على أي ملاحظة سابقة، أم أرجعها إلى هذه الطبيعة العامة بعد أن يكون قد بدأ بملاحظتها بالفعل (١).

وهذا يعنى بدرجة ما أم رفض (دور كيم) لأن تكون القضايا الأخلاقية مستتجة من القضايا المتعلقة بالانسان وأنشطته، والتي يمكن أن تكون موجودة في العلوم الأخرى، وخصوصاً في البيولوجيا، وعلم النفس، وحيث كان معارضاً باستمرار لهذا التصغير المتمثل في الرأي القائل بأن طبيعة الأنشطة الانسانية Human Activities تتضمن أو تشتمل على كل ما يطلق عليه «بالأخلاق» و«الأخلاق» ويمكن أن يكون مستتج من المبادئ المكتشفة من دراسة أما الجسم أو العقل ويرى أنها ليست واحدة (٢).

فإذا كان (كونت) قد رأى ألا تسلم نهائياً بصحة أي قانون يتعلق بالتطور الاجتماعي. مهما كانت قيمة الطريقة التاريخية التي هدتنا إلى الكشف عنه، إلا إذا أمكن إرجاعه بطريقة عقلية مباشرة أو غير مباشرة إلى النظرية الوصفية الخاصة بالطبيعة الانسانية، ولكن بشرط ألا يرقى الشك قط إلى هذه الطريقة الأخيرة، فهذا

(١) أميل دور كيم، قواعد المنهج في علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ٢٠٥.
(2) Robert, Bierstedt; Emile Durkheim; The Division of Labor "Del Publishing Co, TNC., Ny, 1966, p. 14.

أدى (بدوركيم) إلى الاعتقاد بأن علم النفس ظل في نظر (كونت) دائماً هو الحكم الأخير. وإذا كان (سبنسر) Herbert Spencer رأى أن البيئة الكونية والتركيب العضوي النفسى لدى الفرد هما العاملان الأساسيان في وجود «الظواهر الاجتماعية Social Phenomenans»، ولكن العامل الأول لا يستطيع التأثير في المجتمع إلا بواسطة العامل الثانى، ومن ثم فهذا العالم الأخير هو السبب الأساسى الذى يدعو إلى وجود التطور الاجتماعى. وبالتالي ترجع نشأة المجتمع إلى هذا السبب، بمعنى أن التطورات التى يمر بها المجتمع لا ترقى إلى هدف آخر غير مساعدته الفرد على تحقيق هذه الطبيعة والبلوغ بها إلى أكبر درجة من الكمال، وإذا كان قد سلم بأن المجتمع متى تمت نشأته يؤثر بدوره فى الأفراد، إلا أن ذلك لا يستتبع أن المجتمع يستطيع خلق بعض الظواهر بطريقة مباشرة. بمعنى أن الطبيعة الإنسانية هي مصدر كل شئ، وسواء فى ذلك أكانت هذه الطبيعة فطرية أم مكتسبة، فليس للغايات السياسية وجود حقيقى قائم بذاته، ولكنها مجرد تعبير عن الغايات الفردية (١).

ويتضح لنا مما سبق مدى اهتمام (دوركيم) بمستوى أكبر من مجرد الطبيعة الانسانية، واتخاذها أساساً لفهم المجتمع الإنسانى بما فيه من ظواهر أخلاقية ومجتمعية. وأن كان يعترف بأن هذا المبدأ النفسى قد أصبح أساساً لتلك النظريات الكبرى فى علم الاجتماع، بل أصبح أيضاً مصدراً ووصى لكثير من النظريات الخاصة: (٢) مثل نشأة النظام الأسرى بوجود العواطف التى يكنها الآباء للأبناء، ويشعر بها الأبناء تجاه الآباء. وتفسير العقاب بما يحدث من غضب الفرد إذا أصيبت مصالحه بالضرر الجسيم. وأيضاً تفسير الحياة الاقتصادية بكاملها من جانب أصحاب المذهب المحافظ إستناداً إلى هذا العامل السيكولوجى الفردى البحث والمتمثل فى الرغبة فى تحصيل الثروة، وأيضاً النظر إلى الدين على أنه وليد

(١) أميل دوركيم . قواعد المنهج فى علم الاجتماع، مرجع سابق ص ٦ - ٨.

(٢) أميل دوركيم . نفس المرجع، ص ٢٠٩.

الخواطر التي تثيرها القوى الطبيعية الكبرى أو بعض الشخصيات القذة لدى الانسان - وسوف نتعرض لوجهه نظر دور كيم بالتفصيل في المقارنة بينه وبين فرويد وتارد -.

وتتضح لنا مدى أهمية الدراسة في هذا الموضوع وما يتناوله من موضوعات، إذا ما رأينا أن المفتاح لكل من دراسة وفهم العلاقات الاجتماعية هو «المعنى» Meaning لماذا يعتقد الناس عن حقيقة - ذاتهم Selvies ، وأصدقائهم Friendship ، وفسولوجياتهم الداخلية، العالم الخارجى Eyternal Workd - وتلك هي أساس في سلوكهم . بمعنى أن الانسان يتصرف ويتصارع مع «الواقع» Reality الموجود من خلال معتقداته التي يشغرها، ذلك الواقع الذي يشيد بواسطته تصورات الخصب، وتضبط من خلاله «المعتقدات» Belifs التي توجد لدى الآخرين، الماضية والحاضرة، وحيث يكون أيضا التصرف الانساني، في الجزء الغالب من السلوك الاجتماعي Social behavior متجه نحو «التصورات» Concepts وليس «الأشياء» Things (١)

بل إنه إذا قلنا نجد (دور كيم) ينبذ أى نظرية تدعى أن هناك أى ارتباط تطورى بين الحقائق الأخلاقية للمجتمعات البدائية، والحقائق الأخلاقية فى المجتمعات المتقدمة، وذلك من خلال عدم رغبته فى إمكانية هذا الاعتقاد، واستخداماته القليلة لتطوريه (سبنسر) بل وصوله إلى أن وجهه النظر التطورية فى اعتمادها على الطبيعة الإنسانية تكون خاطئة ويجب نبذها. فهو بذلك يكون قد فصل نفسه عن إثنين من الدعامات المأمولة بالنسبة لعلم الاجتماع، حتى ولو كان قد كتب كثيرا قبل (واطسون) John B. Watson بواجهته السيكلولوجية السلوكية، حيث كانت الاستجابة للدوافع السيكلولوجية على الملأ، - Stimulus

(1) Arnold W. Grlen; Sociology " An analysis of Lofe in Modern Society". Mc Graw - Hill Book Company, Inc., New York, Toranto, London, 1960, p. 1.

Response - Psychology وكان عمل (فوندت) Wundt معروف لديه في ألمانيا، وأيضاً (وليم جيمس) William James^(١) - في عام ١٨٩٠ م.

ومن الموضوعات الرئيسية التي أهتم بها هذا إتجاه السلوكية الاجتماعية في دراسة المجتمع، هو مدى اعتماد الوجود الإنساني على وجود «النظام المعياري» Normative System حيث يرى «ديفيد كنجزي» في هذا الصدد أن الاعتماد الفرد على المجتمع غير متماثل مما هو لدى الحشرات Insects وتنتج عن إستجابات غريزية مختلطة، ولكنه ناتج من استجابات مكتسبة Learned Responses . ومن ثم يكون اعتماد الإنسان على المجتمع يكون في بعده الأقصى اعتماد على «النسق المعياري» حيث يجعل هذا النسق من «النظام الواقعي» Factual order أمراً ممكناً من خلال الدافع الاجتماعي ذو المعنى^(٢) Meaning Stimuli .

وكان تالكوت بارسونز من أبرز العلماء الذين أسسوا النموذج البنائي الوظيفي العضوي في النظرية الاجتماعية، متأثرة في ذلك بأفكار دوركيم وفيير. واطلق على نظريته بالنسق البنائي الوظيفي^(٣) وقد قام بارسونز بنائه النظري على تصورات سيكولوجية ويتضح ذلك في معالجته بناء الفعل الاجتماعي حين «اعتبر أن الخلية الرئيسية في نموذجيه هي الفعل مقابل السلوك. وأن الفعل يفترض فاعلاً خلاقاً. وأنه قبل كل شيء اختياري أي موجه نحو غاية محددة على أساس ذاتي، ومن خلال وسيلة واحدة بين عدد من الوسائل البديلة^(٤)»

وفي تناولنا للقضايا النظرية التي أنشغلت بها اتجاهات السلوكية الاجتماعية الثلاثة أو الاتجاه السلوكي الاجتماعي الذي يفسر المجتمع والظواهر الاجتماعية في

(1) Robert, Bierstedt., Emile Durkheim; "The Division of Labor " Deel Publishing Co., Inc., Ny, 1966, P. 42.

(2) Kingsley, Davis; Op. Cit., p. 53.

(3) Friendrich , R.W., Sociology of Sociology, New York : Free Press, P. 15.

(٤) على جلي ، قضايا علم الاجتماع المعاصر . الاسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٧٩ ، ص

أطار العلاقات المباشرة وتتخذ تفسيراتها شكلا اسقاطيا يشير إلى المعانى التى تكمن وراءها دوافع معينة. إذ لا تقوم تلك التفسيرات على الاستنتاج، بل بصورة عامة تهتم بالفرد أكثر من اهتمامها بالموضوعات على النطاق المجتمعى^(١).

ونبدأ بعرض القضايا النظرية التى تضمنتها اهتمامات السلوكية الاجتماعية والتقليدية : «التى تهتم بقضايا الفهم التفسيرى للفعل على المستوى الذاتى وفى ضوء دوافع الفاعلين. وبالتالى ظهرت التفسيرات الاجتماعية والطبيعية لدى ماكس فيبر، وجورج هربرت ميد فى دراسة الفرد باعتباره نتاج اجتماعى. وايضا التركيز على المعانى الذاتية للسلوك الاجتماعى، والعمليات التفاعلية الاجتماعية^(٢). ويورد هارولد جيرالد فى هذا الصدد، أن السلوكية الاجتماعية، ظهرت من خلالها وتطورت القضايا السيكولوجية لدى تارد والبيون سمول، وكولى. والتى اهتمت بصفة أساسية بالعمليات المتداخلة فى إطار التفاعل وجها وجها. ويبدو ذلك فى تصورات الاختراع والتعقيد والتعاطف وفهم الشخصية^(٣). كما اتخذ كذلك علماء الاتجاه النفسى وفى إطار السلوكية الاجتماعية التقليدية، «من اهتمامات جورج زيمل بدراسة الغرائز والرغبات، أساسا للاهتمام بدراسة قضايا البناء الاجتماعى والتطور. إذ حاول أن يحدد بدقة أشكال العلاقات الاجتماعية العليا والدنيا على مستوى المواقف المختلفة التى تبدو عليها^(٤).

أما عن القضايا الاتجاه النظرية التى اهتم بها علماء السلوكية الاجتماعية المعاصرين أمثال : جورج هومانز، وجورج جارفينكل، فقد تمثلت فى قضايا البيئة الاجتماعية وعلاقة الفرد بها، وذلك من خلال المشاركة وشغل الأدوار والتغير

(1) Kinloch, G.C., Op. Cit., P. 33.

(2) Ibid., P. 33.

(3) Gerald, H.B., "Social Psychology", In Encyclopida of Social Science, Volume (13-14) Op. Cit. P. 460.

(٤) وقد ارتبط بدراسة الذات أو الشخصية لدى كولى وميد العديد من القضايا النظرية مثل قضايا : الانجذامات، الحاجة إلى الانجاز، والتشئة الاجتماعية، محمد سعيد فرج، مرجع سابق، ص ٨٤.

والتعريف الشخصي بالواقع . وكان ذلك من خلال ارتباط تلك القضايا بمفهوم التفاعل الرمزي والانتوميثودولوجي^(١)

وأخيراً كان للقضايا التي اهتم بها المدخل السيكولوجي للسلوكية الاجتماعية أثر بالغ في نمو هذا الاتجاه السلوكي في علم الاجتماع . وقد أوضحها ييلنجر على ثلاث نطاقات ونوجزها فيما يلي : أولاً - « التحليل النفسي » Psychoanalysis وقد احتوت قضاياها عمليات ضبط وتوجيه الرغبات الطبيعية للطفل . كما احتوت قضاياها أيضاً تحليل الحياة اللاشعورية للبالغين ، والضمير الذي يعمل على كبح السلوك ، وكذلك فهم عقده أويب التي تعد واحدة من الميكانيزمات الرئيسية ثانياً - « النطاق السلوكي » ويحتوي على قضايا السلوك والتعليم الاجتماعي ويرجعها إلى قوة الرابطة بين الاستجابة والدافع . كما يرى السلوك الاجتماعي على أنه مجموعة من الاستجابات المتعددة للشخصية . ثالثاً - « القضايا التي شغلت اهتمام نظرية الجشطت » وهي قضايا الإدراك الفردي ودراسة معانية ، والمعرفة ، كما اهتمت بدراسة عمليات التفكير الشعورية المشتمل عليها التفاعل . وتجلى ذلك في دراسات فتر وهيدير لواقع الفرد السلوكي ومعتقداته بما يتوافق مع تكوينه الذاتي^(٢) .

وفي النهاية يرى (ديفد كنجزلي) Davisking Sley أنه إذا كان المفكرين المحدثين قد نظروا إلى مصدر تلك الانماط المجتمعة Social Norms ، من خلال الطبيعة البيولوجية وتعاملوا معها كما لو كانت عرائز . فهذا لا يمكن أن يكون مصدراً حقيقياً لها على اعتبار أن الطبيعة العضوية للكائن تكون مضبوطة بواسطة «النسق المعياري» أكثر من كون أن «النسق المعياري» يكون ناتج من خلال الطبيعة العضوية للكائن . وأن كانت هناك أيضاً تفسيرات أخرى ترجع مصادر تلك الأنماط المجتمعية إلى اطارات : الأخلاق ، الديانات ، والمعتقدات . ولكن الأفكار الدينية والأخلاقية تكون في ذاتها جزءاً من «النسق المعياري» . ومن ثم فإننا نتق مع (ديفد

(1) Gerald, H.B., "Social Psychology" In Encycloedia of Social Science Volume (13-14) New York : Macmillan Company & The Free Press., 1948. P. 460.

(2) Ibid., PP 460 - 461.

كنجزل) فى ضرورة أحتواء ذلك النسق المياري كجزء من المجتمع الانساني، نظرا لما ينهض به من المساعدة فى إشباع الحاجات المجتمعية الرئيسية، وبالتالي يجعل من المجتمعات وأفرادها قادره على الاستمرار فى البقاء. ويبدو هذا جليا اذا ما وجدنا ان «النظام الواقعي» لا يستطيع ان يحقق الضبط على البيئة الطبيعية من خلال وسائل الثقافة، بدون أيضا ان يقوم الانسان بضبط نفسه من خلال «النسق المياري». (١)

هذا وقد لعب علماء هذا المدخل السلوكي الاجتماعي دورا هاما فى الاهتمام بقضايا «الجماعة» Group كمدخل للتنظيم الاجتماعي، ومدى الدور الذى تلعبه من تطور ونمو الطبيعة الانسانية الشخصية. فوجد عن اجماعة (شارلز هورتون كولي) Charles Horton Cooley عن الجماعة الاولى، اصبح الآن عاملا أساسيا فى تصنيف الجماعات. وظهرت تساؤلات عديدة عن كيفية تحديدها، ووصفها بأنها أولية. (٢) وقد قال كولي عن روح الجماعة

« ان وجود واستمرار روح الجماعة ينمى ويرفع العقل الفردى بوضوح». ومن خلال هذا توجد العاطفة الاجتماعية متمثلة فى مستويات الاستحسان ونوع من الاحساس بالأمان. (٣)

كما أنه من بين العلماء الممثلين لإتجاه السلوكية الاجتماعية (جورج هيربرت ميد) George Herbert Mead الذى تناول قضايا الذات فى علاقتها بالمجتمع ويرى «من وحدة بناء الذات تعكس وحدة بناء العمليات الاجتماعية ككل، وان كل من الذوات الاولى ومركباتها يقاس وحده بناء واحدة من الواجهات المختلفة من تلك العمليات الاولى الاجتماعية التى يكون الأفراد فيها متداخلين» (٤)

واذا كان (جورج هومانز) George Homans فى دراساته يصب اهتمامه

(1) Gerald H.D., Ibid.; P. 54 - 55. .

(2) Edward V. Jandy; & Charles Horton Cooley : His life and his theory L The No wood Press; N.Y. 1942, PP. 172 - 173.

(3) Charles H. Cooley.; Social (Process; Southern Illinois University Press; 1966. P. 38.

(4) George H. Mead., "The self" in peter, Wosly; (ed) penquin education, 1970. p. 45

وإذا كان (جورج هومنز) George Homans في دراساته يصب اهتمامه على عمليات لتفسير الخاصه بالعمليات الاجتماعية الرئيسية fundamental social process بمعنى أن مجال دراسته ينصب على العمليات الرئيسية في السلوك الاجتماعي ، فليس هناك أكثر من أن الإنسان قد ملك التجربة الشخصية في علاقته بالسلوك الاجتماعي ، وكل منا يكون عضواً في جماعة ، وبشكل على الأقل قليلاً من القواعد والمعايير norms ويأخذ مكانه في هيئة إنساق . ويضيف (هومنز) أن تألفنا مع المادة المدروسة لايعني أنها ليست محتاجة للبحث ، لأن معرفتنا الحديثة لها ربما في الغالب تسمح لنا أن نفعل الكثير ، وتكون معتمدة على إحساس تام بالفراغ والتي نادراً ما تختبر أمبريقاً - أما البحث فسوف يجعل من هذه المعرفة أكثر وضوحاً ودقة .^(١)

ويتضح لنا مما سبق اهتمام كل من ميد ، وهومنز بدراسة قضايا العمليات الاجتماعية الرئيسية في السلوك الاجتماعي ، ومحاولة التفسير لتلك العمليات ، والذي يقوم في جانب كبير منه على الجوانب السيكلوجية من خلال علاقات «المواجهه المباشرة» face-To-face وسوف نعالج ذلك بالتفصيل من خلال عرضنا لوجهات نظر كل منهما في نطاق المدرسة التي ينتمى إليها في الفصول التالية .

هذا وقد أهتم أصحاب «مدرسه الفعل الاجتماعي» من أنصار هذا الاتجاه بمحاولة فهم «الفعل» action «أو السلوك» وحاول ماكس فيبر تحقيق قضايا الفهم التفسيري للفعل الاجتماعي بمعنى أن الفعل الاجتماعي أما أن يكون علني Ouert أو خفي أو ذاتي intornal وعموماً فهو اجتماعي منذ القدم من خلال الحقيقة التي ترى أن المعاني الذاتية، ترتب به من خلال أفعال الأفراد ، وتلك المعاني تأخذ أهمية في سلوك الآخرين ولهذا السبب تكون متوجهة في طبيعتها^(٢).

-
- (1) Homans, George., "Fundamenta Social Process"; in Neil 7. Smelser ., (ed) An introduction Sociology, First wiely Estern Reprintx, 967. P. 30.
 - (2) Weber, Max., Thetheory of Social and economic organization; "The defination of sociology ans social action" Copright Exford University Press, New York, 1947. p. 88.

وقد تمثل هذ الاتجاه السلوكى لدى العلامة (جوستان لوبون) فى تأكيد، سيطرة العنصر النفسى على علاقات الأفراد وسلوك الجماهير la foule أى قضايا نفسية الجماهير والشعوب أهتم بدراسة الروح الجمعية I am collective التى تسيطر على أعمال الناس وشعورهم وهم متجمعون فى صورة حشد، وبغض النظر عن اختلافهم فى الجنس أو المهنة أو المركز الاجتماعى. وهى حالة نفسية جديدة- تخالف تمام المخالفة نفسية الأفراد الذين تتكون منهم الجماهير، بل تعمل على تقلص الوعى الفردى وانصهار شخصية الفرد لأنها تركز أساسا على مفهوم «اللاوعى» أو «اللاشعور» Unconsciousness حيث يطلق الفرد العنان لما يكتبه فى نفسه من الرغبات، مستندا وراء المظهر الجماعى الذى يشجعه ويدفعه على العمل وفق ميوله وغرائزه.^(١)

وقد أوضح الدكتور أحمد الخشاب ان (ليبون) لم يكن واضحا فى تفسيره لسيكولوجية الحشد، ولم يبين ما إذا كان الفرد يفقد وعيه بصورة كلية بإندماجه فى المجتمع، أو يقصد بوجود وجدان جمعى يطنى على الارادات والوجدانات الفردية وتنساق وفقا له أفكار ومشاعر الأفراد، وان كان ميله أكثر الى الاتجاه الثانى. وأكد فى هذا الصدد على عمليتين نفسيتين أساسيتين هما:-

«عملية التواصل عن طريق العدوى الفكرية»

La Contagion Mental والتى من خلالها تسرى الأفكار والحركات من فرد الى فرد كالعدوى من الجسم المريض الى الجسم السليم، ثم يحاكيها الأفراد بشكل لا شعورى، وهذه العملية تتطوى على سلبه لدور الفرد وتجرده من ذاتيته الواعية وتدمجه فى الروح الجماعية. والعملية الثانية هى عملية «الايحاء» La Suggestibilité بمعنى ان الأفكار والأفعال تتجه من أعلى السلم الاجتماعى الى القاعده الشعبيه عن طريق القاده والزعماء بوسائل الأغراء والايحاء فى صورة اتجاهات جماعية، ووفقا لما يوجهونهم اليه من أعمال وأفكار، وبذلك يسلب

(١) د. أحمد الخشاب التفكير الاجتماعى، مرجع سابق، ص ١٧٦

الأفراد إرادتهم الشخصية. كما أن هذه الآراء لا تصدق على أى مظهر باثولوجى من أنماط التجمعات البشرية غير المستقرة الثورية، والتي تصل بأفرادها الى التدمير أو التعصب أو الحماس المتدفق، تطراً لأن تلك الآراء تكون خطيرة لا تخضع للنقد العلمى، كما ان النظم والأنساق الاجتماعية تكون أرحح عن كونها عابرة ومقصودة على صوره الحشد الطائش، وإن الآراء العامة فى الأشكال الاجتماعية المتقدمة الثابتة يتكون عن طريق النقاش والجدل الهادى سواء بوسائل الدعاية والترغيب أو التنظيم العلمى المدروس^(١).

وان كنت فى هذا الصدد أرى ان هناك ما يدعم هذا التصور النفسى لنفسية الحشد فى عالم اليوم، حتى وان كان فى شكل اجتماعى متقدم، وأوضح دليل على ذلك هو ما يحدث فى عالم اليوم فى ميكانيزمات الزعامه الدينية المتمثلة فى الثورة الايرانية، ودرجة تأثيرها على التابعين.

وبعد عرضنا للقضايا النظرية التى شغلت اهتمام علماء مدخل السلوكية الاجتماعية من خلال اطار المفاهيم أولاً، ثم القضايا النظرية التى تبناها بالدراسة، ومحاولتنا فى هذا الصدد تحديد أبعادها وحصر اهتماماتها. يتضح لنا أنها شملت قضايا علم الاجتماع الرئيسى : من تقدم وتطور وتفاعل اجتماعى وعلاقة بين الفرد والمجتمع أو قضايا تخص السلوك أو الفعل والجماعة، أو البناء الاجتماعى. إذ حاولنا تفسير تلك القضايا فى ضوء مفاهيم سيكولوجية، منها ما يقع فى نطاق علم النفس الاجتماعى، ومنها ما يعتبر اضافة إلى اطار المفاهيم فى علم الاجتماع بوجه عام، وسوف نتناول فيما يلى عرض لقواعد المنهج لدى علماء الاتجاه النفسى فى علم الاجتماع.

٣- قواعد المنهج فى دراسات السلوكية الاجتماعية فى علم الاجتماع :

وبعد تناولنا للقضايا النظرية التى اهتم علماء السلوكية الاجتماعية بدراساتها،

(١) أحمد الخشاب، التفكير الاجتماعى ، مرجع سابق، ص. ٤٧٧ : ٤٧٩.

لدى المجتمع. إلا أنه يرى أن العامة من الناس لا يسلمون بتلك القضية التي أنه من الممكن أن تحل الحياة الاجتماعية وتأخذ لها مكاناً آخر غير شعور الفرد، تلك القضية التي يعترف بصحتها فيما يتعلق بالظواهر الطبيعية الأخرى، بمعنى أنه إذا تفاعلت بعض العناصر فيما بينها ونشأ عن اتحادها بعض الظواهر الجديدة، فإنه يجب علينا القول بأن هذه الظواهر الجديدة لا توجد في كل عنصر من تلك العناصر على حده، بل توجد في الكل الذي نشأ بسبب اتحادها، وكما أن الخلية لا تحتوي على شيء آخر غير الجزيئات المعدنية، كذلك المجتمع لا يضم شيئاً آخر غير الأجزاء. ومن ثم فيجب علينا أن نطبق هذا المبدأ على علم الاجتماع، وإن ينظر الأفراد إلى ذلك المركب الفريد في جنسه الذي يتكون منه كل مجتمع على أنه يؤدي إلى وجود بعض الظواهر الجديدة التي تختلف في طبيعتها عن الظواهر النفسية التي تمر بشعور الأفراد، تلك الظواهر الجديدة التي توجد في نفس المجتمع «وليس في نفس أفرادها»، بمعنى أن هذه الظواهر تكون خارجة عن شعور الأفراد حالة تفرقهم، كما أن الخواص النوعية للجباه توجد خارج المواد المعدنية دون أن يقع تناقض^(١).

ويتضح لنا مما سبق أن دوركيم يحاول أن يحذو حذو العلوم الطبيعية، في دراسته للواقع الاجتماعي، ومحاولاً تحقيق أن قدر من «الموضوعية» Objectivesm في دراسته للظواهر الاجتماعية، ذلك المنهج المستخدم في العلوم الطبيعية. وبالتالي كانت نظريته إلى الظواهر الاجتماعية على أنها خارجة عن شعور الفرد، وعلى أنها أشياء توجد في الواقع الاجتماعي، وتمارس نوعاً من القهر الخارجي. ومن ثم كان تعريفه للظاهرة الاجتماعية على أنها «ضرب من السلوك. ثابتاً كان أم غير ثابت، يمكن أن يباشر نوعاً من القهر الخارجي على الأفراد، أو هي كل سلوك يعم في المجتمع بأسره، وكان ذا وجود خاص مستقل عن الصور التي يتشكل بها في الحالات الفردية»^(٢).

(١) أميل دوركيم، قواعد المنهج في علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ٢٩٠ - ٢٢.

(٢) نفس المرجع، ص ٦٨٠ - ٦٩.

ويورد (تالكوت بارسونز) Talcot Parsons كتابه بنيه الفعل الاجتماعي Structure of social action^(١) أن (دوركيم) قد أثار المشكلة التي تتعلق على وجه الخصوص بالحالات الواقعية للمقولات الذاتية حيث يسلم ويعترف بالأساس الاجتماعي النفسى فى الفرد، ولكنه لم يحلل هذا التوريط يعد كاف وترك برهته على تلك النقطة معلقة فى الهواء. ولكنه قدم بالفاط عامة مناقشة مذهبة لتلك المسألة-لكنه دخل بنوع خاص فى صعوبات خطيرة، من خلال معالجه «القدرات» و «الاستعدادات» العامة لدى الفرد الانسانى والتي تمثل المحتوى السيكولوجى، لتلك الأشكال النوعية العقلية التي توجد فى الحياة - لا يمكن أن يهتم بها فقط فى إطار تلك القدرات والاستعدادات، ولكن يجب بالاضافة إلى ذلك أن يدرس الفرد فى إطار تلك القدرات والاستعدادات، ولكن يجب بالاضافة إلى ذلك أن يدرس الفرد فى إطار «الوسط الاجتماعي» Social Milieu الذى يعيش فيه^(١). ومن ثم «فالنظرية النفسية الاجتماعية تكون غير كافية فى تفسير الحياة الاجتماعية»^(٢)

وترتيباً على ما سبق يتضح لنا أن دوركيم لا يتفى الأساس السيكولوجى للحياة الاجتماعية، ولكنه يعترف به، ويسلم بوجوده، بل أنه كان أساساً لكثير من النظريات الكبرى فى تفسير الحياة الاجتماعية. ويبدو أن اهتمامه بمسيرة اتجاه العلوم الطبيعية فى دراسته للحياة الاجتماعية، ومحاولة الالتزام بمنهج الموضوعى فى دراساته للظواهر الناجمة عن الاعتماد المتبادل بين الأفراد، هو الذى أدى به إلى إعطاء الأهمية الكبرى لدراسة الظاهرة الاجتماعية على أنها شيئاً خارجاً عن الفرد، ومحاولاً تحقيق أكبر قدر من الموضوعية فى دراساتها ومن خلال المنهج الوصفى فى دراسة للظاهرة الاجتماعية، ثم تركيزه أيضاً فى دراسته للحياة الاجتماعية على العوامل الاجتماعية واعطاها اهتماماً أكبر من الجوانب النفسية هو الذى أدى به إلى عدم الاهتمام بالمنهج الذاتية فى فهم السلوك الانسانى.

(1) Parsons , Talcot., The Structure of Social Action, Op. Cit., PP. 357 - 358.

(2) Ibid ; P. 358.

ويرى (أرنولد جرين) Arnold w. Grean أن تركيز الانتباه من جانب علم الاجتماع على «المعنى» Meaning يفصل علم الاجتماع بجانب كل العلوم الاجتماعية الأخرى، عن العلوم الطبيعية، Physical Sciences بمعنى أن مادة العلوم الاجتماعية تكون مختلفة ومن ثم معالجة تلك المادة تكون أيضا مختلفة، فمن حيث اهتمام تلك العلوم الثقافية والاجتماعية بفهم «المعاني» يتساءل كيف ينتج التعميم Generalization أن ينتج من دراسة السلوك المدروس الذي ربما يختلف باختلاف المعنى الذاتي الذي يوجد لدى كل شخص؟

وفي الإجابة يرى أن هناك ثلاثة حقائق متعلقة بطريقة دراستنا في تلك العلوم الثقافية والاجتماعية والتعميمات والفروض المتعلقة بها :

أولاً : أن الفعل الاجتماعي يكون مكبوت، ومحدد.

ثانياً : أن مشكلات التفسير في علم الاجتماع تختلف في الدرجة التي تكون عليها اختلافات المعاني، ووجوب أخذ تلك المعاني في الاعتبار.

ثالثاً : وجود المعاني النوعية ، والمقاصد في الفعل الإنساني لدى العديد من الناس والتي يمكن دراستها مستقلة في إطار المعاني الفردية. (١)

ولما كان هذا الاتجاه السيكولوجي في علم الاجتماع هو ذلك الفرع الذي يهتم بدراسة السلوك الإنساني والحياة الإنسانية، في ضوء مبادئ وقوانين علم النفس الاجتماعي، وعلى الأخص «المعاني والدوافع الذاتية التي تكمن خلف سلوك الأفراد. وهذا ما ميز منهج العلوم الثقافية والاجتماعية ، عن العلوم الطبيعية في ألمانيا وتتمثلا في منهج الفهم الذاتي للمعاني والدوافع التي تكمن وراء الأفعال والظواهر» (٢).

(1) Arnold W. Grien., Sociology , Op. Cit., Pp. 2 - 4.

(2) Parsons, Talcot., Evolution & Objectivity in Social Science : (in inter fpretation of Max Webers's Contrubution ", in international social science Journal, Vo. XVII No. 1, Unesco, 1960, Paris.

ويمكن تقسيم علماء تيار السلوكية الاجتماعية في اعتمادهم على المداخل المنهجية وفي اطار المدرستين الأمريكية والألمانية وفقا لاتجاهاتهم النظرية في اطار السلوكية الاجتماعية. وتجدر الاشارة مسبقا إلى «أن أى مدخل منهجى لدراسة السلوك الانساني يمكن تحديده في نطاق ثلاثة عناصر رئيسية هي : (د) وتشير إلى الباعث ، (هـ) وتشير إلى تأثيره على الكائن ، (R) وتشير إلى الاستجابة المتبعة في السلوك الناتج» ، وقد أوضح جيرالد هارولد في هذا الصدد أيضا «أن الاختلافات بين المداخل المنهجية تكون منحصرة في كيفية وصفها وتشكيلها لتلك العناصر. فبينما نجد علماء النفس التقليدي يصفون الدافع على أنه تتابع خاص ، والاستجابة له تعتبر حالة طبيعية في حدود الأطر الفيزيائية، نجد أن دراسة علماء الاتجاه النفسى الاجتماعى المعاصر للتعلم تتضمن مرحلتين من العمليات تتوسطا الاستجابات للدوافع. والأولى - هي المرحلة التصورية التى ترجع المعانى إلى بعض من أشكال الدوافع الخارجية. والثانية - المرحلة التى تكون فيها معانى الدوافع نابعة من السلوك التابع للشخص نفسه موضوع الدافع والاستجابة كما يعمل هؤلاء العلماء أيضا فى اطارين : الأول - يدرس السلوك الاجتماعى من خلال العالم اليومى والوسط الاجتماعى. والثانى - هو الاطار التجريبي بمعنى القدرة على معالجة وضبط واظهار حالات الدافعية التى تواجه الشخص محل الدراسة والتجريب. (١)

ويسدو أن منهج الفهم يعد أهم المناهج التى اعتمد عليها علماء مدخل السلوكية الاجتماعية فى علم الاجتماع متخذا صورا مختلفة فى تبنيهم للترعة السلوكية، والتى توجههم فى دراسة الفعل أو السلوك فى نطاق المدرستين الأمريكية والألمانية. ففي نطاق المدرسة الأمريكية اتخذوا واجهة الاتجاه العضوى السيكولوجى أو الفهم التعاطفى، تلك الواجهة التى تفسر الفعل الاجتماعى

(1) Gerald, H.B., Op. Cit., PP. 460 - 461 .

بالاستعانة باطار الفهم والمعنى. كما تعد تلك الواجهة ضرورة لادراك وفهم العناصر الذاتية للدوافع والأغراض التى يتميز بها السلوك الاجتماعى للانسان. (١)

وقد أستخدم كولى وميد منهج الفهم أو التعاطف فى واجهته السيكولوجية لدراسة الذات الاجتماعية وتطورها نتيجة التفاعل بين الفرد والمجتمع. وكذلك فى اظهار الدور الذى تلعبه الجماعات الأولية فى تشكيل الذات أو الطبيعة الانسانية. وجاء ذلك فى اطار «قناعتهم بأن منهج الفهم التعاطفى يمثل طريقة خاصة للحصول على المعرفة فى العلوم الانسانية، وكعملية حدسية عقلية. إذ يدرك الفرد طريقة من خلال عقل وانفعالات شخص آخر ، ويحاول توليد أفكار الشخص الآخر لديه ويشاركه مشاعره. (٢)

وكما اتخذ كذلك منهج الفهم واجهة تفسيرية سيكولوجية لدى كل من ماكس فيبر وجورج هيربرت ميد «وذلك فى اطار النمط التحليلى الكلى من السلوكية الاجتماعية. وقدم فيبر عددا من الأنماط الاجتماعية للمعنى. كما اهتم بتنمية عددا من المداخل المنهجية التى تضمنت منهجين رئيسيين : أولهما - منهج الفهم التفسيرى، ثانيهما - منهج التجربة التخيلية، والأول يتضمن محاولة تفسير السلوك على المستوى الفردى والجماعى فى اطار الأنماط المثالية للمعنى الاجتماعى. والثانى - يتمم الأول ويتضمن افتراض امكانية قيام أنماط للمعنى الاجتماعى يمكن أن تكون مرتبطة بالدافع. وفى كلا المنهجين أكد فيبر على محاولة تحديد نوع الدافع الذى يمكن خلف الفعل الاجتماعى المتضمن، وجاء استخدامه لتلك المناهج فى محاولة للربط بين الديانة البروتستانتية والرأسمالية. بمعنى أن هدفه الرئيسى كان يتمثل فى الربط بين الدافع والفعل الاجتماعى

(١) على جلى ، « النظرية واتجاهات تطورها فى علم الاجتماع المعاصر» مقالة فى كتاب دراسات فى علم الاجتماع والثربولوجيا، مرجع سابق، ص ١٨٠.

(٢) نفس المرجع ، ص ١٧٩.

وبين القيم والسلوك الاجتماعي، وذلك من خلال استخدامه لمناهج الفهم التفسيرية^(١).

ومتابعة لاستخدام منهج الفهم في واجهة التفسيرية السيكولوجية جاءت أيضا «مناهج ميد مثل فيبر تفسيرية وذاتية. إذا استخدم منهج الفهم التفسيري الذاتي أو الاسقاطي، والذي يتماثل مع اتجاه السلوكية الاجتماعية. وأتخذ منه محتوى ملائم في محاولته الوصول إلى ما في داخل الفرد بهدف فهم العمليات الاجتماعية العامة^(٢).

وفي المقابل من النمط التحليلي من السلوكية الاجتماعية لدى فيبر وميد جاءت اهتمامات جورج زيمل المنهجية في إطار النمط الطبيعي من السلوكية الاجتماعية «واهتم بتطور علم الاجتماع الصوري وأنماط معينة من التفاعل، والتي تعتبر أساسا لأنماط معينة من البناء الاجتماعي. واعتمد زيمل في ذلك على المناهج التحليلية التاريخية والمقارنة. وشجع استخدام النماذج الاجتماعية كأدوات منهجية لدراسة البناء الاجتماعي. وقام بتحليل نماذج الغريب والوسيط والشخص الفقير واعتبرها تقدم ما هو ملائم من أنواع المشاركة والتفاعل بين أفراد المجتمع. والذي ينهض من وجهة نظره على غريزة المنافسة الانسانية وحجم الجماعة والتطور الاجتماعي^(٣).

ويمكن القول بوجه عام أن عددا كبيرا من علماء التيار السلوكي الاجتماعي في المدرستين الأمريكية والألمانية قد تبنا منهج الفهم، وأن كان أتخذ لديهم واجهات سيكولوجية مختلفة. وهذا يرجع إلى اهتمامات كل منهم النظرية في إطار الاتجاه السلوكي من النظرية الاجتماعية. وكانت هناك مناهج نفسية أخرى

(1) Kinloch, G.C. , Op. Cit., P. 141.

(2) Ibid., P. 147.

(3) Kinloch, G.C. Op. Cit., P. 154.

اعتمد عليها علماء الاتجاه النفسى بجانب منهج الفهم، وقد وضحت تلك المناهج لدى زيميل، و «جورج هومانز الذى استخدم منهج دراسة الحالة» (١).

كما عرف عالم الاجتماع الأمريكى المعاصر هارولد جارفينكل باعتباره من العلماء الممثلين لهذا الاتجاه السلوكى فى علم الاجتماع. وجاء هذا الاهتمام فى اطار اتجاهه الاثنوميثودولوجى والذى اعتبر أحد الاتجاهات السائدة للفيثومينولوجيا فى علم الاجتماع (٢). وقد تشابه جاد فينكل فى اتجاهه هذا مع نظرية التفاعل الرمضى. حيث يعتبر مداخل نفسيه اجتماعية تهتم بالأفراد أكثر من الأدوار والبناءات الاجتماعية (٣). وقد بنى جارفينكل فى دراساته النفسية الاجتماعية مدخلا منهجيا يسير فيه دعوة شتّى للعقلانية والنمط الاجتماعى الامبريقى فى علم الاجتماع. ومن ثم كانت مناهجه الامبيريقية مشتملة على محاولة دراسة العمليات العقلانية. وذلك من خلال عددا من الطرق المنهجية، والتي تهدف إلى القاء الضوء على الطريقة التى من خلالها يعمل النظام الأخلاقى فى عمليات التفسير الفردية. إذا اعتبر أن الفرد يكابد للوصول إلى حالة التوافق والعقلانية وتشكيل احساسه بالموقف. وحدد تلك الطرق المنهجية فيما يلى: تحليل الديالوج، دراسة الحالة، والتجارب التى تحتاج إلى امضاع عن الشك المتضمن فيها وتكون الاستجابة فيها ملاحظة (٤).

وهكذا يتضح لنا مدى اهتمام علماء السلوكية الاجتماعية بالمناهج الذاتية فى دراسة الشئون الانسانية. إذ يرى ماكس فيبر يرى أن الاختلافات القائمة بين العلوم الانسانية والعلوم الطبيعية لا ترجع إلى الموضوعات التى يهتم بها كلا العلمين، أو المناهج المستخدمة فى كليهما، بل ترجع فى الحقيقة إلى نوع المعرفة المتضمنة

(1) Martindale, Don., the Nature and types of Sociological Theory.

London : Rotledge and Kegan Paul., 1961. P. 476.

(2) Wallace, R.A. & Wolf, A., Op. Cit., P. 267.

(3) Ibid., P. 280.

(4) Kinloch, G.C., Op. Cit., P. 270.

المتضمنة فيهما. فعند دراسة الأمور الإنسانية يقوم الانسان بالدراسة ويكون هو نفسه موضوع الدراسة في نفس الوقت، بمعنى أن العلم الاجتماعي هو المعرفة بالذات ، كما أن علاقة الانسان بدوافعه واعرافه اكثر قوة من علاقته بالنجوم أو الأشياء الأخرى (١).

ولقد حاول (ماكس فيبر) أن يفيد من النسق السيولوجي الذي قدمه لعلم الاجتماع، مستعينا بالامكانيات التي توجد لدى العلوم الطبيعية، والروحية، ورأى أن تحقيق أعلى مستوى في فهم الظواهر الاجتماعية يكون ممكن، إذا ما كان هذا الفهم سببياً بدرجة كافية، وملائماً على مستوى المعنى. وقد تتطلب ذلك من وجهة نظره تحليلاً لثلاثة أسئلة هي : الأول ما هو الفهم السببي الملائم Causally Adequate Under Standing . والثاني : ما هو الفهم الملائم ذو المعنى Meaning Adequate Under Stanfing والثالث : يفي بكيفية إرتباط الفهم السببي الملائم والفهم الملائم ذو المعنى معاً (٢). (وسوف نتناول ذلك بالتفصيل، ونحن بصدد معالجة الاتجاه النفسى لدى ماكس فيبر).

هذا وقد أورد الدكتور أحمد الخشاب، أن ليبون (Libon) في تصوره لنفسه الحشد وتصرفه وفقاً لميول وعرائز وعاطفة جامعة متمثلة في سلوك الأفراد، مما يؤدي إلى اختلاف سلوك الأفراد داخل نطاق الحشد ، عن سلوكهم خارجه حيث يبدو كجسم واحد وككائن مستقل، ربما أستعار نظريته هذه من العلامة الانجليزى (هربرت سبنسر) من خلال تبينه للمنهج العضوى السيكولوجى فى دراسة المجتمع، وخاصة فيما يتعلق بسيادة ظاهرة التجانس على الفروق الفردية، وأراد أن يعقد صلة بين ظاهرة الحشد والمرحلة الدينية من التطور العضوى دون تمييز بين التكتلات الحيوية والكتل الشعبية والطبقات أو الفئات الاجتماعية (٣).

(1) Julien, Jreund.; The Sociology of Max Weber; Translated From French by Mar Ilford; Penguin Books . England, 1972, p. 38.

(٢) نيقولا تيماشيف. نظرية علم الاجتماع، مرجع سابق ص ٢٥٥ .

(٣) د. أحمد الخشاب . التفكير الاجتماعى ، مرجع سابق ، ص ٤٧٧ .

وتدعيما لاستخدام علماء الاتجاه النفسى للمنهج العضوى فى دراسة سلوك الأفراد داخل نطاق الجماعات الصغيرة Small Groups يرى (جيرالد فيليبس) ، (يوجينى أريكون) أن المنهج المناسب لتحليل السلوك الفردى جميعها تتمثل فى إمكانية الحصول على أكثر أو أقل من «التقدير الذاتى» Self-Esteem أثناء تفسير السلوك الذى يقوم به ، بمعنى أن هذا يتوقف على أنواع السلوك المباحة والمتوافقة أثناء نموه ومن خلال دوره ومكانته فى الجماعة. فليس هناك مجال لمناقشة التى ترى أن أى فرد لا يستطيع أن يقمع رغبته الخاصة من أجل أن يظهر التأثير على الآخرين ، بمعنى الدافع الشخصى للكسب ربما يكون مشترك مع هدف الجماعة ، فى حين يكون مشارك بدرجة كبرى حينما يمكن للفرد أن يحصل على الكسب الفعّال Potential Gain لنفسه من خلال هذه المشاركة الجماعية واتفاقه مع أهداف الجماعة^(١).

ومتابعة لهذا المنهج العضوى انسيكولوجى فى فهم الفعل أو السلوك من وجهة نظر الذاتية Subjective - View ، كما هو فى تفسير الحياة الاجتماعية ، يرى (ديفيد كينجستى) Davis Kingstey أن الفعل Act يحلل فى إطار أربعة شروط معتمدة وغير منفصلة : أولا : الفعل Actor ثانيا : الغاية An end أى الحالة المستقبلية بالنسبة لما هى فى عقل الفاعل. ثالثا : مجموعة من الشروط أو الحالات Conditions أى واجهات الموقف التى من خلالها لا يكون لدى الفاعل أى ضبط. رابعا : مجموعة الوسائل Set of Means ، أى واجهات الموقف التى من خلالها يملك الفاعل الضبط . بمعنى أننا نحلل سلوكنا فى إطار هذه العناصر وتتخيل أن نفس تلك الاعتبارات تكون مطبقة بالنسبة لسلوك الآخرين ، كما أن كل واحد من تلك العناصر لا يكون مستقل عن الآخرين ، فى حين أنه لا يكون ناتج فى نفس الوقت عن الآخر : «فالغايات» لا يمكن أن تكون مستتجة

(1) Gerald: M. Phillips & Evgen C. Erickson., Interpersonal Dynamics in The small Groups : Op. Cit., P. 224 .

من «الوسائل» ، أو أن «الوسائل» تكون مستنتجة من «الشروط» ولكنها جميعاً ومن وجهة النظر العضوية التحليلية تكون متميزة، ولا أحد منها يستطيع أن يضع إحساساً في مناقشة «الفعل» بدون إستخدام كل التصورات الاربعة الأخرى^(١).

وقد تبني ايضاً (تشارلز هدرتون . كولي) Charles H. Cooley هذا المنهج العضوى السيكولوجى فى دراسته للجماعات الاولى من أجل الوصول إلى الدور الذى تلعبه تلك الجماعات فى تشكيل الذات Self أو الطبيعة الانسانية الأولية Humanature (وسوف نعرض لهذا بالتفصيل فى معالجتنا لدى الاسهام الذى قدمه فى هذا المجال)، من خلال ما يحدث بين الفرد والجماعة من تفاعل وتأثير متبادل^(٢)

(1) Davis, Kingsly . Human Society; Op. Cit.; Pp. 121 - 122.

(٢) نيقولا تيماشيف : نظرية علم الاجتماع ، مرجع سابق ، ص ٢١٦

خاتمة الباب الأول

خاتمة الباب الأول

بعد عرضنا فى الفصل الاول لحقيقة إتجاه السلوكية الاجتماعية وجذوره فى الفكر الاجتماعى، وبدايات تطوره فى علم الاجتماع. وفى الفصل الثانى - لقضايا النظرية والمنهجية من خلال : المفاهيم ثم القضايا التى انشغلت بها مداخله النظرية ثم للمداخل المنهجية التى اعتمد عليها علماء فى دراسة هذه المفاهيم وتلك القضايا بهدف فهم وتفسير الحياة الاجتماعية . وجاء العرض فى ضوء اسهامات العلماء الأوائل لهذا الإتجاه، وعلماء المدرستين الأمريكية والالمانية بوجه عام. يتضح لنا فيما يتعلق بحقيقة وجذور هذا الإتجاه السلوكى فى تاريخ الفكر الاجتماعى أنه كانت له مقدماته وجذوره الواضحة فى الفكر الفلسفى لدى افلاطون وارسطو. وجاء ذلك فى اطار اهتمام فلاسفة الاغريق بوجه عام بالفرد اكثر من الدولة . ثم قمنا باستعراض لتاريخ هذا الإتجاه لدى رواده فى اضافة محاولة للوقوف على اسهاماتهم الجوهرية وذلك بهدف ايضاح نقاط الاتفاق والاختلاف فيما بينهما .

وذلك بغرض الوقوف على مدى الاسهام الذى قدمه هذا المدخل السلوكى متمثلا فى مجهودات رواده الأوائل فى مجال نظرية علم الاجتماع وموضوعاته ومناهجها، ولعله من المهام فى نهاية هذا الفصل الأول الاجابة على سؤال جوهرى يتعلق بتقسيم الدور الهام للأفكار الدور كيمية والافكار الفرويدية، وأحكام جابرائيل تارد فى بذوغ هذا الإتجاه النفسى؟ وهل كان هناك إتفاق فى وجهات النظر بين كل من دور كيم وفرويد فيما يتعلق بموضوعات هذا الإتجاه أم أنهما يمثلان قطبي الرحا فى علم التفائهما؟

وتجدر الاشارة إلى أن تطور هذا السلوكية الاجتماعية فى علم الاجتماع قد شهدتها بدايات القرن العشرين بظهور إتجاه اساس فى علم الاجتماع أطلق عليه بعلم الاجتماع النفسى^(١) وانعكاس بشكل واضح فى تراث المدرستين الأمريكية

(١) نيقولا تيماشيف : نظرية علم الاجتماع ، مرجع سابق ، ص ٢٠٧ .

والألمانية إلأنا فى هذه الخاتمة سوف نولى اهتماما لما سبق أن طرحناه وذلك لاعتبارين : أولهما أن العلماء الثلاثة خارج نطاق المدرستين الأمريكية والألمانية ، ولما لأفكارهم من أهمية خاصة فى بدايات ظهور هذا الاتجاه النفسى فى علم الاجتماع وثانيهما : أن تقييم اسهام علماء المدرستين الأمريكية والألمانية سوف يلى عرضه خلال فصول الدراسة التالية:

ولقد أعتبر فى هذا الصدد أن هناك سوء فهم فى موقف دور كيم من العلاقة بين علم الاجتماع وعلم النفس، على اعتبار أنه ملك فى تفكيره إهتماما بالآ يجب أن يفعل علم الاجتماع من خلال المستويات السيكولوجية Psychological Levels فى التفسير، وإن كان إهتمامه الرئيسى كان منصب على جعل المشاركة الاجتماعية Social association هى الواجهة المركزية للكائنات الانسانية، وحيث يعتبر فى هذا الصدد أن معاشرة الانسان Nan Sociability هى نقطة الالتقاء فى تطور الضمير Conscience ، والأخلاق Morality والعواطف Sentiments ، وأن هذه المشاركة وتلك المعاشرة يجب أن تأتى أولاً وقبل تصور الفرد فى فهم أفعال الناس فى المجتمع، كما أن هذا المجال المتعلق بالضمير الاجتماعى Social Science أو الأخلاق لا يمكن أن يفهم باستخدام المدخل النفسى الفسيولوجى Psycho-Physiological ولكن يحتاج المدخل «الاجتماعى النفسى» Psycho-Physiological approach وهذا يعنى أن دور كيم كان مهتم بتأسيس أن المدخل السيكولوجى فى اعتماده على الاختلافات الفردية الفيزيكية لا يستطيع أن يفسر ظهور الضمير الاجتماعى، والذي يعتبر عنده واجهة مركزية لكل المجتمع الانسانى (١).

وانطلاقا من اهتمامه الرئيسى بالمشاركة الاجتماعية، واهتمامه بدراسة الواقع الاجتماعى وجعله الأساس الجوهرى فى فهم وتفسير حياة المجتمع والفرد، نجده

(1) Bocock . Robert.: "Emile Durkheim" P. 138.

يشارك الاهتمام القائل بأن الحضارة الحديثة قد فشلت في تقديم السعادة المنشودة من خلال الفلاسفة الذين ظهروا كنهاية لفترة الاقطاع - وهو في ذلك يختلف مع وجهة النظر الفرويدية - حيث يرى دوركيم أن هناك امكانية قليلة في تحقيق السعادة للناس خارج نطاق البناء الاجتماعى المضبوط أو العيارى Normative social structure ، بمعنى أن «السعادة» هنا تكمن في إنجاز الأهداف من خلال الواجهات الضبطية للمجتمع، أما «التعاسة» تتبع من الاضطراب في تتابع الأهداف والغايات ومن الحاجة إلى مجموعة من المثل الواضحة التي تقود نحو متابعة الأهداف، وقد أوضح (روبرت بوكوك) أن (دوركيم) لم يناقش كثيرا محتوى تلك الأهداف والمثل Goolsand Norms بل كان الشيء الأهم بالنسبة له يكمن في مجموعة واضحة من القيم التي تتابعها. أما بالنسبة للنظرية الفرويدية في هذا الصدد فهي ترى أنه لن تكون هناك سعادة في تلك البناءات المجتمعة العليا، إذا لم تسمح تلك القيم والمثل بالتعبير عن «الطاقة العريضة» Instinctual Energy ، بمعنى أن (فرويد) فضل مساعدة الفرد على العمل من خلال المثل والأهداف، وعلى أرضية سيكولوجية أكثر من الاتجاه للبناء الحضارى المضبوط Tightly Structured Civilization ، حيث فهمت نظريته على أنها صممت لفهم الطرق التي من خلالها يسبب هذا البناء المثالى عدم السعادة أو التعاسة لتلك الناس المرضى، ونجيت أيضا لم

يكن هناك عند دوركيم حل لتلك الأمراض بالنسبة لنموذج فرويد عن وجود الانسان فى المجتمع والذي يشتمل على فكرة «إشباع العرائز والكتب» Instinctual Gratification and Repression والتي أفترها دور كيم فى تفكيره (١).

وإذا كان ما سبق هو الفهم السائد لنظريتي دور كيم وفرويد بإعتبار الأولى يركز على البناء الاجتماعى الذى يعتمل من خلال الواجهات المجتمعية المضبوطة

(1) Bocock, Robert: "Emile Le Durkheim" Ibid ; PP 13 - 14

(من مثل واهداف يتابعها الأفراد) ويعتبر الواقع الاجتماعي هو نقطة الانطلاق في فهم السلوك الأفراد والجماعات والحياة الإنسانية بوجه عام أما الثاني فيجعل من الفرد ومكونات شخصية بما تحتويه من مكونات شعورية ولا شعورية منطلقا لفهم سلوكه وسلوك الآخرين بل وتفسر لديه الحياة الإنسانية ونموها وتغيرها من خلال الطاقات الغريزية الكامنة لديه والتي تدفعه إلى العمل والتعاون. فهل معنى هذا أنه ليس هناك نقاط اتفاق في وجهات نظر كل منهما؟ وليس هناك امكانية في الوصول إلى نقطة التقاء بين الاثنين؟... وفي اعتقادي أن الاجابة على هذا السؤال تعتبر أساسا جوهريا ومنطلقا لبدايات الاهتمام بهذا الاتجاه النفسى فى علم الاجتماع مع بدايات هذا القرن العشرين، حيث أرى أن هناك من الدلالات ما يشير إلى مثل هذا الاتفاق فى بعض من وجهات نظرهما : وقد كان منهم (دوركيم) للدور الذى تلعبه الغريزة لعبا هاما جدا فى هذا الصدد:

«حقيقة أن الضمير لا يعزو فقط إلا المجال الذى فيه تتوقف الغريزة عن العمل، أو حيث تستطيع الغريزة أن تشيد : فالضمير لا يجعل الغريزة تتقهقر ولكن فقط يملأ الفراغ الذى تتركه الغريزة بل الأكثر من ذلك أنه إذا حدث نكوص للغريزة فى عدم اتساعها فهذا يرجع إلى العامل الاجتماعى، نظرا للاختلاف الكبير الذى يفصل بين الإنسان والحيوانات ، وهذا هو التطور العظيم للحياة النفسية الذى يأتى من المعاشرة أو الألفة العظيمة. (١)

وقد أوضح (روبرت بوكوك) عددا من التشابهات الهامة بين كل من دوركيم وفرويد من خلال تلك العبارة السابقة هى : أولا- أنه بجانب القول العام بأن الإنسانين توجد لديهم بوجه عام غرائز، يوجد لديهم أيضا حصة إضافية تسمى بالألفة أو المعاشرة، والتي لا توجد لدى الحيوانات بنفس الدرجة. ثانيا- يضع فرويد تأكيد متشابه على أهمية الضمير بدرجة كبيرة على أنه نتاج إجتماعى، وكما هو عند دوركيم فى نظريته الاخيرة عن الذات العليا

(1) Durkheim, Emile.; The Division of Labour in Society; (trans by) G. Simpson., New York , 1960, p 346.

Super-Ego كما توجد في سيكولوجية الجماعة وإذا كان فرويد قد أستبقى على فكرة إمكانية وجود الصراع بين الدوافع الغريزية والضمير ذلك الصراع الذي يتكون من القيم التي تمثيلها الفرد نتيجة لمشاركاته في جماعات اجتماعية مختلفة ونظم مختلفة، فهذا الصراع لا يكون مركزيا لدى (دوركيم) ولكن النظريتين تكونا متشابهتان في إدراكهما للغرائز والطريق الذي تمتطيه بواسطة تطور المجتمع أو الحضارة في تعبيرات (فرويد). ثالثاً - نجد أن (دوركيم) قد أستخدم لفظ الحياة النفسية *Psychic Life* لوصف الاختلاف الذي يبدو بين الحيوانات والناس وكنتيجة للمعايشة الانسانية، وفي نفس الوقت يمكن أن نرى (فرويد) مهتم بتأميد ذلك من خلال فهمه للتعنيم الاجتماعي للحياة النفسية والذي يتمثل في الدوافع الغريزية^(١)

وتعقيباً على ما سبق فإن أتفق مع (روبرت بوكوك) في أن الأهمية التي أعطاها (دوركيم) للمجتمع تكمن في إدراكه للحقيقة التي ترى أن الأفراد عندما يصبحوا مجتمعين في تفاعل اجتماعي، وعلى وجه الخصوص عندما يكون تجميعهم من خلال حوادث جمعية كبرى، مثل الثورات السياسية، والعقلية والفنية، والدينية. ومن ثم نتيجة لذلك تكون هناك أفكار ومبادئ جديدة متشكلة، وهذا هو الطريق الذي من خلاله تتغير المجتمعات، حيث قال في هذا الصدد.

«أن العقول الفردية لا تكون منعزلة، ولكن تتداخل وتعمل مع بعضها في علاقات وثيقة، فمن تحليلها يظهر نوع جديد من الحياة النفسية، وتلك تكون مميزة بوضوح بكثافتها وقوتها النوعية عن تلك التي تأتي بواسطة الوحدة الفردية. فالعواطف التي تولد وتتطور في الجماعة تملك طاقة كبرى عن العواطف الفردية الخالصة»^(٢)

(1) Bocock, Robert, "Emile Durkheim" Ibid; P. 38 - 39.

(2) Bocock, Robert, "Emile Durkheim" Ibid; P. 139.

وما سبق يوضح لنا أنه إذا كان دوركيم وهو بصدد مسأيرته للعلوم الطبيعية في دراسة الواقع الاجتماعي، ومحاويلته تطبيق المنهج الوصفي في دراسة الظواهر المجتمعة على أنها أشياء وخارجة عن الشعور الفردي، بالإضافة إلى أنه تكون ملزمة للأفراد. ويؤكد في هذا الصدد أنه لا يجوز لعلم الاجتماع بحال ما أن يستعي من علم النفس بعض قضايا لكي يطبقها بدون تحويل على الظواهر الاجتماعية التي يجب دراستها في نطاق التفكير الاجتماعي يرمته شكلا وموضوعا، حيث يرى في هذا الصدد «أنها تكون نتيجة لمركبات يتم تكوينها خارج شعور كل فرد منا، وليس من الممكن أن تترك هذه المركبات ولو بصورة غامضة على النحو الذي تترك به الظواهر النفسية الداخلية»^(١). إلا أننا لا نرى أن دوركيم، قد ذهب بعيدا عن علم النفس، وإن كان شكلا قد أنتقل إلى مستوى آخر يتشكل من مجموع المعتقدات والعواطف الفردية، بل تستخدم نفس الدلولات النفسية لدى (فرويد) من «ضمير» و«الشعور»، و«اللاشعور» بل أنهما يتشابهان في تحليلهما لمحتوى هذا الضمير من مبادئ ومثل تتكون في إطار الحياة الاجتماعية والتفاعل الجماعي. بل أن (دوركيم) في محاولته الالتزام بمنهج العلوم الوصفية في دراسته للظواهر الاجتماعية كما هي في الواقع، وعلى وجه التحديد فيما يتعلق بظاهرة الانتحار قد توصل إلى النتيجة التالية:

«أنه بلا شك أن الانتحار لا يحدث إلا إذا كان التركيب الفردي يهيئ له . ولكن القول بأن الحالة الفردية أكثر المفضلات بالنسبة لحدوثه لا بشكل إيجابا أتماتيكيا (فيما عدا حالة الجنون) كما أن يصوره عامة الاستعدادات السيكوباتية النفسية التي تدعى أشكالا مختلفة للانتحار وفقا لامور شخصية ... فهي تبيحه أو تحجزه، ولكن ليس حتما أن تتضمن كل أشكال الانتحار، ولهذا السبب فهي لا تعطى تفسير كافيا له»^(٢).

(١) أميل دوركيم ، قواعد المنهج في علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ٢٨.
(1) Durkheim, Emile.; Suicide; Op. Cit., PP. 102 - 103 .

ومن ثم يتضح لنا أن دور كيم لا ينكر الحالات الفردية التي تؤدي إلى الانتحار ولكنه يرفض أن تكون محتواه لكل أشكال الانتحار، وانطلاقاً من نظريته التي تمنح الوسط الاجتماعي الدور الأول في فهم وتفسير الظواهر المجتمعية فهو يرى أن الانتحار قد يكون راجع إلى درجة التضامن الاجتماعي أو عدم التوافق الاجتماعي مع المعايير والمثل المجتمعية والتي تكون ماثلة في نطاق الضمير الجمعي.

وفما يمكن لي أن اتفق مع روبرت بوكوك إلى أن هناك نقاط اتصال عديدة بين نظرتي دور كيم وفرويد على نحو ما سبق إيضاحه وإن كانت نقطة الالتقاء الأكثر أهمية ووضوحاً في هذا الصدد هي مسألة العلاقة بين «الفرد والمجتمع». حيث يكون اهتمام نظرية فرويد هو تحقيق السعادة في المجتمع الحديث، وهو بهذا يكون ضمن الآباء المؤسسين لعلم الاجتماع وليس خارجاً عنهم وإن كانت نظريته قدر ركزت على طبيعة الفرد وضرورة السماح بالتعبير عن طاقاته العززية داخل نطاق البناءات المجتمعية، في حين ركز بعض من السيولوجيون بصورة أكثر على بناء المجتمع، أكثر من الفرد. ولكنهم جميعاً كانوا مهتمين بالتفاعل بين ذلك الكائن البيولوجي ومجتمعاته، وكان فرويد من أغلب هؤلاء العلماء، وتساءلوا جميعاً عن كيفية الحصول على السعادة الإيجابية؟ .. ومن ثم ومن خلال هذا الاحساس يكون هناك اتصال مستمر بين وجهة النظر القيمية وبين المجتمع Value Stand Points and Society ، ويوضح (بوكوك) في هذا الصدد أن نظرية التحليل النفسي والعملية عند فرويد يوجد فيها الكثير مما هو اجتماعي، وأن واحد من الأغراض الكبرى لكثافة «فرويد والمجتمع الحديث» يكمن في أن فهم النظرية في كونها فقط عن الأفراد لا يكون مفسر لها، وأن (فرويد) قد أصبح أكثر دقة في رؤيته للفرد في المجتمع الحديث على اعتبار أنه تجريد من الجماعة النيكولوجية، تلك النتيجة التي يكون لها مضامين بعيدة المدى بالنسبة لفهم نظرية فرويد على أنه اجتماعية، حيث يصبح الفرد مخلوق وليس موجود Credionnata Given وتكون طبيعة تلك العمليات الخالقة رغماً عن ذلك

غامضة ويكون كلا الفرد الجماعة ضروريان لتلك العمليات. ومن ثم يمكن لنا في البداية أن نرى نظرية فرويد في كونها اجتماعية في فهمها للفرد كنتاج اجتماعي - تملك افضلية على سيولوجية دوركيم - في كونها قادرة على الخلق والتغير For Creation and For Changing في المجتمعات الانسانية^(١) وفي هذه النقطة يرى (بوكوك) أن (فرويد) يكون أقرب إلى ماكس فيبر حيث يلعب الشكل الكاريزمي Charismatic Figure دوراً مشابهاً في خلق التغير وأن كان فيبر لم يشيد تلك العمليات الخالقة بنفس هذا الاتساع كما هو عند (فرويد) ^(٢)

وما يؤيد وجهة النظر هذه والتي تتمثل في أن العلاقة بين الفرد والمجتمع كانت محوذاً أساسياً ونقطة إتفاق لدى كل من دوركيم وفرويد من فهم الحياة الاجتماعية وتفسيرها، ما ذهب اليه (بارسونز) Parsons في أن الاستنتاج الجوهري في تفكير دوركيم بالنسبة لعالم الاجتماع فيما يتعلق بالرابطة بين الفرد Individual والمجتمع Society ، لا يمكن أن تكون من خلال وجهة نظر الملاحظ للحقائق العلمية، ولكن يجب أن ينظر إليها في نطاق الواجهات الاخلاقية للمجتمع، بمعنى أن تصور الفرد يجب أن يكون في اعتباره ممثلاً لقطاعاً من النسق الاجتماعي، وعلى وجه التحديد باعتباره ممثلاً للواجهة الضبطية «أو المعيارية» Normative والتي تحتوي على المعتقدات والعواطف المشتركة التي تشكل الضمير الجمعي، ومن خلال هذا التصور يرى (بارسونز) أن دوركيم وصل إلى نقطة الالتقاء الهامة مع نظرية (فرويد) والتي تتمثل في أن العناصر الجوهرية في الثقافة والبناءات الاجتماعية تكون مشتركة كجزء من شخصية الفرد^(٣)

ومن ثم يتضح لنا من خلال التحليلات السابقة للعلاقة بين الفرد والمجتمع، وفي ضوء التحليلات الدوركيمية والفرويدية التي لا تنصب على جانب وتهمل الآخر أن نصل إلى نقطة التقاء جوهرية بين علمي «الاجتماع والنفس» في تصور

(1) Bocock, Robert.; Op. Cit.; PP. 14 - 15.

(2) Ibid ; P. 15.

(3) Parsons, Talcot.; Durkheim Emile; Op. cit. ; P. 315.

هما لفهم الحياة الانسانية من خلال تلك العلاقة العضوية بين الفرد وجماعته او مجتمعه المنتمى اليه، ومن ثم يكون المنهج العصورى السيكولوجى هو أفضل المناهج المتلائمة لتمثيل تلك الرابطة العضوية لعلاقة التأثير والتأثير بين الشخص وجماعته، بل أن محاولة الفصل بين العلمين فى البداية هى محاولة خاطئة كمن يفصل بين «البنية والشجرة»، أو بين «الطفولة والشيخوخة»، ويبدو وهذا واضحا إذا ما رأينا أن علماء الاجتماع بصورة عامة «قد أصبحوا يتفقون على أن الافعال الانسانية تشكل نظام اجتماعى، كما يحاول علماء النفس الآن دراسة هذا السلوك الانسانى وتفسيره فى ضوء إن إشارات علم الاجتماع لنتائج دراسات علم النفس فى هذا المجال الاجتماعى، لم يعد مسموحا بها فقط، بل ضروريا»^(١).

كما يتضح لنا أيضا أن نقطة الالتقاء هذه فى اهتمام كلا العلمين فى دراسة مشاركة الفرد فى علاقاته بحياته الاجتماعية ومدى التأثير والتأثير بينهما تمثل المجال الرئيسى لاهتمام علماء هذا الاتجاه النفسى فى علم الاجتماع والذي يعتبر من وجهة نظرنا محاولة لربط المجتمع بنقطة بدايته الضرورية ويحاول فهم السلوك الفردى والجماعى وتفسير الحياة الاجتماعية من خلال المتطورات السيكولوجية.

فقد جاء الدور الهام الذى لعبته افكار جبرائيل تارد فى بدايات تطور هذا اتجاه السلوكية الاجتماعية فى علم الاجتماع من خلال اهتماماته بدراسة العلاقات الاجتماعية بين الأفراد والجماعات الصغيرة وعمله قاضيا إذ كان يتعامل مع جرائم متعددة مما أضفى على نظريته فى تفسير التغير الاجتماعى والحياة الاجتماعية واجهة نفسية وقد أعطى للرغبات والعقائد أهمية كبرى فى نظريته بجانب المحاكاة والتقليد، والاختراع والتجديد. واعتبر تلك الرغبات والعقائد قوى مسيرة للحياة الاجتماعية، وتنتقل بالمحاكاة من فرد إلى آخر ومن فئة اجتماعية إلى أخرى. وأن الرغبة تعبر عن الميل الذاتى لاجتماع شئ ما، أما القيمة فهى تمثل الفكرة المتعلقة بالشئ موضوع الرغبة^(٢).

(١) نيقولا تيماشيف، نظرية علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ١٦٢، ١٦٣.

(٢) أحمد الخشاب، مرجع سابق، ص ٤٦٩ - ٤٧٠.

ويمكن القول بوجه عام أن تارد يعد أحد الدعائم الرئيسية لمدخل السلوكية الاجتماعية في علم الاجتماع، وكان من أوائل العلماء الذين وضعوا التصورات السيكولوجية أساساً لفهم وتفسير علاقات وسلوك الأفراد والجماعات والحياة الاجتماعية بوجه عام. وقد ساعد تارد في بدايات تطور هذا الاتجاه النفسي في علم الاجتماع. وجاءت تصورات تارد عن التفاعل الاجتماعي ومدى تأثيره على الأفراد والجماعات والمجتمع بصورة عامة، لتمدنا بالأسس الجوهرية لظهور السيكولوجية الاجتماعية^(١)

ويضد القضايا النظرية التي بناها علماء الاتجاه السلوكي واهتموا بدراساتها من خلال مفاهيم سيكولوجية ومعتمدين في ذلك على مداخل منهجية ثلاث هذه المفاهيم والقضايا، وانتهينا سابقاً من تحديد أبعادها وحصر اهتماماتها. ويمكن القول أن تلك القضايا النظرية التي تناولها علماء الاتجاه النفسي في علم الاجتماع بالدراسة، قد استهدفوا بها تحقيق الفهم والتفسير للمجتمع وظواهره وسلوك أفراد في ضوء المفاهيم النفسية. ولم يقتصر دور علماء الاتجاه النفسي على مشاركة علماء الاجتماع العام اهتماماتهم النظرية والمنهجية أيضاً بل كان لهم إسهام واضح تمثل في إضافتهم إلى مجال قضايا علم الاجتماع ومناهجه.

ففيما يتعلق بالقضايا النظرية نجد أن بجانب مشاركة هذه الاتجاهات السلوكية في دراسة وتفسير القضايا العامة التي انشغل بها علماء الاجتماع من خلال تصوراتهم النفسية للحياة الاجتماعية - من قضايا الجماعات، النظم وقضايا التفاعل وقضايا العلاقة بين الفرد والمجتمع أو الوراثة والبيئة في حياة الإنسان - نجد أن علماء هذا الاتجاه النفسي قد استخدموا مفاهيم نفسية جديدة لتساهم في تحقيق هذا التفسير ومنها: بناء الذات أو الشخصية والجماعة الأولية، والتفاعل الرمزي، وسيكولوجية العقوبة*. ويلاحظ أيضاً أنه بجانب استخدام علماء الاتجاه

(1) Klark, Tarry., Op. Cit. P. 313.

* وسوف نتناول القضايا والأساليب المنهجية التي اعتمد عليها علماء الاتجاه النفسي وفقاً لاتجاهاتهم النظرية والباقي التاريخي في الفصل القادمة

النفسي للمناهج السائدة في علم الاجتماع، أنه استخدموا منهاج جديد كانت قاصرة على مجال علم النفس ، ويبدو ذلك في دراسة الحالة والقياس الاجتماعي لدى هومانز، والتجربة التخيلية عند فيبر، ومنهج التعاطف عند فيبر وميد وكولي وأخيرا وضع أيضا اعتماد اتجاه السلوكية الاجتماعية على قضايا المدخل السيكولوجي بمستوياته الثلاثة : التحليل النفسي ، والنطاق السلوكي، واهتمام نظرية الجشطالت بحيث يمكن لتلك المستويات الثلاثة أن تضيء كثيرا من العمق والوضوح في فهم السلوك او الفعل بوجه خاص، وتثري مجال تفسيره في نطاق علم الاجتماع بوجه عام.

الباب الثاني

السلوكية الاجتماعية في قضايا علم الاجتماع الأمريكي

- الفصل الثالث: الاتجاه النفسى فى دراسات شارلز هورتون كولى
- الفصل الرابع: السلوكية الاجتماعية فى دراسات جورج كوسبار هومانز
- الفصل الخامس: السلوكية الاجتماعية لدى جورج هربرت ميد.
- الفصل السادس: السلوكية الاجتماعية لدى هارولد جارفinkel

الباب الثاني

السلوكية الاجتماعية في قضايا الاجتماع الأمريكي

لقد كانت محاول جعل علم الاجتماع أكثر مشابهة بالعلوم الطبيعية، سببا في تواجد طابع مميز في واجهة التفكير السوسيولوجي يعمل على تجنب النماذج السكولوجية في التفسير Psychological Types . وكذلك تجنب محاولة بارسونز التوفيق بين علم الاجتماع وعلم النفس، من خلال موقفه النقدي. داخل اطار المدرسة الأمريكية في علم الاجتماع^(١). ورغم ذلك أشار بيتر بيرجر وتوماس لوكمان إلى «أنه كانت هناك مطابقة بين البناء الاجتماعي الأمريكي والسيكولوجية، والتي تعتبر متوافقة مع نظرية التحليل النفسي Psychoanalytic. ونظرا إليها على أنها واجهة سيوثقافية عامة وأهم عناصرها اللاشعورية الذي يؤثر في الأفعال بطريقة لا يمكن لدات الشعورية أن تفهمها بدون المساعدات التفسيرية. وتمثل تلك المساعدات لتفسيرية في الجنسية التي تعتبر مفتاحا لفهم السلوك الانساني، والطفولة التي تعتبر مفتاحا للواجهة البيوجرافية الانسانية^(٢)»

فقد كان يسود علم الاجتماع الأمريكي أيضا مشكلات منهجية ونظرية تجاذبت اهتمامات علمائه فمنهم من اعتمد على المنهج الامبريقي الذي يهتم بالأساليب البحثية الفنية المحدودة وزدى هذا إلى كم هائل من البيانات والمؤشرات التي تستخدم لتبرير الواقع والنظام القائم ، ورفض هذا الاتجاه استخدام المنهج التاريخي الذي يمكن من خلاله تفسير حوادث التغير. وقد زدى ذلك رلى ظهور مشكلات نظرية تختلف في ابتعاد أصحاب الاتجاه الوظيفي في المقابل، عن الواقع بالتحقيق في أمور مجردة وقضايا غامضة. وذلك بدلا من البحث في المشكلات الاجتماعية الأساسية داخل سياقها البنائي التاريخي^(٣).

(1) Bocock, Robert., op.cit., pp. 31 - 32.

(2) Ibid., p, 33.

(٣) عبد الباسط عبد المعطى، اتجاهات نظرية في علم الاجتماع. الكويت: عالم المعرفة ١٩٨١ . ص

ويدعم تلك المطابقة بين البناء الاجتماعي الأمريكي والسيكولوجية . واقع الظروف المجتمعية والثقافية التي كانت سائدة في نهاية القرن التاسع عشر والتي تمثلت في صراع الاهتمامات الرأسمالية لرجال الصناعة والأعمال البنكية مع التفكير التقدمي لدى كولي وميد وأصدقائهم من المفكرين إذا أردت تلك الاهتمامات الرأسمالية في اعتناقها مبدأ دعه يعمل أن تهدم الاحساس الجماعي بالتعاطف والمشاركة وما دعى كولي وجماعة أصدقائه المفكرين للقيام بتأسيس الجماعة الأولية والاهتمام بدراسة مفهوم الذات ، وكذلك تدعيم الحقائق التي تربط تلك الجماعات ككل . وأن الناس جميعا سوف يتعاطفون مع بعضهم البعض كما لو كانوا أعضاء في أسرة واحدة . وكان كولي وميد وجماعة المفكرين يهدفون من ذلك إلى حماية الفردية من النتائج الشرسة لمبدأ دعه يعمل بالاضافة إلى ربط الفرد بالكل العضوي الذي يعتمد على جميع أجزائه في اطار الكل الاجتماعي^(١) بحيث جاءت اهتمامات هذا الاتجاه النفسي لتساهم في حل مشاكل البناء الاجتماعي الأمريكي . يربط الفرد بجماعته الاجتماعية في وحدة عضوية سيكولوجية تسودها التعاطف والمشاركة . وتهدف إلى الحد من عمليات اغتراب الانسان الأمريكي ، وتزييف وعيه وطبعه باللامبالاة ، والقصور فيما يتعلق بالتغير^(٢) .

يبين على ما انتهى اليه الباحث في الباب الأول من اهتمام علماء السلوكية الاجتماعية في علم الاجتماع بدراسة قضايا علم الاجتماع ، في ضوء مفاهيم وأفكار سيكولوجية تقع في نطاق علم النفس الاجتماعي . ومن ثم الاهتمام بدراسة مشاركة الفرد في الحياة الاجتماعية من خلال التفاعل الاجتماعي في اطار الجماعات والتنظيمات الاجتماعية منحاول في هذا «الباب الثاني» ، الوقوف على مدى استخدام علماء الأمريكية لمفاهيم هذا السلوكية الاجتماعية في تناول العديد من القضايا التي تشمل مختلف جوانب الحياة الاجتماعية . وكذلك التعرف على المناهج التي اعتمدوا عليها في

(١) Coser L.A., op cit., p 334

(٢) عبد الباسط عبد المعطي مرجع سابق . ص ٢٢٦

معالجاتهم للموضوعات التي تناولوها في إطار هذا السلوكية الاجتماعية. وذلك
بفرض الوقوف على ما أسهم به رواد هذا السلوكية الاجتماعية الأمريكي في مجال
موضوع علم الاجتماع ومنهجه ونظريته وسيكون ذلك من خلال دراسات كل من
:كولي ، وهومانز ، وميد ، وجارفينكل على النحو الذي منشير إليه في هذا الباب.

الفصل الثالث

السلوكية الاجتماعية في دراسات تشارلز

هورتون كولي

٢ - التفسير العضوي السيكولوجي للوقاع الاجتماعى عند كولى

أ- العلاقة بين الفرد والمجتمع

ب- العلاقة بين الوراثة والبيئة فى حياة الانسان

٣- الفهم النفسى السيكولوجى للجماعات الأولية عند كولى

أ- طبيعة وخصائص الجماعات الأولية

ب- دور الجماعات الأولية فى تشكيل الذات أو الطبيعة الانسانية

١- معنى وثبات الطبيعة الانسانية

٢ - دورها فى تشكيل الذات الاجتماعية أو المبادئ الأولية

أ- دور الجماعات الأولية فى تشكيل الذات الاجتماعية

ب- دور الجماعات الأولية فى تشكيل المبادئ الاولى

٤ - المعايير السيكولوجية للجماعات الأولية عند كولى

٥ - الخاتمة

الفصل الثالث

السلوكية الاجتماعية في دراسات تشارلز هرتون كولي

Charles Horton Cooley

بالرغم من مشاركة كولي للنزعة التطورية اهتماماتها فيما كتبه عن الوراثة والبيئة في كتابه الطبيعية الانسانية والنظام الاجتماعي بقوله «أن حياتنا كلها ماضى ولا يوجد شيء يحدث بدون اتصال. فكل شيء يحدث أو نفعله جزء من عام يأتي إلينا من الماضي، إلا أنه كان تطورياً من نوع خاص.

ولد كولي (١٨٦٤ - ١٩٢٩) في مدينة آن آربر بولاية ميشجن Michigan الأمريكية. وكان لكتاباته آثار ملحوظة في أمريكا وخاصة علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماع وقد تميزت كتاباته بالانزان وتعلقه بقيم المجتمع الرفي الأمريكي قبل أن يشهد آثار التصنيع. وتمثلت أعماله الرئيسية في ثلاثة مؤلفات هي: الطبيعة الانسانية والنظام الاجتماعي (١٩٨١) والتنظيم الاجتماعي (١٩٠٩) والعملية الاجتماعية (١٩١٨). كما نشرت بعد وفاته مجموعة من المقالات بعنوان النظرية والبحث الاجتماعي. وعصار كولي الجو الفكري في بداية القرن العشرين والذت مخضر عن ظهور اتجاه أساسي في علم الاجتماع أطلق عليه بعلم الاجتماع النفسي. وأصبح كولي من أبرز الباحثين في هذا الوقت لهذا الاتجاه في الولايات المتحدة، وقدم مساهمات جوهرية في هذا المجال الجديد^(١). بل ان كل كلمة نقولها وكل لحظة نعيشها وكل فكرة تأتي إلينا وكل احساس يأتي إلينا بطريق أو بآخر هو بادية لما قاله أو فكر فيه أو أحسه أجدادنا في الفترات السابقة. وأنه يوجد بالفعل اتصال تاريخي من حياتهم إلينا. ونحن نحاول جاهدين أن نحقق هذا التاريخ لكي نرى كيف تأتي إلينا الأشياء ولذلك سنحاول أن نفهم جيداً وربما نستطيع أن نتعلم كيف تحضر إلينا الأشياء التي نتوق إليها أو نرغبها^(٢).

(١) نقولاً يماشيف، مرجع سابق، ص ٢٠٧ - ٢٠٨.

(١) Cooley, C H., Human Nature and Social order New York: Schoken Books. 1967 p 3

فقد أوضح تيماشيف أن كولى، كان تطوراً من نوع خاص، ولم يحصر اهتمامه فى العملية التطورية التاريخية بالمعنى التقليدى، بل نظر إلى العملية التاريخية من خلال التطور الخاص بالكائن الفردى الاجتماعى أو الذات الاجتماعية. فلم ينظر إليها بصورة تجريدية أو يؤكد على ضرورة تقسيمها إلى مراحل محددة كما هو عند هربرت سبنسر وأرجست كونت. ولكنه اتخذ لنفسه موقفاً مثالياً فى إدراكه للواقع الاجتماعى لا يتفق مع الغايات الكبرى للترعة الوضعية المحدثة بل نظر للواقع الاجتماعى على أنه يتكون من أفكارنا الشخصية عن الآخرين. كما حدد مهمة علم الاجتماع فى دراسة العلاقات الاجتماعية كما تصورها الأفكار والاتجاهات والمواقف^(١).

وبصورة عامة تتضح وجهات نظر كولى فى إطار تصوره لمهمة علم الاجتماع وإدراكه للواقع الاجتماعى وعلاقته بنمو الذات الإنسانية. إذ يكشف ذلك عن مدى تبنيه للاتجاه العضوى السيكولوجى فى دراساته الاجتماعية. وفى محاولتنا التعرف على ما أضافه كولى إلى نظرية علم الاجتماع ومنهجه وموضوعه. وفى إطار اتجاهه العضوى السيكولوجى فى دراسة الواقع الاجتماعى. سوف نعرض بالمناقشة للعلاقة بين الفرد والمجتمع والعلاقة بين الوراثة والبيئة فى حياة الإنسان ثم نعرض أيضاً من خلال نظريته العضوية السيكولوجية لدور الذى تمارسه الجماعات الأولية فى تشكيل الذات الإنسانية. ونعرض لكل من: معنى وثبات الطبيعة الإنسانى ثم لدور تلك الجماعات فى تكوين الذات الاجتماعية، وكذلك دورها فى تشكيل المبادئ الأولية وفى النهاية نتناول المعايير النفسية لتلك الجماعات الأولية لدى كولى.

٢- التفسير العضوى السيكولوجى للواقع الاجتماعى عند كولى:

أ- العلاقة بين الفرد والمجتمع:

لقد خصص كولى كتابه الطبيعة الإنسانية والنظام الاجتماعى لدراسة تلك الحقيقة المرتبطة بالعلاقة بين الفرد والمجتمع وقال «إن هدفه الرئيسى هو التركيز بشكل

(١) نيقولا تيماشيف، مرجع سابق، ص ٢٠٧ - ٢١٠.

واضح على دراسة تلك الحقيقة. ومن وجهات نظر متعددة باعتبار أن الفرد يشكل عددا من الكل الاجتماعي^(١) كما ذهب أيضا في كتابه العملية الاجتماعية إلى أن المجتمع كائن عضوي وأنا إذا ما وافقنا على وجهة النظر التطورية فيجب أن نرى العلاقة بين الفرد والمجتمع على أنها علاقة عضوية بحيث لا يكون الفرد منفصل عن الكل الإنسانية ولكنه يوجد كعدد في إطاره، ويستمد حياته من هذا الكل خلال عمليات التحول الوراثي والاجتماعي. ومن هذا المنطلق نملك كلمة عضوي بأحساس متسع أن الحياة الكلية تقوم على الاختلافات العديدة بين الأجزاء، والتي يملك كل منها وظيفة خاصة في إطاره^(٢).

ويتضح من التعريف السابق أن كولي في دراسته للعلاقة بين الفرد والمجتمع بجانب اعتماده على المنهج العضوي، قد اكتسب تلك العلاقة واجهة سيكولوجية تمثل في الاعتماد المتبادل والتأثير من خلال عمليات التحول الوراثي والاجتماعي. بحيث يمكن وصف تلك العلاقة بأنها علاقة عضوية سيكولوجية. وفي مجال البرهنة على أن تلك الواجهة العضوية السيكولوجية تحتوي كلا من وحدة الكل والقيمة المتعلقة بالفرد، وتفسر كل منها من خلال الآخر ضرب كولي مثالين: الأول - يتعلق بمجتمع الجامعة الذي يشكل كل اجتماعي يحتوي الطلاب والمدرسين والموظفين بمعنى أن الكل يسهم في الحياة الكلية لمجتمع الجامعة، مع ملاحظة أن فريسه تختلف في وظيفتها عن الوظائف التي تؤديها الفريديات الأخرى والمثال الثاني - يتعلق بفريق كرة القدم وتساءل عن فائدة الفريق بدون أي عضو فيه، وأيضاً عن فائدة أي عضو فيه بدون فريقه. ومن ثم توصل إلى أن النمو الجيد للفرد لا يتحقق إلا من خلال التنمية الجيدة للكل. وانتهى إلى أن الحياة الإنسانية سواء أكانت في واجهتها الفردية أو الاجتماعية تمثل جوهر الحقيقة^(٣).

ويذهب كولي في شرحه لابعاد تلك العلاقة العضوية السيكولوجية بين الفرد

(1) Cooley, C.H., op.cit. p 35.

(2) Ibid., p, 35.

(3) Ibid., p. 36.

والمجتمع إلى أنه لا يوجد فرق بين الاثنين في الواقع إلا من وجهة نظرنا نحن ومن خلال الطريقة التي نتحدث بها عن المجتمع، أو نستخدم من خلالها أى اصطلاح جمعين - ويتوقف ذلك على الطريقة التي نصب فيها عقولنا سواء فيما يتعلق بالواجهة والكلية للأفراد أو باعتبارهم منفصلين. وضرب أمثلة على ذلك كما هو في مجلس الوزراء كهيئة متمثلة في شخصية رئيس المجلس كجنتلمان. وأيضا في ادراكنا للزوايا المختلفة التي تقوم عليها الصورة، بمعنى أننا اذا نظرنا للصورة ككل لن ندرك تلك الزوايا المختلفة للألوان الخاصة بالأجزاء (١).

ويبدو أن كولي أراد أن ينتهي إلى مسلمة مؤداها أنه لا يوجد تعارض بين نظريته العضوية السيكولوجية للعلاقة بين الفرد والمجتمع، وبين رؤيتنا للمجتمع أو الجماعة كشيء مختلف عن الأعداد المكونة له. ويأتى ذلك في ضوء ما انتهى اليه كولي سابقا من أن الحياة الكلية تقوم على الاختلافات الفردية العديدة، والتي يملك كل منها وظيفة خاصة في اطار الكل العضوى السيكولوجى.

ولقد ترتب على اعتبار أن الفرد لا يملك وجودا منفصلا عن كلا اطاريه الوراثة والاجتماعى - واعتبار نفسه جزء من الكل الاجتماعى فى الوقت الذى يشكل فيه المجتمع جزءا من الأفراد - أن رأى كولي أن هناك مغالطة فى القول الشائع «الذى يضع الاجتماعى والفردى عكس الآخر. واعتبارهما منفصلين بوجهة نظرا انطولوجية» (٢) وأوضح كولي فى هذا الصدد انه لم يجد ما يجعله ينظر إلى الواجهة الفردية على انها مسابقة على الواجهة الجمعية. اذ كان سائد من خلال الاعتقاد

(١) يفرق كولي بين هيئة مجلس الوزراء The Cabinent باعتباره يتكون من رئيس الوزراء والأعضاء والموظفين والمكرتارية، وبين شخصية رئيس المجلس Genterlman حينما ينظر إليه باعتباره منفصلا عن المجلس

- Cooly, C.H. Ibid.p. 37.

(٢) ومعنى كولي بوجهة النظر الأنطولوجية أن هناك الكثيرون ينظرون إلى تلك العلاقة على أنها أكثر أو أقل تناقضا بل الأكثرية يعتبرون أن الأفراد سابقين على المجتمع ويجعلون منهم مادة مسلم بها كمجال للدراسة. ولكن المجتمع يجعل الأفراد يضررون فى العديد من البدايات الظنية.

Cooly, C.H. op.cit .p. 38.

العام أن الواجهة الفردية تكون ملموسة، بينما حيوية الجماعات تكون مدركة فقط عن طريق النشاط والتصورات. ومن ثم أولى اهتماما إلى كلا الاثنين وأعتبر أنهما يملكان وجودهما معا بجانب بعضهما البعض، ويمثلان واجهات تامة لشيء واحد يوجد في داخل كل منهما (١)

وهكذا توصل كولي إلى أن «الحياة الانسانية تملك عناصر الوحدة الضرورية. وأن حياة النوع الانساني مثل بقية الأنواع الأخرى يجب أن تشتمل على كل من العمومية والخصوصية. وذلك باعتبار أن الطبيعة الانسانية تكون مقسمة مابين الفردية وتملك الميول الاجتماعية وبالتالي كان هناك عواطف اجتماعية مثل الحب، وعواطف أخرى فردية غير اجتماعية مثل الخوف والغضب (٢).

ويتضح لنا من هذه القضية أن كولي أراد أن يصل إلى نوع من الوحدة العضوية السيكولوجية لحياة النوع الانساني، وبحيث تعتمد هذه الوحدة على كلا جانبيها الفردى والاجتماعى. وبالتالي أراد أن يفسر حياة النوع الانساني داخل مجتمعه الأمريكى، ومن خلال منهجه العضوى ونظريته السيكولوجية. وأعتبر أن تلك الوحدة تشكل مزيج عضوى سيكولوجى يعتمد على كلا نوعى الفردية والاجتماعية، ولا تقوم له قائمة على أحد الاثنين فقط. وقد أعتمد كولي فى دراسته لتلك القضية النظرية الكسرى التى شغلت جوهر اهتمامه على «منهج الفهم التعاطفى والمشاركة الوجدانية» (٣).

وفى نهاية الحديث عن العلاقة بين الفرد والمجتمع أراد كولي أن يضيف عليها نوعا من الوضوح، باعتبارها قضية نظرية شغلت مساحة واسعة فى اطار نظريته العضوية

(1) Cooley, C.H., op.cit.p 45.

(٢) أوضح كزلى أنه اذا طبقنا كلمة اجتماعى Social على الأشكال الاحتماعية العليا يكون معروف أنها تكون عكس ما هو فردى Individual بل وأيضا عكس ما هو مختص بالفرائز.

- Cooley, C.H. op.cit. p. 76.

(٣) منهج الفهم التعاطفى أو المشاركة الوجدانية هو منهج سيكولوجى اعتمد عليه كولي فى دراسته لقضايا النظرية التى اهتم بدراستها وقد أشرنا إلى ذلك فى الباب الأول.

منهج الميكولوجي. ولذلك قدم العديد من الأسئلة وأوضح كيفية الاجابة عليها على النحو التالي:

أولاً: أليس المجتمع يقوم على الأفراد وليس هناك شيئاً آخر غير ذلك؟ ثانياً: هل المجتمع شيئاً أكثر من مجموع الأفراد؟ ويرى أن اجابتنا على السؤالين من خلال الاحساس العام تكون بنعم. لأن العمليات الاجتماعية داخل التنظيم الاجتماعي أو أى كل اجتماعي لانستطيع أن نراها فى حالة انفصال عن الأفراد. وإذا ما حاولنا دراسة الأفراد منفصلين فسوف نقود أنفسنا إلى الضلال. ثالثاً: هل الفرد ينتج عن المجتمع؟ ويجب بأن كل شيء انسان له تاريخه فى الماضى الاجتماعى. وبالتالي يكون المصدرين الذين عن طريقهما تشكل حياته هما: الوراثة والانصال الاجتماعى. وأن ما يحصل عليه الفرد عن طريق الوراثة يجب أن يتواءم مع المجتمع القديم حتى يستمر فى البقاء. رابعاً. هل يمكن لنا أن نفصل الفرد عن المجتمع؟ ويرى أن ذلك يحدث فى حالات عارضة فقط، لأن الفرد اذا ذهب إلى صحراء جرداء يصاحبه عقل مكون فى مجتمع. كما تكون مخططاته الاجتماعية موجودة فى ذاكرته وهو ما يجعل الانسانية تعيش مع الفرد وبداخله. أما فى حالة فقدان الانسان القدرة على المعاصرة فان عقله يتخور وضرب كولى مثلاً على ذلك بأن الوحدة غالباً ماينتج عنها البلادة والغباوة، وكما هو فى رعى سرب الغنم فى المناطق الصحراوية النائية وعلى الخصوص لغير المتعلمين. خامساً: هل الفرد وفقاً لأى احساس يعتبر حراً أم هو جزء من المجتمع؟ ويرى كولى أن الفرد يكون حراً. ويعتبر أن حريته هى حرية عضوية Organic Freedom بتعاونه مع الآخرين وهذا يعنى أنه يلعب دوراً كما لو كانت الحياة تلقى به فى داخلها (1).

ومن خلال الاجابات السابقة يتضح مدى تأكيد كولى على العلاقة العضوية الميكولوجية بين الفرد والمجتمع، وأيضاً تدعيم الاعتماد المتبادل بين الطرفين. بل يرى أن المفاضلة بينهما كمن يفاضل بين أمبقية المادة على الروح والعكس

(1) Cooley, C.H., op.cit. pp. 37-50.

بالعكس^(١). وأحبر يحكر الاتفاق مع كولى فى تأكيد تلك الواجهة العضوية السيكولوجية فى دراسته لقضية العلاقة بين الفرد والمجتمع. وان كنت أرى أيضا أن هناك ما يدعم تلك الوحدة الكلية للعلاقة العضوية السيكولوجية فى مجالات العلاقات بين الدول. فالبرغ من اختلاف الوظائف التى تشكل سمات معينة لكل دولة، إلا أن هذا الاختلاف يأتى فى إطار الكل الإنسانى العضوى السيكولوجى المتكامل. والذى يؤدى إلى اشباع الرغبات وسد الاحتياجات بوجه عام، والتى لا يمكن أن تنهض بها الوظائف الفردية لكل دولة على حدها.

ب- العلاقة بين الوراثة والبيئة فى حياة الإنسان:

يأتى اهتمام كولى بدراسة قضية العلاقة بين الوراثة والبيئة فى عصره ضمن اهتماماته النظرية. كما يمثل فى الواقع تطورا فى اهتمامه بدراسة القضية الجوهرية للعلاقة بين الفرد والمجتمع، وبعد أيضا تدعيماً لها من خلال محاولته فهمها وتفسيرها فى إطار نظريته العضوية السيكولوجية. وقد بدأ كولى دراسته وتفسيره لتلك العلاقة بتساؤله عن أولوية الوراثة أم البيئة فى تحديد السلوك الإنسانى. وقال «انه يوجد مجرى وطريق ممتدان بطول الشاطئ، ويمثلان خطى من خطوط النقل والاتصال. والمجرى يمثل الوراثة أو النقل الحيوانى، أما الطريق فيمثل البيئة أو الاتصال و«الأول» يتدفق من جرنومة البلادما و«الثانى» يأتى بطريق اللغة والجنس والتعليم»^(٢).

ونرى من هذا التعريف أن كولى حدد قنوات الوراثة فى حياة الإنسان بالمجرى الذى يحمل صفات الآباء والأجداد. وتلك الصفات يرى أنها تدعم وتنمو من خلال الطريق الممتد بجوار المجرى، اذ يمثل هذا الطريق العنصر الاجتماعى فى حياة الفرد. وهنا تتضح العلاقة السيكولوجية فى فهم كولى لطبيعة العلاقة بين الوراثة والبيئة فى إطار اتجاهه العضوى السيكولوجية. وقد أوضح فى هذا الصدد أن حصولنا على هذا الارث الحيوانى يأتى من خلال قابلية الفرد للتأثير باللمس وتغيمات الصوت

(١) نيقولا تيماشيف، مرجع سابق، ص ٢١١.

(2) Cooly, C.H., op.cit.p.4.

والاشارات التعبيرية. ثم أخيرا يأتي العنصر الاجتماعي ويدعم تلك الجوانب الوراثية من خلال الفهم التدريجي بواسطة الكلام في نطاق الأسرة مع رفقاء اللعب. وأيضا بواسطة الكلام في نطاق الأسرة مع رفقاء اللعب وأيضا بواسطة الأشياء التي تتعلمها من كبار السن وتنتقل عن الأسلاف إلى الأجداد في التاريخ الانساني (١).

وتتضح أيضا تلك العلاقة العضوية السيكولوجية في فهم كولي للعلاقة بين الوراثة والبيئة في حياة الانسان، من خلال ماذهب اليه في كتابه التنظيم الاجتماعي «من أن الطفل منذ أن يولد يكون تأثير المجتمع واضح عليه. ويتمثل ذلك التأثير في ضعف عامل الوراثة بالنسبة لعامل التقاليد والاتصال الاجتماعي. حيث يكون الطفل في تلك الفترة مجرد فردية بيولوجية في مقارنته بالكل الاجتماعي الذي ينزل اليه (٢) ويدعم تلك العلاقة العضوية السيكولوجية بين الوراثة والبيئة وتأثيرهما في حياة الانسان، ما ذهب اليه ارمان كوفيليه من أن كولي كان يتفق مع تشارلز ألود في تأكيدهما على أن الفردية ما هي الا جزء من كل أكثر اتساعا. وأن محتوى الشعور لتلك الروح الفردية يأتي بصفة خاصة من الوراثة والبيئة (٣)

وبصدد ايضاح درجة التفاعل بين خطى الوراثة والبيئة في اطار علاقة التأثير السيكولوجي. أورد كولي مثال موداه: «أن أسيرة أمريكية بالصين تبنت طفلا وأحضرتة ينمو في أمريكا. فسوف يبقى تاريخ الحياة الحيوانية للطفل صينيا، ويتمثل في امتلاكه الشعر الأسود المستقيم والبشرة الصينية الصفراء والاتجاهات العقلية التي تشكل جزءا من وراثتهم. أما تاريخه الاجتماعي سيكون أمريكيا. وسوف يحصل على ممن حوله على اللغة الانجليزية والعادات والأساليب والمبادئ التي تنمى في البلاد بل سيتشرب السياسة والديانة والتعليم والنظم الاقتصادية الأمريكية، بحيث يكون عقله الكلي عقل أمريكي. وبالتالي يمكن القول المجري الصيني والطريق الأمريكي أصبحا يلتقيان في حياة الطفل (٤).

(1) Cooley, C.H., Hman Nature and Social Order Ibid, pp. 4-5.

(2) Cooley, C.H. Social Organization. New York: Schooken Books, 1909.p. 315.

(٣) ارمان كوفيليه، مقدمة في علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ٥٥.

(4) Cooley, Hman Nature and Social Order, op. cit.p.6.

وذهب كولى فى تحديده درجة التفاعل فى هذا الصدد من خلال نظريته العضوية ومنهجه السيكلوجى. وحاول الاجابة عما اذا كان هناك تأثير للأسلوب حياتنا فى التغيير والتعديل فى الصفات الوراثية؟ أم أننا نتقل بكاملنا إلى أطفالنا؟ وكانت دعوى النظرية المادية فى هذا الصدد لا ترى امكانية التحسن فى مستقبل العوامل الوراثية، والتي تأتى إلينا الأفراد فقد كما تحمل التفاحة البذرة، وأنه لا دخل لأساليب التنشئة الاجتماعية فيها. وأوضح كولى أن أحدا لا يستطيع القول أننا نمتلك نفس الصفات الوراثية لمجرد أننا نرجع إلى أصل وراثى واحد. بل ان هناك امكانية لتأثير أساليب الحياة الاجتماعية على العوامل الوراثية فاذا ما لاحظنا أخوين أحدهما متعلم داخل الجامعة والآخر غير متعلم، فلا يمكن أن يوجد لديهما نفس التضج فى الشخصية، لا لشيء الا أنهما يرجعان إلى مصدر وراثى واحد^(١).

كما ذهب كولى فى تحديده للعلاقة العضوية السيكلوجية بين الوراثة والبيئة إلى أنه حينما تبدأ حياتنا الفردية بالمقدمتين التاريخيتين التى من خلالها تتعدل الصفات الوراثية والبيئية، والتي تندمج فى كل جديد وتنتهى وجودها كقوى منفصلة فلا يوجد ما يدل على أن الفرد يكون منسوب إلى أحد الاثنين الوراثة أم البيئة لأن كل شىء يمر خلال الخبرة والطبع. بحيث يختلط الاثنان وتصبح الوراثة والبيئة يمثلان مجال واقعى للوجود الانسانى فأفكار مجردة، ويكون الشىء الواقعى هو حاصل جمع عمليات عضوية ليست منفصلة الأجزاء^(٢).

وينتهى كولى فى معالجته النظرية لقضية العلاقة العضوية السيكلوجية الواضحة بين الوراثة والبيئة إلى أنه أصبح من الخطأ فى الحديث العام النظر إلى البيئة الاجتماعية والوراثة على أنهما أعداء، بل هما مكملان لبعضهما. اذ يملك كل منهما عمله الخاص ولا فائدة لأى منهما بدون الآخر وأصبح السؤال عن أيهما أكثر فائدة وكفاءة؟ سؤال عقيم كمن يسأل عما هو أكثر أهمية فى أفراد الأسرة الأب أم الأم؟ لأن كلاهما يمكن أن يقال عن أهميته المطلقة، بالإضافة إلى أن وظائفهما

(1) Cooly, Hman Nature and Social Order, op. cit.p.8.

(2) Cooly, Ibid., p.15.

تكون مختلفة فى النوع ولكنها لا تقارن من حيث الحجم^(١).

ويتضح مما سبق مدى اعتماد كولى فى دراسته للعلاقة بين الوراثة والبيئة، على منهج الفهم التعاطفى السيكولوجى بجانب المنهج العضوى. والذى يعكس مدى الاعتماد المتبادل بين الصفات الوراثية والبيئية فى حياة الوجود الانسانى بحيث لا يمكن القول بأسقية أى منهما أو الأفضلية لأى منهما، أو أن هناك تأثير من طرف واحد على حياة الفرد يغلب على الجانب الآخر. فالعلاقة بينهما هى علاقة تكامل عضوى سيكولوجى يأخذ صورة صب التيارات فى مجرى واحد هو حياة الفرد. ويمكن القول أن حياة الوجود الانسانى تأخذ طريقها الانسانى بعد أن تقدم الوراثة للبيئة المادة الخام بما تحتوى من مواهب عقلية وميول فطرية. ثم تتلقفها البيئة بالرعاية والتهذيب من خلال أساليب الرعاية الاجتماعية، وأنساق ونظم المجتمع وعاداته وتقاليده، حتى تصل إلى مرحلة النضج الاجتماعى التام.

٣- الفهم السيكولوجى للجماعات الأولية عند كولى:

لتر الاهتمام بدراسة الجماعات الأولية ترحيبا فى فترة ما بين الحربين العالميتين وجاء ذلك فى اطار العديد من الافتراضات التى تهتم بسيكولوجية الفرد، وتتجه نحو التجريب تحت شروط معينة. ولكن كانت هناك حيطة فى استحداث القوتين السيكولوجية الخاصة بالجماعات الصغيرة فقط. كما كانت هناك رغبة أيضا فى عدم ترويع نطاقها، لأن هناك من حاول من علماء الاجتماع النفسى أن يجعلها تشمل التراث الاجتماعى بأشملة^(٢). وسوف تشمل معالجتنا للفهم النفسى للجماعات الأولية لدى كولى كل من: طبيعة وخصائص تلك الجماعات الأولية. ودورها فى تشكيل الذات أو الطبيعة الانسانية، وأيضاً المثاليات أو المبادئ الأولية. ثم أخيراً للمقاييس النفسية لتلك الجماعات الأولية وذلك على النحو التالى:

(1) Cooley, Hman Nature and Social Order, op. cit.p.17.

(2) Coser and Rosenberg, Sociological Theory . New York: Macmillan Company, 1957.p. 310.

(أ) طبيعة وخصائص الجماعات الأولى:

يأتى اهتمامنا بدراسة طبيعة وخصائص الجماعات الأولى لدى كولى، لما لهذا المفهوم من أهمية كبرى فى نظريته الاجتماعية العضوية السيكولوجية. والتى تناول من خلالها دراسة الذات أو الطبيعة الانسانية وتطورها فى اطار التفاعل الاجتماعى، فقد «أكد كولى دور الجماعات الأولى، والتفاعل الاجتماعى وبخاصة الاتصال فى نشأة الشخصية ونموها» (١).

وسوف نحاول الوقوف على الخصائص السيكولوجية لمفهوم الجماعات الأولى عن كودلى والذي منحه دورا هاما فى فهم الشخصية الانسانية ونموها فى اطار نظريته العضوية السيكولوجية ولقد عرف مفهوم الجماعة الأولى فى كتابات كولى، ممهدا الطريق لعلماء الاجتماع الأمريكان وعلماء النفس الاجتماعى لاستخدامه فيما بعد. وأشار من خلاله لطبيعة وخصائص الجماعات الأولى، وحدد تلك الخصائص بأوجه التعاطف المألوفة والمباشرة وجهها لوجه. والتى تبدو فى المشاركات والتعاون فى هيئة جماعة كالأسرة، واللعب، والجوانب والقرابة (٢).

كما حدد كولى فكرته عن الجماعات الأولى فى كتابه التنظيم الاجتماعى (١٠٩) «بأنها عبارة عن جماعات الوجه للوجه حيث تقوم علاقات المواجهة المباشرة بين الأشخاص. وتذوب الفرديات فى كلمة نحن، على اعتبار أن شخصية الفرد هى نتاج لحياة الجماعة. وبذلك يكون المجتمع والفرد مظهران لحقيقة نفسية واحدة» (٣). ولقد ذهب كولى أيضا فى ايضاحه لمكانه وخصائص تلك الجماعات الأولى، على أنها تمثل الوسائل الأولى فى المشاركات، كما تقوم بنقل الثقافة. وأوضح أن تلك الوظائف تبدو متباعدتين. وأن من يعتقد بالفعل فى ذلك، فهذا يرجع إلى إصرافه فى التفسير الأحادى الذى يفسر السلوك أو الطبيعة الانسانية من زاوية واحدة (٤).

(١) نيقولا نيماشيف، نظرية علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ٢١٣.

(2) Coser and Rosenberg, Sociological Theory . op.cit.p. 309.

(٣) ارمان كوفيليه، مرجع سابق، ص ٥٥.

(4) Coser and Rosenberg, op.cit.p. 310.

وبالاحظ مما سبق أن فهم كولى لطبيعة وخصائص الجماعات الأولية والتي تشكل اطارا لمفهومها، هو فهم عضوى سيكولوجى يعتمد على علاقات المواجهة المباشرة بين الفرديات. بحيث تبدو المشاركات والمواطف مزلفة ومباشرة وتذوب الفرديات فى عشور النحن وهذه تمثل صفات نفسية لخصائص تلك الجماعات. ويتضح لنا فهمه العضوى لتلك الخصائص على اعتبار أنها تنخض بمهمتين مترابطتين هما: أنها تمثل الوسائل الأولية للمشاركات، وأيضا تقوم بنقل الثقافة فى نفس الوقت. وقد ذهب كولى فى ايضاحه للبعد النفسى لاحدى خصائص الجماعات الأولية من أن المودة والوفاء لحق الجوار أصبح له بعد هام فى حياتنا. وذلك بعد أن اتسعت شبكة العلاقات والتفاعلات اليومية وأصبحنا غرباء حتى بالنسبة للذين يعيشون معنا فى منزل واحد. بل حاول الارتقاء بخاصية المودة والوفاء لحق الجوار وتطبيقها فى مجال العلاقات الدولية^(١).

ويبدو أن خاصية الأولية التى منحها كولى لتلك الجماعات وبما تحتويه من خاصص نفسية تعد عاملا هاما فى فهمه للدور الذى يمكن أن يلعبه مفهوم الجماعات الأولية فى نظريته العضوية السيكولوجية فهى أولية عنده لأنها تمثل تعبيرا عن الطبيعة العامة، فالديانة والحكومة الخاصة بنا يمكن أن تبدو مختلفة عن ديانات ومكونات أخرى، ولكن الطفل فى جماعة الأسرة يرتدى أى الحياة العامة فى بلده من حكومة وديانة، ومن ثم يمكن أن تتشكل ذواتنا فى المنزل^(٢).

وننتهى مما سبق إلى أن خاصية الأولية التى منحها كولى للجماعات الأولية ترتبط ارتباطا وثيقا بفهمه النفسى لخصائصها التى تتصف بها. وبالتالي منهج تلك الخصائص دورا هاما فى تفسيره لنمو الشخصية أو الطبيعة الانسانية فهى تمثل الوسائل الأولية فى المشاركات بين الأفراد، وبالتالي تشكل طبيعتهم الانسانية فى أى زمان وفى أى مكان، لأنها تزودهم بالمبادئ والمثاليات الأولية. والتى تتنوع باختلاف

(1) Cooley., "Primary Group", En Coser and Rosenberg (eds) Sociological Theory, op.cit., pp. 312 - 313.

(2) Cooley., "Primary Group" Ibid., p. 314.

الديانات والحضارات ونظم الحكم - كما أنها تمثل وسائل لنقل الثقافة أيضا. ويأتى اصطلاحها بتلك المهام السابقة فى اطار أنها لاتعرض للتغير بنفس المستوى الذى يحدث للعلاقات القديمة، كما أنها لاتكون مستقلة عن اطار المجتمع الكبير الذى توجد بداخله.

(ب) دور الجماعات الأولية فى تشكيل الذات أو الطبيعة الانسانية

بعد أن وقفنا على أن طبيعة مفهوم الجماعات الأولية لدى كولى ينهض على خصائص نفسية تمثل المنبع الدائم للوجود الانسانى، نتقل الآن إلى محاولة الوقوف على الدور الذى يمكن أن تقوم به تلك الجماعات الأولية فيما يتعلق بتكوين وتطور لشخصية أو الذات الانسانية من خلال خصائصها النفسية على النحو التالى:

١- معنى وثبات الطبيعة الانسانية:

يأتى تحديد كولى معنى الطبيعة الانسانية فى ضوء الخصائص الجوهرية التى تتميز بها الجماعات الأولية، اذ يؤكد فى هذا الصدد أن ما يحدث بداخل تلك الجماعات الأولية من عمليات تتمثل فى التعاون والوفاء والتقليد والحب والمساعدة، وهى فى جوهرها عمليات نفسية تشكل خصائص جوهرية لتلك الجماعات الأولية. كما حدد اطار تلك العمليات النفسية بثقافة المجتمع الذى تشكل تلك الجماعات جزءا منه، بحيث تلعب هذه الخصائص الدور الأكثر أهمية فى نمو الشخصية الانسانية داخل الجماعات الأولية^(١).

وكان كولى يعتقد بأنه يمكن لنا فهم تكوين الدوافع والميول من خلال الطبيعة الانسانية بمعناها الواسع، والذى لا يخص سلالة معينة فى وقت معين بمعنى أنه يرى أن الطبيعة الانسانية يمكن أن تتخذ أساسا دائما وثابتا للمقارنة فى المجتمع. ويأتى ذلك فى ضوء اشتغالها على التعاطف وميول الحب والاستياء والغضب والطموح والغرور وتقديس الشجاعة وأخيرا الاحساس بالصواب أو بالخطأ الاجتماعى^(٢).

(1) Wlkines, E.J., op.cit., pp. 97 - 98.

(2) Cooley, Social Organization. op .cit., pp. 28 - 29.

كما ذهب كولى أيضا فى تحديد معنى الذات أو الطبيعة الانسانية إلى مدلولات عديدة مثل: ذات الجماعة أو طبيعة الجماعة، أو الواجهة الرئيسية للمجتمع أو الحالة العامة للعقل العام. وجاء تحديده لتلك المدلولات فى اطار احتوائها على مايولد معنا من غرائزه بجانب قيامها أيضا بالدور الهائل فى نمو المبادئ والميول والعواطف والأحاسيس التى تصنع النظم ويعبر عنها فى جماعات المواجهة المباشرة، وأوضح كولى أن تلك الجماعات المباشرة تتشابه إلى حد ما فى كل المجمعات وتمثل فى جماعات: الأسرة واللعب والجوار^(١). وقال كولى فى هذا الصدد «أن الطبيعة الانسانية تأتى إلى الوجود ولايحصل عليها الانسان ولايمتلكها بالمولد، اذ لايمكن أن يمتلكها الانسان الا من خلال الصداقة والمشاركة^(٢).

ويتضح لنا مدى الدور الهام الذى تلعبه الجماعات الأولية فى تفكير كولى فى تكوين الطبيعة الانسانية وتطورها، اذ لا يكون لواجهتها الفردية كبير فائدة ما لم تدخل فى علاقات المشاركة مثل: الصداقة والتعاون والجوار واللعب والأسرة. أى فى اطار الجماعات الأولية وما تحتويه من خصائص نفسية تمنح الشخصية أو الذات الانسانية معناها وقيمتها. وتمثل تلك الخصائص النفسية الأولية فى: المبادئ والعواطف، والأفكار والأحاسيس المشتركة فى العقل الانسانى للأفراد والجماعة. وقال كولى بصدد هذه الحالة من المشاركة أنه حينما توجد الحقيقة الفردية، يمكن أن نحصل على الحقيقة الاجتماعية التى توجد معها^(٣).

وننتهى مما سبق إلى أن كولى عرف مفهوم الجماعة الأولية فى ضوء خصائصها النفسية. كما ربط استخدامه لهذا المفهوم فى علم الاجتماع، بالدور الذى يلعبه من خلال خصائصه النفسية فى تشكيل الذات أو الطبيعة الانسانية والتى لاتصل إلى وحدتها الكاملة الا فى ضوء الجماعة الأولية التى تنتمى اليها. كما يمثل مفهوم الجماعة الزولية لدى كولى اسهما نظريا فى مجال علم الاجتماع، وقد

(1) Cooly, Social Organization. op .cit., p. 29.

(2) Ibid.p. 30.

(3) Ibid.p. 31.

جاء فى ضوء تبنيه لوجهة النظر العضوية السيكولوجية والتي ميزت اتجاهه النظرى بوجه عام. كما اعتمد فى ذلك على منهج سيكولوجى يدعو إلى الفهم التعاطفى ويمارسه، ويذهب إلى أن التعاطف أمر ضرورى فى أى بحث سوسولوجى (١).

وقد تطور اهتمام علماء الاجتماع فيما بعد بدراسة مفهوم الجماعات الأولية بعد كولى «بالرغم من أن معالجته للجماعات الأولية ظلت اضافة جوهريه لعلم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعى. كما أصبحت مقولة أساسية فى تصنيف نماذج الجماعات الاجتماعية (٢) وأمكن لعلماء الاجتماع فيما بعد وعلى ضوء استخدام كولى لمفهوم الجماعة الأولية «أن يضيفوا مفهوم الجماعة الثانوية المتميزة بعكس السمات التى وضعها كولى للجماعة الأولية» (٣) وقد ميز علماء الاجتماع تلك الجماعة الثانوية كما يشير فيبر فى هذا الصدد «بأنها تشير إلى وسائل الاتصال الغير مباشرة بين الأفراد كما هو فى جماعة الأخيار مثلاً» (٤).

والواقع أن مفهوم الجماعة الأولية لدى كولى ارتبط بدراسة مفاهيم أخرى مثل الذات Self والشعور بالـ (نحن) We. وذلك باعتبار أن السمات النفسية التى تشكل خصائص لمفهوم الجماعة الأولية، تنبع دوراً مهماً فى تشكيل الذات أو الطبيعة الانسانية بكلا أطاريها الفردى والاجتماعى. ولقد ذهب كولى فى هذا الصدد إلى أن العلاقة بينهما تمثل واجهات غير منفصلة لكل واحد. ومن ثم يجب علينا النظر إلى الانسانية ككل نفسى بدلا من الفصل المصطنع. ويتضح ذلك فى إطار استخدامنا لمنهج الفهم التعاطفى فى استرجاع خبراتنا، ومحاولة الاجابة على أسئلة مثل: ماذا يوجد فى حياتنا وبشكل جماعات الأسرة والصداقة؟ وماذا نعرف عن الشعور بالـ (نحن)؟ ورأى كولى أن التفكير بهذه الطريقة يمكن أن يساعدنا على الوصول إلى

(١) نقولا تيماشيف، نظرية علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ٢١٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٢١٦.

(٣) عرب سيد أحمد، ص ١٧٨.

(٤) Fairs. E.H., "The Primary Group", In Coser and Rosenberg. (eds) Sociological Theory. op. cit., p. 315.

شعور ثابت عن الذات Self أو الشعور بال (نحن) We والمبادئ الأولية Primary Idials (١)

(٢) دور الجماعات الأولية فى تشكيل الذات الاجتماعية والمبادئ الأولية:

نحاول الآن الوقوف على الطريقة التى يتشكل بها مفهوم الذات الاجتماعية منذ بدايتها الفردية وحتى تصل إلى وحدتها الكاملة فى إطار الجماعة التى تنتمى إليها، وأيضا كيفية استخدام كولى لمفهوم الذات الاجتماعية فى معالجته النظرية لقضايا علم الاجتماع، ثم تطور استخدام مفهوم الذات الاجتماعية. وأخيرا نعرض لدور الذات الاجتماعية فى تشكيل المبادئ الأولية.

أ- دورها فى تشكيل الذات الاجتماعية:

يرى كولى أن الذات Self يشار إليها فى بساطة فى الحديث العام بتلك الضمائر الدالة على الشخص الفرد My, Mine, Me, My Self. (٢) وأوضح أنه سيهتم بمناقشة ما يطلق عليه السيكلوجيون الذات الامبريقية Empirical Self والتى تمثل حقيقة سيكلوجية يمكن ادراكها بسهولة من خلال الملاحظة المنظمة، وأنه سيضيف عليها لفظة اجتماعى Social فى إطار اهتمامه بواجهتها الاجتماعية فى معالجته. وكان كولى يعتمد فى ذلك على منهج الملاحظة المنظمة بجانب الحدس فى ادراكه لحقائق الحياة الاجتماعية (٣).

وقد ذهب كولى فى تحليله لطريقة تشكيل الذات الاجتماعية إلى «أن هناك نوعا من الاحساس يوجد لدى الشخص ويطلق عليه الاحساس الذاتى Self Feeling، ويعبر عنه بالضمائر I, Mine (٤) ووصف كولى هذا الاحساس بأنه يتصف بالغيرية وحب التملك ويوجد لدى الشخص منذ ولادته مثل بقية الأفكار الغيرية. ويمكن أن

(1) Cooly, Social Organization. op .cit., p. 31.

(2) Cooly, Hman Nature and Social Order, op. cit.p.168.

(3) Ibid.p. 169.

(4) Ibid.p. 169.

ينمو ويتطور من خلال المشاركات والخبرات الاجتماعية المختلفة، بمعنى أنه يتكون في البداية مرتبطاً بفرائزه الجسدية والعنصرية، ثم بإدراكاته ومشاعره المتعلقة بتصوراته، تثبيت مدركاته الحسية، ثم بتصوراته المختلفة المحتوى والتركيب وبالتحديد أفكاره الشخصية، ثم بعد ذلك يتجه هذا الاحساس نحو أفعال الآخرين ويحاول التحكم فيها، وبالطبع يكون المجال الرئيسى لهذه الأفعال هو الحياة الاجتماعية^(١).

وقد أوضح كولى أن هذا الرأى المتعلق بتطور الاحساس الذاتى من خلال المشاركات والخبرات الاجتماعية قد تناوله أيضا هيرمان ستانلى H.Stanly فى دراسته تطور الاحساس السيكولوجى. ورأى أن شخصية الصديق تكون قائمة فى عقلى على أنها مجموعة من الأفكار تصاحب رموزا معينة له. بمعنى أن ذات الشخص الاجتماعية توجد فى بعض الأفكار التى يشار إليها بضمير المتكلم المفرد «أنا» وفى حقيقة الفاعل I، والمفعول Me، وباء المتكلم Mine، والذاتية My Self^(٢) وقد أشار دون مارتندال إلى أن كولى انتهى فى هذا الصدد إلى أن «التخيل هو العادة المرتبطة بعشء الذات المتميز ليصبح ذاتا اجتماعيا»^(٣).

ولقد جعل كولى من الضمير I عنوانا للشعور أو الاحساس الذاتى وتعبيراته فى إطار تحليله لطريقة تشكيل الذات الاجتماعية. وربما كانت الطريقة المثلى من وجهة نظر كولى لفهم المعنى الحقيقى له تكمن فى الاستماع إلى حديث اللعب عند الأطفال وطريقة تفكيرهم المرتبطة بتمتع الملكية. اذ يلزم الاحساس بالملكية شعوريا بالفرح أو السعادة المصاحب لضمير التملك I. وأوضح كولى ذلك بأثلة عديدة مثل: تمنع الطفل للأشياء الخاصة به، والبنت للملابس الجديدة مع كلمات الاستحسان، والفلاح لحقوله ودوابه، والمشاعر لأعماله الناجحة. وانتهى كولى بما سبق إلى تحديد فكرة الذات بأنها شعور يميز حياة الفرد عن حياة الآخرين ويشار للأنا باعتباره واجهة لها، ثم يتجه الأنا للمشاركات الاجتماعية مع أفعال الآخرين سعيا للتحكم

(1) Cooley, Hman Nature and Social Order, op. cit.p.171-

(2) Ibid.p. 170.

(3) Martindallé, Doon., op. cit.p. 344.

فبها من خلال قدرته، ويكون هذا هو الطريق الذي يضمنى على الأنا صفة الاجتماعية، ويمكن اعتباره ممثلاً لتلك الواجهة الاجتماعية لفكرة الذات (١).

وبعد أن تحدث كولى عن طبيعة الشعور الذاتى، وانتهى إلى أن الضمير يمثل عنواناً للذات أو الشعور الذاتى، ويشكل فى نفس الوقت الواجهة الاجتماعية له، كما يعتبر فى نفس الوقت همزة الوصل للإشارة إلى الآخرين فى الحياة الاجتماعية. ينتقل للحديث عن الدور الذى تلعبه الجماعات الأولية فى تشكيل تلك الذات أو الطبيعة الانسانية ويرى «أنه يجب ألا يعتقد وحدة الجماعة هى مجرد انسجام وتوافق.... إذ أنها فى العادة تكون وحدة متغيرة ومتنافسة بين الأفراد. والتي تتيح لهم فرصة تأكيد الذات على اختلاف مشاعرهم وأهوائهم (٢).

ثم ذهب كولى فى هذا الصدد إلى أن هذه المشاعر تأخذ شكلاً اجتماعياً عن طريق التعاطف، وتمارس فى إطار الروح المشتركة للجماعة، فالفرد قد يكون متطلع الطموح إلا أن طموحه يكون مرغوب فيه من الآخرين. كما يشعر الفرد بالولاء والوفاء للمستويات الاجتماعية الكلية لدرجة أن الطفل قد يتخاصم أو يتنازع مع رفاقه مع مكان ما فى إطار جماعته الكلية، لدرجة أن الطفل قد يتخاصم أو يتنازع مع رفاقه على مكان ما فى إطار جماعته الكلية، ولكنه يضع فى اعتباره فى الوقت نفسه فوز فصله أو مدرسته فوق كل اعتبار. ويضيف كولى أن أحسن الدراسات المقارنة عن الأسرة والتي أجراها وسترمارك أوضحت أنها تمثل نظاماً عالمياً. كما أننا ندرج انتشار جماعات اللعب وغيرها، ومدى تأثيرها الكبير على سلوكنا - من خلال المشاركة - واعتبر كولى أن تلك الجماعات الأولية تعد مولداً لتلك الطبيعة الانسانية العالمية، وكذلك المثل العليا بداخلنا فى أى زمان وفى أى مكان (٣).

وقد أشار فيرز Fars فى كتاب النظرية السوسولوجية إلى أنه إذا سألنا التصور القائل بأن الجماعة الأولية ليست أهم اسهام لدى كولى، فإنها تكون واحدة من

(1) Cooley, Human Nature and Social Order, op. cit. pp. 173 - 174.

(2,3) Cooley, Human Nature and Social Order, Ibid., pp. 311 - 312.

العديد الذى قديمه، فقد تحدث الآخرون عن جماعات الـ (نحن) بينما أكد كولى على الجماعات الأولية والتى نمدنا بأصول الطبيعة الانسانية. وتوصل فيرر من خلال استعراضه لمقاله كولى عن الجماعات الأولية فى كتابه التنظيم الاجتماعى إلى ثلاث خصائص عبر عنها فيما يلى: أولاً - علاقة المواجهة المباشرة وجهها لوجه وبداية اكتساب الخبرات. وثانياً - الشعور بالكل المعبر عنه فى الـ (نحن). ثالثاً - أن أهمية الجماعة الأولية على الإطلاق تدور فى أن طبيعتنا البشرية تنهض من خلالها وتمثله فى التعاطف والشفقة والاحساس، والعدل والانصاف، ثم اللعب المباشر الحر⁽¹⁾

ويمكن للباحث الاتفاق مع كل من كوزر، ورد منبرج بصدد الدور الهام الذى تلعبه الجماعات الأولية فى تشكيل الطبيعة الانسانية أو الذات الفردية. بحيث يمكننا أن نطلق عليها ذات اجتماعية فى إطار المشاركات والتعاطف والمناقسة التى تدخل فيها مع الآخرين، وفى نطاق الجماعات الأولية المختلفة. اذ تمثل الذات مبادئ الجماعة التى تنتمى اليها، ومثلها ومغايرها وميراثها وعواطفها ومشاعرها حتى تصل الى الاحساس بالكل المعبر عنه فى الـ (نحن). وبالتالي يمكننا القول أنها تشكل بيئة مهياة ومناخا ملائما لنمو وتطور الذات الانسانية، حتى تصل إلى مرحلة الاحساس بالكل الاجتماعى. وتدعم هذه الوجهة اتجاه كولى النظرى العضوى ومنهجه السيكلوجى فى فهمه لعلاقة الذات باطار الحياة الاجتماعية. وذلك باعتبار أن الذات لا تنمو فى فراغ، ولكن فى اطار الوسط الاجتماعى المتمثل فى الجماعات الأولية.

وأخيراً ننتهى إلى أن كولى قد استخدم مفهوم الذات الاجتماعية لحل قضية العلاقة بين الفرد والمجتمع - وهى القضية النظرية الكبرى التى حاول فهمها وتفسيرها عضوياً ونفسياً ومعتمداً على المنهج التعاطفى. اذ يقول لويس كودر فى هذا الصدد وأن العلاقة بين الذات والمجتمع مما - فى كتابات كولى - تمثلان توأماً. وتؤكد تلك العلاقة على الرابطة العضوية والاتصال المتبادل بين الذات والمجتمع وهو

(1) Faris, E., "The Primary Group" In Coser & Rosenberg (eds).
Cit.pp. 314 - 315.

ما يميز أغلب كتابات كولى، ويمثل الاسهام المشترك الذى قدمه إلى علم النفس الاجتماعى الحديث وعلم الاجتماع المعاصر^(١).

ولقد تطور الاهتمام بدراسة مفهوم الذات الاجتماعية لدى كولى فى دراسات علماء الاجتماع المعاصرين. فاهتم جورج هيربرت ميد بدراسة بناء الذات أو الشخصية وتطورها فى اطار استجابة الفرد لدوافع الآخرين ورغباتهم. بحيث أمكن فهم وتفسير قضايا التفاعل الاجتماعية داخل اطار الجماعة الاجتماعية، وذلك من خلال الاهتمام بدراسة مفهوم بناء الشخصية وتطورها. كما تمثل هذا الاهتمام فى محاولة بارسونز تحديد علاقة الذات العليا - فى بناء الشخصية - بالدلالات العاطفية الرمزية. وأيضاً فى اطار صلاتها الوظيفية بالتفاعل الاجتماعى والعمليات التفاعلية داخل اطار الثقافة المرجعية للجماعة^(٢). بل لقد أصبح هذا الاهتمام بدراسة مفهوم الذات الاجتماعية فيما بعد أساس لدراسة العديد من القضايا النظرية مثل: قضايا الاتجاهات، والحاجة إلى الانجاز، والتثنية الاجتماعية^(٣).

ب- دورها فى تشكيل المبادئ الأولية

ويبدأ كولى ببيان الدور الذى تلعبه الجماعات الأولية فى تشكيل المبادئ الأولية، ببيان بعد هذا الدور وحجمه من خلال تساؤله «من أين نحصل على أفكارنا عن الحب والحرية والعدالة، وما نحتاجه من النظم الاجتماعية؟ وأن ذلك يكون من خلال الحياة الاجتماعية الواقعية والجماعات الأولية المنتشرة فى المجتمع كجماعات: الأسرة واللعب والجوار والصدقة وذلك بالرغم من أن طبيعة العلاقات الأولية المشكّلة داخل الجماعات الأولية لا تكون عامة فى كل المجتمعات، بل تختلف باختلاف السلالة وأنواع النظم السائدة، إلا أنها تحاول أن تلبى وتنبع الحاجات الأولية للطبيعة الانسانية، ومن خلال الأشكال المختلفة لمستويات الخبرة السائدة عن طريق المشاركة

(1) Coser, L.A., Masters of Sociological Thought. op.cit., p. 305.

(2) Parsons, T., Social Structure and Personality. op.cit., p. 25.

(٣) محمد سعيد فرح، مرجع سابق، ص ٨٤

ولذلك كان البحث فيها يحتاج الملاحظة وكثير من الاهتمام^(١)

ولقد رأى كولى أن المبادئ والمثاليات تنهض من خلال المشاركات المعتادة فى اطار الجماعات الأولية بحيث يمكن القول أنها تشكل جزءا من الطبيعة الانسانية فى ذاتها، ثم بصورة عامة تشكل جزءا من الكل الأخلاقى ذو البعد المجتمعى لدرجة أن الفرد يعتبر الآخرين جزءا منه ويذيب ذاتيته معهم. كما توجد لديه القابلية لأن يلتقى بنفسه فى جماعة العائلة أو جماعة أصدقائه من الشباب. وقد رأى كولى أن هذه الطبيعة سوف تنتشر وتمتد فى مجتمعاتنا وفى العالم^(٢).

وقد انتهى كولى إلى تعداد المبادئ والمثاليات الأولية التى تتبلور فى اطار الجماعات الأولية. ولكنه أكد على أن اطار الـ (نحن) We يمثل قاعدة للوحدة الاخلاقية ويعتبر المبدأ الرئيسى بالنسبة لبقية المبادئ الاجتماعية، وقد برهن كولى على ذلك بمثالين: الأول - يتمثل فى أن الحياة المتجانسة الكلية للعائلة منذ القدم هى نموذج للوحدة الأخلاقية الكلية. والثانى - أورده على لسان جوزيف تى ومؤداه أن الفرد لايشكل فقط جزءا من الفريق ولكن الفريق بكامله يصبح جزءا من شخصية الفرد. ومن ثم توصل كولى إلى وجود الصدق فى الاحساس برفقة الآخرين داخل اطار الجماعة والذى يكون له صفة العمومية فى المثل الانسانية. كما يسود أيضا فى الجماعات الأولية كلمة الشفقة كقانون مشروع من حقوق الجماعة، وأيضا العدالة التى تتطور وتنمو داخل اطارها، والتعاطف الذى ينجم من اشتراك واتحاد العقول مع بعضها بحيث يسعى كل فرد إلى تحقيق حياته وحياة غيره. اذ يجد الفرد أحيانا مشابهة لما يفعل بواسطة الخبرات التى اكتسبها من خلال الجماعة، وبالتالى يرسم الجميع عن طريق خبراتهم تلك مستويات الطموح الفردى وأبعاد سلوكهم^(٣).

ويتضح لنا مما سبق طبيعة تلك المبادئ الأولية والتى تبدو فى أنها تنبع من الخبرات المألوفة والأكثر عمومية فى الجنس الانسانى بوجه عام تشكل داخل اطار

(1) Cooly, Social Organization. op .cit., p. 2.

(2) Ibid.p. 33.

(3) Cooly, Social Organization. op .cit., p. 35.

الجماعات الأولية. وإن كانت تتلون بالطابع العام للحضارة وأشكال النظم والجماعات وخصائص السلالة ونوع الثقافة والتي تشكل الموجهات السلوكية الملائمة لحاضرها وسمتقبلها. ونستدل في ذلك باختلاف الموجهات السلوكية في المجتمعات الشيوعية عنها في المجتمعات التي تبث موجهاتها السلوكية وفقا لقيم عقائدية. وكذلك يختلف ماهو لدى المجتمعات الغربية عنها ماهو لدى المجتمعات العربية، بل يمكن أن يكون اختلاف الموجهات السلوكية وارد في اطار اختلاف الثقافات الفرعية داخل نطاق الثقافة الواحدة.

٤- المعايير السيكولوجية في فهم للجماعات الأولية عند كولى

رغم اتفاق علماء الاجتماع مع كولى على طبيعة وخصائص الجماعات الأولية، إلا أن ذلك لم يمنعهم من مناقشة المعايير السيكولوجية التي وضعها وعلى أساسها يمكن أن نطلق على الجماعة صفة الأولية. وتساءل فيرز كم تكون خاصية المواجهة المباشرة ضرورية في وصف الجماعة الأولية لدى كولى؟ وهل كل جماعات المواجهة المباشرة تشكل لدى كولى جماعات أولية؟ أم أن علاقات المواجهة المباشرة تكون عارضة؟ ولقد اتضح أن هناك جماعات توصف بأنها غاية في الأهمية من حيث ظهورها مثل المحكمة الأمريكية للجرائم An American Crimena Court إذ تشكل هذه الجماعة علاقة مواجهة مباشرة وجها لوجه مع القاضي وأعضاء مجلس الشورى والمستشار. وبالرغم من ذلك فهي لا تحتوى السمات أو الخصائص الضرورية للجماعات الأولية، وذلك باعتبار أن العلاقة بداخلها تكون حتمية باطار القواعد الموضوعية من قبل السلطات، وأيضا النشاطات التي تقوم بها تكون متلائمة مع طبيعتها التنظيمية^(١).

ويدعو أن فيرز أراد تأكيد وجهة نظر كولى التي ترى أنه بالرغم من وجود علاقات المواجهة المباشرة لدى بعض الجماعات، إلا أنها تفتقر إلى وجود العلاقات الأولية مثل المشاركة والتعاون والمبادئ الرئيسية لتكوين الشخصية أو الطبيعة الانسانية. ومن ثم

(1) Faris, op. cit., p. 315.

فهى لا تشكل جماعة أولية لأن الشخص يفتقر فى نطاقها إلى تلك الواجهة العضوية السيكولوجية، والتي تقوم على مشاركة الذات لأهداف الجماعة وتمثلها لغاياتها الكلية فى المقابل.

كما ناقش فيروز وجهة نظر كولى التى ترى أن الجماعة الأولية يمكن أن تكون صغيرة للغاية. وحاول الوقوف على امكانية اعتبار أن كل جماعات المواجهة المباشرة لدى كولى تشكل فى جوهرها جماعات أولية؟ وتساءل أيضا هل الجماعات غير المباشرة لدى كولى تملك خصائص الجماعة الأولية؟ وأجاب على هذه الأسئلة بثلاثة أمثلة: الأول - مؤداه أن جماعة القرابة التى تنتشر فى المكان وتتصل فقط بواسطة الخطابات تشكل بوضوح جماعة أولية. وذلك من خلال الاحساس بالوحدة وسيطرة الاندماج الواضح للأفراد فى الكل العام. والثانى - مؤداه أن المرأة الدراسة يمكن أن تحقق تجربة متجانسة ومتوافقة من الحب بعمق تجاه امرأة مبدعة وتتصل بها بواسطة الخطابات المستمرة لعدد من السنين. وذلك بالرغم من أنهما لم يتقابلا وبالتالي يمكن أن يطلق عليها جماعة أولية أما «المثال الثالث» فمؤداه يتعلق بإيضاح لعلاقة التاريخية التى كانت قائمة بين أميرسون Emerson، وكارليل Carlyle لم نقم على الرجد الفيزيقي بل كانت صداقة تعتمد على روح الجماعة. وعلى هذا فقد تابع فيروز وجهة نظر كولى التى ترى أن الجماعة الأولية تعتمد على عدم الانفصال الفكرى، وهو ما يشكل جوهرها لحقيقة الجماعة الأولية. ومن ثم يمكن الاتفاق مع وجهة النظر هذه - والتى ترى أن صفة المواجهة المباشرة ليست دائمة فى تكوين الجماعات الأولية^(١). وبالتالي لا تكون كل جماعات المواجهة المباشرة جماعات أولية.

وإذا ما حاولنا تحديد البعد الذى يمكن معه وصف الجماعات الأولية بالفاظ موضوعية محددة لدى كولى؟ وإلى أى مدى يمكن اعتبار الاتجاهات الذاتية والخيال أساسا جوهريا فى تشكيلها؟ نجد أن كولى «لم يغفل واجهة التصورات والأفكار الذاتية وانتشار التعاطف Sympthy فى اطار الـ (نحن) بمعنى أن قيام الجماعة

(١) Faris, Ibid., p. 316.

الأولية على الاحساس بالـ (نحن) يوجب علينا الاهتمام بالميزان الذاتى ، ولانستطيع أن نعتد باتساع على مجرد ملاحظة الأفعال والتعبيرات وتفسيرها. أما التصورات العقلية والعواطف فتكون هامة فى هذا الصدد. وضرب كولى مثلا مؤداه: أن الرجل حينما يقع فى الحب أو فى التدين فإن تصوراته العقلية وعواطفه التى تشكل عمقا للحياة الاجتماعية لديه تعتبر حقائق جوهرية بالنسبة له. كما أن أحسن وصف وتحليل لصديقى، يتمثل فيما أتصور فى حين يقول لى أو يفعل فى مناسبة ما (١).

ويتضح مما سبق أن كولى رغم قوله بإمكانية وصف الجماعة الأولية بناء على الملاحظات والمشاهدات الموضوعية، إلا أنه أكد على الميزان الذاتى والتخيلى، والعواطف والمشاعر باعتبارها حقائق رئيسية فى النظر إلى الجماعات الأولية. فالذات الاجتماعية التى ينهض من خلالها الاحساس بالـ (نحن) توجد الوجدان الجماعى، وبالتالي تسود الاتجاهات والعواطف الكلية وكذلك السلوك المتوافق الذى يمكن ملاحظته. وتلك هى المعايير النفسية التى تشكل نوع العلاقة والمشاركات التى تقوم داخل الجماعات الأولية.

ولقد تابع الكثير من علماء الاجتماعى وعلم النفس الاجتماعى كولى فى هذا الصدد، اذ يقول بيير بادان فى نشرات مجمع العلوم الاقتصادية والتضيقية الأمريكية: «أن الجماعة الأولية هى أكثر مايربط الفرد بالجماعة بشكل مباشر، كما تقوم بمهام خطيرة لأنها تجلب للانسان السند العاطفى الذى يسر اندماجه فى الحياة الاجتماعية (٢) كما أن هناك بعض من علماء الاجتماع أمثال فيرز وهنرى نيرى فى كتابه الجماعات، لا يرون صفة المواجهة المباشرة أساسا رئيسيا للتفرقة بين الجماعات الأولية والثانوية، لأن الخصائص السيكولوجية الأولية التى تنهض عليها تلك الجماعات غير مرتبطة بصفة المواجهة المباشرة ويدعم ذلك أنه غالبا ما نلاحظ داخل العديد من الجماعات التى يمكن أن نعتبرها لأول وهلة جماعات أولية أن نجد نوعا

(1) Faris, op. cit., p. 317.

(٢) هنرى نيرى، الجماعات هل هى قوى فعالة. (ترجمة) رشدى كامل صالح، القاهرة: نيويورك، مؤسسة فرانكلين ومكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٨، ص ٤٦.

من المشاركة تختلف أحيانا عما يدل عليه الهدف الوظيفي لها، وأن هذا الانطباع لدينا قد قام على وهم خاطئ فقد نجد في مركز ما أو ناد أنه مغلق على نفسه وراء السعادة ويسمى وراء الروحانيات، وبالتالي نعتقد أن الجماعة المكونة لهذا النادي تكون غنية بالمشاعر أو المشاركات العميقة، وذلك على اعتبار أن أفرادها يتفاعلون وجها لوجه وعن قرب، ومع ذلك لا يكون هناك وجود لتلك المشاعر والمشاركات العميقة^(١).

(١) هنري نيري، المرجع السابق، ص ٤٨، ٤٩.

٥- خاتمة الفصل الثالث:

بعد عرضنا للتفسير السيكولوجي أو السلوكي للواقع الاجتماعي عند كولي من خلال تناوله لقضية العلاقة بين الفرد والمجتمع، ثم الوائة والبيئة، ثم لتفسيره النفسى للجماعات الأولية فى ضوء خصائصها النفسية والتي تشكل مكونات للذات أو الطبيعة الانسانية. وزخيرا للدور الذى منحه للجماعات الأولية فى تشكيل الذات الاجتماعية والمبادئ والمثاليات الأولية، وكذلك وقفنا على تحديد للمفاهيم والقضايا النظرية، وكيفية استخدامه لها، ثم لتطور استخدامها لدى علماء الاجتماع بوجه عام. وسوف نحاول الآن الوقوف على ما أسهم به كولي من خلال اتجاهه النفسى إلى مجال قضايا علم الاجتماع النظرية والمنهجية بوجه عام.

وفى ضوء اهتمامات علماء الاجتماع الأمريكيين الممثلين لهذا السلوكية الاجتماعية يمكن لنا أن نرى إهتمام كولي بتطور مفهوم الذات الانسانية فى إطار الحياة الاجتماعية على نطاقين: الأول - من خلال معالجته بين الفرد والمجتمع ونظرتة لكل منهما كواجهات توزيعية لشيء واحد وفى هذا لا ينكر (كولي) على (فرويد) اهتمامه بالجوانب الفردية الغريزية التى تلعبه دورها فى تشكيل الطبيعة الانسانية، كما أنه لا ينكر أيضا على (دوركايم) اتجاهه الاجتماعى الامبريقى ومدى الدور الذى تلعبه المشاركة الاجتماعية فى تشكيل تلك الطبيعة. وهذا ما يعكس نظريته العضوية ومنهجه العضوى السيكولوجى فى دراسة للعلاقة بين الفرد والمجتمع. وثانيا - يتمثل النطاق الثانى فى الدور الذى تلعبه الجماعات الأولية من خلال علاقات المواجهة المباشرة فى تشكيل الذات الفردية، وفى هذا الصدد يمكن القول بأن كولي اذا كان لا يفكر على (فرويد) ، و(دوركايم) اهتمامهما، الا أنه يرى ان الفرد لا يعتبر كائنا اجتماعيا الا لأنه يعيش فى الجماعات الاجتماعية.

واذا كان يمثلان الواجهات الجمعية والتوزيعية لشيء واحد، الا أنه توجد فكره فى حياه كل شخص تكون فيها الأسبقية للجماعة، طالما أنها توجد قبل الشخص وتترك تأثيراً قوياً فى تطوره^(١). ويدور أن كولي أراد أن يقول بأن الطبيعة الانسانية أو

١) Robert E.L. Fairis.. op.cit.;p. 555.

الذات الانسانية لاتكون أكثر أهمية في جانبها الفردى، الا اذا دخلت في علاقات ومشاركات في جماعات اجتماعية أولية مثل الأسرة، والجوار، الصداقة... الخ تلك التى يتضمن طابعها وشكل تلك الذات الانسانية من خلال المبادئ والمثل والأفكار والأحاسيس الأولية التى تكون مشترطة في عقول أفراد الجماعة.

وهذا يعنى ان الذات الفردية في نظرية كولى تجدد الظروف الملائمة للنمو والتطور الا من خلال الاحساس العام والحقيقة الاجتماعية المتمثلة في اطار الجماعات الأولية، مما يدعونا إلى القول بأن كولى كان أقرب إلى (دوركاين) من (فرويد)، وان كان لايتفق مع (دوركاين) في ان الجماعة هى الفيصل في تشكيل تلك «الذات» نظراً لاشتغالها على الجوانب الفردية الوراثة البيولوجية تلك التى تتفاعل مع البيئة الاجتماعية الممثلة في الجماعات الأولية ليكونا سوياً الحقيقة الاجتماعية التى يدخل كل من الفرد والمجتمع واجهان لها. وهذا مايؤكد منهجه العضوى السيكولوجى الذى اعتمد عليه في دراسته للواقع الاجتماعى.

واذا انتقلنا لمناقشة مدى الاسهام الذى مقده (جورج هربرت ميد) في مجال هذا السلوكية الاجتماعية في علم الاجتماع، نجد ان (جيمس ودرارد) James Woodard مجمل هذا الاسهام في اعتبار أنه يمثل الهيئة الدائمة للفردية التى لاتزال مرتبطة عضوياً بالمجال الثقافى الاجتماعى، والذى يملك بالضرورة مركزاً مختلف عما هو لدى الفرد، باعتباره مصدراً للمعاني وللأفكار والقيم - تلك المعانى السيكولوجية العاطفية - هذا بالاضافة إلى أنه أفترق أثر الاهتمام بتفسير ظهور الذات Self في اطار السلوك من خلال اطار التخييل Imagination واللعب Play وأخيراً في نطاق الأعمال الواقعية للحياة، تلك النظم التى اعتبرها تمثل دوافع تلقائية - ذاتية - لمركز الذات Spontaneous Self Centered Impulses. (1)

ويتضح من هذا شايع ميد لاتجاه علماء النفس الاجتماع الأمريكى في الاهتمام بظهور الذات الفردية في اطار الحياة الاجتماعية الواقعية - فى السلوك - ووصوله إلى

(1) Robert E.L. Fairis.; op.cit.;pp: 238- 239.

أنها تنمو وتشكل فى إطار الخبرة الاجتماعية مما يؤكد الأصل الاجتماعى لها، وهو ما يعكس لنا مبنى (ميد) للنظرية العضوية السيكولوجية فى دراستها لظهور الذات ونموها. ويتضح هذا اذا ما رأينا أنه يحدد هذا النمو والتطور فى إطار جماعات اللعب واللعبة تلك تشكل اطارات مرجعية لهذا النمو، حيث يتماثل الفرد مع الاتجاهات العامة فى الجماعة تلك التى تشكل الذات Me وتكون استجابته لها من خلال ذاته الفردية I تلك التى تشكل فى إطارها ومن خلال تمثلها لاتجاهاتها السائدة فى الجماعة ككل، وأيضاً الاحساس بالملكية العامة، والاستجابات العامة المتعلقة بتلك الجماعة.

ففى مجال المفاهيم يأتى استخدام كولى لمفهوم الجماعة الأولية اسهاماً هاماً وازضافة جوهرية إلى مفاهيم علم الاجتماع بوجه عام، وذلك فى إطار اسهاماته النظرية وجاء ذلك فى إطار نظريته العضوية السيكولوجية. اذا حاول من خلال استخدام مفهوم الجماعة الأولية أن يوضح الخصائص النفسية التى ينهض عليها هذا المفهوم. وقد تابع علماء الاجتماع هذا الاهتمام لدى كولى فيما بعد، اذ أورد بينر بادان فى «كتاب الجماعات هل هى قوى فعالة» ويصدد ايضاحه الخصائص النفسية التى تميز الجماعات الأولية تكون العلاقات أولية حينما يلتزم بها الأفراد فى وحدتهم وفى تشابكهم، وتعنى الوحدة أن الاجابة الموجهة إلى شخص معين غير قابلة إلى التحول إلى أشخاص آخرين، ويعنى التشابك أن ماتضمنته العلاقة يتجاوب مع المظاهر المتعددة لشخصية الغير ويتصرف تلقائياً كأنه كل متكامل. وكلما قلت قابلية تحويل الاجابة الموجهة إلى شخص معين من التحويل إلى شخص آخر كانت العلاقة أولية، كما تكون الاتصالات حينئذ على مستوى عميق نسبياً، وتؤثر مباشرة على الشعور والاتجاهات وتقوم العلاقة الأولية لذاتها^(١).

ويلاحظ أن مفهوم الجماعة الأولية لدى كولى قد ارتبط به مفهوم الذات أو الشخصية الانسانية، وذلك لما للجماعة الأولية من دروهم فى تشكيل تلك الطبيعة الانسانية، بحيث تصل تلك الطبيعة الانسانية بجانبها الفردى إلى وحدتها التامة،

(١) هنرى تيرى، المرجع السابق، ص ٤٠.

ويمكن أن نطلق عليها صفة الاجتماعية، بمعنى أن كولى فى فهمه وتفسيره لتكوين الشخصية الانسانية ونموها داخل اطار الجماعة الأولية قد اعتمد على فهمه النفسى لخصائص تلك الجماعات الأولية، واعتمد أيضا على الدور الذى تلعبه تلك الخصائص فى تشكيل مفهوم الذات أو الشخصية الانسانية، بحيث فسر كولى نمو الذات داخل اطار تلك الجماعات الأولية من خلال التفاعل بين ذات الفرد والآخرين. وحتى يمكن أيضا أن نطلق عليها صفة الاجتماعية لتشتمل على كلا جانبيها الفردى والاجتماعى فى كل عضوى سيكولوجى.

وقد اقترب كولى فى هذا الصدد من مفهوم الشعور الاجتماعى اذ يقول «أن الفصل بين الشعور الفردى والشعور الاجتماعى هو قصد مصطنع، لأن أى حكم على الشعور الفردى يكون حكم اجتماعى على اعتبار أنه يشتمل على المؤثرات الاجتماعية، كما يشكل أى شعور اجتماعى واجهه للمشاعر الفردية. وأن الشئ المحدد هو الكل الأخلاقى الذى ينهض على الأخلاقيات الفردية»^(١) وقد منح كولى لتلك الذات الاجتماعية دورا مهما فى تكوين المبادئ والمثاليات الأولية. اذ يأتى هذا الدور فى اطار الشعور بال (نحن) الذى يوجد التصورات الذاتية وينشر التعاطف والوجدان الاجتماعى. وبالتالي يسود الجماعات الاتجاهات السيكولوجية، والتى تشكل معايرة نفسية لاطار العلاقات والمشاركات التى تحدث داخل نطاق الجماعات الأولية.

والواقع أن معالجة كولى للعلاقة بين الفرد والمجتمع، تأتى فى اطار تصوره النظرى لمهمة علم الاجتماع وادراكه للواقع الاجتماعى وعلاقته بنمو الذات الانسانية. اذ تعد هذه القضية النظرية الرئيسية التى شغلت اهتمام كولى، وتعتبر اسهاما جوهريا له ونقطة التقاء فى مجال علم الاجتماع المعاصر وعلم النفس الاجتماعى. وقد جاء اهتمامه بها فى اطار اتجاهه النظرى العضوى السيكولوجى العام، وحاول تفسيرها على انها علاقة عضوية سيكولوجية. واعتمد فى دراسته لها على منهج سيكولوجى تمثل فى منهج المشاركة التعاطفية بجانب المنهج العضوى. وكان ذلك

(1) Cooley, Hman Nature and Social Order, op. cit.p.378.

بهدف اظهار علاقة الاعتماد المتبادل والتأثير بين كلا الجانبين.

وقد تطور هذا التفسير العضوى السيكولوجى للواقع الاجتماعى لدى كولى، كما أضفى على علاقة الذات الانسانية بالواقع الاجتماعى نوعاً من الوضوح والعمق، اذ جاءت محاولته تحديد العلاقة بين الوراثة والبيئة وأثرها فى حياة الانسان، تدعيماً وتطوراً لاهتماماته النظرية والمنهجية. فاعتمد فى دراستها على منهج الفهم التعاطفى السيكولوجى بجانب المنهج العضوى. كما حاول تفسير العلاقة بين الوراثة والبيئة فى اطار الكل العضوى السيكولوجى الذى يجمع بين الصفات الوراثية والبيئية فى حياة الوجود الانسانى، واعتبر كولى أن علاقتهما هى علاقة تكامل عضوى سيكولوجى. ولقد تطور هذا الفهم العضوى النفسى الذى أرساه كولى لعلاقة الوراثة والبيئة وأثرهما فى حياة الانسان لدى علماء الاجتماع المعاصرين، اذ يقول أرنولد جرين فى تحليله لعلاقة الفرد بالوجود الانسانى لا يوجد الفرد باعتباره شخصاً. ولكن يولد فقد ولديه الامكانية أن يصبح شخصاً ما، وذلك نتيجة للمؤثرات الاجتماعية التى تتعامل معه باعتباره كائناً له بناء فسيولوجى ولد به. ولكى يصبح الفرد شخصاً يجب أن يكتسب اللغة والتفكير ويتمثل الأهداف والقيم، وحيث أن يشارك الشخص سمات الاجتماعية فى المجتمعات الانسانية مثل: اللغة والأدوار، والأخلاق والمعتقدات، والمبادئ الخلقية العامة بشكل خاص وبالتالى تضمن الشخصية مشاركة الشخص مع الآخرين، كما تتضمن أيضاً الإشارة إلى ما يميز الشخص من سمات عن الآخرين مثل: قيمة ومبادئه، وبرстиجه، بالاضافة إلى طرقه المعهدة فى الفعل وردود الأفعال⁽¹⁾

(1) Green, A.W., Sociology. New York: Mc Graw- Hill Books Comapny. 1960. pp. 115 - 116.

الفصل الرابع

السلوكية الاجتماعية فى دراسات

جورج كوسبار هومانز

- ٢- المفاهيم السيكلوجية فى تفسير السلوك أو الظاهرة الاجتماعية.
 - أ- النشاط.
 - ب- التفاعل.
 - ج- الاحساس.
- ٣- التفسير السيكلوجى للسلوك الإنسانى فى إطار النسق الخارجى (البيئة).
 - أ- قضية النجاح.
 - ب- قضية الدافع.
 - ج- قضية القيمة.
 - د- قضية الحرمان من الاشباع.
 - هـ- قضية العداء المحيط
- ٤- الفهم السيكلوجى لدراسة السلوك الإنسانى فى إطار التفاعل الاجتماعى.
- ٥- النزعة السيكلوجية الوظيفية لدراسة السلوك الإنسانى لدى هومانز.
- ٦- خاتمة.

الفصل الرابع

السلوكية الاجتماعية في دراسات جورج كوسبار هومانز

George Cospar Homans

لما كان اهتمام هومانز موجه إلى التفسير أكثر من الكشف على اعتبار أن العمليات الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية تكون مألوفة لدينا وليست في حاجة إلى اكتشاف، فقد ركز على تفسيره لعمليات وأنساق التعاون. والصراع والقوة والسلطة والتوافق. اذ تأخذ تلك العمليات الاجتماعية طابع الاستمرار في أى زمان وفي أى مكان. وكان تفسيره لتلك العمليات الاجتماعية في كتابه الجماعة الانسانية واضح ودقيق في اطار المهمة الرئيسية لعلم النفس. وذلك على أساس أن دراسة الوحدات الرئيسية للسلوك تشتمل على أولا- أفعال الفرد الانساني. ثانيا - الوظيفة المتعلقة بتلك الأفعال الفردية والتي تمثل قيمة لها. ثالثا - دراسة المكافآت Rewards والقيمة التي يكون عليها الفعل. وأوضح هومانز أن نظريته تبدأ بقضايا تتعلق بالتفسير العام للعمليات الاجتماعية والسلوك الانساني، ويأتى في اطار استخدامنا للحالات الواقعية للفعل. وقد نبه هومانز إلى أن هذا التفسير قد وافق عليه بعض علماء الاجتماع، في

- ولد هومانز في مدينة بوسطن عام ١٩١٠، تخرج في جامعة هارفارد ١٩٣٢، ثم عين مدرسا في نفس الجامعة الفترة من (٣٩ - ٤٦). ثم عين أستاذا زائرا بجامعة منشستر من (١٩٥٥ - ١٩٥٦). ثم رئيسا لعلم الاجتماع بجامعة كامبردج. وقد تخصص هومانز في النظرية السيولوجية والعلاقات الصناعية. ولما بدأ الاتجاه نحو تكوين النظرية الوظيفية بنشر مقال ميرتون عام ١٩٤٩، تابعها هومانز بنشر كتابه الجماعة الانسانية والذي يعتبر مثال حديث لتكوين النظرية السيولوجية الوظيفية. وقد رأى أن السلوك الانساني لا ينبغي أن يفسر بالرجوع إلى التغير الاجتماعي. ومن ثم اهتم في كتابه الجماعة الانسانية والسلوك الاجتماعي بالتصميم بعد الاستقرار لحوادث كثيرة، وأوضح أهمية دراسة الجماعات الانسانية، وقواعد بناء النظرية، موضعا منهجه المستخدم في نظريته وهو منهج دراسة الحالة وكانت عناصر السلوك في نظريته هي: الاحساس والتفاعل والنشاط، والاعتماد المتبادل بين هذه العناصر وقد قام بتحليل الجماعات في اطار النسق الخارجى - أى البيئة - وأضاف عنصر آخر وهو المعايير. وتحدث أيضا عن النسق الداخلى في اطار التفاعل بين أعضاء الجماعة

. Martindalle. Doon., op.cit., p. 476.

حين لم يوافق عليه البعض الآخر، واتجهوا إلى رسم خط فاصل بين علم الاجتماع وعلم النفس.

واعتبر هومانز أنه في إطار دراسة قضايا السلوك الانساني لا يوجد خط فاصل بين علم الاجتماع وعلم النفس^(١)

ولقد طبق هومانز قضايا نظريته السابقة في إطار خمس دراسات تفصيلية في كتابه الجماعة الانسانية، وكانت تشمل تلك القضايا العامة على عناصر السلوك والعمليات الاجتماعية مثل: الاحساس والنشاط والتفاعل والمعايير. وجاءت معالجته لعناصر السلوك الاجتماعي تلك معالجة اجرائية توضح العلاقات القائمة بين هذه العناصر الأربعة. أما في كتابه السلوك الاجتماعي فقد اعتمد على علم النفس السلوكي، ومبادئ الاقتصاد، كما تناول معطياته من البيئة الاجتماعية والنفسية في الزمان والمكان، كما ركز أيضا على عامل النشاط والتفاعل، ودورهما في بناء النسق الداخلي للجماعة في علاقته بالبيئة الخارجية^(٢).

وبصدد دراسة الاتجاه النفسي في دراسات جورج كوسبار هومانز ومحاوئته بناء نظرية اجتماعية في دراسة السلوك الاجتماعي والعمليات الاجتماعية، والتي اعتمد فيها على قضايا سيكولوجية لفهم سلوك الأفراد سواء في علاقاتهم بالبيئة أو في إطار التفاعل الاجتماعي نتناول العناصر التالية: أولا - معالجة المفاهيم السيكولوجية التي تتضمنها نظريته الاجتماعية وتستخدم في تفسير السلوك أو الظاهرة الاجتماعية. ثانيا - التفسير السيكولوجي للسلوك الانساني على نطاقين: في بداية علاقته بالنسق الخارجي (البيئة) من خلال قضايا السلوكية الخمسة، ثم من خلال التفسير أو الفهم السيكولوجي للسلوك الانساني في إطار التفاعل الاجتماعي، وفي ضوء علاقة الشخص بالآخر داخل نطاق الجماعات الاجتماعية. وأخيرا نتناول النزعة السيكولوجية في نظرية هومانز الوظيفية لدراسة السلوك الانساني من خلال قضايا الخمسة.

(1) Homans, George, "Fundamental Social Processes", In Neil S. Smelser. (ed) Sociology. New York: John Wiley Sons., 1967, p. 31.

(2) Loomis; C. Charles & Loomes, Tonak., Modern Social Theories New York: Company I. M. C., 1963. pp. 171 - 173.

٢- المفاهيم السيكلولوجية فى تفسير السلوك أو الظاهرة الاجتماعية.

قبل الدخول فى مناقشة المفهومات الأساسية والتي تشكل عناصر السلوك الاجتماعى يجدر بنا أو لا تحديد مضمون هذا السلوك الاجتماعى لدى هومانز. وقد أشار شادويك جونز فى هذا الصدد إلى أن هومانز فى تفسيره للسلوك الاجتماعى أهتم بوضع عدة شروط تحدد مضمونه وهى «أن يكون هذا السلوك اجتماعيا. ثم يكون هذا السلوك الاجتماعى الذى يقوم به الشخص مثابا أو معاقبا من شخص آخر، ويعتبر هذا شرطا ضروريا. وأن يتصف هذا السلوك الاجتماعى بأنه سلوك أولى، بمعنى أنه مباشرة فى العلاقة تمثل مجال هذا السلوك الاجتماعى الأولى بين الشخصين بدون ثالث معهما. كما تتضمن دراسة هذا السلوك الاجتماعى الملاحظة الخارجية للأفعال المباشرة وجهها لوجه، وفى أقل وقت من الزمن. وأخيرا يحدد إطار هذا السلوك الاجتماعى الأولى على اعتبار أنه يأخذ طابع المواجهة المباشرة. وبالتالي يكون أسهل فى تفسيره عن السلوك داخل نطاق التنظيمات الرسمية للمجتمع والتي تحتوى على قضايا سيكلولوجية نظامية لا تحتاج إلى تفسير»^(١)

إن كان هومانز يرى أن هناك مخاطرة فى دراسة السلوك الاجتماعى فى مستواه الاجتماعى، فإننى أعتقد أنه يكون مطلوب إقامة بناء من النظرية لتفسير هذا السلوك الاجتماعى السائد فى كل المجتمعات، وفى إطار واجهاته السيكلولوجية، كما تبرز أهمية استخدام أداة الملاحظة المباشرة باستمرار لتحديدنا بالبرهان فى تحليلاتنا لهذا السلوك الاجتماعى. وذلك بالرغم من أن الملاحظة لا يمكن القيام بها على أعداد ضخمة فى وقت واحد، ومن ثم يكون من المناسب دراسة هذا السلوك فى نطاق الجماعة الصغيرة والتي يكون كل عضو فيها فى حالة تفاعل مباشر مع الآخر. وبالتالي نهضت قضايا هومانز العامة لدراسة السلوك الإنسانى والعمليات الاجتماعية من خلال الدراسات النظرية المتعددة والدراسات الامبريقية^(٢).

(1) Jones. J.K. Chadwick.. Social Exchange Theory New York Academic Press, 1967 pp. 154 - 155.

(2) Jones. J.K Chadwick op.cit. pp. 155 - 156

وقبل تناول قضايا هومانز الخمسة فى دراسة السلوك الاجتماعى، نعرض فيما يلى للجوانب السيكلوجية فى مفهوماته الأساسية التى تشكل عناصر السلوك الاجتماعى ويستخدمها هومانز فى تفسير السلوك أو الفعل والظواهر الاجتماعية.

(أ) النشاط Activity

لقد اعتمد هومانز على مفاهيم عامة فى دراسته للسلوك الانسانى مثل العمل أو النشاط واعتبرها اطارا يحتوى كلمات معينة مثل: زراعة محصول معين، أو قطع الأخشاب، أو التدخين، أو تعاطى المخدرات، أو الحصول على الطعام، أو اللعب أو الراحة. ورأى أن تلك المفاهيم العامة تشكل اطارا لأفعال الانسان. وسواء تمثلت تلك الأفعال فى التعامل مع البيئة الخارجية باستخدام الآلات، أو فى التعامل مع الآخرين بالاعتماد على المساعدة. وبمعنى آخر يرى أن هذه المفاهيم تشتمل على الأفعال التى تعتمد على الحركات العضلية للانسان والتى حين نأتى للبحث عن خصائصها بوجه عام كعناصر للسلوك الاجتماعى تمنحها اسما عاما يطلق عليه بالفعل Action. أما اذا كانت بعض هذه الحركات تعتمد على معانى رمزية كما هو فى الكلام، فان تقييمها كعناصر للسلوك الاجتماعى يمكن أن يطلق عليه اسم النشاط والذي يستخدم بطرق متعددة فى لغة الحياة اليومية كمفهوم تحليلى لدراسة الجماعات الانسانية أو السلوك الانسانى⁽¹⁾.

ويلاحظ أن هومانز استادا إلى قناعته بعدم امكانية الفصل بين علم الاجتماع وعلم النفس فى دراسة قضايا السلوك الانسانى، فقد اتخذ من مفهوم النشاط وسيلة ليشكل اطارا نفسيا للسلوك أو الفعل الانسانى. وأى كان مجال هذا السلوك سواء فى تعامله مع البيئة الخارجية فى صورة حركات عضلية، أو اتخذ هذا السلوك معانى رمزية تصويرية فى اطار علاقة الفرد بالآخر. وهذا يؤكد المحتوى النفسى لمفهوم النشاط لدى هومانز. والذي يشكل عنصرا من عناصر السلوك الاجتماعى لديه.

(1) Homans, G.C., The Human Group. London: Rothedge & Kegan Paul, 1959 . pp. 433 - 35.

(ب) التفاعل Interaction

ويشكل مفهوم التفاعل العنصر الثانى من عناصر السلوك الاجتماعى لدى هومانز ويعنى به أن الطفل حينما ينمو بين اخوته الكبار ويصبح شيئا فشيئا أكثر تفاعلا معهم وبوالديه - اذ يتلقى تعليماته منهم ويكون صداقة معهم - فبالتالى تصبح كل كلمة لديه لها معنى محدد فى اطار لغته اليومية وتفاعله اليومي، فمثلا كلمة يرى اذا استعملت فى اطار عبارة الذهاب لرؤية انسان ما، فهى تعبر عن فكرة التفاعل بين الأشخاص. ومن هنا جاءت اشارة هومانز إلى التفاعل على أنه عنصر من عناصر السلوك الاجتماعى، واستخدمه كتصور تحليلي فى دراسته. وأوضح أنه اذا كان مفهوم النشاط كعنصر من عناصر السلوك الاجتماعى يشتمل على العديد من المتغيرات التى تندرج تحته، فهذا ينطبق على مفهوم التفاعل حيث يشتمل على العديد من المتغيرات، ويمكننا دراسة تتابع تكرره فى العديد من الأوقات. وقد فرق هومانز بين الاتصال والتفاعل على اعتبار أن الاتصال يفكر فيه لمجرد الاتصال العاطفى اللفظي بطرق مختلفة فى الحديث اليومي، أما التفاعل فله معنى واحد محدد^(١). وقد وضع هذا المعنى المحدد للتفاعل لدى هومانز فى رؤيته «أنه لا يتم الا اذا حدث نشاط أو حفز اليه نشاط شخص آخر. بل أن مجرد التتابع الزمنى ليس الا معيارا قاصرا للتفاعل»^(٢).

وهذا يعنى أن هومانز فى تحديده لمفهوم التفاعل واعتباره العنصر الثانى من عناصر السلوك الاجتماعى، قد وقف حدوثه على عامل الحفز أو الدافع المتمثل فى سلوك شخص آخر ليقوم الفرد بالتفاعل معه فى صوره رد فعل أو استجابة. ويمثل ذلك بعدا ومحتوى نفسيا لمفهوم التفاعل لديه، كما يشكل احدى العناصر الرئيسية فى تفسيره للسلوك الانسانى، كما يتضح هذا المحتوى النفسى الذى منحه هومانز لمفهوم التفاعل، فى اطار فهمه للجماعة كنسق اجتماعى. وأيضا فى تفسيره لسلوك أفرادها من خلال التفاعل السيكلوجي بين أعضائها.

(1) Homans, G.C., The Human Group. op. cit. pp. 35 - 37.

(٢) نيقولا تيماشيف، مرجع سابق، ص ٣٨٨.

(ج) الاحساس أو العاطفة Sentiment

وفي إطار اختيار هومانز لمفاهيم عناصر السلوك الاجتماعي. الذي اهتم بتفسيره، نحاول أن نقف على المحتوى النفسي للعنصر الثالث من عناصر السلوك الاجتماعي لديه. فقد وجه اهتمامه بالاضافة إلى مفهومى النشاط والتفاعل، إلى أمور تتعلق بالاحساسات المؤثرة والمحتوى التائرى للعواطف والاتجاهات والاحترام والزهة والعداء والاحتقار والحنين إلى الوطن. ورأى أن علماء النفس أطلقوا على تلك الحالات التي تتردد كثيرا فى سلوكنا وتتعلق بالحالات الداخلية للجسم صفة العواطف، وقد شكلت تلك العواطف العنصر الثالث من عناصر السلوك الاجتماعي والتي تبدأ من الخوف والجوع والعطش إلى أن تصل إلى مستوى الحالات السيكولوجية المعقدة: كالحب أو الكراهية أو الموافقة أو الرفض فى الاتصال بالآخرين. وأوضح هومانز أننا لايمكن أن نقف على تلك الحالات الداخلية للجسم والتي تشكل العواطف وبالطريقة نفسها التي يمكن بها ملاحظة الأنشطة والتفاعلات. اذ يتخذ عنصر الاحساس أشكالا متنوعة، ولايمكننا الحديث عن شخصين يستطيعان اتيان فعل معين تحت نفس الظروف. ولذلك كانت دراسات متنوعة أجريت عن الرأى العام والاتجاهات بواسطة أدوات البحث الاجتماعي، وذلك بهدف الوصول إلى معدلات التوافق والاختلاف عن الحب أو الكره لفعل ما أو الترشيح لعمل ما^(١).

ويبدو مما سبق أن نزعة هومانز السوسولوجية الوظيفية قد اتخذت طابعا سيكولوجيا فى محاولته الوصول إلى نظرية اجتماعية تفسر السلوك الاجتماعي. وانتهى هومانز إلى «أن اطاره التصورى طالما اشتمل على الأشخاص والداوسر الثلاثة المحددة لسلوكهم: النشاط والتفاعل والعواطف، فهو يهدف إلى تحديد المفاهيم. كما يهدف إلى الوصول إلى الفروض التحليلية الوصفية لسلوك الأشخاص فى الجماعات. اذ تشكل تلك الفروض مستوى العمليات التعميمة لعناصر السلوك الاجتماعي»^(٢).

(1)Homans, G.C., The Human Group. op. cit.pp. 37 - 40.

(2)Homans, G.C., The Human Group. Ibid.; cit.pp. 34.

ولم يغفل هومانز المحتوى النفسى لمفاهيمه التعميمية التى تحدد عناصر السلوك الاجتماعى ، فبجانب ملاحظتنا لنشاط الأفراد داخل اطار الجماعة من خلال التفاعل والذى يبدو فى تأثير الشخص فى الجماعة وتأثير الجماعة فيه من خلال المشاركة السيكولوجية والمعانى الرمزية. قدم هومانز إلى مجال مفاهيم علم الاجتماع ومن خلال اتجاهه النفسى للعواطف وماتعكسه وراءها من عمليات فسيولوجية وعضلية داخلية، وأيضا عمليات نفسية معقدة من حب وكره وتوافق ورفض والتى هى فى جوهرها عمليات سيكولوجية. هذا بالاضافة إلى أن العواطف تتم من خلال عمليات المواجهة المباشرة، وتمثل فى جوهرها علاقات تأثيرية تعتمد على المشاركة فى اطار الجماعات الانسانية بحيث يمكن القول أن هومانز اعتمد على تلك المفاهيم النفسية فى دراسة قضايا السلوك الانسانى والتفاعل الاجتماعى فى اطار الجماعة الاجتماعية وما يحدث بداخلها من عمليات اجتماعية.

٣- التفسير السيكولوجى للسلوك الانسانى فى اطار النسق الخارجى (البيئة).

وفى اطار نظرية هومانز الوظيفية السيكولوجية والتى تقوم على الاعتماد والتساند الوظيفى السيكولوجى المتبادل، قدم هومانز قضايا الخمسة وأوضح الوظيفة التى تؤديها كل قضية بهدف الوصول إلى التفسير الكامل للسلوك الانسانى. وجاء ذلك فى اطار المفاهيم التى تناولناها سابقا والتى تحدد عناصر السلوك الاجتماعى لديه، وتقوم على مبادئ وقواع نفسية. اذ كان الموضوع الرئيسى لتلك المفاهيم هو دراسة السلوك الاجتماعى فى اطار العمليات الاجتماعية، وعلى وجه الخصوص فى اطار التفاعل الاجتماعى.

وقد أوضح هومانز فى هذا الصدد أنه بالاضافة إلى موضوع نظريته الرئيسى والمتمثل فى دراسة السلوك الانسانى - حينما يكون نشاط الانسان مثابا أو معاقبا مباشرة أو غير مباشرة بواسطة فرد أو أكثر من فرد انسانى - فان نظريته تشتمل أيضا على السلوك الانسانى فى تعامله مع البيئة الطبيعية وتحت تأثير الاثابة والعقاب أيضا. كما أنه ليس هناك خلاف بالنسبة لمصدرهما طالما أن السلوك فى كلا الاثنى يكون

خاضعا للمكافأة والعقاب. اذ لانكون فى حاجة إلى قضايا جديدة لتفسير السلوك الانسانى فى حالة اثابته من البيئة اللانسانية. وذلك على اعتبار أنه يكون متوافقا مع القوانين السيكلوجية الانسانية. كما يكون كلا النموذجين متضمنين فى لفظ اجتماعى عام، وهو التفاعل الذى يعنى تبادل التأثير ويسبب المشاركة فى العلاقة^(١).

ولقد رأى هومانز فى اطار نظريته السابقة أن الفرد يلعب دوره فى نطاق ما نسميه بالنشاط والذى يشكل ببعض من الوضوح نموذجا للفعل الارادى وليس مجرد فعل منعكس. وحاول الوصول إلى القضايا السيكلوجية التفسيرية التى تقدم العلاقة بين متغيرين مختلفين من خلال القضايا التالية والتى تحكم هذه العلاقة.

أ- القضية الأولى: ومضمونها «أنه كلما كان نشاط الشخص مثابا فى الغالب، كلما كان هناك أكثر امكانية فى انجازه»^(٢) ويطلق هومانز على هذه القضية بقضية النجاح Success Proposition. وأنها تمثل حقيقة تقريبية، وتتضمن أن أى نشاط اذا أثيب بصورة نهائية فلن يكفأا بعد ذلك، بل أن امكانية انجاز النشاط متأخر لدى الشخص حتى تصل إلى نقطة الصفر، ثم يتوقف نهائيا عن مباشرة النشاط. وهى النقطة التى يطلق عليها فى لغة السيكلوجيين أن النشاط أصبح مجمدا. كما تشير هذه القضية إلى أن الوقت الذى يستغرقه الشخص حتى يصل إلى نقطة الاثابة لا يكون محددا، وهذا هو السبب فى أننا نجد الناس يعملون بقوة فى مباشرة الصيد ليحصلوا على السمك، وحتى اذا حققوا نجاحا نسبيا. ويرجع ذلك إلى أن الوصول إلى الاثابة أو المكافأة التامة لا يكون محددا فى أوقات منظمة، وبالتالي رأى هومانز أن تلك القضية تمثل حقيقة تقريبية^(٣).

ب- أما القضية الثانية: فمؤداها «أنه اذا كان وجود دافع معين أو عدة دوافع فى الماضى قد ترتب عليه فى ظروف معينة أن أثيب الشخص. فحيث يكون من المتوقع اذا تشابه الدافع الحالى مع الدافع الماضى، أن يوجد لدى الشخص أكثر امكانية تجاه

(1) Homans, "Fundamental Social Processes", op.cit p. 41.

(2) Homans, "Fundamental Social Processes", Ibid., p. 33.

(3) Ibid., p. 33.

انجاز نفس النشاط المتشابه في الوقت الحالي^(١). وقد خصص هومانز هذه القضية لتوضيح أى نشاط واثابته يكون مصحوبا في العادة بأمر شخصية، يمكن أن تؤثر في تكرار النشاط الذي يقوم به الشخص. فقد يشعر الصياد أن أماكن المياه المعكرة هي أفضل الأماكن للحصول على السمك وبصورة واضحة. ومن ثم أطلق هومانز على تلك القضية بقضية المثير أو الدافعية Stimulus Proposition. وأنها تمثل حقيقة تقريبية بمعنى أن الاحساس السيكلوجية المتعلقة بالشعور الذي يكمن خلف النشاط ويطلق عليها بالمثير، اذا كانت متطابقة مع النشاط المثاب في وقت ماتكون أكثر تأثيرا في التنبؤ بمستقبل هذا السلوك أو النشاط^(٢).

ج- والقضية الثالثة: تعنى «أنها كلما كانت المكافأة المترتبة على النشاط ذو قيمة عالية بالنسبة للشخص، كلما وجدنا لديه استعدادا أكبر نحو انجازه»^(٣) وقد وضع هومانز هذه القضية في ضوء تخلينا لدرجة القيمة التي يمنحها الفرد للمكافأة التي تترتب على نشاطه. وأيضا في ضوء مدى تأثيرها على سلوكه، ولذلك أطلق عليها قضية القيمة Value Proposition. وقد رأى هومانز في هذا الصدد أن الدافع الذي يوجد لدى الشخص هو الذي يدفعه لينجز نشاطا ما بغرض الوصول إلى المكافأة والتي تمثل القيمة المتعلقة بتلك الوحدات الناحجة من النشاط والتي تتغير بتغير الدافع، وأنه يجب أن نأخذ في اعتبارنا عند تحديد قيمة النشاط بقضيتي النجاح والقيمة معا. ولم يغفل هومانز أيضا الصعوبات المتعلقة بقيمة الاثابة، والتي تمثل في صعوبة انجاز النشاط الذي ترتبط نتائجه بقيم سلبية. ومن ثم تتضمن تلك القضية الثالثة أن قيمة المكافآت التي يحصل عليها الفرد على نشاطه تكون مسببة وتختلف باختلاف الأنشطة المتنوعة، وعلى هذا فقط رأى هومانز أن هذه القضية تمثل حقيقة تقريبية أيضا^(٤).

(1) Homans, "Fundamental Social Processes", op.cit p. 34.

(2) Homans, "Fundamental Social Processes", op.cit p. 33-34.

(3) Ibid., p. 35.

(4) Ibid., pp. 35 - 36.

د- وفي القضية الرابعة : يقرر «أنه في الغالب اذا ماتلقى الشخص في وقت قريب مصى مكافأة معينة على نشاط قام به، فان القيمة المتعلقة بالمكافأة التي سوف يحصل عليها عن أى وحدة قادمة من هذا النشاط سوف تكون أقل»^(١). وقد أطلق هومانز على تلك القضية قضية الحرمان من الاشباع Deprivation - Sation Prop-osition. بمعنى أن الفرد يصل إلى مرحلة الاشباع بعد أن يتلقى المكافأة على نشاطه وبالتالي تقل قيمة الاثابة بالنسبة لأى نشاط يقوم به فيما بعد. كما ترتبط هذه القضية لدى هومانز أيضا بالمكافأة التي يكون اشباعها وقتيا لدى الفرد بمعنى أن حالة الاشباع لاتدوم طويلا لدى صياد السمك، وعاوده الاحساس بالجوع من جديد. وبالتالي يسط السمك لديه قيمته مرة ثانية، وهذا هو الحرمان من الاشباع^(٢).

وقد أوضح هومانز في هذا الصدد «أن هناك صعوبة في تقدير قيم الانسان وبالتالي في تفسير سلوكه. والتي ترجع إلى أن القيم ليست غريزية ولكنها مكتسبة بمعنى أن قيم الانسان تشبه الغذاء في عموميته، فبالرغم من أنه ليس هناك أنواع معينة من الغذاء تولد مع الانسان، الا أن الانسان يكتسب قيما أخرى كما يكتسب أنواعا مختلفة من الغذاء وهو في طريق اشباع حاجاته الغريزية. وبالتالي كان هناك العديد من المكافآت التي تكتسب قيمتها وفقا لظروفها الخاصة، ووفقا لتكرارها وتتضح ذلك في قيم البرستيج، وحب الأم والتي يمكن أن تكون غريزية»^(٣).

هـ- ويرى هومانز في تفسيره للسلوك الانسان في اطار هذه القضية الرابعة، أن تصور القلق قد ينتج من الحرمان من الاشباع، ومن ثم دخل في معالجة كبرى للسلوك العاطفى لدى الانسان من خلال مفهوم القلق. وذلك باعتبار أن الانسان هو واحد من أكثر الحيوانات عاطفية، ويأتى ذلك من خلال الأدوار التي يلعبها في حياته اليومية من حب وكره، وفرح وحزن، وأمل وخوف، وراحة وتعب، ومن ثم فسر هومانز حالة الاحباط التي تبدو في السلوك العاطفى لدى الصياد في ضوء فهمه لهذا

(1) Homans, "Fundamental Social Processes", op.cit p. 37.

(2) Ibid., p. 38.

(3) Ibid., p. 38.

لامعنى لمفهوم القلق، اذ يفاجأ الصياد بالفشل فى الحصول على السمك من المكاد الذى اعتاد الصيد فيه. وبالتالي تعتريه حالة من القلق والغضب. وتبلور فى هيئة سلوك عدائى نحو تخطيط أداة صيده. بمعنى أن الصياد أصبح قلقا وثائرا الا أنه لم يحصل على ماتوقه وأحبط. وتلك هى القضية الخامسة لدى هومانز^(١).

وقد أطلق هومانز على تلك القضية الخامسة قضية الاعتداء المحبط Frustration Aggression. ويرى أن أبعادها تحتاج إلى تحديد أكثر على الوجه التالى: أولا - أن ماتوقه الانسان يكون محددا فى اطار القضية الثانية، أى من خلال مجموعة الدوافع الحالية والمتشابهة مع الدوافع السابقة للنشاط السابق الذى أثيب عليه. وبالتالي يتوقع الفرد أن يكافأ نشاطه الحالى مثلما كوفىء فى الماضى، ولا يكون هناك احباط أو غضب. ثانيا - يترتب على أنه اذا كان نشاط الانسان ناجحا ومكافأة بنفس المستوى السابق كما توضحه القضية الأولى، أن تكون المكافأة أكثر قيمة بالنسبة له كما توضحها القضية الثالثة. ثالثا - يترتب على فشل الشخص فى الحصول على المكافأة فى الوقت الحالى أن يغير من توقعاته بالنسبة للمستقبل. فاذا فشل فى الحصول على مكافآت تلائم توقعاته ربما يكون لديه أقل غضبا. سواءا أكان شيئا أو شخصا. وبوجه عام ترى القضية الخامسة أنه فى حالة الغضب والثورة الناجمة من الاحباط، تكون النتائج المترتبة على السلوك العدائى نسبيا أكثر قيمة عما كانت لديه سابقا^(٢).

٤ - الفهم السيكلوجى لدراسة السلوك الانسانى فى اطار التفاعل الاجتماعى.

وفى اطار رؤية هومانز أن تفسير قضايا السلوك الانسانى يخضع للقوانين السيكلوجية وسواء كان يتعامل هذا السلوك مع البيئة الفيزيقية أو فى اطار التفاعل الاجتماعى. فقد استبدل مثال الصيد والذى يمثل تعامل الانسان مع البيئة الفيزيقية، بمثال ينهض على التفاعل فى وجود شخصين - ويطلق عليه علاقة الشخص بالآخر، وتجمعهما علاقة عمل فى المكان نفسه.

(1) Homans, "Fundamental Social Processes", op.cit p. 39.

(2) Ibid.op.cit, pp. 39 - 40.

أورد هومانز أنه أخذ هذا المثال من كتاب «البيروقراطية الديناميكية» لبلاور P.M.Plaur من ص ١٦٩ - ١٧٩.

وقبل عرضنا لمحتوى نظرية هومانز فى فهم وتفسير السلوك الاجتماعى والعمليات الاجتماعية، وعلى الأخص العمليات التفاعلية فى ضوء اهتماماته السيكلولوجية، نرى من الأهمية فى البداية إيضاح الأسس التى يقوم عليها التفاعل الاجتماعى لديه. وقد أوضح هومانز أن تلك الأسس تتمثل فى أن التفاعل يتم بين شخصين يكافئ كل منهما الآخر، فالآخر يمنح النصيحة والشخص يعطى التوافق، وذلك على اعتبار أن الأنشطة بينهما تكون غير متشابهة بالضرورة. ومن ثم يدخلان فى أكثر من نوع من التفاعلات المختلفة فقد تصل العلاقة بينهما إلى درجة الرسوخ ويكافئ كل منهما الآخر بأكثر من طريقة، ويصبحا أقل رغبة فى التفاعل مع شخص آخر. وقد يتخذ التفاعل بينهما صورة عدم التوافق حين يعبر الشخص عن عدم موافقته على رأى الآخر، ويسحب منه توقعه للمكافأة وبالتالي يترك الآخر نموذج التفاعل معه ويمتنع عن تزويده بالنصيحة نتيجة لشعوره بالاحباط الناجم عن عدم حصوله على التوافق^(١).

ونحاول الآن الوقوف على المبادئ والأفكار النفسية والتى تنهض عليها تلك العلاقات التفاعلية السيكلولوجية بين الشخص والآخر. وذلك من خلال المكافأة والعقاب، والقبول والرفض، والاتفاق والاختلاف، والدوافع والمشاركات، وسيكون ذلك فى ضوء القضايا السلوكية التى وضعها هومانز لفهم وتفسير السلوك الإنسانى. ففى القضية الثانية والتى أسماها بقضية الدافع يرى، أنه اذا لوحظ فى الماضى أن وجود دافع معين فى وقت معين، يرافقه حدوث الظروف التى من خلالها يكافأ نشاط الفرد فإذا وجدت فى الوقت الحالى دوافع أكثر تشابها مع الماضية، يكون لدى الفرد رغبة كبرى فى الاقدام على نفس النشاط المتشابه^(٢). بمعنى أن الشخص يمكن أن ينظر إلى الآخر على أنه شخص أو خبرة ويمكن أن يمنحه النصيحة، فى ضوء خبراته ونجاحاته السابقة. ومن ثم يوجد لدى الشخص الدافع فى أن يسأل الآخر عن المساعدة، وفى مقابل هذه المساعدة يحصل الآخر على مكافأته المتمثلة فى الشكر على هذه المساعدة^(٣).

(1) Homans, Fundamental Social Process, op.cit p.45 - 46.

(2) Homans, Social Behaviour. London: Rotledge and Kegan Paul, 1961, p. 53.

(3) Homans, "Fundamental Social Processes", op.cit p. 42.

والقضية الثالثة - مؤداها «أنه كلما كان الشخص أكثر حاجة إلى النصيحة كلما كان أكثر طلب لها، بل وأكثر تقديمًا للشكر عندما يحصل عليها. وفي المقابل كلما كان الآخر أكثر حاجة للتوافق، كلما كان أكثر اقدامًا على منح المساعدة»^(١). ويشير هومنز إلى أن القضية الثانية والثالثة يبينان أن تكرار التفاعل بين الشخص والآخر يعتمد على تتابع الحوادث بينهما، والذي يعتبر في حد ذاته إثابة لنشاط آخر. كما يعتمد هذا التكرار على قيمة أي نشاط يتلقاه الشخص من الآخر. بمعنى أن القيمة المتعلقة بالنشاط المتمثل في المساعدة التي يتلقاها الشخص من الآخر تكون نسبية. فقد تكون قيمة المساعدة في أوقات ما عالية، وفي أوقات أخرى قد لا يسعى الفرد إليها. ومن ثم انتهى هومنز إلى أن السوسيولوجين يرون أن القيم تكون نسبية بين شخصين في حالة تفاعل^(٢).

وقد اعتمد هومنز على القضية الرابعة - قضية الحرمان من الاشباع - في تفسير السلوك الاجتماعي المضمن في تلك العلاقة التفاعلية بين الشخص والآخر ويرى «أنه في الغالب إذا ما تلقى الفرد في الماضي القريب مكافآته على نشاط من الآخر، فسوف تقل قيمة أي وحدة قادمة من هذا النشاط بمعنى أن الشخص بعد حصوله فيالوقت الحالي على المساعدة الزائدة من الآخر، فسوف تقل في نفس حاجته إلى المساعدة وكذلك رغبته في طلبها وبالتالي يقل أيضا تقديمه للشكر^(٣).

وانتهى هومنز في هذا الصدد إلى أن الشخص اذا كان ينجز نشاطا ما وتعود الحصول على اثابة بشكل منتظم من الآخر، ثم وجد في ظرف ما أن الاثابة تتوقف ولن يحصل عليها. فسوف يصل إلى حالة من الاعتداد المحيط. وهذه هي القضية الخامسة لديه، والتي تعنى امكانية حدوث الغضب والثورة نتيجة الشعور بالاحباط اذ تتخذ هذه الثورة في سلوك الشخص هيئة عدائية تبدو في سلوكه تجاه الشخص الآخر. ويتميز على ذلك رفض الشخص الدخول في أنشطة مستقبلية مع الآخر، حتى ولو

(1) Homans, Social Behaviour, op.cit p. 55.

(2) Homans, "Fundamental Social Processes", op.cit p. 42.

(3) Homans, Social Behaviour, op.cit p. 55.

كان مزال في حاجة إلى النصيحة. وفي إطار هذا التفاعل الذي وصل بالتحصن إلى الاحباط، نجده يبحث عن سبل أخرى للحصول على ما يحتاجه، ويدخل في نشاط مباشر مع شخص ثالث يمكن أن يزوده بالنصيحة، وفي الوقت نفسه يبحث الآخر عن شخص ثالث أيضا يمكن أن يزوده بالتوافق الذي أنكره عليه الشخص الأول^(١).

ويتضح لنا من استعراض قضايا هومانز السلوكية التي وضعها لفهم وتفسير السلوك الانساني. سواء في علاقته بالبيئة الخارجية أو في ضوء التفاعل الاجتماعي. وأن تلك القضايا تعتمد على مفاهيم وتصورات نفسية مثل: العواطف، والدوافع، والرغبات، وتخضع في تفسيرها لهذا السلوك إلى القوانين السيكولوجية العامة على النحو التالي: ففي محاولة هومانز تفسير السلوك في علاقته بالبيئة الفيزيائية من خلال مثال الصيد. أوضح أن هذا التفسير يعتمد على فهم رغبات ودوافع الفرد التي تدفعه إلى السلوك. وأيضاً يعتمد هذا التفسير على مدى القيمة التي يحملها الفرد وتتعلق بالنشاط الذي يقدم عليه. كما يعتمد أيضاً على مدى استجابة البيئة لهذه الدوافع والرغبات، ومايستتبع ذلك من عمليات نفسية شعورية من: نجاح أو فشل، اشباع أو حرمان، اثابة أو احباط. وتتم تلك العمليات النفسية في إطار السعي للحصول على المكافأة التي يهدف إليها نشاط الفرد.

كما يبدو أيضاً لنا المحتوى النفسي لقضايا هومانز السلوكية في تفسيرها لعلاقات التفاعل بين الشخص والآخر، اذا حاول تفسير قضايا السلوك الانساني والجماعة الاجتماعية، معتمداً على مفاهيم نفسية مثل: المشاركة السيكولوجية ومدى التأثير في الوظائف المتبادلة بين الشخصين. كما اعتمد أيضاً على العواطف التي تمثل عمليات داخلية تكمن وراء السلوك وتفسر العلاقة بين الاثنين في ضوء: الدوافع، والرغبات ومشاعر القبول، والتوافق، والرفض، والتنافر. كما أضاف هومانز أيضاً المعايير واعتبرها عنصراً مهماً في تفسير السلوك. ويمكن القول في هذا الصدد أن ذلك يمثل اسهاماً لا تجاه هومانز النفسي في مجال دراسة القضايا النظرية لعلم الاجتماع. اذ حاول تفسير

(1) Homans, "Fundamental Social Processes", op.cit p. 42-44.

قضايا السلوك الاجتماعي والعمليات الاجتماعية والجماعة، معتمداً في ذلك على مفاهيم نفسية مثل: الدوافع والعواطف التي تكمن خلف السلوك. وأضاف أيضاً مفهوم المعايير باعتبارها تمثل القيمة المتعلقة بالانابة التي يهدف الفرد من نشاطه إلى الوصول إليها.

٥- النزعة السيكولوجية الوظيفية في دراسة السلوك الانساني لدى هومانز.

ونحاول الوقوف على الواجهة السيكولوجية التي ميزت اتجاه هومانز النظري الوظيفي، في تفسير قضايا السلوك الانساني أو سلوك الجماعة أو النسق الاجتماعي. اذ كان يعتقد أن مهمة علم الاجتماع هي دراسة سلوك الجماعة بتحليله إلى عدد من العناصر التي تتناول الاعتماد فيما بين^(١) فبعد تحليله لعناصر السلوك الاجتماعي وما تنهض عليه من قواعد نفسية. أوضح هومانز أن قضايا الخمسة التي قدمها اذا كانت لا تستوعب كل مجالات علم النفس السلوكي التي يمكن أن تستخدم في تفسير السلوك الانساني، الا أنها قدمت الحد المطلوب في تفسير الواجهات البسيطة للسلوك الاجتماعي. وتبدو أهمية تلك القضايا في أنها تدعم حقيقة جوهرية تتمثل في أنها ليست منفصلة في أهدافها. بل تتحد في تفسيرها للسلوك الانسان في ضوء واجباته الذاتية وفي اطار تفاعلنا مع الآخرين^(٢).

وتبدو الواجهة النفسية لهذا التساند والاعتماد الوظيفي المتبادل في الأهداف، بين قضايا هومانز السلوكية التي وضعها لتفسير السلوك الانساني والعمليات الاجتماعية في أنها كما أوضح تدعم حقائق سيكولوجية هامة، وقد أشار شاو ديك جونز في هذا الصدد إلى أن تلك القضايا لدى هومانز والتي وردت في كتابه السلوك الاجتماعي،

(١) يقول تيماشيف، مرجع سابق، ص ٢٨٨.

اذا كان هومانز يرى أن النشاط الانساني سواء في علاقته بالبيئة الخارجية أو النسق الداخلي، يقع تحت تأثير الانابة والعقاب ويخضع لنفس القوانين السيكولوجية الانسانية. الا أن الباحث يرى أن تفسير قضايا السلوك في ضوء علاقة الشخص بالآخر تحكمه قضايا سيكولوجية أعمق في اطار التأثير المتبادل. بالإضافة إلى احتمالات التنفير في صورة السلوك المستقبلية في علاقة الشخص بالأكثر أكثر من علاقة الشخص بالبيئة.

(2) Homans, "Fundamental Social Processes", op.cit p. 40.

تعتبر نتائج لفروض ضمنها فى دراساته التجريبية عن الحيوانات فى مواقف غير اجتماعية، بمعنى أن هذه القضايا فى ذاتها قد أتت من مجال علم النفس السلوكى. ثم حدث تحول على نظرية هومانز، بحيث يمكن القول أنه انتقل من استخدام الألفاظ المتعلقة بالمجال الحيوانى والاقتصادى، مثل استخدام مصطلح المكافآت والعقوبات بدلا من مصطلح الفرض. وبذلك يكون هومانز انتقل من مجال الامبريقية الصارخة المتمثلة فى علم النفس التجريبى إلى التفسير فى إطار الدافع داخل النسق الاجتماعى. وذلك على اعتبار أن السلوك الانسانى موجه تجاه الآخرين فى إطار الجماعة. وبالتالى لم يؤكد هومانز على التكوين الانسانى الفردى لدى الفرد، والذى ينقص من الاستمتاع بالمشاركة الاجتماعية فى علاقته بالآخرين^(١).

ويتضح مما سبق أن هومانز كان يساير النزعة الوظيفية الاجتماعية. وقام بوضع نظرية اجتماعية تحتوى على قضايا عامة لتفسير السلوك الاجتماعى والعمليات الاجتماعية. وتعتمد فى الوقت نفسه على التساند الوظيفى فيما بينها، وتشتمل على كل خصائص هذا السلوك بما يحقق الفهم والتفسير السليم له. وقد اتخذت نزعته الوظيفية هذه واجهة سيكولوجية، إذ أتى هومانز بقضايا، تلك من مجال علم النفس التجريبى وانتقل بها إلى مجال النسق الاجتماعى، ثم حاول تفسير السلوك الاجتماعى والعمليات الاجتماعية فى إطار الدوافع التى توجه السلوك اتجاها الآخرين. وأيضا من خلال عمليات المشاركة الاجتماعية، وذلك بهدف الوصول إلى المكافآت والاثابات، وسواء تمثل هذا السلوك الاجتماعى فى علاقته بالبيئة الخارجية، أو فى علاقة الشخص بالآخر داخل النسق الاجتماعى.

وأخيرا يمكن اجمال تلك الواجهة السيكولوجية فى نظرية هومانز الوظيفية، من خلال قضايا، الخمسة التى وضعها لتفسير السلوك الانسانى على النحو التالى: فالقضية الأولى لديه «تعتبر فى جوهرها دراسة للشروط العامة للتعلم والدوافع العامة. على اعتبار أنها تقرر أن النشاط اذا كان فى موقف ما فى الماضى مكافأ. وكان الدافع له فى الوقت الحاضر متشابها، فحيث تكون هناك أكثر امكانية فى تكرار نفس

(1) Jones, J.K. Chadwick., op.cit. pp. 157 - 158.

النشاط. وتمثل هذه القضية دراسة عامة في التعلم... وتتفق هذه القضية مع النظريات ذات العاملين في تفسير التعلم من خلال الاتصال والدافعية^(١).

ويلاحظ أيضا أن قضايا الدافعية والقيمة والحرمان من الاشباع لدى هومانز تتخذ من العلاقة تكرار النشاط وتكرار المكافأة أساسا لتفسير السلوك الانساني ويأتى ذلك فى ضوء الدوافع التى تكمن خلف سلوك الأفراد، وفى ضوء القيم التى ترتبط بالمكافآت التى يسعون للحصول عليها من خلال أنشطتهم. وهذا يمثل واجهة للقضايا الثلاثة فى تفسيرها للسلوك الانساني والذى جاء فى ضوء تكرار المكافآت والدافعية والقيم. وقد أورد هومانز فى هذا الصدد «أن القضية الثانية» تقرر العلاقة بين قيمة المكافأة وتكرار السلوك «والقضية الثالثة» تحدد العلاقة بين تكرار المكافأة والموقف الداخلى لدى الفرد.. فكلما كانت المكافأة أكثر تكرارا فى نشاط الفرد، كلما كانت أقل قيمة يمنحها لها فى داخله. أما «القضية الرابعة» فتتضمن مبدأ الاشباع بحيث اذا كان النشاط الذى يؤديه الشخص مكافأ من قبل الشخص الآخر بصورة غالبة ومستمرة، فسوف يصبح هذا النشاط أقل قيمة لديه^(٢).

وفى «القضية الخامسة» يشير جوتز إلى أن هومانز قد تصوره فيها عن توزيع العدالة وأشار إلى توقعات الشخص للمكافآت التى يستحقها وتقديراته بمعنى أن هذه القضية تحدد نسبة تقديرات الشخص إلى مكافآته، بحيث تكون موزعة فى معدل متناسب بالنسبة لبعضها البعض. فالشخص الذى يسهم بالكثير فهو يتلقى أيضا الكثير. ومن ثم كانت العدالة لدى هومانز تشكل المتغير الثالث المتضمن فى قضاياها التفسيرية الخمسة لدراسة السلوك الانساني. ويضاف إلى العدالة كل من تكرار المكافآت ودرجة القيمة المرتبطة بتلك المكافآت والتقدير^(٣).

وقد قال هومانز بصدد تفسيره السيكولوجى للمتغير الثالث الذى ضمنه فى قضيته الخامسة - الاعتداء المحبط - ليمثل التوزيع العادل بين نسبة تقديرات الشخص

(1) Jones, J.K. op.cit. pp. 159 - 160.

(2) Jones, J.K. Ibid.; pp. 159 - 160.

(3) Ibid.p. 161.

إلى مكافآته: «أنه كلما لحق بالإنسان الضرر، يختل ادراكه للتوزيع العادل بين نسبة تقديراته إلى مكافآته. وتوجد أكثر امكانية فى ظهور السلوك العاطفى، الذى يسمى بالغضب»^(١). وقد ترتب على تفسير هومانز السيكولوجى هذا التوزيع العادل بين نسبة تقديرات الشخص إلى مكافآته. أن نظر إلى العدالة على أنها تمثل قيمة متغيرة لدى الناس وإن كانت هناك صعوبات تتعلق بمقياسها المتغير، إلا أنه وقف على المشكلة الرئيسية المتعلقة بمقياسها، وذلك حين أوضح أن شخصين قد يحشان فى إيجاد مقياس لتغير القيم. فبالرغم من اتفاقهما على قانون العدالة فى التوزيع بين المكافآت والاثابات والاحباطات، إلا أنهما قد يستخدموا موازين مختلفة للقيم. وهذا يعنى أنهما لا يتفقان على العناصر التى سوف تحسب وتقيم المكافآت. ومن ثم يكون هومانز قد تعرف على الصعوبة المتعلقة بالمقاييس الذاتية والمختلفة لقياس وتقدير القيم^(٢).

وهكذا يبدو لنا واضحاً أن تفسير هومانز للسلوك الإنسانى بواسطة قضيته الأخيرة الاعتداء المحبط - قد نهض على أفكار ومفاهيم نفسية تمثلت فى: ذاتية ونسبية القيم الخاصة بالمكافآت. وكذلك فسر حالة الاحباط التى يصل إليها الشخص نتيجة لفشل تقديرته فى الحصول عليها تفسيراً نفسياً. وذلك على اعتبار أن سلوك الشخص يتخذ واجهة عدائية عاطفية يتمثل فى الغضب والثورة.

إذ يرى (شادويك جونز) J.K.Chadwick Jones فى هذا المجال أن (هومانز) فى كتابه السلوك الاجتماعى «أشكاله الأولية» - يفسر السلوك الإنسانى من خلال وصفه لبناء رئيسى من القضايا العامة General Propositions أو ملحقات، وقضايا موصوفة وأيضاً حالات موجودة Given Conditions، تلك الحالات التى تسمح بتطبيق القياس على النتائج الامبريقية، وفى ضوء هذا قدم خمس قضايا عامة، ومنها استنتج عدد كبير من القضايا وملحقاتها فى تفسير السلوك الإنسانى، وهو فى ذلك يتابع الاجراءات المتبعة عن النظريات السيكولوجية المعرفة جيداً، وكما هو منع فى

(1) Homans, Social Behaviour, op.cit p. 75.

(2) Jones, J.K. op.cit. p. 162.

نظريات التعليم Learning Theory، حيث يستخدم عدداً قيس من القضايا العامة العامة في وضع الشروط الرئيسية للنظرية. ويضيف (جونز) أنه قد قصد من تقديمه للخمس قضايا العامة الأولية^(١)، تفسر العلاقات الاجتماعية بين الاعتمادات والاعتمادات المختلفة، وحيث تقرر تلك العلاقات في هيئة نظام من القضايا والتي تكون موصوفه في نطاق برهنه البحث. وقد أوضح (هومانز) إن الواجهة النهائية الأكثر أهمية لكتابة «الجماعة الانسانية» Human Group (1951) تمثلت في تقديم التصورات والفروض العملية بدون الدينى وذلك في خطة تفسيرية، ولكنه في كتابه الثانى «السلوك الاجتماعى» Social Behaviourism قد جعل في محاوله واضحه لتطبيق جسم واحد من «القضايا» Propositions المناسبة لتلك الحالات الواقعية واتجاهاتها، وكان تأكيداً الرئيسى على عملية المتغيرات الاجتماعية: عناصر السلوك الانسانى الأولية والتي تتمثل في «التفاعل» أو الاتصال الاجتماعى، «الاحساس» أو «الاتجاهات» الأنشطة العاطفية المشارطة، وباستخدامه تلك الأوليات في عناصر السلوك الانسانى كان قادراً على تفسير كل موقف اجتماعى موصوف في الدراسات العلمية^(٢). هذا وقد أوضح (جونز) أن «أن المناقشة النظرية في كتابه «السلوك الاجتماعى»، بتلداً من المدخل الاستقرائى في الجماعة الانسانية حتى يصل إلى النظرية الاسقاطية في كتابة «السلوك الاجتماعى»، التي تأخذ بتفسير السلوك أفقياً من خلال تأكيدها على الواجهات السيكولوجية مثل الدافع، والشعور، القرار الذى يشتمل على تقييم وتوقع المكافأة والشن^(٣).

وسوف يتضح من خلال تفسيرنا لعناصر السلوك الانسانى التى درسها (هومانز) بواسطه قضايا السلوكية الخمسة - التى سبق معالجتها - مدى اعتماده أيضاً على

(١) سبق الاشارة في معالجة السلوكية الاجتماعية في دراسات (جورج هومانز) للخمس قضايا السلوكية ومناقشته للمحتويات السيكولوجية للسلوك الانسانى مع ملاحظة عدم التفرقة في تطبيقها على نمط التفاعل الانسانى مع البيئة الخارجية والنسق الخارجى - فى اطار المكافأة والعقاب. أو على نمط التفاعل الانسانى مع الشخص الآخر فى اطار الجماعة.

(2) Jones, J.K. Chadwick., op.cit. pp. 151 - 152.

(3) Ibid.p. 152.

المنهج العضوى وتبنيه للنظرية العضوية السيكولوجية فى تحليل عناصر السلوك الإنسانى وتفسيرها، وسواء فى حالة تعامل الفرد مع البيئة الخارجيه، وكما هو فى مثال «الصيد»، أو حالة تعامله مع نشاط شخص آخر من خلال التفاعل الاجتماعى وكما هو فى المثال الثانى «علاقة الشخص بالآخر» - يتضح ان تلك القضايا ماتقوم فى جوهرها على تفسير السلوك الإنسانى فى ضوء محتويات السيكولوجية، وليس على وصفه، وتعكس بوضوح، الجوانب السيكولوجية، وليس على وصفه، وتعكس بوضوح، الجوانب السيكولوجية فى تفكيره، والتي تتضح اذا ما عرفنا ان تلك القضايا قد ذهبت فى تحليلها لعناصر السلوك الإنسانى بوجه عام إلى تقسيمها إلى «تفاعلات» و«أنشطة» و«أحاسيس» ففى المثال الأول - يحدد أهداف السلوك الإنسانى فى اطار «المكافآت» Rewards و«العقاب»، كما يفرس حالات الاشباع والحرمان التى تصل إليها الفرد فى اطار مكافآته وعقابه. ولا يغفل فى هذا الصدد الحالات الداخلية للفرد التى تصف علاقته بالبيئة وتحتوى مضموناً ذاتياً يتمثل فى «الدافعية» Sfmulia ومايتبعها من نشاط مدفوع بنجاء: الرضا والارتياح أو القلق النجاح أو الفشل والاحباط. وفى المثال الثانى - فى اطار التفاعل الاجتماعى فهو لا يخرج عن نطاق التفسير السيكولوجى لعلاقة «الشخص بالآخر»، فى اطار المشارطه التى تعتمد على تأثير الآخر فى الشخص بإسلاطه النصيحة له، فى مقابل منح «الشخص» له التوافق - تلك العلاقة السيكولوجية فى اطار التأثير والتأثير فى اطار الجماعة والتى يتفق فيها مع كل من (ميد) و(كولى) - وفى حالة التوافق تلك يصل الفرد إلى حالة الاشباع، تلك التى تعكس وراءها فيما متغيره، وصعوبات تكمن فى تحديد قيم الشخص - لأنها لاتعتمد على الدوافع الغريزية اللاشعورية فقط، بل تعتمد على ما يكتسبه الشخص فى الحياه من سمات ومبادئ وأفكار حملها خلال عمليات التنشئة الاجتماعية. وعن تسلسل قضايا (هومانز) فى فهم تلك العلاقة العضوية السيكولوجية بين «الشخص والآخر». يبدأ بقضية النجاح - الذى يتحقق لدى الشخص الآخر فى حصوله على التوافق من «الآخر» مما يدفعه إلى تحقيق هذه العلاقة بصورة أوثق وتكراراً. ووفقاً للقضية الثانية - يرى (هومانز) ان حصول

«الشخص» على النصيحة من الآخر يكون في اطار الدوافع التي تؤدي به إلى طلب النصيحة، وعلى اعتبار أنه يكون أكثر منه خبره، في حين توجد لديه القابلية في ان يتقدم له بالشكر، وهي علاقة سيكولوجية تعتمد على الدافعية وفي اطار التأثير والتأثر. وإذا ما أنقلنا إلى القضية الثالثة - نجد أن تفسير (هومانز) لمدى حاجة «الشخص» في الحصول على النصيحة يعتمد على مدى القيمة المتعلقة بهذه النصيحة، تلك تعتمد في تفسيرها على صعوبات كثيرة، لأنها تكون نسبية، ولا تعتمد فقط على الدوافع الداخلية الغريزية. بل تقوم أيضا على أمور يكتسبها «الشخص» من خلال إحتكاكه مع الآخرين شكلاً لاتجاهات شعوريه ولا شعوريه نحوهم: سواء بالحب أو الكره، القبول أو الاشمئزاز والنفور، أو الرضا والقبول. الخ..... وعن قضية الحرمان من الاشباع - يبدو أن تفسير (هومانز) لها كان على مستويين:

الأول: يكمن في اعتبار ان الاشباع في علاقة «الشخص» «بالآخر» يحدث في حين يسدي «الآخر» النصيحة اليه، ويمنح «الشخص» القبول والتوافق، أما الحرمان وفقاً لهذا يحدث في ضوء تغير التوقعات التي تحدث مع تكرار وتغير التفاعلات المستمرة بينهما، في وقت يكون فيه «الشخص» متوقع للنصيحة من «الآخر»، ومن ثم يحدث الحرمان من الاشباع اذا أمتنع «الآخر» فجأة عن تقديم النصيحة. والمستوى الثاني: يتمثل في ان هذا الحرمان من الاشباع «لدى الشخص» وشعوره بالاحباط وعدم حصوله على مايتوقعه من الآخر، ومايؤدي إليه من دلالات سيكولوجية، حيث يعيش الشخص في حالة من التوتر والغضب يؤدي به إلى «الاعتداء المحيط» وهو القضية الخامسة - في قضايا (هومانز) والتي يرى فيها ان هذا العداء الذي ينجم عن الحرمان من الاشباع، يوجه نحو «الآخر» ويعتبر في نفس الوقت «مكافأة» واشباعاً له نظراً لأن «الآخر» لم يقدم له النصيحة التي توقعها منه باستمرار. وبالتالي يضطر كل من الاثنين إلى البحث عن شخص ثالث ليحنج كل منهما ما أفتقده ولم يحصل عليه من الآخر، وليصبح أكثر اشباعاً وتوافقاً بدلا من حالة القلق والتوتر التي تتابعه، وسواء كان هذا الاشباع متعلق بما تفرضه عليه وطلبات الغرائز، أو تفرضه عليه توقعاته في محيط العمل وعلى ضوء ما يحمله من اتجاهات واستعدادات وميول عاطفية.

وتجددوا الاشارة في هذا الصدد إلى أن نتائج تلك التحليلات النظرية كانت محاولة أكثر شمولاً وادراء لفهم وتفسير السلوك الانساني من خلال تأكيده على الواجهات السيكلوجية، وذلك فى بناء من القضايا يبدأ من عدد صغير من القضايا، ويتحرك من خلال الاسقاط حتى يتنبأ بالسلوك الشخص فى تصنيفاته المختلفة ويرى (جونز) ان هذا كان من خلال ستين دراسة تطبيقية امبريقية نفذت على وجه التحديد بواسطة على النفس الاجتماعى، وجاء فى تقرير امبريقى (1958) ذلك التقرير الذى يعدد واحداً من أكثر التقارير سيكلوجية وندره، والذى يدين بالواجب إلى «الجماعة الانسانية» والذى كان بلاشك هو الكتاب المنير إلى ظهور كتاب «الجماعة السيكلوجية» والذى ظهر فى السنين الأخيرة منطقياً على الأهمية الكبرى فى مدى إلهامه للنظرية السيكلوجية Socialpsychology Theory^(١).

وهكذا يتضح مدى ظهور تلك العلاقة العضوية السيكلوجية فى تناول (هومانز) علاقة الفرد بالبيئة، أو فى علاقة بالشخص الآخر داخل اطار التفاعل، بمعنى انه اذا كان يتخذ اتجاه النزعة السلوكية فى دراسة السلوك الانساني، الا أنه قد أتخذ ذلك فى نطاق مدخله الاسقاطى وفى اطار المحتويات السيكلوجية - التى سبق ذكرها - وهذا ما يوضح مدى إتقان (هومانز) مع (كولى) و(ميد) فى اهتمامهم بتلك العلاقة العضوية بين الفرد والآخر فى نطاق الجماعة الاجتماعية، وأيضاً وضوح تلك العلاقة فى اطار السلوك ومن خلال عمليات المشاركة الاجتماعية. وقد أكد (هومانز) اهتمامه فى هذا الصدد وتوافقه مع (ميد) بقوله:

«انه يكون حقيقياً اننا نشارك كل بدوره فى عمليات التعاون، والصراع، والتوافق، والقوة، تلك العمليات الاجتماعية، التى تأخذ طابع الاستمرار فى أى مكان وفى اى وقت، وفى كل المجتمعات، وذلك على عكس البناءات الاجتماعية التى غالباً، ما تختلف من مجتمع إلى آخر، ومن جماعة إلى أخرى داخل نطاق المجتمع الواحد، ومن ثم يطلق (ميد) على تلك العمليات الاجتماعية أنها أساسية، وان دراسة المجتمع تبدأ بدقة من تلك الطبائع، وان الواجهات البنائية للمجتمع تأتى بعدها^(٢).

(1) Jones J.K. Chadwick; op.cit .p. 153.

(2) Homans, "Fundamental Social Processes", op.cit p. 31.

٦ - خاتمة الفصل الرابع:

بعد عرضنا لعناصر السلوك الاجتماعي لدى هومانز ثم القضايا السلوكية التي اعتمد عليها في تفسيره النفس للسلوك الانساني على مستويين: الأول - في علاقة السلوك بالبيئة الفيزيائية أو النسق الخارجى، والثانى - في علاقة سلوك الشخص بالآخر من خلال التفاعل الاجتماعي. وأخيرا عرضنا للواجهة السيكلوجية لنظرية هومانز الوظيفية في دراسة السلوك الانساني بوجه عام. سنحاول الآن الوقوف على اسهام هومانز من خلال اتجاهه السلوكى هذا فى مجال قضايا علم الاجتماع النظرية المنهجية بوجه عام؟.

ويمكن القول أنه فى مجال المفاهيم: اعتمد هومانز فى دراسته لقضايا السلوك الاجتماعي والجماعة أو النسق الاجتماعي على مفاهيم تعميمية ذات محتوى نفس سيكلوجى، وقد اعتبر تلك المفاهيم تشكل عناصر لهذا السلوك الاجتماعي. حدها بنشاطات الأفراد داخل اطار الجماعة والتي تتم من خلال عمليات التفاعل. ذلك التفاعل الذى ينهض على التأثير المتبادل للشخص فى الجماعة، وتأثير الجماعة فيه من خلال عمليات المشاركة السيكلوجية والمعانى الرمزية أما «العواطف» فهى تمثل العمليات الداخلية التى تلعب دورا مهما فى توجيه سلوك الشخص وتبدو فى نغمات الصوت، وتعبيرات الوجه، وأوضاع الجسم، والدوافع والمشاعر الداخلية ثم أضاف هومانز مفهوم «المعايير» باعتبار أنها تمثل القيمة المتعلقة بالمكافأة التى يسعى إليها نشاط الأشخاص. بحيث يمكن القول بأن استخدام هومانز لمفاهيم: النشاط والعواطف والمعايير - بما تنهض عليه من مبادئ نفسه - فى تفسير قضايا السلوك الانساني، يعتبر اضافة الى مجال مفاهيم علم الاجتماع. ويمثل اسهاما يساعد فى اثراء الفهم والتفسير لقضايا النظرية فى ضوئها.

وبلاحظ أيضا أن القضايا السلوكية التى وضعها هومانز لتفسير السلوك الانساني، هى قضايا نفسية فى جوهرها. وتهدف إلى الوصول إلى نظرية اجتماعية فى دراسة التفاعل الاجتماعي والعمليات الاجتماعية داخل نطاق «الجماعات الصغيرة أو النسق

الاجتماعي»^(١) ويمكن فهم هذه القضايا في ضوء متابعة هومانز للاتجاهات الوظيفية وفي واجهتها السيكلولوجية اذ تتضح تلك الواجهة الوظيفية السيكلولوجية لهذه القضايا في اعتمادها في تفسير السلوك الانساني بوجه عام على التساند الوظيفي فيما بينها ومن خلال القوانين السيكلولوجية العامة. والتي تبدو في المكافأة والعقاب، والدوافع والعواطف التي تفسر السلوك الخاص بالآخرين، والمعايير التي تمثل القيم وتوجه سلوك الأشخاص. وقد جاء هذا التفسير على نطاقين: الأول - في ضوء علاقة السلوك بالبيئة الخارجية أو النسق الخارجى والثانى - في ضوء علاقة السلوك بالشخص الآخر من خلال عمليات المشاركة والتفاعل الاجتماعى داخل اطار الجماعة أو النسق الاجتماعى الداخلى.

ويمثل ذلك تأييد لاتجاه جورج هومانز النفس فى مجال دراسة القضايا النظرية لعلم الاجتماع. اذ حاول الوصول الى تعميم نظرى من خلال دراسات تفصيلية أجراها واعتمد على قوانين سيكلولوجية ترجع إلى مجال علم النفس السلوكى.

وانتهى إلى قضايا سلوكية خمسة ذات محتوى نفسى، وحاول الاعتماد عليها فى تفسير قضايا السلوك الاجتماعى والعمليات الاجتماعية والجماعة أو النسق الاجتماعى. وجاء هذا التفسير فى اطار مفاهيم نفسية مثل: الدوافع والعواطف، والتي تمثل عمليات داخلية تقف خلف السلوك وتساعد على تفسيره. ثم أضاف المعايير باعتبارها تمثل القيمة المتعلقة بالمكافأة التي يهدف الفرد من نشاطه إلى الوصول اليها.

أما اسهام هومانز فى مجال منهج علم الاجتماع من خلال اتجاه السلوكية

(١) نيقولا تيماشيف، مرجع سابق، ص ٣٨٩.

ولقد تمكن هومانز فى ضوء تفسيره النفس للسلوك الانساني داخل اطار الجماعة أو النسق الاجتماعى من «اكتشاف تفسيرات صحيحة تتعلق بقضايا الجماعة فى الحياة الواقعية. مما اعتبر توثيقا بالغ الفائدة للبحوث المعاصرة فى سبيل وضع نظرية للجماعات الصغيرة «نيقولا تيماشيف»، نفس المرجع، ص ٣٩٠ ويمكن القول أن هذا يمثل اسهاما نظريا لهومانز، جاء فى ضوء تفسيره النفس للسلوك الانساني فى داخل نطاق الجماعة الاجتماعية وأيضاً فى ضوء قضايا السلوكية ذات الواجهات النفسية

الاجتماعية فقد تمثل في استخدامه لمنهج دراسة الحالة، وأيضاً استخدامه لمناهج القياس الاجتماعى فى محاولته فهم وتفسير قضايا السلوك الانسانى، والجماعات الصغيرة أو النسق الاجتماعى. وهذه المناهج وان كانت أقرب إلى علم النفس الاجتماعى منها إلى الأهداف الرئيسية لعلم الاجتماع^(١). كما يرى تيماشيف ولكن اعتماد هومانز عليها بجانب منهج الملاحظة المباشرة، جاء فى ضوء اتجاهه النفسى الذى قصد من خلاله تحقيق مزيد من الفهم والتفسير لقضايا علم الاجتماع النظرية وأيضاً إثراء مجال قضايا المنهجية بالاعتماد على مناهج علم النفس الاجتماعى. وعلى وجه الخصوص مناهج القياس الاجتماعى على اعتبار أنها متأصلة لدى كل من علماء الاجتماع وعلم النفس الاجتماعى على السواء^(٢). ومن ثم تمثل الاسهام المنهجى الرئيسى لهومانز، فى اعتماده على منهج دراسة الحالة فى تناول قضايا السلوك الانسانى. وفى اعتماده على مناهج القياس الاجتماعى فى فهم قضايا الجماعات الصغيرة، وقد ترتب على ذلك أن أصبح «مصطلح الميكروسوسيولوجيا معترفاً به ومستقراً فى ميدان علم الاجتماع»^(٣).

(١) نيقولا تيماشيف، نفس المرجع، ص ٤٠٨.

(٢) للمرجع السابق، ص ٤٠٨.

(٣) المرجع السابق، ص ٤٠٩.

الفصل الخامس

السلوكية الاجتماعية فى دراسات

جورج هيرت ميد الاجتماعية

- ٢ - التفسير الاجتماعى السيكولوجى لتطور الذات أو الطبيعة الانسانية.
- ٣ - الدور الذى تلعبه الأطر المرجعية فى تشكيل وحدة الذات الاجتماعية.
- ٤ - عناصر تحقيق الضبط الاجتماعى والسيكولوجى فى تكوين الشخصية
بكل اطارها الفردى والاجتماعى.
- ٥ - سيكولوجية العقوبة فى الجماعة المرجعية .
- ٦ - خاتمة .

الفصل الخامس

السلوكية الاجتماعية في دراسات جورج هربرت ميد الاجتماعية

GEORGE HERBAT MEAD

يشير كودر، وروسبنرج أن علماء الاجتماع النفسى الأمريكيين قد افترضوا بوجه عام الأصل الاجتماعى لتصور الذات الفردية. بمعنى أن التصور الشخصى للذات يكون مأخوذاً من التصور الذى يقدمه الآخرون لها، وذلك على اعتبار أن الذات يشار إليها من خلال رد فعل الآخرين بالموافقة أو عدم الموافقة. ولكن مع الأخذ فى الاعتبار أن لقدرة الفرد على استقبال وجهة - نظر الآخرين وجهة، والقيام أيضا بدور التأثير والتأثر، وبالتالي كانت مقدرة الفرد على التوافق مع استجابات الآخرين. شرطا ضروريا للتوافق الخاص بالشعور الذاتى للفرد مع الآخرين. وقد شغل هذا الاهتمام ميد وجاء فى اطار قناعته بأن الموجودات الانسانية يجب أن ينظر إليها على أنها أجزاء من المجتمعات والجماعات، وليست منفصلة عنها، كما شارك ميد أيضا الاهتمام السائد بتصوير الجماعة المرجعية، والذى تطور فى السنين الأخيرة، من خلال اهتمامات جماعة علم النفس الاجتماعى وعلم الاجتماع الأمريكى. وجاء ذلك فى ضوء الاهتمام بأن يربط الفرد ذاته، ويحقق شخصيته مع جماعات يكون عضوا فيها . وفى جماعات أخرى يرغب فى أن يكون عضوا فيها (١).

- عاصر جورج هربرت ميد (١٨٦٣ - ١٩١٣) جون دوى فى ميتشجن وأيضا شيكاغو وكان كولى مسيرا لاتجاه النظرية المثالية للشخصية. ومتشابها مع أعمال كل من : تارد، وبالدوين، وصديقه كولى. كما درس فى ألمانيا وأقتنع بنظريات فوندت عن اللغة والاشارة، وابتداء من عام (١٩٥٥) بدأ تأثير ميد ينتشر فى الولايات المتحدة الأمريكية عن طريق تلميذه لعلم النفس الاجتماعى بجامعة شيكاغو. إلا أنه بالرغم من المقالات العديدة التى نشرها فلم يقم بتجميعها فى كتاب. حيث قام تلاميذه بنسخ عددا من محاضراته ومقالاته ، وأجمعوها بعناية فى أربعة مجلدات تم نشرها بعد وفاته.

Martindalle, D., Op. Cit., P. 353.

(1) Mead , G.H., "Role taking and Reference group" In Coser and Rosenberg., (eds) Op. Cit. PP. 259 - 260.

وسوف نركز في معالجة إتياء السلوكية الاجتماعية في دراسات ميد على كيفية معالجته لظهور الذات الفردية وتكوينها ونموها في إطار المشاركات الاجتماعية. ومدى الدور الذي تلعبه الجماعات الاجتماعية الأولية في تكوينها ونموها الكامل حتى تصل إلى وحدتها الكاملة. وعلى تنوعها بتنوع الجماعة التي تنتمي إليها. والهدف من ذلك أن نصل في النهاية إلى إيضاح الاتجاه النظري السيكولوجي الذي تبناه ميد في دراسته للذات. وأيضا الاتجاه المنهجي الذي تناول من خلاله دراساته الاجتماعية النفسية. مع محاولة توضيحنا لتناوله للمجال السيكولوجي للعقوبة داخل إطار الجماعات الاجتماعية، ومدى تحقيقه لذاتيات الأفراد عن طريق تحقيق العدالة.

٢ - التفسير الاجتماعي السيكولوجي لتطور الذات أو الطبيعة الانسانية :

يشكل اهتمام ميد بدراسة مفهوم الذات Self، واحدا من أهم إنجازاته العلمية العديدة، ويأتي هذا الاهتمام في إطار اتجاهه السلوكي في علم الاجتماع، ويبدو ذلك واضحا في مؤلفه الذي نشر بعد وفاته وهو العقل والذات والمجتمع. وكذلك في مقالاته المبكرة وكتابات العديدة التي تشير كلها إلى حقيقة واحدة مؤداها أنها تمثل إسهامه في مجال علم النفس الاجتماعي^(١). وسوف نتناول في هذا الصدد محاولة ميد الاجتماعية النفسية، لدراسة وفهم الذات، وتفسيره لكيفية ظهورها وتكوينها ومجال تطورها حتى تصل إلى وحدتها الكاملة.

ولقد بنى ميد فكرته عن مفهوم الذات الاجتماعية ووحدتها الكلية العضوية السيكولوجية، في ضوء رؤيته «أن الذات إذا كانت تشكل موضوعا في ذاتها فهي تشكل أيضا بناءا اجتماعيا. والذي يبدو في إطار التجربة الاجتماعية، ثم تبدأ بخطى ثابتة في تزويد نفسها بالخبرات الاجتماعية^(٢). وهذا يعني أن وحدة الذات كما يرى ميد لا يمكن التفكير فيها إلا داخل نطاق وحدة اجتماعية محددة، ولا

(1) Coser, L. A. 9 Masters of Sociological thought. Op. Cit., P. 333.

(2) Mead, George, Herbert, "The self In Peter, Worsly (ed) Modern Sociology. New York: Penguin Education, 1970, P. 43.

يمكن أيضا تخيل ظهورها الا فى نطاق التجربة الاجتماعية، بحيث يمكن للفرد أن ينظر إلى نفسه أو ذاته كصديق، ويكون قادر فى الوقت نفسه على التفكير والتحدث إلى نفسه ويملك اتصالاته مع الآخرين (١).

وتتضح العمليات النفسية التى تحكم بناء وحدة الذات العضوية السيكولوجية بكلا جانبيها الفردى والاجتماعى فى ضوء اشارة ميد إلى أن تلك العمليات النفسية تمثل استجابة الذات مع نفسها، كما تشكل أيضا جزءا من حديث الفرد الخاص مع الآخرين، بمعنى أن الذات تدرك ما يقوله الآخرون، ثم تستخدم تلك الادراكات فى تحديد ما سوف تذهب اليه من قول Saying أو فعل Doing أو محادثة بالاشارات Conversation of gestures . وهذا يعنى أن الفعل يعتبر واحدا من المؤثرات على الذات، كما أن التأثير على الذات يشكل جزءا من المقدرة المستمرة على المحادثة مع الآخرين. وضرب ميد مثلا مؤداه : أن الفرد قد يفصل مضمون قوله عن الآخرين فى هيئة كتاب يؤلفه، ومع ذلك يمثل هذا الكتاب نوعا من المحادثة الاجتماعية. والتى يلتصق الفرد من خلالها بالآخرين وفى الوقت نفسه يكون ملتصقا لذلك (٢).

وفى ضوء رؤية ميد بأن ظهور الذات الفردية ووصولها إلى المستوى الاجتماعى يكون فى اطار ما تقوله أو تفعله عن طريق المعاملات والتجارب اليومية الاجتماعية والتى تبنى عليها قيمتها، أوضح أيضا «أنا يمكن أن نقسم ذاتنا إلى أنواع مختلفة وفقا لمعارفنا، بمعنى أن وجود أنواع مختلفة من الذوات يعتبر نتائج لردود الأفعال الاجتماعية والعمليات الاجتماعية. والتى تكون متوافقة مع ظهور الذات الملائمة. فكانت هناك الذات السياسية والذات الدينية، .. الخ ومن ثم كانت الشخصية أو الذات المركبة تعتبر باحساس ثابت ذات واقعية. وطالما أن التنظيم الكلى للذات تستند إلى الجماعة التى ينتمى إليها الشخص ، وأيضا الموقف الذى تشكل فيه الذات (٣).

(1) "The self" George, Herbert; "The self" OP. CIT., Ibid. P. 43.

(2) Mead, "The self" George, Herbert; "The self" Ibid.; PP. 43 - 44.

(3) Mead, "The self" Ibid., P. 45 .

ويسين ميد أن هناك مرحلتين تمر بهما الذات الاجتماعية منذ بدايتها الفردية وحتى تصل إلى وحدتها الكلية العضوية النفسية : الأولى تشكيل الذات الاجتماعية ويبدأ من خلال الاتجاهات الفردية الخاصة بالذات. ومن استجاباتها للاتجاهات الخاصة بالآخرين، وفي إطار مشاركتها المتزايدة وعلاقتها بأفعال الأفراد الآخرين. والمرحلة الثانية : وهي تطور الذات الفردية حتى تصل إلى مرحلة الاجتماعية، ويحتوى أيضا على التنظيم الخاص بالاتجاهات الاجتماعية الأكثر عمومية. أو الاتجاهات التي توجد لدى الجماعات الاجتماعية التي يتشمل إليها الأفراد. وهذا يعنى أن الذات الاجتماعية أنما تصل إلى نموها الكامل من خلال الاتجاهات الخاصة بالأفراد الآخرين. والذي يضمهم النظام الاجتماعى أو الاهتمامات الجماعية ^(١). ومن ثم عرف ميد الذات الاجتماعية «بأنها رد الفعل الفردى للنمط العام المنظم للسلوك الاجتماعى أو الجماعى والذي يكون الفرد أو الأفراد الآخرين متضمنين فيه» ^(٢).

وبصدد تطور تكوين الذات فى إطار التجربة الاجتماعية لدى ميد، أوضح مارتندال ثقل ميد بصدد تبنيه مدخل التوافق السيكولوجى السائد لدى فوندت. إذ حاول ميد تحقيق التوافق بين الحالات العقلية المتعلقة بالشعور والعالم الخارجى. ولكنه لم يكن توافقا ظاهريا كما هو عند فوندت والذي نظر للإشارة على أنها تعبير فيزيقى ورمزى، وتوجد فى حالاتها الأولية على أنها جزء من الفعل الاجتماعى. أما ميد فقد نظر إلى الإشارة على أنها حلقة انتقالية بين الفعل Action واللغة Language، واعتبر أنها تعبير فيزيقى يتوسط تطور اللغة كظاهرة عقلية، وتمثل أيضا ميكانيزم أساس يسمح بظهور الذات فى إطار استمرار النشاط الاجتماعى. وقد أوضح ميد فى هذا الصدد أن الحياة الاجتماعية تعتمد على اللغة التى تمثل أطارا للإشارات. وتلك الإشارات تقضى بدورها إلى رموز ومعانى تحديد

(1) Mead, "The self " Op. Cit., p. 77. Ibid. PP. 76 - 77.

(2) Ibid . P. 78.

طبيعة الفعل الاجتماعي. وبالتالي كانت تلك الرموز والمعاني الخاصة بالاشارات تشكل قواعد منطقية عقلية. وتمثل أيضا طريقا نفرق من خلاله بين السلوك الاجتماعي الذي يتميز باللغة عن غيره الا اجتماعي (١).

ويتضح مما سبق أن تفسير ميد لتطور الذات أو الطبيعة جاء تفسيراً اجتماعياً نفسياً. كما جاء في ضوء اعطائه ثقلاً متعادلاً لكل من الحالات العقلية السيكولوجية المتمثلة في الشعور، وكذلك للتجربة الاجتماعية المتمثلة في مشاركات الذات مع الآخرين والتوافق معهم داخل الجماعات الاجتماعية. بحيث يمكن القول أن هناك اتفاقاً بين كل من كولي وميد على أن ظهور الذات وتطورها يأتي في إطار الجماعات الاجتماعية وما يسودها من ظواهر عقلية سيكولوجية، وقد حدد كولي تلك الظواهر العقلية السيكولوجية بالأفكار والتصورات الذاتية، والعواطف، والمبادئ الأولية، وأيضاً بالاشارات والرموز والمعاني المحددة لطبيعة السلوك الاجتماعي ووسائل تطوره. وهذا ما يؤكد الأصل الاجتماعي النفسي لوحدة الذات العضوية بكلا إطاريهما الفردي .

٣- الدور الذي تلعبه الجماعات الاجتماعية في تشكيل وحدة الذات الاجتماعية :

ويبدو في هذا الصدد أن تأكيد ميد على أن الشخصية المركبة تعتبر باحساس ثابت ظاهرة طبيعية، كان راجع إلى نظريته التي تتعلق بتلك الاطارات المرجعية، والتي نظر إليها على أنها جماعات اجتماعية مختلفة تتشكل وفقاً لها الذات الاجتماعية المختلفة، كما تمثل واجهات مختلفة للعمليات الاجتماعية تبعا لدرجات تخصصها، بمعنى أن تلك الجماعة أو المجتمع المنظم والذي يزود الفرد بوحدة الاجتماعية الذاتية، يمكن أن يتصنف بالاطار المرجعي، وتمثل اتجاهات الأفراد بداخله اتجاهات الجماعة ككل. وضرب ميد مثلاً بفريق كرة القدم الذي

(1) Martindale, D., "George Herbert, Mead", Op. Cit. PP. 355- 356.

يتصف بالوحدة الكلية والنظام التام، إذ تمثل الخبرة الفردية لأى عضو. فيه مجرد جزء فقط من العمليات الاجتماعية التى تتم داخله. وأضاف ميد أنه يجب على الذات الفردية أن تمثل الواجهات المختلفة للنشاط الاجتماعى العام الذى ينشغل به أعضاء الجماعة، بحيث تقوم تلك الذات بتصميم الاتجاهات الممثلة لتلك الواجهات المختلفة للنشاط. وذلك على اعتبار أن تلك الاتجاهات تمثل النشاط الاجتماعى تجاه المشروعات الاجتماعية، والتى تشغل بانجازها تلك الجماعات الاجتماعية أو الاطارات المرجعية (١).

وقد أوضح ميد فى تفسيره الاجتماعى النفسى للدور الذى تلعبه الجماعات الاجتماعية فى تشكيل وحدة الذات الاجتماعية، أن هناك واجهتين تمثلان اطرار أو جماعات اجتماعية لنمو الذات الفردية وهما : جماعات اللعب Play، واللعبة Game. وقد تحدث عنهما لدى الأطفال الصغار، وأيضاً من خلال أكثر الاتجاهات السائدة فيهما لدى أكثر الناس بدائية. ويرى أن الواجهة المميزة لاتجاهات اللعب عند أكثر الناس بدائية هى الأساطير التى تختلف باختلاف الألعاب التى يؤديها الانسان البدائى. وبالتالي كانت جماعة اللعب لديهم تمثل تعبيراً عن آلهتهم، وذلك من خلال الطقوس الدينية التى تقوم على ما يعتقد أفراد الجماعات فيما تكون عليه هذه الآلهة. أما عن جماعة اللعب لدى الأطفال باعتبارها واجهة اجتماعية لنمو الذات فى اطار لعب الأطفال. أوضح ميد أن تقليد الأطفال يكون للشخصيات التى تأخذ دوراً له تأثير فى تنظيم اتجاهات العلاقات الاجتماعية. ويتمثل ذلك فى تقليد الآباء والمدرسين، والذى يؤدى إلى نمو ذواتهم وتطورها. وذلك باعتبار أن ما يفعله الطفل يكون مضبوطاً بواسطة تنظيم الاتجاهات السائدة (٢).

(1) Mead, G.H., "The self", Op. Cit., Pp. 45 - 46.

(1) Mead, G.H., "Play the game and the Generalized Other", In Goser and Rosenberg., (eds) Sociological theory. Op. Cit., PP. 260-261.

ثم انتقل ميد بعد ذلك للحديث عن جماعة اللعبة ومنطقها كإطار اجتماعي، يوجد لدينا امكانية التعبير عن تنظيم الذات. وقال «أن التعبير عن نشاطات اللعبة المختلفة في إطار أى جماعة اجتماعية واقعية أو مجتمع منظم - باعتباره مجال للخبرة الاجتماعية لأى فرد من الأفراد المتضمنين فيه - يعتبر أساسا جوهريا للنمو الكامل لتلك الذات الفردية» (١). وضرب ميد مثلا بفريق كرة القدم، ورأى امكانية أن يطلق عليه جماعة أو إطار مرجعى. وذلك على اعتبار أن الاتجاه الجماعى يكون هو الأكثر تأثيرا فى نمو الذات الفردية، ووصولها إلى التطور الكامل حتى تصل إلى وحدتها الذاتية بحيث تحتوى تلك الوحدة تصميم الاتجاهات الفردية والنشاطات المختلفة التى ينشغل بها أفراد الجماعة (٢).

وفى إطار هذه الجماعة المرجعية الخاصة باللعبة والذى يمثل حالة اجتماعية يمكن أن تأخذ هيئة فريق منظم، وتشكل جماعة أو تنظيمًا خاصًا له غاية وهدف. ويرى ميد أن الأفعال الفردية يمكن أن ترتبط فيما بينها على اختلافها، وذلك استنادا إلى الغاية التى تحكم منطق اللعبة بمعنى أن الفرد يمتلك اتجاه الفرد الآخر فى قذفه للكرة، والاثنان معا يصممان اتجاه اللعب ككل، كما يشكل أفراد اللعبة وحدة داخلية تتخذ واجهة عضوية، بحيث تشمل تنظيم ذوات الأفراد جميعا. ومن ثم أكد ميد على أن التيم يشكل هيئة الموقف المتمثل فى ظهور تنظيم الشخصية. وذلك باعتبار أن الطفل يأخذ باتجاه الفرد الآخر ويتابعه ليحدد ما يجب أن يفعله فى إطار الهدف العام للعبة. وبالتالي فالطفل يرتبط عضويا بالمجتمع. ويمثل تنظيم اللعبة إطارا مرجعيا لطبيعته الخاصة ويضبط استجابته. كما يمنحه الوحدة الكلية وينبنى فى النهاية ذاته الخاصة داخل نطاقه (٣).

(1) Mead. C.H.; "Play the game and Generalized Other" Op. Cit., p. 262.

(2) Ibid., P. 261.

(2) Ibid., PP. 264 - 266.

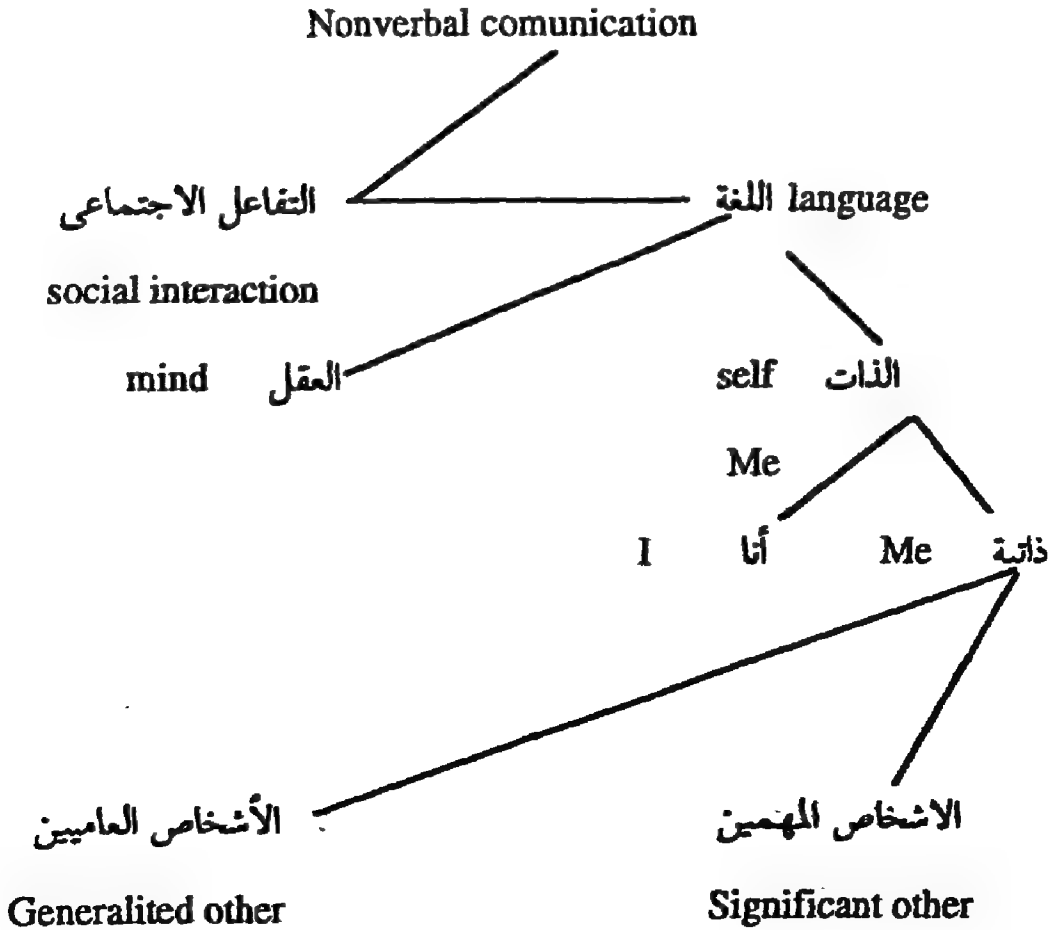
وقد انتهى ميد في تناوله للدور الذى تلعبه الجماعات الاجتماعية فى تكوين وحدة الذات الاجتماعية النفسية إلى ما يلى : أولاً - وصول الفرد أو الذات الفردية إلى مرحلة النمو الكامل. ثانياً - أن تلك الاتجاهات الجماعية توجد لدى الفرد العمليات التعاونية المركبة. والتي تمثل الوظائف النظامية للجماعة التى ينتمى إليها الفرد. وبالتالي يباشر الفرد سلوكه وفقاً لتلك الاتجاهات. ثالثاً - أن تلك العمليات الاجتماعية التعاونية، توجه سلوك الأفراد الداخلين فيها. وتحدد أيضاً اتجاه التفكير السائد من خلال المحادثات بالإشارة واللغة. إذ تمثل اللغة اتجاه الجماعة باعتبارها نسقاً عاماً من المعانى الاجتماعية. رابعاً - يترتب على وصول الذات إلى نموها الكامل داخل الجماعة، أن يتحمل الشعور الذاتى تلك الاتجاهات الاجتماعية المنظمة للجماعة. وبالتالي يضبط الفرد سلوكه وفقاً لتلك الاتجاهات. خامساً - يدخل الفرد مع الأفراد الآخرين الذين ينتمون إلى جماعته المرجعية نفسها، فى علاقات موجهة ومرتبطة وظيفياً بتلك الجماعة على مستويين : أولاً - جماعات يرتبط أعضاؤها ارتباطاً مباشراً فى علاقاتهم بها مثل : مستوى العلاقات السياسية، وعلاقات النادى والاتحادات. ثانياً - جماعات يرتبط أعضاؤها بأكثر أو أقل مباشرة كوحدات وظيفية مثل : جماعة المدينين، وجماعة الدائنين^(١).

وهكذا يمكننا القول بأن وحدة الذات لدى ميد هى وحدة اجتماعية نفسية. تبدأ بنمو الذات الفردية داخل إطار الجماعات الاجتماعية حتى تصل إلى وحدتها الكاملة. ويمكن فهمها من خلال كل من عمليات المشاركة والأخذ بالاتجاهات الأفراد الآخرين. وأيضاً إدراك الشعور الذاتى - بما يحتويه من ظواهر عقلية سيكولوجية - للاتجاهات الاجتماعية المحددة للسلوك. ويأتى هذا الإدراك فى ضوء المعانى الرمزية المتعلقة باللغة. وإيضاً فى ضوء الدوافع التى توجه السلوك داخل نطاق الجماعات الاجتماعية. وبالتالي كانت الجماعة الاجتماعية هى التى تمنح

(1) Mead, Op. Cit., PP. 262 - 264.

الذات تلك الوحدة الاجتماعية العضوية النفسية، وقد قدم لنا ميد نموذجا لكيفية تكوين وحدة الذات داخل الجماعة الاجتماعية على النحو التالي: (١)

الاتصال الغير لفظي



٤- عناصر تحقيق الضبط الاجتماعي والسيكولوجي في تكوين الشخصية
بكلًا اطارها الفردي والاجتماعي داخل الجماعة الاجتماعية :

وبعد أن انتهينا مع ميد إلى أن النمو الكامل للذات الفردية، بما تحتويه من أفكار سيكولوجية يأتي في اطار الجماعات الاجتماعية أو الاطارات المرجعية التي تمنحها وحدتها الكلية . وبعد أن وضع لنا أيضا أو بتلك الذوات تختلف باختلاف اطاراتها المرجعية والتي تنتمي إليها وتتشكل في اطارها إلا أن ميد يرى أيضا

(1) Kinloch., Op. Cit., P. 148.

امكانية تدمير تلك الذات، بمعنى أن الشخص إذا كان له اتجاهات متصدعة وغير موحدة، يؤدي ذلك إلى تفكك شخصيته. وايضا انفصال ذاته عن الذات الجماعية التي تشمل الواجهات المختلفة للعمليات الاجتماعية. وبالتالي يوجد الاتجاه نحو تخطيط أو تدبير الذات (١).

وقبل مناقشة عناصر الضبط الاجتماعي والنفس الداخلة في بناء الشخصية من خلال معالجة ميد للعلاقة بين الذاتية M. I. ، يجدر بنا تقديم تصوّره الرئيسي عن فكرة الضبط الاجتماعي والنفس للذات من خلال معالجته لفكرة الملكية إذ قال «أنا إذا قلنا أن هذا يكون ملكا لي، فإننا يمكن أن أتحكم فيه وأضبطه» (٢). وأوضح ميد أن هذا الضبط يستلزم مجموعة محددة من الاستجابات، تتعلق باتجاهات الجماعة، المنظمة تجاه الملكيات العامة بين كل أعضاء الجماعة. بحيث يمكن للفرد في ضوء مجموع تلك الاتجاهات أن يضبط سلوكه، ويتحكم في ملكيته الخاصة، وفي الوقت نفسه يحترم ملكيات الأفراد الآخرين. وأضاف ميد أن الاتجاهات عامة للملكية والتي تنظم الاستجابات العامة تشمل نظم مثل : الديانة والتعليم والأسرة، وانتهى إلى أن تلك النظم وما تحتويه من اتجاهات منظمة تؤدي إلى بناء تنظيم الذات الموحد. وبالتالي فهي تؤدي إلى بناء شخصية الإنسان وضبط سلوكه والتحكم في ملكياته. ويكون ذلك في إطار تلك الاتجاهات المنظمة والمبادئ السائدة بحيث يمكن وصف سلوك الشخص الذي يحمل ذلك التنظيم من الاستجابات بأنه سلوك أخلاقي وحسن (٣).

كما أوضح ميد في هذا الصدد أن تنظيم الذات الموحدة والمكون من تنظيم الاتجاهات الجماعية لمجموع استجابات الأفراد، يكون متميزا عن العادات

(1) Mead, "The self ", Op. Cit., P. 45.

(2) Mead, G.H. " Play the game and the generalized other" Op. Cit., P. 266.

(3) Mead., Ibid., PP. 266 - 267.

الجماعية. وأدخل ميد العادات ذات الدلالات العاطفية في هذا المستوى، لأنها لا تدخل في نطاق ذواتنا الشعورية. بل تدخل في تشكيل ما أصطلح على تسميته بالذات اللاشعورية لا تكون على نفس المستوى مع الشعور الذاتى. والذي يشير إلى مقدرة الذات الموحدة على استدعاء مجموعة محددة من الاستجابات في ذواتنا. والتي تكون متعلقة في الوقت نفسه بالأعضاء الآخرين في الجماعة^(١). اذ يرى ميد أن ما نحمله من شعور أو وعى ذاتى يجعلنا أعضاء في المجتمع. ويمنح ذواتنا المتعددة على الدخول في علاقات مع الذوات الأخرى. كما يعكس في نفس الوقت نمط السلوك العام للجماعة الاجتماعية التي نتمى إليها^(٢).

ويبدو أن ميد من خلال اتجاهه النفسى قد بنى فكرته عن الضبط الاجتماعى فى ضوء أفكار سيكولوجية بحيث تبدو تلك الأفكار فى سلوك الذات الفردية داخل اطار الجماعات الاجتماعية التى تنمو وتشكل فى اطارها. وتتمثل هذه الافكار السيكولوجية فى الاتجاهات الكلية، والاستجابات العامة المتعلقة بها، وكذلك الاحساس العام المتعلق بالملكية. وأن كما نرى فى هذا الصدد أن خاصية الضبط الاجتماعى لا تتحقق ولا يكون لها تأثير واضح إلا على تنظيم الذات الموحدة والذي ينمو داخل نطاق تلك الاطارات المرجعية. ومما يؤكد وجهة نظرنا هذه استبعاد ميد للحالات اللاشعورية الفردية، وعدم اشراكها فى تشكيل وحدة الذات الموحدة والتي تنمو فى اطار الاتجاهات الجماعية. فقد اعتبر أن تلك الحالات لا تؤدي إلا إلى ظاهرة تفكك الشخصية. وتكون سببا فى تحطيم الوحدة الكلية للذات، ووقوع الانفصال بين الذات الفردية I والذات الاجتماعية M, I. وبالتالي يمكن القول بأن تلك الحالات اللاشعورية العاطفية تنتقص من خاصية الضبط الاجتماعى السيكولوجى. والتي تعارسها الذات الواعية فى اطار تمثيلها لاتجاهات الجماعة والاستجابات العامة المتعلقة بها.

(1) Mead, C.H.; " Play The Game and Generalized The Other" Op. Cit.; P. 268.

(2) Ibid., P. 268.

ولم يغفل ميد وهو بصدد مناقشة لعناصر تحقيق الضبط الاجتماعي والسيكولوجي في بناء الذات، مشكلة العلاقة بين الذاتية I ، Me ، وذلك باعتبار أنهما يمثلان إطارين يحتويان العناصر التي تحقق الضبط الاجتماعي والنفسي في بناء الذات أو الشخصية داخل إطار الجماعة الاجتماعية. وقال ميد في هذا الصدد « يجب ألا ننظر إلى الذات على أنها فوق أو عكس الذات. وذلك باعتبار أن الفرد يملك وظيفته الفردية ويشعر بذاته في إطار المجتمع. وبالرغم من ذلك لا يمكن أن تصبح الذات الفردية I هي الذات الاجتماعية Me ، لأن كلاهما يشكل ذاتا أخرى بمعنى أن مشكلة التمييز بينهما من خلال السلوك، تأتي في حدود الذاكرة. فالذات تمثل رد الفعل الفردي للذات Me ، والتي تظهر من خلال الأخذ باتجاهات الآخرين، وتلك الاتجاهات الجماعية تشكل مجموعة من الاتفاقات الجماعية. والتي تتحرك في ذات الفرد الشعورية وتكون حاضرة في خبرته الاجتماعية ... ومن ثم فموقف الذات الفردية يمثل استجابة لتلك الاتجاهات الجماعية المكونة للذات Me . كما يكون فهمها في حدود الذاكرة بمعنى أن الفرد يمكن أن يتحدث مع نفسه، ويتذكر ما يقوله من خلال المحتوى العاطفي الذي ذهب إليه (١).

ومسيرة لموقف الحل العلمي لمشكلة التمييز بين الدافعين ودورهما في تحقيق الضبط الاجتماعي النفسي للشخصية. أوضح ميد أن ما تكون عليه استجابة الذات الفردية في إطار الأنا الفردي I - لتلك الاتجاهات المشكلة للذات الاجتماعية Me - لا تكون محددة ولا أحد يعرف ما سوف تكون عليه كرد فعل للموقف الاجتماعي. وذلك على اعتبار أن هناك اتجاهات متعددة تتطلب استجابات معينة وفقا لتصنيفاتها. وأضاف أن استجابة الذات الفردية تأتي من خلال شعورنا الذاتي،

(1) Mead, G.H., "The I and Me" In W. Edgson, venack & Warman R. Wilson & Gerald N. Merdith., (eds). Demesion of Social Psychology . New York: Scot Press and campany of chicago , 1974, PP. 32 - 34.

وإدراكنا لأنفسنا، وللموقف الاجتماعي الذي نكون فيه . أما ما يذهب إليه سلوكنا بالتحديد فيأتي في إطار التجربة الاجتماعية، والتي تحتوي على الاتجاهات الجماعية وتشكل الذات Me . وانتهى ميد إلى أن الأهمية الكبرى لكل من الذاتين الفردية والجماعية تبدو في علاقتها الوثيقة في إطار الموقف الاجتماعي . وأن الانفصال الذي يبدو في عمليتهما يكون في مستوى السلوك فقط، أما هما فينتهي كل منهما إلى الآخر^(١) . وحدد ميد تلك العلاقة بقوله «أن الذات I تتطلب الذات me . وهما يشكلان معا الشخصية كما تبدو في التجربة الاجتماعية. بمعنى أن الذات self تبدو من خلال العمليات الاجتماعية، ويتضح تقدمها المضطرد في إدار واجهتيها الفردية والجماعية. وإذا لم تكن تملكهما فلن يكون لديه أية مسئولية واعية، ولن يكون هناك شيئا جديدا في التجربة الاجتماعية»^(٢).

٥- سيكولوجية العقوبة في الجماعة أو الإطار المرجعي:

يأتي اهتمام ميد بدراسة مفهوم سيكولوجية العقوبة داخل إطار الجماعات الاجتماعية، امتدادا لاهتمامه الرئيسي بدراسة عناصر تحقيق الضبط الاجتماعي والنفسى . والخاص بسلوك الذات أو الشخصية الانسانية داخل نطاق اطارها المرجعي الذي تنتمي إليه، إذ يقول ميد في هذا الصدد «أن المحتويات العاطفية السيكولوجية التي تصاحب الأفراد، وتشكل الجزء الأكبر من احترام القانون كقانون تتمثل في مستويين هما : احترام القانون باعتباره وسيلة عامة للدفاع والهجوم عن المجتمع وعلى الخصم. ثم في احترامه لمواجهة العادات والمحرمات والتي تحقق ذواتنا مباشرة في المجتمع الكلى، كما تستبعد أيضا كل الذين يخترقون

(1) Mead, "The I and Me", Op. Cit., PP. 34 - 35 .

(2) Ibid., P. 35.

متطلباتها^(١). ويتضح من التعريف السابق أن ميد قد منح القانون باعتباره أحد عناصر الضبط الاجتماعي واجهة سيكولوجية، وتمثل هذه الواجهة في المحتويات العاطفية النفسية التي تصاحب احترام الأفراد للقانون. وكذلك في معاداة المجرم الخارج عن قانون الجماعة. وكذلك اشباع القانون لرغبات الأفراد وتحقيقه لذواتهم.

وقد أوضح ميد في هذا الصدد أن احترام القانون لا يكون راجعا إلى مبدأ الالتزام الصارم للقانون كقانون، ورأى أنه يرجع في فحواه إلى اعتبارين : الأول : أن الاتجاه العاطفي الذي يوجد لدى الشخص الخارج عن المجتمع والقانون، يكون ناجما عن الاتجاه العدائي الذي يتخذه الآخرون تجاهه. ثانيا - يأتي احترام القانون أيضا من خلال الميول والمشاعر المتعلقة بمدى أهمية القانون لدى الآخرين. وقد سمى ميد تلك المشاعر والميول برد الفعل العاطفي*، والذي يعتبر أساسا جوهريا للإيمان بالمحرمات الأخلاقية في الجماعة. وأنتهى ميد إلى أن عظمة هذا القانون تكمن في تعبيره عن تلك المحرمات. وأيضا في سيطرة الجماعة على الأفراد من خلاله . وتتجلى هذه السيطرة في استبعاد الخارجين على الجماعة وكذلك في الاعلان عن العقوبات التي تجعل من التمرد غير ممكن^(٢).

وأكد ميد من خلال وجهة نظره التي ترى أن احترام القانون ينهض على قواعد سيكولوجية، على أن احترامنا للقانون يمكننا من الوقوف على الدوافع التي تحقق ذواتنا مباشرة مع الاتجاه الكلي السائد للجماعة. وأوضح أن هذا التحقيق لذواتنا يأتي من خلال تحقيق العدالة العقابية. والتي تأتي بدورها في ضوء الوقوف

(1) Mead, "Psychology of Punitive Justice " In Gosset and Rosenberg., (eds). Op. Cit. P. 593.

* أوضح ميد أن رد الفعل العاطفي ضد الخارج عن القانون يتمثل في وصمة العار والاشمئزاز التي تلحق بفاعل الجريمة.

(2) Mead, "Psychology of Punitive Justice " In Gosset and Rosenberg., (eds). Op. Cit. PP. 591 - 593.

على الدوافع الخاصة بنظم القانون والعدالة. ثم أضاف ميد بعدا آخر يأتي من احترامنا للقانون، ويتمثل في احترامنا للتنظيم الاجتماعي. وبني رأيه هذا على اعتبار أن النظم القانونية المختلفة التي تشكل التنظيم الاجتماعي، تنهض أساسا بهدف إشباع الاحتياجات الاجتماعية، وأيضا الدفاع عنها ضد الخارجين. وانتهى إلى أن احترامنا لتلك القوانين وبالتالي احترامنا للتنظيم الاجتماعي، يمكننا من أن نعمق الاتجاهات الاجتماعية، ويمكننا من توجيه اتجاهات الصراع ضد الخارجين عن الجماعة أو القانون (١).

ويتضح لنا مما سبق أن جورج هربرت ميد قد حاول التأكيد على الواجهة السيكولوجية في احترامنا للقانون بجانب الواجهة الاجتماعية. وما لهما من أثر مهم في تحقيق الوحدة والتضامن الاجتماعية، وبالتالي الضبط الاجتماعي، وأوضح ميد أن عناصر تلك الواجهة السيكولوجية للقانون تمثل مصدرا لاحترامنا له، وتتمثل تلك العناصر في إشباعه للدوافع التي تحقق ذاتنا مع الاتجاه الكلي السائد في المجتمع ضد الخارجين. وانتهى إلى أن احترام عدالة العقاب وما يصاحبها من مشاعر سيكولوجية ضرورية مثل: الأحساس بالأمانة واحترام الحقوق والواجبات، يصاحبه احترامنا للتنظيم الاجتماعي الكلي. إذ يتشكل هذا التنظيم من مجموعة من القوانين التي تعمل على إشباع الاحتياجات الاجتماعية. كما تعمل على صهر وتوجيه اتجاهات الصراع ضد السلوك الخارج عن الجماعة.

ويمكن أجمال اتجاه ميد النظري في دراسته لمفهوم سيكولوجية العقوبة. والدور الهام الذي يلعبه في تحقيق الضبط الاجتماعي كما أورده على النحو التالي: أولا - أن المجتمع يعمل في إصرار احترام القانون. والذي يركز على قواعد سيكولوجية، وتبدو في الاتجاه العدائي ضد من يحطم قوانينه ونظمه. وهذا يؤدي في النهاية إلى سيادة اتجاهات العقاب والقمع والاستبعاد ضد كل الخارجين عليه

(1) Mead, "Psychology of Punitive Justice" In Gosset and Rosenberg., (eds). Op. Cit. PP. 593 - 594

. ثانيا - أن الاتجاه العدائى النابع من احترام القانون ضد المخالفين له ، يملك امتيازاً فريداً فى مجال توحيد كل أعضاء المجتمع فى وحدة عاطفية مضادة للاهتمامات الفردية ، إذ تفشل تلك الوحدة الفردية فى إدراك الاهتمامات الكلية وتوحيدها . ثالثاً - أن هذا الاتجاه العدائى نحو مخالفة القوانين يكشف عن القيم العامة . والتي تكمن خلف الغايات الفردية وتؤدى إلى أئتلاف أعضاء الجماعة وتكون عبارة أمسك حرامى فى المجتمع الأمريكى ، اطاراً موحداً للاتجاهات الجماعية . وتأتى من خلال الاحساس الذى يملك المجتمع ضد اللص بحيث يقف الكل جنباً الى جنب ضد الاعتداء ومخالفة القانون. وتلغى الفردية فى هذا الصدد.(١)

وإذا كان ميد قد جعل من الاتجاه العدائى السيكولوجى ضد الخارج عن القانون، واجهة يعبر بها عن مدى احترامنا للقانون كقانون. وذلك باعتبار أن هذا الاحترام يتركز على قواعد نفسية، فإنه قد أوضح فى نفس الوقت ضرورة ألا يسيطر هذا الاتجاه العدائى على طابع التنظيم لعدائى باستمرار. ورأى أن هذا العداء الاجتماعى للخارج عن القانون فى بعده السيكولوجى، يهدف الى الدفاع عن زهداف الجماعة التى تحقق ذواتنا الفردية. ويعبر عنه فى هيئة قوانين سيكولوجية ولكن لا يجب أن يسود هذا الاتجاه العدائى ضد الشخص الخارج، طالما غير من اتجاهه الاجرامى وعاد الى اعتداله(٢). وانتهى ميد الى أن هناك اتجاهين فى ضبط السلوك الخارج عن اتجاه الجماعة هما: الاجراءات العقابية التى يشملها القانون. ثم الحكم على ملوك الشخص الخارج عن القانون، فى ضوء فهم الحالات الاجتماعية والسيكولوجية المؤدية الى الخروج على القانون(٣).

(1) Mead, "Psychology of Punitive Justice" In Gosset and Rosenberg., (eds). Op. Cit. PP. 595 - 596.

(2) Mead, "Psychology of Punitive Justice" Op. Cit. P. 597.

(3) Mead, "Psychology of Punitive Justice" Op. Cit. P. 597.

. ويتضح مما سبق أن ميد لم يتخذ من معاداة المجرم اتجاها مستمرا بحيث يشكل السمة الغالبة للتنظيم بعد توقع العقوبة. وهنا تكمن عدالة القانون كصيغة عقابية ضد السلوك الخارج. بمعنى أن المعاداة قد يكون لها اسبابها الاجتماعية والسيكولوجية لدى الشخص الخارج . ولكنها لا تتفق مع ذاتيات الأفراد الآخرين المشكلين الجماعة الكلية. ويؤكد ذلك تأكيد ميد على ضرورة الاهتمام بالعوامل الاجتماعية والنفسية التي تؤدي بالفرد الى الخروج على القانون، وهذا يدل على رغبته في الوصول الى الأسباب المؤدية الى السلوك الاجرامى، بغرض العمل على انتهائها. وبالتالي عودة الخارج الى حالته الطبيعية فى الجماعة، والالتزام بما تقرره عدالة القانون، ومن ثم يتحقق الضبط الاجتماعى، وتتحقق معه مصلحة الجماعة وذاتيات الافراد واشباع متطلباتهم.

٦- خاتمة الفصل الخامس :

قدم لنا ميد موضوعات كثيرة من خلال اتجاهه النفسى فى علم الاجتماع. وتعتبر بحق اسهاما جوهريا له سواء ما تعلق منها بقضايا علم الاجتماع النظرية أو المنهجية. فقيما يتعلق باسهاماته النظرية فى مجال مفاهيم علم الاجتماع. نجد أن ميد يشارك كولى الاهتمام بدراسة مفهوم الذات الاجتماعية، ويقدم لنا تفسيراً اجتماعياً نفسياً لكيفية ظهورها. ثم لمجال تطورها حتى تصل الى وحدتها الكاملة فى اطار الجماعه الاجتماعية التى تنتمى اليها.

لقد وضع لنا من خلال اهتمامات كل من (كولى)، (وميد) وبدراسة الذات الفردية وكيفية تشكيلها فى إطار الجماعات الأولية ومن خلال العلاقة العضوية السيكولوجية بين الفرد والآخرين، أنهما قد نجحا فى تفسير السلوك الانسانى إهتماما كبيرا فى ضوء العمليات الذاتيه النفسيه لدى الذات الفردية وبالإضافة الى الاطارات المرجعية التى تعد مناخا ملائما لنمو وتشكيل تلك الذات الفردية والذي تزودها بالمبادئ والمثل والأفكار والعواطف والمشاعر الجماعية وقد اعتمدوا فى ذلك على منهجهما العضوى ونظريتهما السكولوجية بصدد دراسة وتفسير تلك الطبيعة الانسانية واذا كنا قد أشرنا الى أت (كولى) كان أقرب الروحيين بصدد تأكيد على أن هناك فترات معينه فى حياة الجماعه يكون تأثيرها غالب على الأفراد، وهو ما يتفق مع اتجاهه الايرتضى الاجتماعى واعطاء الحياة الاجتماعية الدور الاول فى الأهمية قبل الفرد، ومن ثم يمكن القول فى هذا الصدد أن (ميد) (وكولى) يتفقان مع دوركيم فى اعتمادهم على المنهج العضوى فى دراستهم للذات الفردية وتفسير الظواهر الانسانية، وهذا ما يمكن التعبير عنه بأن الوراثة تقدم المادة الخام ثم تتلقفها البيئة بالتعديل والتشكيل حتى تصل الى مرحلة النصح من خلال المشاركة.

الا ان هذا من يخلق صعوبة فى رؤية واسهام (ميد) فيما يتعلق بتصوره عن «الاطار المرجعى» والذي يأتى ألينا «بالذات» Me، يكون متماثل ما هو لدى

(فرويد) ويطلق عليه بالضمير «أو الذات العليا. وذلك بالمقارنة بالذات» I لدى (ميد)، «والليدو» ID لدى «فرويد»^(١) وعلى هذا يرى (وودارد) Woodard بأنه فى الوقت الذى ذهبت فيه التحليلات النفسية الى مزاعم مختلفة وتفسيرات عديدة خلقت وراءها صعوبات تتعلق بمدى الاتفاق والاختلاف فى وجهات النظر، نجد أن (كولى) و(ميد) ربما أعطونا أحسن وصف لظهور الذات «Self» بوجهتيها الفردية «I»، والاجتماعية «Me» فى اطار السلوك، وأيضاً فى أظهار المراحل الأولية فى مشاركتها فى اطار الجماعات الأولية، أو ما يطلق عليه بالأطر المرجعية. وحيث يبدو واضحاً فى هذا الصدد أن مشكلة العلاقة بين الذات الفردية «I»، والذات الاجتماعية «Me» لدى (ميد) هى نفسها مشكلة العلاقة بين الفرد والمجتمع عند (كولى) والتي تعكس بوضوح نظرية كل منهما العضوية واتجاههم النفسى فى دراسة الواقع الاجتماعى وتفسير السلوك الإنسانى :

هذا وقد جاء اهتمام (جورج هيربرت ميد) بدراسة المحتوى السيكولوجى للعدالة القانونية، مدعماً لاتجاهه النفسى بدراسة الظواهر الاجتماعية فى ضوء متوياتها السيكولوجية، حيث يشير الى أن احترام القانون لا ينبع من الالتزام الصارم له، ولكنه يكمن فى المحتوى العاطفى الذى يتمثل فى الميول والأحاسيس المتعلقة بمدى أهميته لدى الأفراد، والى «وصمة العار» التى تصاحب المجرم من خلال الاشمئزازات التى تفصح عن نفسها ضد الجريمة. بالاضافة الى أن إحترامنا للقانون كقانون يمكن أن يتيح لنا فرصة التعرف على الدوافع التى تحقق ذواتنا الفردية مع الاتجاه الكلى السائد فى الجماعة واشباعه لتلك الدوافع من خلال تحقيق عدالة العقاب، التى تقوم على الإحساس الأخلاقى بالأمان واحترام الحقوق والواجبات. كما يترتب على إحترام القانون أيضاً سيادة إتجاه عدائى نحو مخالفة القانون وهو إتجاه فردى يسود بين كل أعضاء المجتمع يؤدى الى توحيد كل أعضائه فى وحده عاطفية، كما يكشف عن القيم العامة التى تكمن وتقف خلف البتاءات المتشعبة للغايات والأهداف الفردية.

(1) Fairs, Robert.; Op. Cit., P. 239.

ثم قدم ميد تفسيراً اجتماعياً نفسياً لتحقيق مفهوم الضبط الاجتماعي، وذلك من خلال تحليله لعناصره الاجتماعية السيكولوجية. والتي تؤدي بالذات أو الشخصية الكلية إلى التوافق والانضباط وفقاً لقيم واتجاهات الجماعة، وحلل ميد عناصر تحقيق هذا الضبط الاجتماعي والنفسى، وأوضح أنها تشكل بناء الذات بكلاً أطارها الفردى والاجتماعى، وتبدو بوضوح فى سلوك الذات أو الشخصية الإنسانية. وتنتهى فى هذا الصدد إلى أن مشكلة العلاقة بين الذات الفردية والذات الاجتماعية فى بناء الشخصية . والذى يبدو فى موقف السلوك داخل الجماعة الاجتماعية.

وانتقل ميد إلى مستوى آخر فى تفسيره الاجتماعى النفسى لمفهوم الضبط الاجتماعى - داخل اطار الجماعة الاجتماعية والذى يبدو جلياً فى سلوك الذات الكلية- وقدم تفسيراً سيكولوجياً لمفهوم عدالة العقوبة داخل اطار الجماعة الاجتماعية. ومنح القانون باعتباره أحد عناصر الضبط الاجتماعى واجهة سيكولوجية تتضح فى المشاعر العاطفية المصاحبة لاحترامنا له، والتي تتمثل فى رد الفعل العاطفى الذى يشمل الايمان بالمحرمات الاخلاقية، واشباع الحقوق والملكيات العامة، ثم اشباعه للدوافع التى تحقق ذواتنا مع الاتجاه الكلى السائد فى المجتمع ضد الخارجين عليه. ويقول ميد فى هذا الصدد: ان عظمة القانون تتمثل فى أنه يمثل سيفاً موجه ضد العدو المشترك، فقانون الخدمة العسكرية تتمثل عدالته فى أنه قانون موجه ضد العدو العام، وأيضاً فى التحديد المجرد للحقوق والواجبات، والتي تقرر الجزاء المدنى على كل فرد يخرج عن هذه الحدود^(١).

ونتهى إلى أن ميد اتخذ اتجاهها نظرياً عضوياً ذا واجهة سيكولوجية. ويبدو ذلك فى تناوله لقضايا الجماعة والتنظيم الاجتماعى، من خلال اتجاهه النفسى فى علم الاجتماع، وحاول أن يقدم لها تفسيراً نفسياً فى ضوء مفاهيمه السيكولوجية التى قدمها مثل: الذات الاجتماعية، والضبط الاجتماعى النفسى،

(1) Mead, "Psychology of Punitive Justice" Op. Cit. P. 595.

وسيكولوجية العقوبة أو العدالة العقابية. ويكن لنا اجمال نظرية ميد بصدد التفسير السيكولوجي لكيفية تحقق الضبط الاجتماعي داخل اطار الجماعه الاجتماعيه، وذلك من خلال تفسيره العضوى السيكولوجى لتطور الذات أو الشخصية بكلا اطريها الفردى والاجتماعى داخل الجماعة على النحو التالى:

أولاً- أن الذات Me والتي يطلق عليها الأنا الفردى. تشتمل بداخلها على الأفكار العاطفيه النفسية مثل: الفرح والسعادة والحزن، والقبول والرفض، والتوافق أو الاختلاف. ثانياً- يمكن أن نطلق على الذات Me بأنها تمثل الموقف الاجتماعى المضبوط اجتماعياً. والذي يمكن تفسيره سيكولوجياً فى ضوء اتجاهات الافراد الآخرين فى الجماعه الاجتماعيه، وما يسودها من أفكار وميول واعتقادات. اذ تحتوى الذات على مدى توافق الذات الفردية مع أى من الاتجاهات الاجتماعيه. وذلك بالرغم من ادراك الذات لكل تلك الاتجاهات الاجتماعيه فى خبرتها الشخصية. ويأتى هذا التوافق والانضباط وفقاً لما يتفق مع الشعور الذاتى، ويمثل فى نفس الوقت رد فعل لأحد تلك الاتجاهات، ثم يأخذ هيئة استجابة سلوكية مضبوطة فى الموقف الاجتماعى.

ثالثاً- يمكن القول أيضاً أن مشكلة العلاقة والتمييز بين الذات Self عند ميد، يعكس لنا نظريته العضوية ومنهجة «السيكولوجى فى دراسته لقضية العلاقة بين الفرد والمجتمع والتي تمثل رد فعل الذات الفردية لاتجاهات الآخرين فى الجماعه بحيث تأتى استجابتها لتلك الاتجاهات الكلية السائدة فى اطار اختيارها لما يتفق مع اهتماماتها الذاتيه وينعكس أيضاً فى موقف سلوك الذات المنضبط من خلال الموقف الاجتماعى.

كما يبدو لنا اسهام ميد المنهجى فى مجال علم الاجتماع من خلال اتجاهه النفسى فبجانب اعتماده على المنهج العضوى فى فهمه وتفسيره للقضايا النظرية السابقة - والتي انشغل بدراستها فى ضوء نظريته العضوية السيكولوجية - اعتمد

ميد في مجال منهج علم الاجتماع على «مناهج الفهم التفسيري والذاتي» وقد اتخذ هذا الفهم التفسيري والذاتي لدى ميد واجهة رمزية اذ أوضح «أنه من خلال التفاعل الرمزي والمعاني الذاتية الهامة التي تنطوي عليها الاشارات والتي تشكل اللغة، يمكن للفرد أن يقف على اتجاهات الأفراد الآخرين وعواطفهم وتفسيرها. ومن ثم يتصرف وفقا للمعاني المرتبطة بتلك التفسيرات»^(١).

وهذا يعني أن ميد من خلال اتجاهه النفسي في علم الاجتماع واعتماده على مناهج تفسيرية وذاتية ذات واجهة رمزية، نظر الى اللغة على أنها ظاهرة عقلية سيكولوجية فبواسطتها تنمو الذات الفردية داخل نطاق الجماعه التي تنتمي اليها. كما تكتسب الذات من خلال اشاراتها والمعاني الرمزية المرتبطة بها خبراتها الاجتماعية حتى تصل الى وحدتها الكاملة. وبالتالي يمكن فهم سلوك الذات في المواقف لاجتماعيه. ويأتى هذا الفهم من وجهة نظر الفاعل، وفي ضوء المعاني ذاتية والرموز المرتبطة بأفعاله.

(1) Kinloch, Op. Cit., P. 147.

ميد في مجال منهج علم الاجتماع على «مناهج الفهم التفسيري والذاتي» وقد اتخذ هذا الفهم التفسيري والذاتي لدى ميد واجهة رمزية اذ أوضح «أنه من خلال التفاعل الرمزي والمعاني الذاتية الهامة التي تنطوي عليها الاشارات والتي تشكل اللغة، يمكن للفرد أن يقف على اتجاهات الأفراد الآخرين وعواطفهم وتفسيرها. ومن ثم يتصرف وفقا للمعاني المرتبطة بتلك التفسيرات»^(١).

وهذا يعني أن ميد من خلال اتجاهه النفسي في علم الاجتماع واعتماده على مناهج تفسيرية وذاتية ذات واجهة رمزية، نظر الى اللغة على أنها ظاهرة عقلية سيكولوجية فبواسطتها تنمو الذات الفردية داخل نطاق الجماعه التي تنتمي اليها. كما تكتسب الذات من خلال اشاراتها والمعاني الرمزية المرتبطة بها خبراتها الاجتماعية حتى تصل الى وحدتها الكاملة. وبالتالي يمكن فهم سلوك الذات في المواقف لاجتماعيه. ويأتى هذا الفهم من وجهة نظر الفاعل، وفي ضوء المعاني ذاتية والرموز المرتبطة بأفعاله.

(1) Kinloch, Op. Cit., P. 147.

الفصل السادس

السلوكية الاجتماعية في دراسات هارولد جارفinkel الاجتماعية

- ١- تعريف النزعة السلوكية الاثنوميثودولوجية عندها هارولد جارفinkel
- ٢- أبعاد النزعة السلوكية في دراساته الاثنوميثودولوجية بوجه عام
- ٣- المداخل المنهجية في دراساته السلوكية الاجتماعية.
- ٤- خاتمة.

الفصل السادس

السلوكية الاجتماعية في دراسات هارولد جارفينكل الاجتماعية

HAROLD GARFINKLE

لقد حققت الاثنوميثودولوجي شهرة واسعة في اطار المداخل الفينومينولوجية في علم الاجتماع. وعرف جارفينكل بواجهته القيادية في هذا الصدد، وبالرغم من تزايد العلماء الذين ساروا الاتجاه الاثنوميثودولوجي في علم الاجتماع. إلا أن جارفينكل من خلال نشر كتابه دراسات في الاثنوميثودولوجي في عام ١٩٥٧، يظل دون منافسة الممثل الرئيسي لهذا الاتجاه الاثنوميثودولوجي^(١). وفي تناولنا للاتجاه النفسي لدى جارفينكل من خلال دراساته الاثنوميثودولوجية: بتعريف النزعة النفسية الاثنوميثودولوجية عند جارفينكل. ثم نعرض لاتجاه جارفينكل النفسي في علم الاجتماع في محاولة للوقوف على مدى اسهامه في مجال قضايا علم الاجتماع النظرية من خلال اتجاهه النفسي الاثنوميثودولوجي. وأخيرا نتناول المناهج التي اعتمد عليها جارفينكل في دراساته النفسية الاثنوميثودولوجية، ومدى ما أضافته الى مناهج علم الاجتماع^(٢).

٢- تعريف النزعة السلوكية الاثنوميثودولوجية عند جارفينكل:

لقد حاول جارفينكل من خلال اهتمامه الرئيسي بالاثنوميثودولوجي في علم الاجتماع، أن يقدم لها تفسيراً سيكولوجياً. وارتبطت دراساته لها بتصورات أساسية مثل: الدقة في تناول القواعد الأساسية لها، والبرهنة، وبدايتها التاريخية،

(1) Wallace, R.A. & Wolf., Op. Cit., PP. 267 - 260 .

(٢) تأتي دراسات هارولد جارفينكل الاثنوميثودولوجية في اطار مدرسة كاليفورنيا، ومدرسة لوس أنجلوس منذ عام ١٩٥٤ م. . وقدأت مجموعة من المفكرين إلى مساهمة الاتجاه العام لعلم الاجتماع الأمريكي. إذ تابع جارفينكل في اهتماماته العقلية دراسات كل من : شاتز، وهوسول، وجورج جيرفيتش وغيرهم من علماء الفينومينولوجيا. وكان لشاتز أكثر من أثر في تفكير جارفينكل.

Meizzer, Bernard & Petras, Hohn, W & Reynol, Larry T., Symbolic Interactions. London and Boston : Rolledge & Regan Paul, 1975. P. 75.

والتفسير ، والمثالية ، وردود الأفعال» (١) - كما قدم جارفينكل بعض التعريفات ذات الواجهة النفسية للأنثوميثودولوجي منها: أن الدراسات الأنثوميثودولوجية تحلل الأنشطة اليومية وتتخذ عددا من المناهج لجعل تلك الأنشطة عقلية يمكن تحقيقها في الواقع وترتبط هذه الأنشطة العقلية بالأهداف العملية. إذ تعتبر تنظيمات للأنشطة اليومية، والتي تتخذ ردودا لأفعال تملئها واجهات فردية للأفعال الملية، ومن ثم تشكل تلك الأنشطة العقلية الاحساس العام لتلك الأبنية الاجتماعية (٢) كما تستخدم جارفينكل لفظ الأنثوميثودولوجيا ليشير إلى «الخصوصيات العقلية ومدلولاتها والأفعال العملية الأخرى، باعتبارها شرط رئيسي للوصول إلى تأسيس تنظيم للمهارات العملية للحياة اليومية» (٣).

وقد أرجع جارفينكل هذا الاتجاه الأنثوميثودولوجي إلى مؤسس الفينومينولوجيا الحديثة ادموند هوسرل والذي ابتعد من خلال نظريته الفينومينولوجية عن مساهمة الاتجاه الفلسفي. ومطلب دراسة الأشياء في ذاتها في إطار الظاهرة اللاشعورية. ولم يقل هوسرل بأن البناءات الرشيدة للفعل الاجتماعي تكون غير مرتبطة باللغة الواقعية. ثم جاء جارفينكل بعد ذلك وأكد من خلال أبحاثه الأنثوميثودولوجي على أن بناء العمليات اللغوية الواقعية يكون متوافقا مع الأنثوميثودولوجي (٤)

وبالرغم من أن الفضل الأول في دراسة الأنثوميثودولوجي يرجع إلى علماء الفينومينولوجيا. إلا أن جارفينكل أوضح أن هناك اختلاف بينهما. ويتمثل في أن الأنثوميثودولوجي ينظر إلى أن كل حقيقة ما زالت تحت التكوين تكون غير مؤثرة في الواقع، وذلك ما لم يكن الموقف الاجتماعي متوافقا مع أطارات التفسير الذاتية المعقدة وذلك بالرغم من اتفاق كل من الفينومينولوجيا والأنثوميثودولوجيا بالسعي إلى فهم كل من السلوك والظواهر في ضوء المعاني التي تكمن خلفها. واهتمام الأنثوميثودولوجي بالدراسة التحليلية والتفسير للطرق التي تتخذها تلك المعاني والتي تبدو في التعبيرات التي يتخذها السلوك الانساني (٥).

(1) Meizzer, B. & Petra, John & Raynol, L.T., OP. Cit., P. 75.

(2) Ibid., P. 76.

(3) Ibid., P. 76 .

(4) Mckinney, John. C. & Tiryakian, E. A., Theoretical Sociology .
New York : Meadith Corporation 1970. P. 18.

(5) Meizzer, B. & Petra, John & Raynol, I . T., Op. Cit., PP. 78 - 79.

ولم يتفق جارفينكل فى اتجاهه الانثوميثودولوجى السيكولوجى مع وجهة النظر الدروكيميية. والتى ترى أن الحائق التى تمثل موضوع الدراسة فى علم الاجتماع، وهى التى تملك واقعا موضوعيا فقط. وما عدا ذلك يخرج عن نطاق هذه لحقيقة. وأوضح جارفينكل أن الانثوميثودولوجى بدلا من ذلك ترى أنه فى إطار المواقف اليومية يدرك الأفراد الحقائق الاجتماعية، وتتخذ تلك الحقائق هيئة مثل أو قيم تفسر معنى الموقف بالنسبة للشخص، وتشكل احساسه بهذا الموقف، ويتم ذلك دون الاعتماد على فروض مسبقة وذلك من خلال ادراك الفرد لمضمون تلك المثل الاجتماعية بحيث يصبح متفهما للواقع الاجتماعى^(١).

وأخيرا يشير جارفينكل فى إطار تعريفه النفسى الانثوميثودولوجى ، الى أن لفظ الانثوميثودولوجى Ethno يشير الى السلالة الانسانية أو الناس، لفظ Method يشير اليالمنهج أو الطريقة، ولفظ Ology يشير الى الدراسة. وبالتالى فهى تهتم بمناهج دراسة السلالة الانسانية أو الناس . ويتكوين أنماط العواطف. المتعلقة بالعالم الخارجى وحل مشاكله. والتى تكون فى الغالب على درجة كبيرة من الملاءمة^(٢). ويتضح لنا من التعريفات السابقة التى قدمها جارفينكل للانثوميثودولوجى أنها ذات واجهة سيكولوجية رئيسية اذ جاء فهمه لها فى ضوء محاولته تفسير معنى المواقف الاجتماعية لدى الأشخاص من خلال القيم والمثل والواقع المتعلقة بتلك المواقف، وبالتالى يستطيع الشخص تشكيل احساسه بالموقف فى إطار الدافع. وهذا يعنى أن الواجهة النفسية للانثوميثودولوجى لدى جارفينكل تبدو بوضوح فى اهتمامه بدراسة الطرق التى يتوصل من خلالها الأفراد الى النتائج المتعلقة بدوافع معينة. كالدوافع التى تعود الى أنواع محددة من الانتحار مثل الانتحار الشكى على سبيل المثال^(٣).

(1) Wallace, R.A. & Wolf., Op. Cit., P. 259.

(2) Couzzort, Ray, P. & King, E.W., 20 Century Social thought, New York : Libary of Holl Rinhart, 1980. PP. 314 - 315.

(3) Couzzort, Ray, P. & King, E.W., Ibid., P. 315 .

٣- الاتجاه السلوكى فى دراسات جارفينكل الاثنوميثودولوجية :

لقد جاءت اهتمامات جارفينكل السلوكية من خلال اتجاهه السيكلولوجى ، وفى نطاق اهتمامه بدراسة الاثنوميثودولوجى فى علم الاجتماع . وأيضاً انشغاله بكيفية تشكيل العواطف فى الواقع الاجتماعى . وعلى وجه التحديد من خلال محادثات لافراد وتفاعلهم - وذلك على اعتبار ان التنظيم الاجتماعى أو النظام الأخلاقى يوجد فقط فى اطار هذا التفاعل الاجتماعى - كما يدور هذا الاهتمام السيكلولوجى فى نطاق قيام الافراد بتفسير الواقع من وجهة نظرهم . وذلك ما يجعل هذا الواقع عقلاً نياً ويشكل احساسهم به ^(١) .

كما أتخذ الاتجاه النفسى الاثنوميثودولوجى لدى جارفينكل ، واجهة راديكالية تمثلت فى اهتمامه بدراسة المشكلة الرئيسية للبناء الاجتماعى . اذ ربط بين بناء الفعل الاجتماعى واللغة الواقعية . وجاء ذلك فى اطار تقديمه لنظرية سوسيولوجية عن اللغة والنظر اليها أنها تفاعل اجتماعى ، يشمل العلاقات المعقدة بين التفكير والعقل فى المحادثة مع الآخرين . إذ أنه من خلال اللغة تتشكل البناءات التى بواسطتها تعبر عن مشاعرنا . ومن خلال اللغة أيضاً نقنع الآخرين بما تعنيه ، وأيضاً بما لا نستطيع أن نعبر عنه مباشرة ويتمثل فى المعانى الذاتية ^(٢) .

وقد أجمل جراهام كلينوشن مجموعة القروض التى أقام عليها جارفينكل اتجاهه النفسى الاثنوميثودولوجى ونوجزها فيما يلى : «أولاً- يمثل النظام الأخلاقى أو البناء الاجتماعى القيمى المعيارى جوهر التنظيم الاجتماعى . كما يعتبر مادة الدراسة الذاتية لعلم الاجتماع . ثانياً- أن هذا النظام الاخلاقى يأتى متوافقاً مع الواقع الاجتماعى الذى يعيش فيه الفرد . ثالثاً- يشير النظام الأخلاقى الى التنظيمات لاجتماعيه المختلفه ، ويقدم لنا قواعد التفسير للواقع الاجتماعى . رابعاً- تأتى الدوافع الفردية متوافقة مع هذا النظام الأخلاقى فى تفسيرها للواقع الاجتماعى . ويشكل الفرد عواطفه التابعه من التفاعل اليومى . ويفسرها فى ضوء

(1) Kinloch, G.C. Op. Cit., PP. 268 - 269 .

(2) Mckinney, John & Tiryakian, E., Op. Cit., P. 17 .

هذا النظام الأخلاقي . خامسا- تشمل عمليات التفسير العقلاني كل أنواع السلوك السائد في المواقف الاجتماعية. سادسا- أن تلك العمليات التفسيرية للمواقف الاجتماعية تكون ديناميكية طالما أنها تحدث في إطار التفاعل . سابعا- يفترض هذا الاتجاه النفسى لدى جارفينكل أن تلك العمليات التفسيرية للمواقف الاجتماعية والتي تتخذ تنظيمات أخلاقية عقلانية، هي التي تشكل الواقع الاجتماعى. ثامنا- انتهى جارفينكل الى عدد من العمليات العقلانية، ويعتمد عليها الفرد فى الوصول الى العقلانية السيكولوجية ، وتشكل الاحساس فى نطاق التفاعل اليومى ، وتمثل تلك العمليات العقلانية السيكولوجية فى التصنيف، والمقارنه وتحليل المتغيرات وتحليل النتائج ثم تحليل التوقعات^(١).

ولقد ارتبط اتجاه جارفينكل السلوكي لاثنوميثودولوجى فى علم الاجتماع بمناقشة قضايا نظرية هامة أثارها علماء الاجتماع فى نطاق البحث السوسولوجى أهمها: أولا- انكار جارفينكل الواضح للغرض الوظيفى الذى يرى أن الوقائع الاجتماعية تملك واقعا هاما بها يفرض نفسه على الأفراد فى الواقع. وضرب مثلا بتفسير الموظفين للدور المتوقع للمدرس فى ضوء المهمات التى يقوم بها. وأوضح أن الاثنوميثودولوجى لم تفسر هذا الدور فى ضوء تلك المهمات المفروضة مسبقا فى مجال الوظيفة، كما لم تفسرها فى ضوء عمليات التفاعل فقط، ومن خلال القيم والمثل كما فعلت التفاعلية الرمزية، ولكن تفسر الاثنوميثودولوجية للدور المتوقع للمدرس لا يأتى مستقلا عن الخبرة الفردية، واتجه اهتمامها الى دراسة القواعد التى يسلكها المدرسون باعتبارهم قائمين بعمل التدريس، ما يأتى هذا التفسير فى ضوء بناء أفعال الأفراد فى الواقع، ومن خلال التفاعل الذى يشكل الاحساس بالموقف الاجتماعى^(٢).

ثانيا- الاهتمام بايضاح الفرق بين التفاعلية الرمزية والاثنوميثودولوجى، وذلك بالرغم من أنهما يمثلان اتجاهات نفسية اجتماعية تهتم بالفرد أكثر من الأدوار

(1) Kinloch, G.C. Op. Cit., PP. 26

(2) Wallace, R.A. & Wolf, A., Op. Cit., P. 270 .

والبناءات الاجتماعية، إلا أن الاثنوميثودولوجي تهتم بأسئلة تجيب على توافق المعاني الذاتية. وذلك من خلال كيفية تأثير قواعد السلوك في تشكيل احساس الفاعلين. والذي يتشكل داخل اطار البيئة أو الموقف بطريقة متوافقة اجتماعيا. أما التفاعلية الرمزية وكما هي عند كولي في مرآة الذات العاكسة، ففي تفسيرها للموقف الاجتماعي تفترض مسبقا أن المعاني يمكن ان تتوافق كاستنتاج يأتي. وهذا من الناحية النظرية^(١).

أما من الناحية المنهجية فبالرغم من أن المناهج في كلا الاثنين واحدة، إلا أنها تستخدم بطرق مختلفة في كلاهما. «فالاثنوميثودولوجي تهتم بالمواقف الواقعية التي يمكن في اطارها تحليل الموضوعات التي تشكل الاحساس بالمواقف، والتي يعتبر المعنى فيها غامضا. ويتضح ذلك في مثال لاعب الباسبال في علاقته بجماعته المرجعية، فتجد الاثنوميثودولوجي تهتم بالطرق أو المناهج التي يستخدمها اللاعبون وتشكل احساسهم بالموقف أو النظام. وذلك كنتيجة لردود أفعالهم واستجاباتهم، حينما يتصرف اللاعب أو أي لاعب بطريقة غير متوقعة. أي أن الاثنوميثودولوجي يتناول المعنى باعتباره يمثل موضوعا غامضا- أكثر من اهتمامها بدراسة ما كان موجودا في عقول اللاعبين من معنى سابق. وهو ما يشكل اهتمام التفاعلية الرمزية، حين يهتم ميد بمقدرة اللاعب على الوقوف على المعنى الموجود في عقل كل لاعب من الفريق في اطار التفاعل»^(٢).

ثالثا- أهتم السوسيولوجين بمشكلة عدم اهتمام جارفينكل بالمحتوى البنائي الذي ينبع من العمليات العقلانية. وأوضحوا أنها صاحبت خطأ الثورية في مجال النظرية السوسيولوجية والتي تمثلت في اتجاهه النفسي، الذي ينهض على الاستنتاج والتحليل الواقعي الديناميكي. ويهتم بدراسة الطرق التي يتوصل بواسطتها الناس الى النتائج المتعلقة بالدوافع التي تقود الى أنواع النشاط اليومي. كما تشكل احساسهم بالمواقف الاجتماعية دون الرجوع الى تصورات مسبقة.

(1) Wallace, R.A. Op. Cit., P. 269 .

(2) Wallace, R. A. Op. Cit., P. 280.

وبالتالى اهتم جارفينكل فى اطار اتجاهه النفسى الاثنوميثودولوجى بداسة أنماط السلوك التالية: السلوك لاستشارى، والدفاع الثانوى، وسلوك الباحثين. وانتهى الى أن محادثات الافراد توجهها المثل الاجتماعية. اذ يعكس الافراد من خلال المحادثات بعض السمات السيكولوجية للشخصية، ويستجيبون فى بساطة للواقع الاجتماعى ويشكلون احساسهم به^(١).

٤- المداخل المنهجية فى دراسات جارفينكل السلوكية الاجتماعية:

وسوف نحاول الوقوف على الطرق أو المناهج التى اعتمد عليها جارفينكل فى دراساته النفسية الاجتماعية. وذلك بهدق الوقوف على تلك المناهج أولا، ثم معرفة مدى ما أسهمت به فى مجال مناهج علم الاجتماع بوجه عام، ولقد استخدم جارفينكل فى دراساته النفسية الاجتماعية الاثنوميثودولوجية المقابلات المفتوحة. واعتبرها تمثل الطريقة المثلى لجمع المادة التى تنقل المعنى الذاتى. ويتمثل هذا الاستخدام فى اعتماده على المقابلات المفتوحة فى دراسته لوظائف والاهتمامات القضائية، اذ أجرى مقابلات شخصية معهم بهدف الوصول الى مصادر المعرفة المختلفة التى تنقل المعنى الذاتى، وقد وقف جارفينكل على مصادر المعرفة المختلفة التى تحدد سلوكهم كقضاة وحددها فى: الكتب القضائية، والنظم القضائية الخاصة بالمحكمة، والدورات التدريبية، وهيئة المحكمة، ثم خبراتهم المتبادلة تجاه بعضهم البعض^(٢).

كما اعتقد جارفينكل على منهج دراسة الحالة . ويمثل ذلك تدوينه للنتائج المتعلقة بالأوضاع الجنسية للشخص الممارس فيه. وكانت غالبية المادة المقدمة مجمعة من خمسة وثلاثون ساعة سجلت فيها نغمات المحادثة بين الشخصين الممارس والممارس فيه. وكانت هناك بنت فى سن التاسعة عشرة نغمة صوتها مرتفعة، حيث تابعت مغامراتها الجنسية مبكرا. ومن ثم تضمنت تجربتها التصرف والسلوك كما لو كانت امرأة^(٣). وننتهى من هذا الى أن جارفينكل حاول تفسير

(1) Kinloch, G.C., Op. Cit., P. 269.

(2) Wallace, R. A. & Wolf, A., Op. Cit., P. 275 .

(3) Ibid., F. 276 .

السلوك الواقعي في ضوء الخبرات الفردية التي يكتسبها الشخص وكذلك المعنى الذاتي يوجد لديه ويرتبط بقيم ومثل معينه . ومعتمدا في ذلك على منهج دراسة الحالة وفي اطار اتجاهاه النفسي في علم الاجتماع.

والمجتمع الثالث الذي استخدمه جارفينكل في دراساته السلوكية الاثنوميثودولوجية هو منهج التفسير الاستنتاجي THE DOCUMENTARY METHOD OF INTERPRETATION والذي يتضمن اعتبار أن البحث عن النماذج المتشابهة من خلال الاختلافات المتباينة والتعلقة بادراك المعنى، يتطلب متابعة تفسير سلوك الافراد تجاه بعضهم البعض. ويكون ذلك في اطار دراسته الأنماط السلوكية السائدة^(١). اذ يقول جارفينكل في هذا الصدد «ان منهج التفسير الاستنتاجي يشير بوضوح الى أن التفسير لا يعتمد فقط أو ينتج من دلالاته الفردية التي يستند اليها. ولكنه يشير أيضا الى أن تلك الركائز الفردية في التفسير تفسر وفقا للعارف عليها في اطار النمط السائد المحدد»^(٢).

أما المنهج الرابع والأخير الذي اتبعه جارفينكل في دراساته النفسية الاثنوميثودولوجية، ويعتبر إضافة الى مجال علم الاجتماع من خلال اتجاهاه النفسي. «فهو منهج التجربة لاثنوميثودولوجية، واعتمد عليه في دراسة النشاط اليومي المنظم. ذلك النشاط الذي يشمل العمليات الاجتماعية الواقعية المنظمة. والتي تحدث داخل اطار الموقف أو النظام. ويعمل الأفراد من خلالها على تشكيل احساسهم وعواطفهم»^(٣). وضرب جارفينكل مثلا بتجربة المدرس مع تلاميذه. حين يدخل الفصل دون جدية، ويبدأ في ممارسة بعض الأعمال الخالية من المعنى مثل: وضع قطع من الأوراق على الأرض، ورسم رموز على السبورة. فهو يعتمد تخطيط الواقع الاجتماعي المنظم للتلاميذ. في حين يتمثل رد فعل التلاميذ في تجميع مظهر النظام الاجتماعي، ومحاولة تنظيمه في اطار الموقف، ومحاولة اصفاء

(1) Wallace, R.A. & Wolf, A., Op. Cit., P. 277 .

(2) Ibid., P. 277 .

(3) Ibid., P. 278.

تفسيرات تضيف معنى بالنسبة لهم، وتجعل سلوكه واضحاً لهم في ضوء القواعد والمعايير السائدة المشتركة بينهم عن سلوك المدرس^(١).

(1) Wallace, R.A & Wolf, A. Op. Cit., P. 284 .

دئمة الفصل السادس :

ترتبط اسهامات هارولد جارفينكل فى مجال علم الاجتماع من خلال اتجاهه النفسى بدراسة ما أطلق عليه بالاثنوميشودولوجى فى مجال الدراسات الاجتماعية، وقد أصبح مفهوم الاثنوميشودولوجى يمثل اسهاما جوهريا لجارفينكل من خلال اتجاهه النفسى. بحيث يمكن القول بأنه يمثل اضافة الى مجال مفاهيم علم الاجتماع. وحاول الاعتماد عليه فى تقديم نظرية سوسولوجية ذات واجهة نفسية وجاء اهتمامها منصبا على دراسة السلوك والظواهر فى ضوء المعانى الذاتية التى تكمن خلفها. وانشغل جارفينكل بكيفية تشكيل الأحاسيس والعواطف فى الواقع الاجتماعى من خلال الموقف الاجتماعى، وبالتحديد فى ضوء محادثات الأفراد وتفاعلهم. واعتبر جارفينكل أن تلك الأحاسيس والعواطف التى تتكون لدى الأفراد تجعلهم يفهمون هذا الواقع، وبأنى هذا الفهم فى ضوء ما يوجد فى الواقع من قيم ومثل سائدة.

وتبدو الواجهة السلوكية التى تناول من خلالها جارفينكل نظريته الاثنوميشودولوجية فى علم الاجتماع، فى ربطة بناء الفعل الاجتماعى باللغة، فاللغة تمثل لدية اطارا يحتوى التفاعل الاجتماعى بين الأفراد، كما تشمل العلاقات المعقدة بين التفكير والعقل. ونستطيع أن نعبر من خلالها عواطفنا وأحاسيسنا فى الواقع فى ضوء المعانى الذاتية. ويجمع علماء الاجتماع على أن ما تفرد به جارفينكل فى اتجاهه النفسى الاثنوميشودولوجى يتمثل فى «قناعته أنه يمثل واجهة حقيقية مستمرة لواقع أى تفاعل اجتماعى. ذلك التفاعل الذى يحدث من خلال أفراد لا يستقبلون المعلومات من الآخرين بصورة سلبية ولكنهم ينظمونها ويوفقونها، ويطلق على هذه العملية بتوافق المعانى وهو الشئ الذى يجب أن يربط علاقات الأفراد مما فى تفاعلهم اليومى»⁽¹⁾.

والواقع أن دراسات جارفينكل الاثنوميشودولوجية والتى جاءت فى اطار اتجاهه النفسى فى علم الاجتماع اعتمد فيها على مناهج متعددة منها ما يقع فى اطار

(1) Cuzzort. Ray, P. & King, E.W., Op. Cit.. P. 323.

علم الاجتماع مثل : المقابلات المفتوحة، والملاحظات التى أجراها بهدف جمع المادة التى تحمل المعنى الذاتى . وبالتالى أمكنه بواسطتها تفسير النشاط الواقعى . ومن هذه المناهج ما يقع فى اطار علم النفس الاجتماعى . مثل منهج دراسة الحالة، والذى استخدمه فى تفسير الواقعى فى ضوء الخبرات الفردية والمعانى الذاتية. ثم أضاف جارفينكل الى مجال مناهج علم الاجتماع منهجا جديدا، من خلال اتجاهه النفس . وهو منهج التجربة الاثنوميثودولوجية . واعتمد عليه فى تفسير الواقع الاجتماعى . وجاء هذا التفسير من خلال تصورات نفسية مثل : ردود الأفعال، والاستجابات، التى تجعل السلوك واضحا فى ضوء القواعد والمعايير والمثل السائدة.

خاتمة الباب الثاني

خاتمة الباب الثاني

وإذا ما حاولنا الوقوف على الانجازات التي حققها علماء الاجتماع الأمريكيين لهذا الاتجاه السلوكي في علم الاجتماع، وذلك من خلال تبيينهم لاتجاه علم النفس الاجتماعي وقوانينه. فتجدر الإشارة إلى ما أورده جومر وروسبرج من أن كل الكتابات الاجتماعية لدى وليم جيمس W.James قد أوضحت هلى مدى الخمسين سنة الماضية أن علماء السلوكية الاجتماعية الأمريكيين قد اتفقوا جميعا على الاصل الاجتماعي للذات الفردية، وأدركوا أن الذات الفردية تعنى القبول والاستجابة التي يلقاها الفرد من رفاقه^(١).

ويجدر بنا الاشار إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية قد ظهر فيها العديد من الأشخاص الذين أنتجوا قدّموا أهتمامات عظيمة في مجال العمل الفسيولوجي، وفي نفس الوقت كانت لهم مجهودات سيكولوجية متماثلة مع أهداف بناء الولايات، وقد تمثلت تلك المجهودات في بحث مشكلات معينة في السلوك الأنساني، حيث عملوا في هذا الأهتمام متعاونين مع بعضهم البعض، ومتأثرين بمدارس أجنبية أخرى، وفي نفس الوقت متفاوتين في تصوراتهم ومجهوداتهم التجريبية بأمور خاصة وحالات جوهرية في الحياة الأمريكية التي يعملون في إطارها^(٢).

ولقد كانت طبيعة نحو علم النفس العام (متماثلة مع المرحلة المبكرة في تطور علم الاجتماع، وفي حدود الاستخدامات المحددة لدى علماء الاجتماع، بمعنى أن المناهج التي كانت مطبقة على واجهات التفاعلات الإنسانية ولعشرات من السنين هي في جوهرها مناهج سيكولوجية حيث كان السلوك الإنساني يدرس ويفسر على أسس مختلفة ومع قليل من البحث الواقعي، ولقد شكلت الحركات

(1) Mead, "Role taking and Reference group" in Coser and Rosenberg., (eds) Op. Cit., P. 259.

(2) Robert E. L. Fairis.; "American Sociology" En Twenth Century sociology; (ed) Georges. Gurvitch; & Wilbert C. Moore; Philosophical Library Inc., New York, 1945, PP. 38 - 39.

البرجماتية في الفلسفة ، السمة المتطورة لعلم الاجتماع الأمريكي ، والتي أنبثق منها التقليد الخاص بعلم النفس الاجتماعي social psychology والذي ظل في كليته الأكثر تأثيراً في مجال علم الاجتماع . وقد كانت الأسماء أكثر أهمية في أسهاماتها في هذا المجال هي : (جون ديوي) John Dewey ، (جورج هربرت ميد) George Herbert Mead ، (تشارلز هورتون كولي) Charles Horton Cooley ، (الزوروس فبرز) حيث شكل هؤلاء العلماء مجتمعين جسماً من التفكير بتعاونهم مع منجزات الآخرين وتطورهم المحاولات المبكرة في الاهتمام بالسلوك الإنساني على أسس من التحديات البيولوجية ، ومبتدئين « بالطفل الإنساني » Human infant حيث أظهروا كيف أن السمات العقلية والشخصية تنهض في إطار عمليات التفاعل الاجتماعي ، لدرجة أن الإنسان يصبح موجود اجتماعي لأنه يعيش في الجماعات الاجتماعية . وأن كانت هناك اتجاهات سيكولوجية سائدة في إطار التفكير المنطقي في علم الاجتماع الأمريكي مثل : « النزعة السلوكية » Behaviorism المتمثلة في مدرسة الجشطالت السيكولوجية Gestalt Psychology ، واتجاه التكتلات السيكولوجية « في مجال الاختلافات الفرويدية ، ولكن السيكولوجيين قد تبناوا فقط وأربطوا بقوة مع ذلك التقليد المفيد لعلم الاجتماع ، والذي لم يلب حاجة علماء الاجتماع بتوافقه ، وهو الاتجاه السيكولوجي السائد في علم النفس ، ويسمى بعلم النفس الاجتماعي » social psychology (١).

وفي هذا الاهتمام يرى (جيمس وودارد) James Woodard أن إنجازات علم النفس الاجتماعي المتلازمة مع مجال الشخصية وتطورها ، وأيضاً النتائج التي لا تزال تطبق في اختبار وقياس الشخصية تستحق معالجة متسعة ، ومن ثم يجب أن نهتم في هذه النقطة بفهم كيفية ظهور الذات في إطار أعمال (وليه جيمس) (بالدوين) ، (كولي) ، (ميد) تلك التي تعتبر واحدة من الأسهامات الدائمة لهم (٢) ويرى أن تأكيدات (كولي) الرئيسية كانت منصبه على « العلاقات العضوية بين

(1) Robert E. L. Fairs; "American Sociology" Op. Cit., PP. 554 - 555.

(2) James W. Woodard., "Social Psychology " En Twenth Century: Op. Cit.; PP. 237 - 238.

الفرد والمجتمع ، على أنهما أجزاء غير منفصلة لشيء واحد ، وأيضاً على أهمية جماعات المواجهة المباشرة الأولية PRimary Face - To Face باعتبارها مجالا للنمو الفردي والمشاركة الفردية . (١)

ويتضح لنا إسهام علماء الاجتماع الأمريكيين في مجال قضايا علم الاجتماع من خلال اعتمادهم على مفاهيم علم النفس الاجتماعي بشكل واضح . ويمكن القول أن اهتمام كل من كولي وميد بفهم وتفسير قضايا علم الاجتماع مثل - العلاقة بين الفرد والمجتمع ، والجماعات الاجتماعية ، وقضايا تفسير السلوك في إطار التفاعل - قد جاءت في ضوء اعتمادهم على مفاهيم مثل : الذات الاجتماعية ، والتفاعل الرمزي . وبالتالي كانت إنجازات علم النفس الاجتماعي في مجال دراسة بناء الشخصية وتطورها متوافقة مع اهتمامها بدراسة الذات الاجتماعية . وقد أوجب ذلك الاهتمام بمعالجة النتائج المطبقة في اختبارات قياس الشخصية . وأيضاً فيما يتعلق بكيفية ظهور الذات في أعمال كولي وميد ، والتي تعتبر من أهم إنجازاتهم في مجال اتجاههم النفسي في علم الاجتماع (٢) ، وبناء على ذلك أتخذت أعمال كولي وميد أهمية خاصة فيما يتعلق بدراسة نمو الطفل ، والتي تناولتها مداخل مختلفة في مجتمعات مختلفة ، في إطار ما يسمى بعلم النفس الاجتماعي التجريبي (٣) .

ويلاحظ أن كولي حاول تفسير قضايا الجماعة والسلوك في الواقع الاجتماعي ، وذلك من خلال اتجاهه العضوي النفس ، وأعتمد في تفسيره هذا على مفاهيم نفسية مثل الذات الاجتماعية والتفاعل الرمزي ، ويمكن القول أن اهتمام كولي بتطور الذات الإنسانية من خلال التفاعل الاجتماعي في إطار الواقع جاء على نطاقين : الأولى - يعني أن تناوله لتطور الذات الفردية في إطار الواقع

(1) Ibid., PP. 238.

(2) Woodard, G.W., "Social Psychology ", In George , Gurvitch. & Wilbert E. Moore., (eds.) Twentieth century Sociology, New York : Philosophical Library, 1954. PP. 237 - 238.

(3) Woodard, G.W., & Wilbert E. Moore., Op. Cit. P. 236.

الاجتماعى - ومن خلال المشاركة واكتساب الخبرات الاجتماعية بحيث يمكن أن نطلق عليها صفة الاجتماعية - قد جاء فى ضوء فهمه للعلاقة بين الفرد والمجتمع ، على أنهما يمثلان أجزاء مقسمة لشيء واحد . وهذا يعكس لنا نظريته العضوية والسيكولوجية ، والتي تتجلى فى فهمه لتطور الذات الانسانية فى إطار العلاقة العضوية والسيكولوجية بين الفرد والمجتمع .

ويمثل المستوى الثانى - فى فهم كولى وتفسيره للدور الذى تلعبه الجماعات الأولية فى تشكيل وتطور الذات الاجتماعية . إذ يأتى ذلك فى ضوء علاقات المواجهة المباشرة والتفاعل والمشاركات والمبادئ الأولية . وأكد بالرغم من أن الفرد لا يصبح كائنا اجتماعيا إلا إذا كان يعيش فى جماعة اجتماعية . إلا أن هناك فترة فى حياة كل شخص تكون فيها الأسبقية للجماعة^(١) . وهذا يعنى من وجهة نظرنا أنه فى نطاق الجماعات الأولية مثل : الأسرة والجوار والصدقة يمكن أن تنمو الذات الفردية ، وتتطور من خلال علاقات التفاعل والمشاركة الاجتماعية ، إذ تمنحها تلك الجماعات الأولية وحدتها الاجتماعية بواسطة خصائصها النفسية ، والتي تتمثل فى : المبادئ والمثل والأفكار والعواطف ، وتكون مشتركة وعامة فى عقول أفراد الجماعة .

ويمكن أن ننتهى بأن الذات الفردية فى إطار نظرية كولى العضوية والسيكولوجية لا تجد الظروف الملائمة للنمو والتطور إلا فى نطاق الواقع الاجتماعى . وأن كان كولى لا يتفق فى هذا الصدد مع دوريكيم فى أن الجماعة هى الفصيل الوحيد فى تشكيل الطبيعة الإنسانية . إذ يرى كولى أن الشخصية الإنسانية تشتمل على الصفات الفردية الوراثة البيولوجية ، والتي تتفاعل مع البيئة الاجتماعية الممتلئة فى واقع الجماعات الاجتماعية . ومن هنا تأتى الحقيقة الاجتماعية للذات . فى إطار نظريته للعلاقة العضوية بين الفرد والمجتمع . بل اعتبر أنهما يمثلان أجزاء غير منفصلة لشيء واحد^(٢) . وهذا يؤكد لنا نظرية كولى

(1) Fairs, Robert, E.L., Op. Cit., P. 555.

(2) Woodard, G.W. Op. Cit., P. 238.

العضوية السيكولوجية والتي يفسر من خلالها الواقع الاجتماعي . وكذلك
اعتماده بجانب المنهج العضوي - والذي اعتمد عليه في معالجته لقضايا العلاقة
بين الفرد والمجتمع والجماعة والسلوك - على منهج سيكولوجي اتخذه لديه واجهة
الفهم التعاطفي . واستطاع كولي من خلاله أن يقف على الدوافع التي تكمن
خلف السلوك . وتفسر في الوقت نفسه المعنى الذاتي لسلوك الذات داخل إطار
التفاعل الاجتماعي .

وإذا ما انتقلنا إلى مناقشة مدى الأسهم الذي قدمه ميد من خلال اتجاهه
النفسي إلى قضايا علم الاجتماع النظرية والمنهجية . نجد أن جيمس وودارد يجعل
هذا الأسهم ، بأنه قدم اتجاهها نظريا يفسر ارتباط الذات الفردية عضويا بالمجال
الثقافي والاجتماعي الذي تنتمي إليه . واعتبر ميد أن هذا المجال يمثل مصدرا
للمعاني والأفكار والقيم التي تعد معاني نفسية . ومن ثم تابع في ضوء هذا الاتجاه
النظري النفسي الاهتمام بتفسير ظهور الذات ، وفسر ظهورها من خلال السلوك
الاجتماعي ، الأعمال الواقعية وأنساق التخيل ، واللعب ، واعتبر ميد أن تلك
الأنساق تمثل دوافع تلقائية لظهور الذات ونموها^(١) .

وبما سبق يتضح لنا مشايعة ميد لاتجاه علماء النفس الاجتماعي الأمريكيين
في الاهتمام بتأكيد الأصل الاجتماعي للذات . وتفسيره ظهورها ونموها في
الواقع الاجتماعي ، ومن خلال اكتساب الخبرات الاجتماعية داخل نطاق
الجماعات الاجتماعية . وهذا يعكس لنا نظريته ، العضوية السيكولوجية في دراسته
لظهور الذات ونموها . إذ يتم هذا النمو داخل نطاق أطارات مرجعية مثل :
أطارات التخيل ، واللعب ، واللعبة . وتؤدي تلك الأطارات بالفرد إلى أن يتمثل
مع الاتجاهات العامة في الجماعة ، كما تشكل ذاته الاجتماعية ، وبالتالي تأتي
استجابة الفرد لتلك الاتجاهات العامة بواسطة ذاته الفردية . والتي تشكل في إطار
ذاته الاجتماعية . ثم تدرك الذات بعد ذلك الاتجاهات السائدة في الجماعة
ككل . وتمثل تلك الاتجاهات في الملكيات العامة ، والاستجابات العامة ، والتي
تحتوي تحقيق الذات الفردية في الوقت نفسه .

(1) Ibid., P. 239.

ويمكن القول بأن هناك اتفاقاً بين كولى وميد فى اعتمادهم على الاتجاه العضوى السيكولوجى . وذلك بصدد تفسيرهم لتكوين الذات الإنسانية ونموها داخل إطار الجماعات الأولية . تلك الجماعات التى تمنح الذات خصائصها الاجتماعية النفسية . كما تهىء أيضاً للذات الفردية البيئة الملائمة للتكوين والنمو واكتساب الخبرات الاجتماعية . ولقد أوضحت أنتصار يونس فى هذا الصدد ، أنه بالرغم من الاتجاه السائد بين العلماء الأمريكيين نحو الاهتمام بدراسة الواقع الاجتماعى الأمريقى . وأعطاء الحياة الاجتماعية الدور الغالب فى التأثير على الأفراد . حيث كان هناك اتفاق بين كولى وميد ودور كيم فى اتجاه النزعة السلوكية . وقد وضع ذلك بصدد دراستهما لنشأة الذات الفردية ونموها فى إطار الحياة الاجتماعية ، ولم يغفلا دور المبادئ والمثل والأفكار والأحاسيس والقيم ، والتى تمثلها الذات فى إطار مشاركتها الاجتماعية مع الآخرين فى الواقع الاجتماعى^(١) .

كما يمكن القول أن تفسير ميد العضوى السيكولوجى خلال اتجاهه السلوكى فى فهم للعلاقة بين الذات الفردية والذات الاجتماعية Me ، يتفق مع تفسير كولى العضوى السيكولوجى لمشكلة العلاقة بين الفرد والمجتمع . إذ يمنح هذا التفسير لكل من العمليات العقلية الشعورية وعمليات المشاركة واكتساب الخبرات ، دوراً متعادلاً فى تشكيل الذات ونموها داخل إطار الجماعات الاجتماعية ، وحتى تصل إلى مرحلتها الاجتماعية الكلية . كما يتفقان فى اعتمادهما على منهج سيكولوجى بجانب المنهج العضوى فى دراسة تلك العلاقة العضوية السيكولوجية . وقد اتخذ هذا المنهج السيكولوجى لدى كولى واجهة الفهم التعاطفى . بهدف الوقوف على المعانى الذاتية التى تكمن خلف سلوك الذات . فى حين اتخذ منهج الفهم السيكولوجى لدى ميد واجهة رمزية . تهدف إلى الوقوف على المعانى الخاصة بالرموز والاشارات . والتى تمثل محتوى للغة المحادثات بين الأفراد داخل نطاق التفاعل الاجتماعى .

(١) أنتصار يونس ، السلوك الإنسانى ، القاهرة : المكتب المصرى الحديث للطباعة والنشر ، ١٩٦٦ ، ص :

كما جاء اهتمام ميد بدراسة الجوانب النفسية للعدالة العقابية المتمثلة في القانون، مدعما لاتجاهه النفسى فى دراسة الظواهر الاجتماعية. وتحقيق الضبط الاجتماعى السيكولوجى داخل نطاق الجماعات الاجتماعية. إذ اعتمد فى تفسيره لتلك العدالة على مفهوم سيكولوجية العقوبة، ومنهجه للفهم السيكولوجى. واستهدف من ذلك الوقوف على المعانى الذاتية المرتبطة بمواقف التفاعل الرمزي. وأوضح ميد أن احترام القانون لا ينبع من الإلزام الصارم له، ولكنه يكمن فى المحتوى القاعى الذى يتمثل فى الميول والأحاسيس المتعلقة بمدى أهميته بالنسبة للأفراد. وأيضاً يرجع هذا الاحترام للقانون إلى وصمة العار التى تصاحب المجرم، تبدو فى الاشتراكت، التى تفصح عن نفسها ضد الجريمة. هذا بالإضافة إلى أن احترامنا للقانون كقانون يقوم على الاحساس الأخلاقى بالأمانة واحترام الحقوق والواجبات. كما يتيح لنا فرصة اشباع الدوافع التى تحقق ذواتنا الفردية مع الاتجاه الكلى السائد فى الجماعة. وأخيراً يترتب على احترام القانون سيادة اتجاه عدوانى عاطفى نحو مخالفة القانون. إذ يوجد هذا الاتجاه العدائى كل أعضاء الجماعة كما يكشف عن القيم العامة التى تكمن خلف البناءات المتشعبة للغايات الفردية.

وفيما يتعلق بمدى الاسهام الذى قدمه جورج هومانز فى إطلا التزعة السلوكية فى علم الاجتماع الأمريكى. وما أضافه من خلال اتجاهه السلوكى إلى موضوع علم الاجتماع، ومنهجه، ونظريته بوجه عام؟. يمكن القول أن هومانز اتخذ اتجاهاً وظيفياً سيكولوجياً من النظرية السوسولوجية. ويتكون هذا الاتجاه النظرى السيكولوجى لديه من عدد من القضايا. والتى تنهض فى تفسيرها وتحليلها للظواهر الاجتماعية، وعناصر السلوك الإنسانى، والعمليات التفاعلية على التحليل والتفسير الاجتماعى النفسى. وقد أكد هومانز فى هذا الصدد على إمكانية التفسير الاجتماعى النفسى لعناصر السلوك الإنسانى. والتى تتمثل فى: التفاعل أو الاتصال الاجتماعى، والاحساس، والأنشطة العاطفية المشتركة، ثم أخيراً المعايير. إذ حاول تفسير تلك العناصر أو المفاهيم السابقة فى ضوء التصورات المستخدمة فى النظريات النفسية السائدة ومن ثم اهتم بالتفسير الاسقاطى فى كتابة السلوك

الاجتماعى. والذي اهتم من خلاله بتفسير السلوك وتحليل عناصره السابقة. وجاء هذا التفسير فى ضوء الواجهات السيكولوجية مثل : الدوافع والشعور والقرارات التى تشتمل على تقسيم وتوقع المكافآت والاثابات^(١).

وبالتالى ذهب هومانز من خلال نظريته الوظيفية السيكولوجية إلى تفسير قضايا السلوك الانسانى، وجاء هذا التفسير على مستويين : «الاول» يتمثل فى تفاعل سلوك الضياد مع البيئة الخارجية أو النسق الخارجى، وعلى ضوء تصورات ومفاهيم نفسية تمثل أهدافا لهذا السلوك الانسانى وهى الاثابات والعقوبات. كما فسر حالات الاشباع والحرمان التى يصل إليها الفرد فى اطار المكافآت والعقوبات. ولم يغفل أيضاً هومانز تفسير الحالات الداخلية النفسية للفرد. والتى تصف علاقته بالبيئة وتحتوى على مضمون ذاتى يتمثل فى الدافعية. وما يتبع تلك الدافعية من نشاط مدفوع تجاه: الرضا أو القلق، التجاح أو الفشل، أو الاحباط.

وفى «المستوى الثانى» قدم هومانز تفسيراً سيكولوجياً وظيفياً لقضايا السلوك داخل اطار التفاعل الاجتماعى بين الشخص والآخر. وجاء هذا التفسير معتمداً على مفاهيم نفسية مثل الدوافع والشعور وتوقع الاثابات من خلال عمليات المشاركة. التى تعتمد على تأثير الآخر فى الشخص باسداءه له النصيحة التى يحتاج إليها فى مجال العمل على سبيل المثال. وفى المقابل من ذلك يمنحه الشخص التوافق. وفى حالة التوافق هذه يصل الفرد إلى حالة الاشباع، والتى تعكس وراءها قيما متغيرة نظراً لارتباطها بدوافع غريزية لا شعورية. وايضا لاعتمادها على ما يكتسبه الشخص فى الحياة من سمات وأفكار نفسية يحملها خلال عمليات التنشئة الاجتماعية. وفى هذا الصدد يمكن القول أيضاً أن هومانز يتفق مع كولى وميد فى تفسيرهما العضوى السيكولوجى لقضايا السلوك داخل اطار التفاعل الاجتماعى باعتماده على مفاهيم نفسية مثل : الدوافع والمشاركات والاتجاهات

(1) Jones, J.K.C., Op. Cit., P. 152.

وقد سبق الإشارة إلى معالجة هومانز للخمس قضايا السلوكية التى وضعها لمناقشة المحتويات السيكولوجية لعناصر السلوك الانسانى. مع ملاحظة عدم التفرقة فى تطبيقها على نمط التفاعل الانسانى فى اطار البيئة الخارجية - النسق الخارجى - من خلال موقع المكافآت والعقاب. أو فيما يتعلق بنمط التفاعل الانسانى مع الشخص الآخر فى اطار الجماعة.

والعواطف، والتي تقوم على التأثير المتبادل بين الشخص والآخر. وأن كان يختلف عنهما في حصر نطاق التفاعل بين الشخص والآخر فقط.

ونجد الإشارة إلى أن تحليل العمليات التفاعلية لدى هومانز كانت محاولة أكثر شمولاً لفهم وتفسير السلوك الانساني من خلال تأكيده على الواجهات السيكولوجية. وجاء ذلك في بناء من القضايا يبدأ من عدد صغير من القضايا، ويتحرك من خلال التفسير الاسقاطي. إذ يهدف هذا التفسير إلى التنبؤ بسلوك الشخص في مستوياته المختلفة. وقد اشار شادويك جونز إلى أن هذا التفسير قد قدم من خلال ستين دراسة تطبيقية امبريقية. والتي نفذت بواسطة علماء علم النفس الاجتماعي، وجمعت في تقرير يعد من أندر التقارير سيكولوجية.. وأدى هذا التقرير إلى ظهور كتاب الجماعة السيكولوجية في السنين الأخيرة. إذ ينطوي هذا الكتاب على أهمية كبرى، فيما يتعلق بمدى اسهاماته للنظرية السيكولوجية الاجتماعية^(١).

ويتفق هومانز في تفسيره السيكولوجي لتلك العمليات التفاعلية مع ميد في تحليله وتفسيره لقضايا السلوك والتفاعل من خلال مفاهيم علم النفس. إذ يرى «أننا نشارك كل بدوره في عمليات التعاون، والصراع، والتوافق. إذ تأخذ تلك العمليات طابع الاستمرار في أي مكان وأي زمان. على عكس البناءات الاجتماعية والتي غالباً ما تختلف من مجتمع لآخر، ومن جماعة إلى أخرى داخل نطاق المجتمع الواحد، وقد أطلق ميد على تلك العمليات الاجتماعية التفاعلية. وأنها تكون أساسية في دراسة المجتمع وبعدها تأتي الواجهات البنائية له^(٢). وقد أوضح د. عاطف غيث بصدد التفسير السيكولوجي لتلك العمليات التفاعلية لدى هومانز، أن موقف التفاعل مع الآخرين يمثل عملية ايجابية تتحدد وفقاً لاتجاهات سلوكهم والتفسيرات المتعلقة بها. فقد يحدث أن يقوم الأفراد بتعديل أو تغيير استجاباتهم. أو ينظمون رغباتهم ومشاعرهم بحيث تكون متلائمة

(١) د. محمد عاطف غيث، الموقف النظري في علم الاجتماع المعاصر. الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٠، ص ١١٦.

(2) Jones, J. K. C., Op. Cit., P. 153.

مع المعايير والقيم التي يعتقدون فيها. ومن ثم يحدث التكيف والتوافق في موقف التفاعل^(١)

ويتضح مدى الاسهام الذي قدمه هومانز في مجال منهج علم الاجتماع من خلال اتجاهه السلوكي. إذا ما عرفنا أنه اعتمد على أكثر من طريقة منهجية في فهم ودراسة قضايا الوظيفة السيكولوجية. والتي وضعها لدراسة قضايا السلوك الانساني، والجماعات الصغيرة، والنسق الاجتماعي. فبجانب المنهج العضوي الذي استخدمه في دراسة قضايا التفاعل بين الشخص والآخر استخدم الملاحظة. هذا بالإضافة إلى استخدامه لمنهج القياس الاجتماعي ومنهج دراسة الحال، والتي يعتبر استخدامها من قبله اضافة الى مجال قضايا علم الاجتماع المنهجية من خلال اتجاهه النفسي.

ويبدو لنا بوضوح أن اتجاه هارولد جارفينكل السلوكي الاثنوميثودولوجي يمثل اسهاما جوهريا له في مجال قضايا علم الاجتماع المعاصر. فهو يتفق مع اتجاه التفاعلية الرمزية لدى العلماء الأمريكيين أمثال: كولي، وميد، وتوماس. اذ حاول من خلال اتجاهه النفسي الاثنوميثودولوجي تقديم اطار نظري، واستهدف من خلاله فهم وتفسير قضايا السلوك والتفاعل كما هي في الواقع الاجتماعي. واعتمد جارفينكل في ذلك التفسير على مفاهيم وأفكار نفسية مثل: الدوافع المتوافقة مع النظام الأخلاقي، والتي يمكن في ضوءها تفسير المعاني الرمزية الخاصة باللغة وقد أوضح روث ولاس والسون وولف في هذا الصدد أن جارفينكل يختلف مع علماء التفاعلية الرمزية الأمريكيين، في عدم اعتماده مثلهم على التصورات المسبقة. اذ ينظر علماء التفاعلية الرمزية الى المعنى من خلال التصورات المسبقة باعتبارها استنتاجا ذاتيا. أما جارفينكل من خلال اتجاهه النفسي الاثنوميثودولوجي فيرى أن كل فرد يسعى الى الوقوف على المعنى الموجود في عقول الآخرين من خلال التفاعل في الواقع.

(1) Homans . "Fundamental Social Process " Op. Cit.. P. 31.

كما قدم جارفينكل من خلال اتجاهه السلوكي الاثنوميثودولوجي اسهامات منهجية هامة، تعتبر اضافة في مجال قضايا علم الاجتماع المنهجية ، اذ تتضح تلك الاسهامات في استخدامه بجانب الملاحظات والمقابلات المفتوحة، المناهج التفسير الاستتاجي وأيضا منهج التجربة الاثنوميثودولوجية. وقد ارتبطت تلك المناهج باتجاهه النفسي الاثنوميثودولوجي. كما يمكن للباحث من خلالها دراسة الطرق التي بواسطتها يشكل الأفراد احساسهم بالواقع كما هو.^(١)

(2) Ruth A Wallaca & Allson, Wolf., Contemporary Sociological theory. op. cit., p. 279.

الباب الثالث

السلوكية الاجتماعية في قضايا

علم الاجتماع الألماني

الفصل السابع: السلوكية الاجتماعية في دراسات ماكس فيبر الاجتماعية

الفصل الثامن : السلوكية الاجتماعية في دراسات جورج زيمل :

الفصل التاسع : السلوكية الاجتماعية لدى كارل مانهايم

خاتمة الباب الثالث

الباب الثالث

السلوكية الاجتماعية في قضايا علم الاجتماع الألماني

إذا كان أهم ما يميز نمو النظرية السوسيولوجية في الربع الأول من القرن العشرين هو ذلك الاتجاه السيكلوجي، الذي سيطر على علم الاجتماع ونما في أقطار مختلفة. فقد كانت ألمانيا مجالا خصبا لسيادة هذا الاتجاه في مطلع القرن العشرين. وقد استعرضنا في «الباب الأول» حقيقة هذا الاتجاه السلوكي الاجتماعي وجذوره في تاريخ الفكر الاجتماعي. ثم لبيدات تطوره في علم الاجتماع من خلال اهتمامات رواده الأوائل في علم الاجتماع ثم في نطاق المدرستين الأمريكية والألمانية. وذلك في محاولة للوقوف على الموضوعات التي انشغلوا بها، والمناهج التي اعتمدوا عليها في تناول تلك الموضوعات. وفي «الباب الثاني» حاولنا تتبع مدى اهتمام علماء الاجتماع الأمريكيين للدراسة في هذا المجال. والاهتمام بموضوعاته والمناهج التي اعتمدوا عليها. وكان ذلك من خلال الأعمال التي انشغل بها كل من: كولي، وميد، وهوماتر، وجارفينكل. وأولينا اهتماما كبيرا في عرض وجهات النظر إلى مدى الاتفاق والاختلاف بين هؤلاء العلماء. وذلك بغرض الوصول في النهاية إلى مدى ما أسهمت به السلوكية الاجتماعية في مجال علم الاجتماع الأمريكي بوجه عام.

أما الآن فسوف نحاول بيان مدى اسهام هذا المدخل السلوكي في قضايا علم الاجتماع الألماني. وذلك من خلال الاهتمام بموضوعات شغلت فكر العلماء الألمان في مجال النظرية السوسيولوجية. على أية حال سوف نحاول أن نقف على بعد هذا الاسهام سواء في مجال موضوعات علم الاجتماع أو مناهجه أو نظريته. وذلك من خلال اهتمامات ثلاثة من العلماء الألمان كان لهم أثر بالغ في نمو وتطور هذا الاتجاه السلوكي في علم الاجتماع الألماني بوجه خاص. وفي النظرية السوسيولوجية بوجه عام وهم: ماكس فيبر Max Weber، جورج زيمما

George Simmel، كارل مانهايم Karl Mannheim.

ونرى من المفيد فى هذه المقدمة أن نلقى ضوءاً على المناخ الفكرى الذى ساد ألمانيا فى مطلع القرن العشرين، بحيث يمكن من خلاله فهم الاسهام الذى قدمه هذا الاتجاه النفسى فى علم الاجتماع «اذ ساد ألمانيا فى هذا الوقت الفلسفة الكانطية. والتي أكدت على وجود هوة واسعة لا يمكن تجاوزها بين عالم الظواهر المادية وعالم الروح الذى يتمثل قبل كل شئ فى القيم. كما سادها الفلسفة المثالية لدى دلتى التى وضعت تمييزاً منهجياً محدداً بين تلك العلوم الطبيعية والعلوم التى تعالج الفعل الإنسانى. ونظرت تلك الفلسفة المثالية إلى الميدان الاجتماعى على أنه ميدان تاريخى وثقافى، لا يصلح للقوانين التعميمية والتي لا توجد إلا فى العلوم الطبيعية»^(١).

ولقد بدأ علماء الاجتماع النفسى الألمانى فى المقابل من هذا الاتجاه النظرى السائد «بؤكدون على أن هناك صلة ضرورية بين كل العلوم طبيعىة كانت أو روحية»^(٢) وحاولوا تقديم اطارات سوسيولوجية يمكن من خلالها تفسير الظواهر سواء كانت طبيعىة أو ظواهر تختص بالفعل الإنسانى وما يقف خلفه من دوافع وقيم. وعلى سبيل المثال : اعتقد فيبر أن علم الاجتماع يجب أن يبحث عن تفسير سببى للفعل الإنسانى يكون قادراً على معرفة غاياته. كما يجب أن يبرز بعد آخر هو بعد الفهم الذى يقوم على التعاطف مع الآخرين وسير أغوارهم. وأيضاً الاهتمام بدراسة الظواهر الاجتماعية من الداخل، كما هو فى دراستنا للسلوك أو الظواهر، على أنها أشياء من الخارج. وبالتالي جاء التفكير فى تفسير السلوك الإنسانى والظواهر الاجتماعية والعمليات التاريخية الكبرى^(٣)

وبوجه عام تمتد بدايات هذا الاتجاه السلوكى لدى علماء الاجتماع الألمان إلى فلسفة هوسرل ومنهجه الفينومينولوجى وتلميذه، ماكس شيلر. اذ حاولت تلك

(1) Weber, Max, Theory of Social and Economic Organization. Op. Cit., P. 290.

(2) Ibid. "Introduction" by T. Parsons., P.10.

(٣) محمد على محمد، رواد علم الاجتماع «قراءة جديدة للفكر الاجتماعى الغربى» الاسكندرية : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٦ ، ص ٢٠٩ .

الفلسفة فهم الفرد والظواهر في ضوء المعاني التي تكمن خلفها، وأيضاً من خلال الاتجاهات السائدة في الظروف المجتمعية. واستخدام ماكس شيلر المنهج الفينومينولوجي ليقدم من خلاله نظرية متطورة في فهم العواطف - وقد تابع جورج زيمل تلك المدرسة الفينومينولوجية من خلال اتجاهه النفسى. ورأى ضرورة فهم العلاقات المجتمعية والظواهر في ضوء المعاني التي تكمن خلفها. واعتبر أن تلك العلاقات المجتمعية تمثل كل بنائى يتكون من العمليات التفاعلية والانسانية، والاتجاهات المتبادلة بين الأفراد^(١).

كما وجد هذا الاتجاه السلوكى جذوره في تاريخ الفكر الاجتماعى الألمانى، تحت ما عرف باسم سيكولوجية الشعوب، فقد تحدث هيجيل عن الروح الوطنية أى روح الشعب، واهتم فى كتابة فلسفة التاريخ بالروح الخاصة بكل الشعب. كما اعتبر هاربات ولازوراس أن علم النفس يعد نوعاً من علم حركة الروح. بمعنى أن التصورات الجمعية تمثل مراكز القوى العاملة فى إطار هذه الحركة^(٢).

(1) Salomon, Albert, "German Sociology" In Georges, Gurvitch & Wilbert E. Moore, (eds) twentieth century Sociology, Op. Cit., P. 609.

(٢) ارمان كوفيليه، مرجع سابق، ص ٥٢.

الفصل السابع

السلوكية الاجتماعية لدى ماكس فيبر

- ٢- الاتجاه الذاتى فى منهج ماكس فيبر
- ٣- النموذج المثالى كأداة منهجية لتحقيق الفهم السيكلوجى بين روح البروتستانتية والرأسمالية الحديثة .
- ٤- التفسير السيكلوجى للفاعل الاجتماعى عند فيبر .
- ٥- سيكلوجية نظرية القيمة فى علم الاجتماع عند فيبر .
- ٦- خاتمة .

الفصل السابع

السلوكية الاجتماعية في دراسات ماكس فيبر الاجتماعية MAX WEBER

احتل ماكس فيبر مكانة بارزة على مسرح السياسة الألماني. ولعب دورا بارزا في الاعداد للمذكرة الخاصة بمجرى الحرب الألمانية وقدمت إلى مؤتمر السلاح بباريس. كما اشترك في اللجنة التي قدمت مشروع دستور فايمار. وكانت له اهتمامات عقلية اربطت بموجات وتيارات عقلية في ذلك الوقت. فقد اهتم فيبر بجانب دراسة البعد التاريخي للنظم القانونية والاقتصادية. بإمكانية تحقيق الدراسة الامبريقية للأشكال الاقتصادية والاجتماعية. وجاء أول تقدم في تفكيره من خلال اهتمامه بتكوين الرأسمالية في المجتمع الغربي وانتهائه بمناقضة الاتجاه الماركسي. وتأكيد على الدور الهام الذي تلعبه الأفكار في تحقيق الفهم الداخلي للعمليات التاريخية. وقد استند فيبر في ذلك إلى أن الديانة البروتستانتية تمثل جوهر تكوين الرأسمالية الحديثة. وأصبحت هذه القضية لديه تمثل نقطة بداية للعديد من الدراسات الامبريقية المقارنة بين الحركات الدينية والنظام الاقتصادي. والتي جمعت في ثلاثة مؤلفات رغم عدم اكتمالها^(٢).

وسوف نحاول فيما يلي الوقوف على الاتجاه النفسى لدى ماكس فيبر. وذلك

ولد ماكس فيبر في عام (١٨٦٤ - ١٩٢٠) وجاء من اكثر الطبقات ثقافة عالية في ألمانيا، وهي الطبقة العليا، ودرس القانون في برلين وحصل على وظيفة في جامعة برلين في وقت مبكر. ثم عين في وظيفة أستاذ للاقتصاديات في جامعة فرايبورج وأنقل إلى وظيفة مماثلة بجامعة هايدلبرج، وبالرغم من معاناته فيبر للعديد من الأمراض الصحية التي أعفته من أستاذيته وأقعدته عن الانتاج لمدة أربع سنوات. فقد عاش بعد هذه الفترة أنحبس أيام حياته كأستاذ متفرغ في مدينة انغاليبرج بها يد لبرج. وفي الفترة الأخيرة من الحرب العالمية قبل وظيفة غير دائمة للتدريس في جامعة فينا. ثم وظيفة أستاذ كرسى للاقتصاد بجامعة ميونيخ. وفي عام ١٩١٩م فاجأه المرض ومات بالفومونيا في نصف العام الدراسي الأخير، وهو في أوج قوته العقلية.

(1) Parson, Ralcot, His Introduction of the theory of Social and Economic Organization " (by) Max Weber., Op. Cit., PP. 4 - 5 .

(2) Parsons, Talcot, Op. Cit., :P. 5 -6.

من خلال تصوره السوسولوجي الذي يعتبر محاولة منه لتحقيق أكبر قدر من التوافق بين خصائص العلوم الطبيعية والروحية. وقصد من خلاله إلى فهم وتفسير السلوك الانساني والظواهر الاجتماعية والاقتصادية إذا استهدف فيبر أن ينشئ نسقا سوسولوجية يحتفظ بأكبر قدر من العناصر القيمة التي ينطوي عليها عالمي المادة والروح. ومن ثم بالرغم من تسليمه منذ البداية بأن العلوم الاجتماعية تختلف عن العلوم الطبيعية نظرا لأن اهتمامات العلوم الطبيعية تتجه نحو الضبط، بينما تتجه اهتمامات العلوم الاجتماعية نحو التقويم. فلقد رأى أن الثقافة بهذا المفهوم تعد قيمة في ذاتها. كما تصبح الوقائع الامبريقية بالنسبة لنا ثقافة لأننا نربطها بالقيم. وتلك المعرفة تعد موجهة لضبط السلوك الواقعي^(١). ومن ثم اشتملت مناقشتنا للسلوك الاجتماعية في في درايات ماكس فيبر المنهجية والنظرية على ما يلي :

أولا استعراض لهذا الاتجاه الذاتي في المنهج الذي استخدمه. وثانيا - مدى استخدامه للنموذج المثالي كأداة منهجية لتحقيق الفهم السيكولوجي بين كل من روح البروتستانتية والرأسمالية الحديثة. ثالثا - نستعرض لاتجاهه السلوكي في دراسة الفعل الاجتماعي. وكما محاولة لايضاح الفهم السيكولوجي للفعل الاجتماعي في دراساته الاجتماعية. ثم أخيرا أن نستعرض لسيكولوجية نظرية القيمة في علم الاجتماع لدى فيبر .

٢- الاتجاه الذاتي في منهج ماكس فيبر :

قدم ماكس فيبر نسقه السوسولوجي مرتبطا باطارات منهجية أعتمد عليها في دراسة العديد من القضايا النظرية. والتي تستند إلى شروط وجهة النظر الذاتية Subjective view . وتمثل تلك الاطارات المنهجية لدى فيبر في استخدامه للنموذج المثالي في معالجة العديد من القضايا، وتحديد العلاقة بين علم الاجتماع وعلم النفس. واعتماده أيضا على تصور منهجي، جديد يتمثل في محاولة التوفيق بين الواجهة الذاتية المثالية للسلوك الاجتماعي والظواهر السوسيوثقافية وبين الواجهة الموضوعية للعلوم الطبيعية^(٢).

(١) نيقولا تيماشيف، مرجع سابق، ص ص ٢٥٣ - ٢٥٤ .

(2) Parsons , Talcot, his Introduction of the theory of Social and Economic Organization. Op. Cit., P. 10.

وتبدو لنا أهمية هذا الاطار المنهجي الجديد لدى فيبر والذي يتمثل فى منهج الفهم التفسيرى. إذا ما عرفنا أنه يهدف من خلاله إلى فهم وتفسير السلوك أو الأفعال الانسانية والظواهر الاجتماعية والاقتصادية. وأيضاً تحقيق أكبر قدر من التوافق بين خصائص العلوم الطبيعية والروحية.

ويرتبط منهج الفهم على مستوى المعنى لدى فيبر لوسيلتين منهجيتين هما : الفهم التفسيرى والذي يهدف من خلال الوقوف على المعنى الواقعى فى سلوك الأفراد والجماعات. ثم يستكمله بمحاولة فهم هذا السلوك فهما داخليا بواسطة الوقوف على المعانى الذاتية المرتبطة بتلك الأفعال من خلال منهج التجربة التخيلية. وأوضح أن الأفكار والدوافع والمعانى دورا مهما فى تكوين منهج الفهم السيكلوجى لديه^(١). وقد أورد فيبر فى هذا الصدد «أن منهج الفهم التفسيرى يحقق أعلى مستوى فى فهم الظواهر الاجتماعية على مستويين : الأول - الفهم السببى الملائم. والثانى - هو الفهم الملائم ذو المعنى»^(٢).

وإذا كان ماكس فيبر قد سعى جاهدا من خلال منهجه للفهم التفسيرى إلى أن يحقق التوافق بين الجوانب الموضوعية والذاتية فى دراسته للسلوك أو الفعل الانسانى والظواهر السوسيوثقافية. فإنه يمكننا القول فى هذا الصدد أن فيبر فى اطار منهجه للفهم النفسى والذي اتخذ لديه واجهة تفسيرية. قد استخدم النماذج المثالية واعتبرها أداة منهجية يمكن من خلالها أن تحقق هذا الفهم التفسيرى النفسى.

وفى هذا الصدد يرى فيبر «أن تلك التصورات التصميمية أو نماذجه المثالية للفعل أو الظواهر تمكنا من معالجة المشكلات المتعلقة بعقلانية أو منطقية الفعل. كما يمكننا تأكيد القضية التى ثبتت العلاقة السببية فى أى مجال علمى على النحو التالى : أولا - وصف الظاهرة وتفسيرها فى حدود الأطر التصورية المجردة أو

(1) Kinloch, G.C., Op. Cit. P. 141.

(٢) نيقولا نيماشيف، مرجع سابق ، ص ٢٥٥.

المرجعية، وانتقاء الحقائق ومعالجتها بشكل مرتبط. ثانيا - تصميم أو تجميع تفاصيل الحقائق وشمولها تحت مقولات نظرية معممة، والتي يمكن أن تجعل من المقارنة أمرا ممكنا. ثالثا - وصف وتحليل هذه البيانات بمقارنتها مع واحدة أو أكثر من الحالات الواقعية أو الافتراضية، والتي يشتملها إطار التعميم وكما أن هناك مستويين للمعنى الذى تأخذه الظاهرة فى ضوء دراسته بواسطة النماذج المثالية هما : المعنى الواقعى الذى يخص الفرد الفاعل . والمعنى النظرى الذى يمثل النموذج للمعنى. ويتجه هذا المعنى نحو المتطلبات المنطقية أو العقلية لاثبات الفكرة، ويكون مشتملا على الحقيقة الفردية (١).

كما أوضح جون ريكس John Rex أن استخدام ماكس فير للنموذج المثالى كأداة منهجية كان فى مجال المقارنات المتعلقة بالدراسات التاريخية. وأيضاً فى تشكيل التصورات المتعلقة بالبناء الاجتماعى، واعطاء بعض من التوافق الاجتماعى والسياسى لعلم الاجتماع فى دراسة للأشكال الاجتماعية. وذلك باعتبار أن البحث من خلالها يكون أكثر اهتماما بالمشكلات العامة والبحث الاجتماعى فى مجال القيم. ومن هنا جاء استخدام فير لتلك النماذج المثالية كأدوات منهجية فى دراساته التاريخية المقارنة وفى إطار منهجه للفهم المشتمل على الفهم الموضوعى بجانب التوافق القيمى. إذ لا يكون هناك تعارض فى تحليله للتوافق القيمى مع الفهم الموضوعى للتاريخ من خلال استخدامه للواجهات المنطقية للنماذج المثالية كأدوات منهجية موضوعية (٢).

وفى مجال استخدام فير للنماذج المثالية كأداة منهجية فى إطار منهجه للفهم السيكلولوجى التفسيرى. كانت هناك مشكلات منهجية ارتبطت باستخدامه للنماذج المثالية الأربعة التى قدمها عن الفعل الاجتماعى. والتي نفتقر إلى

(1) Parsons, Talact, his Introduction of theory of Social and Economic Organization", Op. Cit., PP. 11-12.

(2) Rex, John., "Topology and objectivity" In Sahay, (ed) Max weber and Modern Sociology. Lodon : Rolledge & Kegan Paul, 1971 . PP. 18 -19.

الترتيب، إذا ما قارناها بالنماذج المثالية الخاصة بالعلاقات الاجتماعية. والتي تميزت ببنائيتها وشمولييتها وقربها لنمط التفكير الملائم لتطور نسق النظرية السوسيولوجية. وكانت أول هذه المشكلات هي مشكلة العقلانية المرتبطة بالفعل الاجتماعي. ولقد نظر فيبر إلى الفعل باعتباره يكون عقليا من ناحيتين: الأولى أن يكون متجه إلى هدف واضح مقنن، وإلى تثبيت القيم المقننة ومركبة منطقيا. ثانيا - أن تكون المعاني المختارة للفعل العلمي متوافقة مع ادراك الهدف بمعنى أن هذه الصعوبة المنهجية تمثلت في امكانية الربط بين العقلانية وبين الفردية الانسانية باعتبارها فاعلا. في اطار اهتمام فيبر المنهجي الخاص بأنماط الفعل الاجتماعي⁽¹⁾.

ولقد أوضح بارسونز في هذا الصدد أن عدم استطاعة فيبر تقديم تحليلات وظيفية لأنماطه المثالية الأربعة للفعل الاجتماعي أو السلوك الاجتماعي في ضوء تصميم نسقي، أما يرجع إلى أنه لم يدرك أن نقطة البداية يجب أن تكون من الأصول الذاتية. والتي يمكن أن تطور دائرة النسق الاجتماعي للفعل. وقد تنبه فيبر إلى هذه الملاحظة في اقامة نسقه الاجتماعي الخاص بالنماذج المثالية لنمط العلاقات الاجتماعية. إذ منح الدوافع النفسية الذاتية دورها الرئيسي في التحليلات البنائية الوظيفية للأنساق الاجتماعية. ومن هنا يأتي خصب تحليلات النموذج المثالي على مستوى السلوك النسقي وتغيره، وأيضا شرح الظواهر الاجتماعية في ضوء القوانين النفسية المتعلقة بالغريزة والدوافع⁽²⁾.

ولقد توصل فيبر عندما حاول انتهاء عدد من مشكلاته المنهجية والمتعلقة بادخال الأسس البنائية في تكوين نموذجه المثالي عن الفعل أو السلوك الاجتماعي، إلى أن الفاعل يشكل وحدة أنساق الفعل وواجهته المرجعية على مستوى أنماط الفعل أو البناء الاجتماعي. وبالتالي رأى يبعث من الاحساس أن علم النفس يشكل جزءا ضروريا في نظريته عن الفعل الاجتماعي⁽³⁾. وقد أورد

(1) Parsons, "his Introduction of the theory of Social and Economic Organization. Op. Cit., PP. 14 - 16.

(2) Parsons, Op. Ibid.: PP. 19 - 24.

(3) Ibid. P. 26

بارسونز في هذا الصدد «أن اخفاق فيبر في الوصول إلى المستوى التنظيمي الخاص بالنماذج المثالية التي قدمها للفعل الاجتماعي، كان يعود إلى مشكلاته المنهجية التي يمكن ارجاعها إلى اثنين من الأمور الشخصية لديه وهي : أولا - اهتماماته الامبريقية التي كانت من القوة بحيث امتدت باتساع الاختلافات التنظيمية، وسيكولوجيته في أمور ذات اهتمام شخصي وعلى قدر كبير من الأهمية. ولكنها لم تكن على مستوى التنظيم البنائي للفعل الاجتماعي. ثانيا- عدم حصوله إلا على مساعدة ضئيلة من علم النفس في وقته، إذ اهتم السيكلوجيون بالذات الفردية. ولكن ليس على المستوى الوظيفي في التحليل^(١).

وقد كانت نقطة البداية في اتجاه نظرية فيبر باتساع نحو علم النفس متمثلة في استخدامه للمصادر الحديثة في علم النفس الحديث. بحيث أمكنه القيام بتحليلات كاملة أكثر صلاحية في تحليل الواقع. وقد خفف هذا الاتجاه من حدة مشكلاته المنهجية، بل أصبحت معالجات فيبر للعقلانية في ارتباطها بالأنماط المثالية للفعل متفقة مع اتجاه علم النفس الحديث، وذلك على اعتبار أن تأثير العاطفة كاملة أكثر صلاحية في تحليل الواقع. وقد خفف هذا الاتجاه من حدة مشكلاته المنهجية، بل أصبحت معالجات فيبر للعقلانية في ارتباطها بالأنماط المثالية للفعل متفقة مع اتجاه علم النفس الحديث، وذلك على اعتبار أن تأثير العاطفة لا يعد سببا في البعد عن القواعد العقلانية. وكانت تلك النقطة حدا في الربط بين تأثير العواطف وبين تحقيق أسس القرابة مع القواعد العقلية للفعل. وقد انعكس ذلك على مستوى تحليل فيبر. وأيضا في عدم تعارض المقولات الذاتية المتعلقة بإدراك المقصود من الدافع مع الاتجاهات العقلية داخل اطار أدواته المنهجية المتمثلة في النموذج المثالي للفعل^(٢).

(1) Parsons , Talcot , his Introduction of the theory of Social and Economic Organization," Op. Cit., P. 27.

(2) Ibid., P. 28 .

٣- النموذج المثالي كأداة منهجية لفهم العلاقة السيكولوجية بين الروح البروتستانتية والرأسمالية الحديثة :

أشار آرون ريموند إلى مكونات الأنماط المثالية لدى فيبر، وإلى استخدامها باعتبارها تنظيمات دقيقة لها علاقات تاريخية متداخلة بالأحداث التي تحيط بها. كما نظر إلى بنائها باعتبارها محاولة للتعبير عن كل النظم العلمية التي تتقدم بطريقة عقلانية. وانتهى آرون ريموند إلى أن الصعوبات التي واجهت تكوين الأنماط المثالية لدى فيبر يرجع إلى استخدامه لها كتصورات تعميمية لجميع العلوم الثقافية. هذا بالإضافة إلى استخدامه الخاص لها والذي يمكن تحديده بثلاثة أنواع على النحو التالي : أولاً - الأنماط المثالية التي تتميز بالعناصر المجردة للواقع التاريخي وتشمل أنماط : البيروقراطية، والاقطاع، وأنماط السيطرة الثلاث، ثم أنماط الفعل أو السلوك. ثانياً - الأنماط المثالية التي تشتمل على البناءات العقلية الجديدة بصفة خاصة، كما هو في أنماط السلوك الاقتصادي. ثالثاً - الأنماط المثالية ذات الخصوصات التاريخية مثل : الرأسمالية في المدينة الغربية بحيث يركز فيبر في هذا النوع من الأنماط على إمكانية إعادة بناء جزئيات هذه التصورات من خلال أنواع معينة من السمات التاريخية^(١).

وفي إطار هذا النوع الأخير سوف نحاول أن نقدم تحليل سيكولوجي لاستخدام فيبر للنمط المثالي للرأسمالية في المدينة الغربية كأداة منهجية لتحقيق منهجه في الفهم السيكولوجي التفسيري. «فيما يختص بفهم العلاقة بين روح البروتستانتية والرأسمالية الحديثة في المجتمعات الغربية فهما سيكولوجيا»^(٢). ولقد أوضح جيدنز في هذا الصدد أن تحليلات فيبر لتلك العلاقة تظهر أهمية النموذج المثالي كتصورات مجردة تماماً، وتوضح علاقة الديانة البروتستانتية بالرأسمالية.

(1) Raymond, Aron, *Maiss Curents in Sociological theory* New York : Pelican Books, 1976. P. 206 - 210.

(2) Giddens, A., *Capitalism and Modern Sociology*. New York : Cambridge University Press, 1971 . P. 171.

وذلك على اعتبار أنه لا يتشكل من فروض. ولكنه مجرد تصورات لمفاهيم مجردة تساعد في الوصف والتفسير عند اللجوء إلى التحليل المبريقي في دراسة أى ظاهرة أو مشكلة اجتماعية^(١).

وما يدعم أهمية الدراسة في إثبات تلك العلاقة ما أورده تويني بتساؤله عما يجعل من الممكن تطوير الحضارة الرأسمالية؟ وكانت اجابته محددة بالظروف السيكولوجية Psychological Conditions. تلك الظروف التي أوضحها فيبر بأن الرأسمالية في احساس كل الأفراد هي مشروع يشتمل على الضبط لمصادر رأسمال المال الواسعة والانتاج الوفير. بمعنى أنها كنسق اقتصادي تقوم على الكسب المشروع الواسع الحر، واضفاء طابعها على كل واجهة المجتمع. إلا أن ظهور الأشكال الجديدة للمشاريع الاقتصادية في اطار الرأسمالية - وكنتيجة لازمت التغيرات في طبيعة البيئة الاقتصادية - قد وجدت مصادرها في الثورة الدينية في القرن التاسع عشر^(٢).

ويرى تويني أن فيبر في اجابته السابقة يؤكد على العلاقة بين الثورة الدينية والتقدم الاقتصادي. باعتبارها تتمثل بشكل خاص في تأثير الديانة الكالفينية على القوى الاقتصادية المختلفة. وذلك من خلال الجزء الذي تلعبه الحركات الدينية في ظروف أو حالات مفضلة لنموذج أو نمط جديد من الحضارة الاقتصادية^(٣). وقد قال فيبر في هذا الصدد «أن التركيز على الكالفينية ينتج روح الرأسمالية، وكلاهما سوف يكون متعاد لا في القبول والاستحسان. ويمكن النظر إليهما على اعتبار أن لهما تأثيرات مختلفة على التغيرات في مجال التنظيم الاقتصادي والبناء الاجتماعي»^(٤).

(1) Giddens, A., Capitalism and Modern Sociology, Ibid., PP. 171 - 172.

(2) Tawney , R.H., "his Inroduction to the protestant Ethic and the spirit of Capitalism " by Max Weber., (trans by) T. Pasons., London University books , 1974. PP. B.I.

(3) Ibid . PP. 6 - 7.

(4) Ibid-. P. 7.

وفى مجال تحديد السمات السيكولوجية للرأسمالية الحديثة لدى فيبر أورد بارسونز أن مفهوم الرأسمالية لدى ماركس، وسومبارت يعنى «أنها نسق أو نظام للفائدة يجعل مسعى الأفراد مرتبط بعلاقات السوق أو على مستوى الكسب»^(١). كما أوضح أن هذا التصور يختلف عن مفهوم الرأسمالية السائد فى المجتمعات الغربية، ولدى ماكس فيبر الذى يرى أنها لا تعد تعبيرا عن الشراة والكسب، لأن متابعة الكسب فى هذه المجتمعات يكون من خلال التنظيم العقلانى للعمل الحر، والذى يميز مستقبل العقلية البروجوازية الرأسمالية وأطلق عليها فيبر لفظ البيروقراطية، تلك التى تنتج الاقدام وتشتمل على درجة عالية من التنظيم والصلاحيه للكسب المدفوع. كما تختلف تلك البيروقراطية فى الوقت نفسه عن نظام المفارمين الرأسماليين. والذى لا يحمل أى تنظيم عقلانى ولا أى التزام خلقى^(٢).

ولقد حلل بارسونز تلك السمات السيكولوجية التى تربط بين البروتستانتية والرأسمالية الحديثة فى اتجاه ماكس فيبر النظرى على الوجه التالى : أولا - بعد أن انتهى فيبر من وصفه الهام لظاهرة الرأسمالية الحديثة انتقل للإشارة إلى المشاركة الامبريقية لها فى اطار مجموعة القيم. إذ حاول تشكيل روحها منطقيا ووضعيا على أنها تشكل من مجموعة من الاتجاهات العقلية المتجهة نحو الأنشطة الاقتصادية. ثانيا- أن العلاقات العميقة بين تلك الاتجاهات العقلية المتجهة نحو الأنشطة الاقتصادية تشكل حقائق متخصصة. وتنبع من اطار الديانات المصاحبة بين الجماعات السكانية فى المانيا. ثالثا - وجد فيبر أن تلك الاتجاهات الموجودة فى روح الرأسمالية الغربية الحديثة تؤدى إلى تأسيس علاقة شاملة تتناسب مع مستوى المعنى فى أخلاق البروتستانتية. رابعا- أن فيبر أرسى هذا التألف السيكولوجى بين الظاهرتين من خلال عمليات النقل التاريخية، وأيضا فى اطار

(1) Parsons , Talcot , The Structure of Social action New York : The free press of Glenco, 1961, P. 504.

(2) Parsons , Talcot , Ibid.; PP. 504 - 505 .

وظيفة الديانات المتمثلة في التأييد الأخلاقي لأنشطة الكسب العادلة. بالإضافة إلى وجود الدافع الخاص بتلك الأنشطة في إطار الأفكار البروتستانتية، وما ينتج عنها من اهتمام الديانات بالمعتقدات. ولم يعثر فيبر على أى إثبات مباشر يدعم أن الأفكار والاتجاهات الدينية تستتج من الأدوار المادية^(١).

خامسا - انتهى إلى عدم الأخذ بمنهج الموافقة والاختلاف في بدايات الاستقرائية للكشف عن العلاقات السببية، ولكنه اتجه بدراساته في طموح إلى الدراسات المقارنة للعلاقة بين الظاهرتين للاجابة على السؤال الذى يعنى : لماذا ظهرت الرأسمالية البرجوازية العقلانية كظاهرة مهيمنة فقط على الغرب الحديث؟ وما هى العوامل التى تؤدي إلى فشلها في الظهور في ثقافات أخرى ؟ وقد أرجعت اجابة فيبر ذلك الفشل الى الدراسات المستندة اساسا إلى شروط الماركسية التى تقوم على البواعث المادية. فى حين أن كل ثقافة توجد فيها الأخلاق الاقتصادية النابعة من الديانة التقليدية السائدة تعنى مباشرة تحقيق التطور نحو أشكال الرأسمالية البرجوازية العقلية. ويمثل ذلك حالات فشل الرأسمالية البرجوازية العقلانية فى الأوقات المبكرة والحديثة ، فى الهند والصين حيث لا توجد الأخلاق الاقتصادية النابعة من الديانة^(٢). ويمكن لنا أن نتفق مع بارسونز فى تأكيده العلاقة الوظيفية السيكلوجية بين البروتستانتية والرأسمالية الحديثة لدى فيبر. وأن الظواهر المادية هى التى تخضع لتأثير القوى الدينية وليس العكس. وهذا يعنى أن مواد الاختلاف الرئيسية بين الحالتين تكمن فى مستوى القيم . ويؤكد الدكتور محمد أحمد يومى فى كتابة علم الاجتماع الدينى أن للحركات الدينية دورا هاما فى بيان عدم التناقض بين ما يؤكده الدين وما يؤكده المذاهب العلمانية الحديثة. وذلك من خلال قيام تلك الحركات الدينية بترجمة الأفكار والقيم الدينية فى سلوك علمى يشكل معظم جوانب الحياة الاجتماعية السياسية

(1) Parsons, T., The Structure of Social action. Op. Cit. PP. 511 - 512.

(2) Ibid . PP. 512 - 513 .

والاقتصادية والتشريعية^(١). بل أن الأنشطة التي تنبع من توجيه قيمى دينى قد يؤثر بصورة أقوى فى نفوس من يقومون بها، ويحدث نوعاً من الرضا الذى يؤدى إلى تحقيق الانجاز والتنمية المنشودة^(٢).

ولقد أوضح فيبر تلك الروح المتطورة للرأسمالية والمتوافقة مع التطور العقلى للبروتستانتية. والتي تتضح فى اعتبار أن تلك العقلانية الخاصة بالبروتستانتية تشكل الروح التي عن طريقها تصبح علاقة الرجل بعمله واجب فى ذاته. كما يعتبر أيضاً ذلك الواجب أساساً جوهرياً فى فهم الرأسمالية، وذو قيمة كبيرة أيضاً فى فهم روحها المتطورة^(٣). وفى هذا الصدد أوضح بارسونز أن ما سماه فيبر بروح الرأسمالية ويشتمل على مجموعة الاتجاهات نحو كسب النقود والأنشطة المرتبطة بها- والتي ينظر اليه على أنه شر ضرورى. فهو يمثل هدفاً أخلاقياً فى ذاته. ويعنى أننا لكى نكسب نقوداً فهذا يعتبر التزاماً أخلاقياً يتجه بالكسب ليس للحاجة فقط، ولكن نحو الكسب المدفوع تعبير حدود. ويتمشى مع الواجهة العقلانية التي اهتم بها فيبر من خلال ربط الواجب الأخلاقى بذاته^(٤).

وفى إطار تلك الروح المتطورة للرأسمالية والمتوافقة مع روح البروتستانتية لدى فيبر. ويضيف بارسونز أن واجهة الكسب لديه تتخذ واجهة سيكولوجية من خلال الاعتقاد فى قيمة الكسب لذاته، وكواجب أخلاقى ينبع من مصدر دينى أخلاقى. ولا تعبر فى جوهرها عن الغريزة السيكولوجية للكسب. وبالتالي فهذا الكسب الذى يمثل واجب أخلاقى فى ذاته للرأسمالية الحديثة يعتبر واجهة نقدية لهيئتها التقليدية والتي تتمثل فى الاتجاه نحو الكسب الشره الغير منظم، والذي ينبع من

(١) محمد أحمد بيومى، علم الاجتماع الدينى، الاستكثارية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٥، ص ٤٧٧ - ٤٧٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٧٨.

(3) Max Weber, The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism. (trans by) Parsons., London : University Books, 1974 P. 77.

(4) Parsons , Talcot, The Structured of Soccial Action. Op. Cit., PP. 513 - 514.

روح المغامرة وليس العقلانية، ويرى بارسونز أن هذا الاتجاه أن كان سيطر بهذا المعنى فى أوقات غالبية وأماكن كثيرة، فلابه يساير الطبيعة الانسانية التى عارضها فيبر فى تفسيراته لكل قوة^(١).

ولقد أشار ماكس فيبر فى تحليلاته المتعددة بصدد التأثير السيكولوجى للأخلاق البروتستانتية وأثارها المصاحبة فى المجتمع الغربى إلى أن هذا التأثير لم يكن فى الوقت الحاضر فقط . بل كان فى أصول تاريخية منذ كانت الأخلاق البروتستانتية ذات تأثير بارز على تطور الرأسمالية منذ القرن التاسع عشر. وأيضاً على أنماط التجارة التقليدية وتقدمها. إذ ظهرت فى هذا الصدد الأفكار الكالفينية ذات المعتقدات البروتستانتية على الاقتصاد والعقلانية ككل فى مواجهة سلطان الكنيسة الكاثوليكية وحكمها. وقد أوضح جيدنز فى هذا الاهتمام أن تحليلات فيبر للديانات واهتمامه بإظهار تأثير الأخلاق البروتستانتية على روح الرأسمالية كانت تشير إلى اتجاهين : الأول - يهتم بالآثار التاريخية لتأثير الأخلاق فى جميع مجالات الحياة وهذا الجانب العام. والثانى - يشير إلى توضيح النتائج الاجتماعية والنفسية التى تفسر أفعال الأفراد على ضوء مدى تأثير تلك الأخلاق البروتستانتية^(٢).

كما أشار جيدنز أيضاً فى نطاق التأثير الذى تحدثه أخلاق الديانة البروتستانتية فى نمو وتطور ظاهرة الرأسمالية الحديثة - وذلك من خلال اهتمامات فيبر بالنتائج العقلانية والتوافق القيمي - إلى أن هناك بعض من الصعوبات تتعلق بهذا التأثير الذى تمارسه أخلاق البروتستانتية، نظراً لاشتماله على العديد من العوامل الكثيرة المتداخلة. والتى تلعب دوراً مهماً فى إبراز هذا التأثير بجانب العوامل التقويمية الذاتية^(٣). وفى هذا الصدد يرى فيبر أن العقلانية مثلاً لا توصف بأنها عقلانية بشكل نهائى من ناحية دخول بعض المؤثرات السيكولوجية فقط - والتى

(1) Parsons, T., The Structure of Social Action Op. Cit., P. 516

(2) Giddens, Ibid.; P. 124 .

(3) Giddens, A., Ibid.; P. 183.

تتعلق بعناصر المعتقدات الدينية في العملية العقلانية - بل أنها تعتمد على قوى أخرى تكون غير عقلانية اطلاقاً تتمثل في العناصر الكاريزمية وقواها الغير عقلانية^(١).

وينتهي جيدنز في إيضاحه لفكرة العقلانية السيكولوجية لدى فيبر والمتضمنة في أخلاق البروتستانتية إلى «أن فكرة فيبر عن العقلانية : عملياتها وأسباب ظهورها ونتائجها ليست مجرد ظاهرة تاريخية. ولكنها تعد شكلاً من أشكال المعرفة يظهر في إطار ثقافة المجتمع ككل. ثم انتقل بها إلى مستوى المعنى في إطار علاقتها بالمعتقدات الدينية. واعتبر أن تلك العقلانية نمط ثقافي مميز يؤثر في العلاقات والقوى المجتمعية الأخرى. ولذلك كانت تحليلاته للعلاقات الاجتماعية تهتم بربطها في سلسلة متشابكة من الروابط العقلانية من كافة الجوانب. حتي أصبح هذا النمط الثقافي للعقلانية عنصراً موجهاً مباشراً في تقدم الغرب»^(٢).

ومما سبق يمكن القول أن ماكس فيبر إذا كان أقام نماذجه المثالية كأطر تصورية مجردة، واستخدمها كأدوات منهجية لتحقيق الفهم السيكولوجي في دراسة وفهم أنماط الفعل أو السلوك، والعلاقات، والظواهر السوسيوثقافية في إطار ثقافات معينة. وأن هذه الأطر التصورية لم تبدأ من فراغ، ولكنها بدأت من الواقع بهدف استخدامها لدراسة وفهم هذا الواقع الاجتماعي والثقافي. وقد جاء هذا الاستخدام في نطاق «نسقه السوسولوجي الذي حاول إقامته مستعيناً بالامكانيات المادية التي تقدمها العلوم الطبيعية ، وأيضاً الامكانيات القيمة التي تقدمها العلوم الروحية»^(٣).

ويمكن القول أن فيبر في عرضه لقضايا نسقه السوسولوجي هذا اعتمد على منهج الفهم التفسيري السيكولوجي. وحاول من خلاله أن يحقق أعلى مستوى من الفهم السببي الملائم ثم على مستوى المعنى * . وقد اعتمد فيبر في منهجه هذا الفهم السيكولوجي على أدوات منهجية تصورية مجردة. واستطاع من خلال

(1) Giddens, A., Op. Cit., P. 233.PP. 44 - 48

(2) Ibid ., PP. 233.

(٣) نيقولا كيماشيف ، مرجع سابق ، ص ٢٥٥ .

(*) وسوف نتناول مستويات فهم المعنى في الفقرة القادمة.

تلك النماذج التصورية أن يثبت العلاقة السيكولوجية بين روح البرونستانتية والرأسمالية الحديثة . وناقش القضية الماركسية فيما ذهبت اليه من أن كل الظواهر الثقافية بما في ذلك الدين تخضع لتأثير القوى الاقتصادية.

٤- الفهم السيكولوجي للفعل الاجتماعي عند ماكس فيبر :

ترتبطا على استعراض المداخل المنهجية التي اعتمد عليها ماكس فيبر في موضوعات دراسته، يتضح أنه اتجه إلى تحقيق أعلى مستوى في فهم العلاقات والظواهر والأفعال الاجتماعية. وذلك من خلال الاطار السوسيولوجي الذي حاول تقديمه ويجمع بين خصائص العلوم الطبيعية والروحية، ويعتمد في جوهره على مقولة الفهم «والتي رأى فيبر أن دراستها تتطلب تحليلا لثلاث تساؤلات أساسية : الأول - ما هو الفهم السببي للملائم. والثاني - ما هو الفهم الملائم ذو المعنى . والثالث - معنى كيفية ارتباط الاثنين معا فيما بينهما^(١)».

وقد أوضح جراهام كينلوش أن دراسة فيبر للفعل الاجتماعي ومحاولة فهمه سيكولوجيا تعتبر مثالا أو نموذجا لاتجاه السلوكية الاجتماعية . اهتم فيبر من خلاله بدراسة المعاني المرتبطة بالفعل الاجتماعي على المستوى الفردي والجماعي واعتبر تلك المعاني تشكل أساسا جوهريا ينهض عليها المجتمع^(٢) . إذ يرى فيبر أيضا في هذا الصدد «أن الفعل الاجتماعي أما أن يكون ظاهرا أو مسترا يمنحه الفاعل معنى ذاتيا في ضوء المعاني الذاتية المرتبطة لسلوك الآخرين. وبالتالي تكون تلك الأفعال موجهة في طبيعتها»^(٣).

ثم أوضح فيبر أن توجيه تلك الأفعال الاجتماعية يتم في اطار العديد من الامور المرتبطة بالمعنى والتي أجملها فيما يلي :

(١) نيقولايتاشيف ، المرجع السابق ، ص ٢٥٥ .

(2) Kinloch, G.C., Op. Cit., P. 144.

(3) Weber, Max., The Theory of Social and Economic Organization.
Op. Cit., P. 88.

أولاً - المعنى وقد يكون على مستويين: أولاً - المعنى الواقعي ويشتمل في الظروف الواقعية لدى فاعل معين، أو يشتمل في المعدل التقريبي للمعنى الواقعي لدى مجموع الفاعلين.

ثانياً - أن لفظ المعنى قد يشير إلى الفهم النظري للنمط الخالص، أو المعنى الذاتي الموجود في نمط الفعل السائد لدى الفاعل^(١).

ثالثاً - يمكن أن يكون الفعل موجه ولكننا لا نستطيع فهمه بالرغم من قدرتنا على ادراكه وفهمه عقلياً - ومن ثم ثم نحاول فهمه لأى من الدوافع التقريبية المناسبة^(٢).

رابعاً - أوضح فيبر أن هناك اهتماماً في كل علوم الفعل الانساني بأن العمليات والظواهر التي يكون خالية من المعنى الذاتي تكون متوافقة مع فهمنا لحدود استخدام الآلات في اطار الفعل الاجتماعي. أما المعنى الذاتي للفعل ينتج من العلاقة بين أهداف وأغراض مختلفة. بمعنى أن الحالات تكون على مستوى المعنى الذاتي إذا كانت قادرة على الارتباط بأهداف مقصودة للفعل في مجال معانية وأغراضه^(٣).

ويبدو أن فيبر في تمييزه بين فهم الفعل في مستواه العقلي وبين فهمه في مستواه العاطفي - من خلال كل من أبعاده المنطقية والرياضية التي تضيفى عليه الفهم الأمبريقي، ثم أبعاده القيمية والفنية والتي تضيفى عليه بالفهم الذاتي أو الفهم على مستوى المعنى الذاتي - كان يقصد التفرقة بين مستوى فهم معنى الفعل على مستوى السبب الأمبريقي المنطقي الفعلي وبين الفهم على مستوى المعنى الذاتي الموجه أو المدفوع^(٤).

خامساً - كان ايضاح فيبر «أن هناك نطاقين لفهم الفعل على مستوى المعنى» - يعد محاولة منه للربط بين السببية والمعنى رغم تمييزه السابق بينهما في

(1) Weber, Max., Op. Cit., P. 89.

(2) Weber, Max., Ibid., P. 91

(3) Ibid., P. 92.

(4) Ibid., P. 93.

مستوى فهم معنى الفعل - وفي النطاق الأول -أورد ثلاثة نماذج للفهم السببي المباشر للمعنى : (أ) يبدو النموذج الأول من الفهم السببي المباشر للمعنى حينما يكون معنى الفعل مرتبطا بألفاظ شفوية مباشرة عندما نسمعها أو نقرأها مثل القضية $2 \times 2 = 4$. وتلك هي حالة الفهم العقلى المباشر للأفكار^(١) . (ب) كما يمكن لنا فهم طريقة فعل قاطع الخشب، أو أى شخص يضع يده على أكره الباب لغلقه، أو تصويب بندقية إلى حيوان، فى إطار الملاحظة المباشرة لفهم معنى تلك الأفعال. (ج) ويتمثل النموذج الثالث من الفهم السببي المباشر للمعنى فى التعبيرات الحركية غير العقلية، وفى الصراخ كما هو فى ثورة الغضب. وذلك من خلال الملاحظة المباشرة لفهم الاستجابات أو ردود الأفعال غير العقلية للأفعال^(٢) .

ثم حدد فير النطاق الثانى - لفهم معنى الفعل فى محاولته الربط بين السببية والمعنى . بالفهم التفسيرى الذى لا يتحقق إلا فى حدود دافع الفرد وظروفه الخاصة «وأوضح أن هذا هو الفهم التفسيرى أو العقلى للدافع . هو الذى يركز فى ادراكه للفعل على الوضوح بجانب سياق المعنى»^(٣) . ومن ثم انتهى فير فى محاولته التوفيق بين السببية والمعنى فى فهم الفعل . إلى أنه يمكن فهم سلوك قاطع الخشب أو تصويب البندقية فى حدود الدافع الذاتى بالإضافة إلى الملاحظة أو الفهم السببي المباشر بعد ذكره . فقد يكون قطع الخشب من أجل الرزق أو بغرض التزود بالنار أو لزرع النبات من جديد. وبالنسبة لتصويب البندقية فاما أن يكون لاصطياد الطيور، أو حالة عراك مع عدو أو يكون مدفوع للأخذ بالثأر^(٤) .

سادسا- أوضح بارسونز أن محاولة فير فهم وتفسير الفعل فى إطار وجهة النظر الذاتية كان يهدف منها إلى تكوين نظرية عامة عن العوامل الذاتية، معتمدا

(1) Parsons , Talcot, "The Introduction to Weber.. the theory of Social and Economic Organization. Op. Cit., P. 25.

(2) Weber, Max., The theory of Social and Economic Organization. Ibid. P. 59.

(3) Parsons , T., OP. Cit., P. 2 5.

(4) Weber , Max.. Op. Cit., P. 98.

فى ذلك على منهجه الشهير للفهم ونماذجه المثالية الكلية. واستهدف فيبر من تلك النظرية فهم وتفسير مواقف وأفعال الأفراد بربطها بدوافعهم واحساساتهم السيكولوجية. ويأتى ذلك فى اطار اهتمامه بالمعاني الثقافية المعقدة للأفكار والتي اعتبرها أداة لفهم أفعال الأفراد^(١).

سابعاً - إستمراراً من قبل فيبر فى توضيح المطابقة بين السببية والمعنى فى فهم الفعل. يرى أن الدافع الذى يبدو للفاعل على أنه الأرضية المناسبة للسلوك مباشرة يكون متضمناً للمعنى الذاتى أيضاً بمعنى «أن التفسير الملائم لطبيعة الفعل النموذجى .. يمكن أن يكون ملائماً على مستوى المعنى. بحيث يكون هذا التفسير على مستوى المعنى سبباً بدرجة ما فى الوقت نفسه»^(٢).

ثامناً - ثم انتقل فيبر إلى شرح وتفسير الفعل والظواهر فى ضوء المعنى الذاتى وأوضح أن العمليات والظواهر التى تبدو غير مفهومة تمثل ظواهر ذاتية الفهم. ويمكن تناول فهمها من خلال منهج الفهم الذاتى التفسيري، على اعتبار أنها تعبر عن ظروف وبواعث داخلية للفعل أو الظاهرة^(٣).

تاسعاً - وقد ترتب على ما سبق أن اعتبر فيبر «أن التفسير للفعل فى ضوء المعنى الذاتى يجب أن يأخذ أهمية كحقيقة جوهرية مهمة»^(٤). بمعنى أن هذا المعنى الذاتى يستند إلى وجهة نظر الاعتقاد. ويعتمد فى جوهره على الأفعال المدفوعة فى اطار الاعتقاد، وهو ما يشكله المنهج الذى يسمى بالمدرسة العضوية فى علم الاجتماع، وقد فسر أصحاب هذه المدرسة العضوية الفعل أو السلوك بنفس

(1) Parsons, Talcot, his Introduction to Weber, Sociology of Religion. (by) Max., Weber Boston : Beacon Press, 1904. PP. XXII-XXIV.

(2) Weber, Max, The theory of Social and Economic Organization. Op. Cit. P. 99.

(3) Ibid. P. 100.

(4) Ibid. P. 102.

الطريقة التي تناوله بها السيكلوجيون، وذلك حين عالجوا دور العضو بالنسبة للجسم وبقائه. وأوضح فيبر أن هذا المنهج العضوي يبنى أيضا نمط التحليلات الوظيفية لعلاقة الأجزاء بالكل في تفسير الفعل الاجتماعي وكذلك تحديد مقاصده وهو ما يمثل مصدرا لأهميته^(١).

عاشرا - انتهى فيبر إلى أن مجال الفهم على مستوى المعنى الذاتي للفعل مهما جدا في التمييز بين مختلف التعميمات السوسيولوجية. وكما هو في تعميمات جراهام Greshamslam. وذلك على اعتبار أن تلك التعميمات تكون مفهومة في إطار الدوافع المثالية الذاتية للفاعلين. والتي أصبحت مهمة في فهم النوايا الذاتية للفاعلين والمتابعة العقلية للغاية المقصودة^(٢).

وهكذا يتضح لنا مدى استخدام فيبر لمقولة الفهم في تفسير الأفعال الاجتماعية، في إطار المعاني الذاتية للفاعلين. وهو ما يعكس السيكلوجي لديه في تفسير وفهم الأفعال في إطار الدافعية والمقاصد الذاتية. والتي يرى أنها لا تتعارض مع تحقيق الفهم السببي المباشر له. وحاول تحقيق التوافق بينهما بهدف تحقيق أعلى مستوى من الفهم السيكلوجي للفعل الاجتماعي.

٥- سيكلوجية نظرية القيمة في علم الاجتماع لدى فيبر :

أوردت آلان ديوى Alan Dowe أن ما تورد أن تقوله في مجال اهتمام علماء الاجتماع بالتوافق مع ما قال فيبر عن دور القيم في التحليلات السوسيولوجية والبحث، أن نظريته عن القيم تمثل العمل الحقيقي لعلم الاجتماع المعاصر. إذ جاء تأثيره على الوعي السوسيولوجي الحديث Modern Sociological Conscious neso محصور في نطاق الحجم الهائل الذي قدمه في مجال القيم^(٣). فقد أكد فيبر في عمله علم اجتماع المعاني Sociology of Meaning

(1) Weber, Max., Op. Cit., PP. 102-103.

(2) Ibid., PP. 107 - 109.

(3) Dawe, Alan, "The relevance of values" In Sahay., (ed) Max Weber and Modern Sociology. London: Rotledge and Kegan Paul. 1971. P. 36.

على القضية التي ترى أنك إذا أردت تنجز (X) فعليك أن تفعل (Y). إلا أن موافقتنا عليها لا تكون متوافقة على قيمتها بالنسبة لنا فقط ولكن أيضا على الحكم الواقعي. ومن خلال الموائمة العلمية للعلاقة بين الأهداف والمعاني^(١).

وتضيف ديوى أن مناقشة فيبر للعلاقة بين أحكام القيمة والمعرفة الامبريقية مكنته من تقديم بناء قوى من المعرفة في مجال العلوم الاجتماعية. وكذلك مكنته من تقديم نظام تحليلي للواقع الامبريقي الاجتماعي. ومن ثم فنحن نكون مطالبون بالوقوف على المعنى المتضمن في الحقيقة الصادقة موضوعيا في مجال العلوم الاجتماعية. وذلك على اعتبار أن فيبر قدم استنتاجاته الجوهرية في هذا الصدد، والتي أغفلها العلم الحديث بصدد تلك المشكلة التي تمثل العلاقة بين العلوم الاجتماعية والقيمة^(٢).

وفي إطار سعي فيبر لتحقيق التوافق بين أحكام القيمة والواقع الاجتماعي، بهدف تقديم نظرية اجتماعية نفسية عن القيمة. أوضحت ديوى أن مفهوم الثقافة لديه أتخذ واجهة قيمية. على اعتبار أن الواقع الاجتماعي يأتي إلينا منذ القدم بالثقافة التي تتصل بأفكار القيمة، والتي تضيء على هذا الواقع مغزاة وأهميته. وهذا يسبب التوافق القيمي في مجال العلاقات الاجتماعية المتعلقة بالواقع الثقافي. بمعنى أن هذه الأفكار القيمية هي التي تضع الأساس في اختيار المادة الذاتية والمعرفة على مستوى المعنى الواقعي. وبالتالي لا يمكن أن نصل إلى تحليلات علمية موضوعية للثقافة أو أي ظاهرة تكون معتمدة فقط على جانب واحد ونهمل الآخر^(٣).

وترتب على ما سبق أن أكد فيبر على تلك المادة الذاتية والمعرفة على مستوى المعنى في ادراكنا للواقع الامبريقي. ورأى أن المهمة الرئيسية التي يجب أن يضطلع

(1) Dawe, Alan, "The Relevance of Vallues" In Sahay., Op. Cit., PP. 39 - 40.

(2) Ibid. PP. 40 - 41.

(3) Dawe, Alan, Op. Cit., P. 41.

بها علم الاجتماع هي تحقيق الفهم التفسيري للعلاقات الاجتماعية والفعل الاجتماعي والظواهر الاجتماعية. وهو ما يسمى بالفهم الذاتي لها والذي لا يتحقق في مجال العلوم الطبيعية، بل يرتبط بفهمه التفسيري المرتبط بتعميقاته في مجال القيم. والتي اعتبرها فيبر تشكل الأساس في اختيار تلك المادة الذاتية على مستوى المعنى^(١).

وأوضحت ديوى في هذا الصدد أن أضواء فيبر لمبدأ القيمة على واجهة العلوم الاجتماعية المهمة بدراسة الأفعال والعلاقات والظواهر الاجتماعية، أتبعه أن أصبحت مشكلة العلاقة بين الأخلاق وعلم الاجتماع غير صعبة على الفهم على اعتبار أن العالم لديه يتكون من ذاتيات فردية. وأن علم الاجتماع يقوم باختيار موضوعاته من الواقع الاجتماعي والثقافي، ثم يصفى عليها المعنى والمعزى ويفهمها في إطار علاقاتها التحليلية الوظيفية. ومن ثم كانت الأهمية العليا لتوافق القيم لدى ماكس فيبر تمثل شرطا سابقا على كل معرفة تتبع من العالم الاجتماعي المبرقي. وأصبح الاتجاه القيمي يمثل الخيط الذي يربط الأسس الأخلاقية بالأسس الميثودولوجية في المجالات الرئيسية لعلم الاجتماع. فإذا كان فيبر اهتم بالتأكيد على المقولات البنائية كذلك إلا أنها لا تزال توصف في حدود المعنى، ولا يزال الأساس في التحليلات السوسيولوجية ينسب إلى القيم^(٢).

كما أكد ماكس فيبر في هذا التحليل السيكولوجي لنظرية القيمة ودورها في علم الاجتماع «على أن المادة الذاتية في علم الاجتماع منذ القدم ترتبط بالفعل الاجتماعي. وذلك على اعتبار أن المعاني الذاتية لهذا الفعل تأخذ أهمية في سلوك الآخرين. وتكون موجهة له في إطار القيم»^(٣). وعلى هذا كان الفعل والعلاقات

(1) Weber, Max., The Theory of Social and Economic Organization. Op. Cit. PP. 103 - 104.

(2) Dawe, Alan, Op. Cit., PP. 42 - 43.

(3) Weber, Max., Economy and Society. New York : 1968. P. 4.

الاجتماعية يمثلان النواة الحقيقة لعلم الاجتماع لدى فيبر. اذ حاول تفسيرها في اطار المعانى المرتبطة بها لدى الفاعلين بالرغم من تعددها. بل حينما ذهب ليعرف تلك الأشكال العديدة لها، جاء ذلك فى ضوء المعانى التى تنهض عليها تلك الأشكال وترتبط بالقيم^(١).

وخلصت ديوى بصدد مناقشتها لتحليل فيبر السيكولوجى لدور القيم فى علم الاجتماع، إلى أن عالمه الأخلاقى كان يشكل الأساس الجوهرى فى تصويره عن المعانى الذاتية. وأنه يجب على السوسيولوجى أن يفهم دور القيم فى مجال علم الاجتماع الفيبرى من زاويتين : الأولى أن يحكم على معانيها فى اطار تفاعلها مع المعانى الموجودة لدى الآخرين. والثانية - ضرورة ادراك أن حكم السوسيولوجى على الفعل أو الظاهرة فى ضوء المعانى الذاتية وفقاً لقيمة الخاصة قد يتعارض مع المعانى الأخرى لدى الآخرين. ويترتب على ذلك أنه قد تكون هناك وجهة نظر من جانب واحد فى دراسة الأفعال والظواهر الاجتماعية وتعريفها فى حدود القيمة ومعانيها الذاتية. والتى لا تشير إلى مشاركة التعريفات التى لدى الآخرين المتضمنين فى الموقف، والتى لا يمكن ادراكها مباشرة^(٢).

ونتهى مما سبق إلى أن نزعة فيبر السيكولوجية تتضح بوضوح فى معالجته وتحليله النفسى للدور الهام الذى تلعبه القيم فى علم الاجتماع، وذلك على المستويين المنهجي والنظري. فعلى المستوى النظرى يتمشى هذا التحليل مع نسقه السوسيولوجى الذى يجمع بين خصائص العلم الطبى والروحى. وحاول أن يطابق بين السببين والمعنى فى فهمه السيكولوجى لها من خلال مبدأ التوافق القيمى مع الواقع الامبرىقى. بمعنى أن الفعل يجب أن يكون على مستوى المعنى ومطابقاً للواقع الامبرىقى، وانتهى فيبر فى هذا الصدد إلى أن مفهوم الثقافة يشكل واجهة قيمية. وقد اعتمد فيبر فى هذا التحليل السيكولوجى لدور القيم فى نسقه

(1) Weber, Max., Economy and Society, Ibid. Op. Cit. P. 44.

(2) Dawe, Alan, Op. Cit., PP. 44- 45.

السوسيولوجى على منهجه الشهير للفهم التفسير والذى اتخذ واجهة تقاطعية. فإن كانت القيم لديه تستمد أصولها من خلال رؤيته الأخلاقية التى تزود الفرد باختياره للمعنى الذاتى. إلا أنه من خلال منهج الفهم حاول التوفيق بين السببين والمعنى من خلال مبدأ التوافق القيمى.

وقد أكد جون ريكس تلك النزعة السيكولوجية الواضحة فى ذاتيتها على المستوى المنهجى حين أشار إلى أن مناقشة فيبر للعلاقة بين السببية والمعنى قد ساوت بين النماذج المثالية والتفسيرات على مستوى المعنى. إلا أنه فى الوقت نفسه نظر إلى تلك المعانى الذاتية على أنها لا تكون مكتملة إلا إذا كانت المعانى المتضمنة فى العلاقة القائمة ذات معنى واقعيًا. وتكون هناك امكانية لاثبات ما هو ذاتى وعلى مستوى المعنى فى حدود النماذج المثالية، كما فى اطار الملاحظة الامبريقية للفعل ايضا ⁽¹⁾. وهذه هى نزعة فيبر السيكولوجية الواضحة والتى اتخذت واجهة التوافق القيمى فى اطار نسقه السوسيولوجى الذى يجمع بين خصائص العلوم الطبيعية والروحية، ومعتمدا منه على منهجه للفهم السيكولوجى.

(1) Rex. John, Op. Cit., P. 28.

خاتمة الفصل السابع :

وبعد عرضنا للسلوكية الاجتماعية فى دراسات ماكس فيبر المنهجية والنظرية سنحاول الوقوف فى هذا الصدد على مدى اسهامه فى تقديم مدخلا سيكولوجيا، يهدف من خلاله إلى تحليل السلوك أو الفعل والعلاقات والظواهر الاجتماعية والاقتصادية. كما سنحاول فى الوقت نفسه ايضاح التصورات والمفاهيم النفسية التى اعتمد عليها فى تحليلاته وتفسيراته مثل : المعانى الذاتية، والدوافع، والتعاطف، أو التقمص الوجدانى.

وقد تمثل هذا المدخل السيكلوجى فى محاولة فيبر اقامة نسق سوسيولوجى يجمع بين أكبر قدر من خصائص العلوم الطبيعية والروحية، ويعمل على التوفيق بينها معتمدا على مفهومات وتصورات نفسه، وكانت أولى اهتمامات هذا النسق السوسيولوجى لديه هى التحليل الاجتماعى النفسى للظواهر الاجتماعية والاقتصادية التاريخية. وقد تمثل ذلك فى تناوله العلاقة السيكلوجية بين البروتستانتية وروح الرأسمالية الحديثة. واعتمد فى تحليله وتفسيره لهذه العلاقة على مناهج نفسية مثل : الدوافع والمعانى، أما الدوافع فهى تقف أو تمن فى جوهر البروتستانتية وخاصة المذهب الكاليفينى، والتى تدفع إلى الانتاج والمنافسة وتخفز على الكسب الحر. والمعانى فتتمثل فى المعانى المرتبطة بتلك الدوافع وتشكل حلقة الوصل بين الظاهرتين فى اطار العلاقة السيكلوجية بينهما. فواجهة الكسب مثلا تتخذ هيئة سيكلوجية من خلال الاعتقاد فى المعنى المرتبط بقيمة الكسب فى ذاته، وكواجب أخلاقى ينبه من روح المذهب الكاليفينى ولا يعبر عن الغريزة السيكلوجية للكسب.

وقد اعتمد فيبر فى تناوله وتحليله لتلك العلاقة على منهج الفهم التفسيرى السيكلوجى. والذى سعى من خلاله إلى تحقيق التوافق بين الفهم الموضوعى للعلاقة بين البروتستانتية وروح الرأسمالية الحديثة وبين الفهم على مستوى المعنى

لها. وقد اعتمد فير في اطار منهجه السيكلوجى هذا للفهم على توصيل تعميمى تمثل فى نموذجه المثالى ليشمل اطار تلك العلاقة بينهما. ويمثل أداة منهجية لتحقيق الفهم التفسيرى السيكلوجى لتلك العلاقة الوظيفية بين الظاهرتين.

فبينما يتعلق بالاستخدام السيكلوجى لفكرة الانماط المثالية أو العقلانية، كأداة منهجية لدراسة أنماط الفعل أو الظواهر الاجتماعية. ويورد (جون ريكس) أن (فير) قد استخدم التوافق القيمى كنقطة بداية فى فهم النماذج المثالية كزداة تاريخية منهجية موضوعية، وأن هناك أكثر من سبب يجعل من القيم كنقطة بداية تملك فى ذاتها مقدرة موضوعية، وأكثر أهمية فى هذا الصدد تأكيد على أن الربط السببى بين ما هو مرغوب من الأمور وبين ما يمكن أن يحدث وينجز، يمكن أن يكون برهان موضوعى. وهذا يعنى أنك إذا قلت أن A تسبب B فإنك تقول: أن B تتبع دائما A فى الحالات المدركة، وإن هذا يحدث بالضرورة، ولكن المشكلة الرئيسية فى التحليلات السببية لما كانت تكمن فى ما هية طبيعة تلك الضرورة؟ ولما كانت تلك الضرورة تكمن فى أن استتاج B يتبع A يتبع من بعض القضايا العامة التى تقبلها كحقائق وبالتالي يكون فيما بين تلك الشروط السببية سبب غامض يتعلق بتلك القضايا العامة التى تربط بينها. ثم يضيف (ريكس) أن (فير) فى مجال توافق القيم. واختيارها كنقاط بداية لفهم ميثودولوجيته فى دراسة الظواهر والفعل، لم تجعل علم الاجتماع أو التاريخ غير موضوعى، لأن تلك «القيم» كنقاط بداية تقود إلى الفروض السببية Causal - in bestigations، وتلك الفروض السببية فى المقابل تقوم على قضايا عامة مخبره. ثم أوضح (ريكس) بعد ذلك أن مقالات فير لأولية كان ملاحظ عليها أنها تأخذ على عاتقها تشكيل التصورات الذاتية، سواء فيما يتعلق «بالنماذج المثالية» Ideal-Types، أو (بأى من العلوم الاجتماعية، ولكن هذا قد وضع بعد أن دخل فى المناقشة التى فتحتها (دلثى) Dilthy فيما يتعلق «عقوله الفهم» Versthen باعتبارها تمثل المنهج الملائم فى العلوم الاجتماعية، وايضا بعد مناقشة للحقائق

الاجتماعية في إطار طريقة «أحداث التغير المزدوج» Two Fold change accurs ، حيث أصبحت النماذج المثالية مرفقا لهذا لاتشير فقط إلى أنها أنماط مثالية أو خالصة للدوافع أو «الاتجاهات الفعل» action-orientation ولكن أصبح ينظر إليها باعتبارها قضايا مختيرة في حدود قوتها التنبؤية، وأكثر من مجرد أبعاد قياسية في مقابل الحقيقة الامبريقية التي يمكن قياسها. حيث رأى (ريكس) في هذا الصدد أن المشكلة كانت متمثلة في ضرورة ربط مقالة (فير) عن «الموضعية في العلوم الاجتماعية» "Wirtschaft und Gessellschaft"، ثم أوضح لنا أن الأفكار الخاصة بالمعنى والسبب كان كلاهما غير واضح في مقالاته المبكرة، بمعنى أن العلاقات التي أعتبرها في الغالب على مستوى المعنى - كالعلاقة بين البروتستانتية وروح الرأسمالية - ومحاولته النظر إليها كعلاقات سببية كان لتصور غير واضح للسببية، حيث حاول أن يحدد الفكرتين. السببية والمعنى - والاختلافات بينهما إلا أن محاولته كانت مفتوحة وعامة ^(١) - على عكس (دلثي) الذي «فرق بين العلم الطبيعي الذي ينظر إلى القوانين والأسباب، وبين الاتجاهات الإنسانية التي تنظر إلى العلاقات على مستوى المعنى» ^(٢).

تكون مكتمله الا اذا كانت طبيعته الفعل الذي تشمل عليه معنى واقفيا حيث اصبحت هناك امكانيه في اثبات ماهو على مستوى المعنى في حدود نماذجه المثاليه ، وذلك على العكس فعالاته الأوليه ، فانه يمكن القول في هذا الصدد ان هذا الاتجاه يتمشى مع اتجاهها المنهجي العام في محاوله التوفيق بين خصائص العلوم الطبيعيه والعلوم الروحيه والوصول الى آخر منهجيته. كما هي تمثلت في نماذجه المثاليه وذلك بفرض استخدامها في تحقيقه فهم الافعال والظواهر الاجتماعيه والثقافيه .

وفي إطار الدراسة السيكلوجيه للفعل في إطار انماطه المثاليه لدى (ماكس

(1) Rex, John., Topology and Objectivity ; Op. Cit., PP. 19 - 20.

(2) Ibid; P. 21.

قيبر)، وفي إطار تركيزة على دراسة الفعل المنطقي أو المعقول، قد برزت مشكلات منهجية، تمثلت في مدى اتفاق صفة «العقلانية»، والتي تكون ملائمة أساسا لدراسة هيئة الفعل على المستوى الفردي، مع هيئة تصوره التعميمي المثالي في دراسة انماط الفعل الاجتماعي، والذي ينتقل فيه من طبيعته الواقعية الى طبيعته مثالية في إطار تصوري مثالي يعتمد على العقلانية. فانه يمكن القول بأن اماكس ميز، قد شايح في هذا اتجاهه المنهجي في جمع خصائص الاتجاهه العلمى والروحى في معالجة انماط الفعل أو السلوك المنطقي وقد برزت التكتلمجية المنهجية في إطار حله لهذه المشكلة المنهجية من خلال التوافق القيمي الذى يتوبه القيم كنقاط بدايه أوليه تدخل في تشكيل أنماطيه المثالية المنطقية ومواءمتها لتحقيق الفهم لطبيعته الفعل على مستوى المعنى في إطار الملاحظة الابريقيه للفعل. أى أنه اصبح هناك امكانيه للحديث بوضوح عن اثبات ماهو على مستوى المعنى في حدود النماذج المثالية مع المعنى الواقعي⁽¹⁾.

وقد بدا هذا الاتجاه السيكولوجى في منهجية (فيبر) أيضا من خلال استخدامه للنموذج المثالى كأداة منهجية لفهم العلاقة السيكولوجية بين روح البروتستانتية والرأسمالية الحديثة، وذلك فيما يتعلق باختبار القصة الماركسية الرئيسية التى ترى ان كل الظواهر الثقافية بما فى ذلك «الدين» تخضع لتأثير القوى الاقتصادية، وقد كان ذلك فى إطار استخدامه للنماذج المثالية ذات الخصوصيات التاريخية. ولورد (فيتش) Fisch فى تقديمه لكتاب «سسيولوجية الديانات» فى هذا الصدد أن الدراسات (فيبر) الوفيره عن الديانات التاريخية الكبرى فى العالم قد حظى منها باهتمام بالغ وتحليل قمرز، تأثير النفوذ الدينى على الرأسمالة الحديثة، وأيضاً فعلى تأثير هذا النفوذ الدينى على تقييم العقلانية الغربية بوجه عام، حيث كانت هذه الدراسات تمثل بحث هام من منظور سسيولوجى أكثر إنسانية وشمولا من الاهتمام الماركسى المادى، وأيضاً من وضعية (كونت) التاريخية، بل فمن عاصره

(1) Rex, Jon, Ibid; P. 23.

فى المانيا وخاصة فى علم الاجتماع النظرى كما هو عند (فرديناند توفير) F. Tonnies ، (جورج زيميل) G.Simmel^(١) .

وما يدعم هذا ما ذهب إليه (بارسونز) parsons من أن استخدام (فيبر) للعلاقة التى تربط بين الديانة البروتستانتية والرأسمالية لا تتمثل فى الشكل العام للرأسمالية من حيث أنها تتجه إلى الكاسب المالية، ولكنه أبدى اهتماماً خاصاً إلى نوع خاص منها أطلق عليه بالرأسمالية العقلانية، تلك التى تمثل تنظيمًا لهم بالانتاج الوفير ولكن إلى جانب ذلك يهتم بالتوجيه فى إطار الدافعية من أجل تحقيق أهداف محددة^(٢) . وهذا هو الدور الذى تلعبه الديانة البروتستانتية وخاصة المذهب الكالفينى فى تطور نمط الرأسمالية العقلانية الحديثة، وبناءً عليه توصل (فيبر) إلى خطأ الفرض الماركسى السابق - وهذا هو التأثير السيكولوجى فى تحليل العلاقة بينهما من خلال النمط المثالى ذات الخصوصيات التاريخية. حيث يقول (بارسونز) فى هذا الصدد :

«أنه يتضح لنا من خلال معالجة (فيبر) لعلاقة تطور العالم الغربى الحديث فى نطاق الزهد والأخلاق البروتستانتية - تلك الجوانب التقيحية - فلا يمكن لنا فهم اضطرابات العالم الحديثة على مستوى التنظيمات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية معيلاً عن هذا المحتوى التقيمى الكبير»^(٣) .

وإذا ما حاولنا تفسير تلك العلاقة السيكولوجية بين روح الرأسمالية وأخلاق البروتستانتية فى إطار نماذج المثالية (المنطقية) ذات الخصوصيات التاريخية فى دراسة وتفسير ظواهر اقتصادية وثقافية داخل إطار ثقافات محددة، فيمكن القول

(1) E. Fisch.; "Introduction" of the sociology of religion. Max Weber; Op. Cit., P. XIII.

(2) Parsons.: Introduction of the sociology of religion; Ibid; P. Lix.

(3) Parsons , Talot; "Introduction" of The Sociology of Religion. Ibid; P. LX.

بأن «الانماط النموذجية» لدى فير في تفسير الظواهر الاجتماعية والثقافية كانت تعكس تبضح تلك الثقافية في التفسير. وكما يرى (بارسونز) في مجال يميز العلاقة بين روح الرأسمالية وأخلاق البروتستانتية، إن العلاقة الوظيفية الشاملة بينهما تكون على درجة عالية من الامكانية، وهذا لا يعنى شيئاً عن الأسبقى السببية Causal Priority ، وإن كانت الحقيقة المتعلقة بالعلاقات إن نبوة تشير إلى ترجيح الدور السببي لنسق الاتجاهات للدينية، نظراً لأنه يوجد سابقاً على أى من الدرجات المتطورة لروح الرأسمالية، أو أى درجة متطورة في التنظيمات الاقتصادية الواقعية، ومن ثم لا تسبعد (فيبر) الدور السببي، إلى جانب العلاقات الوظيفية السيكلوجية الشاملة بينهما^(١). بمعنى أن هناك تأثير سيكلوجى بين الافكار القيمة التي تنطوى عليها أخلاق الزهد البروتستانتية، وبين التنظيم العقلاني للرأسمالية الذي لا ينهض فقط على الانتاج الوفير ولكن أيضاً في اطار التوجيه في اطار الدافعية من أجل تحقيق أهداف محددة.

وإذا كان ماكس (فيبر) على نحو ما قد نظر إلى المجتمع باعتباره يتركب من العلاقات الانسانية المتبادلة، تلك التي تميز السلوك الذي يتضمن معنى، والذي يصدر عن مجموعة من الفاعلين، حيث يرى أن الوحدة الأساسية للبحث السيكلوجى هي «الفعل الاجتماعي النموذجي» أو «الفرد»، وإذا كان قد نظر إلى هذا الفعل الاجتماعي على أنه فعل «عقلي رشيد» وفي نفس الوقت نظر إليه على أنه يتضمن معنى ذاتياً، مما أدى إلى وجود الغموض الذي يتعلق بمعالجته المتعلقة بالفعل الاجتماعي في اطار نظريته السيكلوجية^(٢). فإنه يمكن القول في هذا الصدد إن معالجة الفعل الاجتماعي قد أتت في اطار نظريته السيكلوجية التي حاول تقديمها لتجميع بين خصائص العلم الطبيعي والروحي وفي محاولة لتحقيق

(1) Parsons.; The structure of social (action; op. cit., P. 512.

(٢) نيقولا تيماشيف، نظر علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ٢٧٤ - ٢٧٥.

الفهم التفسيري لهذا الفعل الاجتماعي على مستوى المعنى، على أن يكون ملائماً أيضاً على مستوى السببية والواقع وكان ذلك في إطار مقولة الفهم التي سبق أن عالجناها - وإذا كانت قد ظهرت بعض الصعوبات المنهجية فيما يتعلق بمعالجة «الفعل الاجتماعي المنطقي» في إطار نماذجه المثالية، حيث تجنب دراسة الفعل على المستوى الفردي - والذي استخدمه باتساع - في إطار معاينة الذاتية وذهب من الطبيعة الواقعية إلى الطبيعة المثالية في إطار تصوري يعتمد على العقلانية. إلا أنه قد حل هذه المشكلة في إيضاحه أن العملية العقلانية أو الرشيدة الذي يجب أن يكون عليها الفعل The Process of Rationalization تتضمن ما يلي :- أولاً - الوضوح الفكري التخصصي وتنسيق الأفكار ، ثانياً - التحكم المعياري والتوافق، ثالثاً - تصور حالة الدافعية، بمعنى أن الأفكار ولا تحتوي على تفسيرات اجتماعية أو أنماط سلوكية فقط، ولكن تتضمن أيضاً أنواع ومستويات من الدوافع والتي ثبت الايمان والاعتقاد في تلك الأفكار^(١). وعلى هذا يتضح أن (ماكس فيبر) قد حل مشكلة التعارض بين الذاتية المتمثلة في معاني الفعل الاجتماعي، وبين العقلانية والرشد التي يجب أن يكون عليها الفعل من خلال وجهة نظره المتعلقة بأن الأفكار القيمية والدوافع يمكن أن تكون على قدر كبير من الموضوعية في إطار نسقه السوسيولوجي المتمثل في مقولة الفهم الذي يدرس من خلالها الفعل الاجتماعي في إطار معاينة الذاتية، حيث حاول تكوين نظرية عامة عن العوامل الذاتية في إطار مقولة الفهم، والتي طابق فيها بين الفهم السببي والفهم على مستوى المعنى الذاتي، على اعتبار أن الدافع الذاتي لدى الشخصي الذي يدفعه إلى مقلة قد يكون سبباً له. بمعنى أن التفسير السببي السليم لطبيعة الفعل يكون متحققة من حين يكون الفعل «معلق» والدافع، له مدرك تماماً وتكون العلاقة بينهما مغزاها ومعناها مفهوم. أي أن ملائمة الفعل على مستوى المعنى تكون واضحة وفي نفس الوقت يكون التفسير سببياً بدرجة ملائمة^(٢).

(1) Parsons.; Introduction of the sociology of religion, Op. Cit., P. XXXII.

(2) Parsons; Introduction of the sociology of religion, Ibid.; P. XXXII.

كما شملت اهتمامات النسخ السوسولوجي الذي حاول تقديمه فيبر ليجمع بين كل من الأصول الموضوعية والذاتية، تحليل وتفسير السلوك أو الفعل الانساني. إذ استطاع فيبر تحليل وتفسير أنماط الفعل الانساني. وقد اعتمد في هذا التفسير على الدوافع التي تكمن وراء الفعل، وكذلك المعاني الذاتية المرتبطة بتلك الدوافع. كما اعتمد فيبر في دراسته للسلوك أو الأفعال الانسانية على منهج الفهم التفسيري. «والذي استكملة بواجهة المشاركة التعاطفية أو التقمص الوجداني»^(١). بل واستطاع فيبر في النهاية أن يرتقى إلى ادراك الأسس البنائية في تشكيله للنماذج المثالية الخاصة بأنماط الفعل الاجتماعي من خلال اتجاهه النفسي. واتسبى في هذا الصدد إلى امكانية تحقيق التوافق بين المقولات الذاتية متمثلة في تأثير العواطف والدوافع وبين الاتجاهات العقلية للفعل. وبالتالي أمكنة أن يقدم تحليلا وظيفيا سيكولوجيا لنسق الفعل الاجتماعي يتشابه مع تفسيره وتحليله مع نسق العلاقات الاجتماعية.

وهذا يعنى أن فيبر من خلال اتجاهه الذاتي والذي يأتي في اطار السلوكية الاجتماعية، حاول التغلب على المشكلة القائمة في علم الاجتماع وتعلق بنوعية المنهج المتبع في دراسة الأفعال والظواهر الاجتماعية. وقدم فيبر نسقه السوسولوجي ليجمع بين خصائص العلم الطبيعي والروحي. معتمدا في تناول تلك الأفعال والظواهر على منهج الفهم التفسيري السيكولوجي. والذي يجمع في تناوله بين امكانية تحقيق التوافق بين الأصول الذاتية والموضوعية. فبصدد دراسة الفعل الاجتماعي على سبيل المثال. قدم فيبر نماذجه المثالية لأنماط الفعل المختلفة، واستخدمها كأدوات منهجية سيكولوجية من خلالها «تحقيق المطابقة بين السببية والمعنى بالرغم من تمييزه بينهما. وعلى اعتبار أن الدافع الذاتي للشخص الذي يدفعه إلى فعله يعتبر سببا له. وأن تفسيرنا للفعل يأتي في اطار ما هو مألوف من أنماط السلوك والتفكير المشكلة لواجهة الثقافة السائدة»^(٢).

(١) نيقولا تيماشيف، مرجع سابق، ص ٢٦٢.

(2) Rex., John, Op. Cit., P. 109.

وتتضح لنا تلك المطابقة بين السببية والمعنى - والتي تشكل جوهر اتجاه فيبر النفسى الاجتماعى الذى قدمه ليحصل من خلاله مشكلة التعارض بين تحقيق الفهم على مستوى السبب وبين الفهم على مستوى المعنى الذاتى فى تحليل السلوك والعلاقات والظواهر - فى دراسته السيكولوجية القيمة ومحاويله تقديم نظرية اجتماعية نفسية بصدها، وإيضاح الدور الذى تلعبه القيم فى علم الاجتماع. ويمكننا القول فى هذا الصدد أن فيبر استطاع تحقيق الهدف السيكولوجى لنسقه السوسولوجى بتحقيقه لمطابقة بين السببية والمعنى فى فهم دور القيم فى علم الاجتماع من خلال مبدأه للتوافق القيمى وعدم تعارض القيم والأخلاق مع الواقع الاجتماعى. إذ حاول فيبر تحقيق هذا التوافق من خلال منهج الفهم التفسيرى والذى اتخذ واجهة سيكولوجية من خلال التعاطف. وذلك على اعتبار أن المعانى الذاتية المرتبطة بتلك القيم تأخذ أهمية فى سلوك الآخرين وأفعالهم فى الواقع الاجتماعى. ولما كان علم الاجتماع يختار موضوعاته من الواقع الاجتماعى والثقافى. أصبح التوافق القيمى لدى فيبر يمثل شرطاً مسبقاً لفهم كل معرفة تأتى من العالم الاجتماعى المبريقى فهما سيكولوجيا.

الفصل الثامن

السلوكية الاجتماعية في دراسات جورج زيمل

- ١- الاتجاه الوظيفي السيكولوجي في دراسة تطور الشخصية الانسانية.
- ٢- التفسير السيكولوجي للعمليات الاجتماعية عند زيملا :
 - أ- العمليات التفاعلية السيكولوجية.
 - ب- الصراع كشكل من أشكال المشاركة السيكولوجية.
 - ج- سيكولوجية صور العلاقات الرئاسية كشكل من أشكال التفاعل.
- ٣ - سيكولوجية التغير في عضوية الجماعات الشائبة.
- ٤ - خاتمة .

الفصل الثامن

السلوكية الاجتماعية في دراسات جورج زيمل

George Simmel

كان للحرب العالمية الأولى دور هام في اثاره اهتمامات جورج زيمل العقلية والعاطفية التي أنشغل بها. كما اهتم بتجديد وتعريف المداخل الفلسفية والتاريخية السوسيولوجية. وتناولها بالشرح في تحليلاته الجوهرية^(١). كما أبدى وجهات نظر متعددة لا تزال تحفز القراء في الوقت الحاضر. وقد عكس زيمل الاتجاهات العقلية السائدة في عصره، فكانت منهجيته مشايعة لمبادئ الكانطية مع التعديل. وتأثر في اتجاهه السوسيولوجية بهيجل، وشوبنهاور، ودلثي، وفي نطاق الاستيمولوجيا تمسك بطريقة كانط العقلية التي ترى أن كل تجربة في محتواها تتشكل في المقولات الحسية. وقد أصبحت وجهة النظر هذه أساسا لكل تمييز بين الصورة والمحتوى، كما أصبحت قيما بعد مبدأ ميثودولوجيا في علم الاجتماع^(٢).

وفي استعراضنا للتيار السلوكي في دراسات جورج زيمل الاجتماعية في محاولة للوقوف على مدى الاسهام الذي قدمه من خلال اهتماماته السيكولوجية في مجال علم الاجتماع المعاصر. نتناول في البداية: سيكولوجية الاتجاه الوظيفي في دراسته لتطور الشخصية الانسانية من خلال الأشكال أو الصور الاجتماعية. ثانيا - تفسير السيكولوجي في دراسة العمليات الاجتماعية. مبتدئين بمناقشة

(1) Simmel, George., In International Encyclopedia of Social Science, Volume (13- 14), (ed) Gavid, Sills., The maccmilan Company & the free press, N. York : PP. 252.

ولد جورج زيمل في برلين في الفترة من (١٨٥٧ - ١٩١٨). وبينما هو في المدرسة توفي والده وترك له ثروة ضئيلة لا تغني بالتزامات دراسته. ودرس زيمل التاريخ، وعلم النفس الفولكلوري، وتاريخ الفن والفلسفة في جامعة برلين. وحصل على الدكتوراه (١٩٠٧) من جامعة برلين في بحثه عن فلسفة كانط. وحصل على لقب الأستاذية من جامعة سترابورج عام (١٩١٤). ثم مات بالسرطان في عام (١٩١٨).

(2) Ibid., P. 251.

العمليات التفاعلية السيكولوجية ثم معالجة الصراع كشكل من أشكال المشاركة السيكولوجية ثم سيكولوجية أشكال العلاقات الرئاسية كشكل من أشكال التفاعل، ثم نستعرض تفسيره السيكولوجي للتغير في عضوية الجماعات الثنائية.

٢- الاتجاه الوظيفي سيكولوجي في دراسة زيمل لتطور الشخصية الانسانية :

جاء اهتمام زيمل بدراسة تطور الشخصية الانسانية في نطاق السلوكية الاجتماعية ومن خلال تحليله الوظيفي السيكولوجي لها. «وفهمه للمجتمع على أنه يشير إلى الأفراد وهم يمارسون ضرورياً من العلاقات المتبادلة غير المحددة، والتي يتطلب فهمها تحليل التفاعل النفسى»^(١) كما جاء هذا الاهتمام فى ضوء رؤية زيمل أن أشكال الموافقة الاجتماعية التى يدرسها علم الاجتماع هى نتاج لمحتوى نفسى يوجد لدى الأفراد. وبالتالي كان اهتمامه بدراسة تطور الشخصية الفردية هو الاهتمام الذى ربط فلسفيه بعلم الاجتماع^(٢).

فبالرغم من مساهمة زيمل للاتجاهات العقلية السائدة فى عصره إلا أنه لم يتقبلها كما هى، ولكنه تمصلها فى اطار التعديل الخاص والمتلائم مع وجهات نظره، بحيث شكلت الاتجاهات السيكولوجية جزءاً منها. فلم يقبل النظرية الماركسية المادية فى تركيزها على الواقع المادى الخارجى. وفسر الاغتراب فى اطار التناقض الناجم من الحالة الداخلية للفرد مع الواقع المادى الخارجى. وأوضح زيمل من خلال تطويره لهذا المفهوم أن المجتمع ليس ظاهرة فيزيقية، بل ظاهرة شعورية. وذلك عكس ما ينادى به المبدأ الكانطى الذى يفسر الحياة وينظر إليها من خلال الطبيعة. ومن ثم أولى زيمل اهتماماً إلى وجهة النظر الوظيفية السيكولوجية فى نظريته إلى الموضوعات التى يجب أن يهتم بها علم الاجتماع الشكلى الذى يتخذ نمطاً مستقر نسبياً غنى المضمون أو المحتوى الخاضع للتغير^(٣). وقد شبه زيمل «اهتمام علم الاجتماع بدراسة الظواهر الاجتماعية بتحليل الهندسى لظواهر العلوم

(١) نيقولايتشيف ، مرجع سابق ، ص ١٤٨.

(2) Simmel, George, In International Encyclopedia of Social Science. Op. Cit., Volume (13 - 14) P. 254.

(3) Simme, George, Ibid., PP. 253 - 254

الطبيعية. بمعنى أن الأشكال الهندسية يمكن أن تكون متنوعة المضمون مثل الصور الاجتماعية^(١).

ومن منطلق المهمة التي حددها زيمل لعلم الاجتماع، ونظرته إلى المجتمع. قدم نظريته عن التطور الاجتماعي للشخصية، من خلال اتجاهه الوظيفي سيكولوجي. «وجاء ذلك من خلال مدخلين رئيسيين : الأول - يرتبط بوجهة نظره عن الاختلافات الاجتماعية والجماعات الممتدة، والتي اعتبرها في الدرجة الأولى من المؤثرات على الشخصية الفردية. ذلك في مجال ترشيد الطاقة والعلاقات غير الشخصية. مما ينتج عنه حرية شخصية كبيرة ويصبح للفرد فرصة كبيرة للتأثير والتأثر والنمو الفردي. والثاني : يتمثل في اعتبار أن عمليات التطور داخل الجماعات الممتدة يمكن أن ستميها عمليات وظيفية. والتي تفسر تطور الأفراد في إطار عمليات التأثير الكبرى، بالإضافة إلى أن هذا التطور يكون في اتجاه ترشيد الطاقة كما هو في تقسيم العمل لدى دور كيم^(٢).

ولقد بذل زيمل الكثير من خلال تلك الاختلافات الاجتماعية والجماعات الممتدة من أجل التوصل إلى المبدأ الذي بواسطته تلك الأشكال الاجتماعية في هيئة وظيفية سيكولوجية. ويبدو ذلك في معالجته لبقاء الذات في الجماعات الاجتماعية فقد ناقش زيمل شروط بقاء الجماعات بالرغم من الفناءات المستمرة للأعداد المكونة لها. وقد حدد زيمل تلك الشروط بالاختلافات الوظيفية، والواجهات المتعلقة بالتخصصات، ومن ثم توجد الاتجاهات الوظيفية السيكولوجية نحو الحفاظ على الجماعات وتدافع عن ميكانيزمات بقاءها. كما تخلق تلك الاتجاهات في الجانب المقابل لدى أعضائها اهتمامات ذاتية نحو الحفاظ عليها

(١) نقولاسه سيد ، مرجع سابق ، ص ١٤٩.

(2) Simmel , George, Op. Cit., P. 254.

وعلى تضامنها. اذ يعمل ذلك التضامن على تطوير حياتهم الفردية وشخصياتهم، ويقيها من حالات الصراع من خلال الميكانيزمات الاجتماعية النفسية^(١).

ثم تناول زيمل تحليل السلوك الفردى تحليلا وظيفيا سيكولوجيا، داخل نطاق تلك الجماعات الممتدة واعتبر أن ذلك السلوك هو نتيجة للدوافع الفردية وردود الأفعال السيكلوجية الوسيطة فى بناء الموقف^(٢). ولم يعتبر أن الأشكال الاجتماعية تمثل فى هذا الصدد قيودا خارجية تحدد السلوك الاجتماعى للفرد. وأن كان أولاهما اهتماما على المستوى التحليلى الوظيفى والسيكولوجى. وبالتالى جاءت نظره إلى تلك الجماعات الممتدة على أنها تشكل العنصر الرئيسى للحياة ومحتواها الخاص، ألا أنها تعتبر نتاجا سيكولوجيا وتاريخيا. وفرق زيمل بين «شكل تلك الجماعات وبين البعد التاريخى» لمحتوى «تلك الأشكال الاجتماعية المتمثل فى طبيعتها الوظيفية السيكلوجية»^(٣).

تنتهى مما سبق إلى أن الأهمية التى منحها جورج زيمل لتمييز العلاقة السيكلوجية بين الشكل والمحتوى تأتى فى اطار الاختلافات المتباينة للوظائف التى يقوم بها الأعضاء وتشكل محتوى لشكل أو صورة للجماعة الاجتماعية. وأنه من خلال تلك الاختلافات تتشكل الاتجاهات الكلية التى تدافع عن بقائها. وتوجد لدى الأعضاء الاهتمام الذاتى بتحقيق التضامن الجماعى، من خلال انجاز الوظائف المختلفة داخل اطارها. وتلك هى الميكانيزمات السيكلوجية الوظيفية العضوية التى رأى زيمل أنها تؤدى إلى تطور الشخصية فى الجماعات الممتدة.

٣- التفسير السيكلوجى للعمليات الاجتماعية عند زيمل :

(أ) «التفسير السيكلوجى للتفاعل»

لقد وضع هذا الاهتمام لدى زيمل فى ضوء تأكيديه بأن المجتمع ليس مادة،

(1) Simmel , George, Op. Cit., P. 254 - 255.

(2) Ibid., P. 257 .

(3) Ibid., P. 257.

بل يمثل حقيقة سيكولوجية شعورية. ورؤيته أيضا لوحدة المجتمع على أنها تتكون فقط من خلال التفاعلات بين أعضائه - وسوف نبدأ بمناقشة السيكولوجية للتفاعل Interaction - والذي يطلق لتعريف العمليات التي تشكل لب الحياة الاجتماعية والسلوك الانساني. وقد أوضح كودروروسنبرج تمييز زيمل للتفاعل الانساني عن غيره من صور التفاعل ، بأن عملياته تشتمل على أشكال ومراكز وظيفية ومطالب مشتركة تحدث عندما يدخل اثنين أو أكثر من الفاعلين في علاقات كل مع الآخر^(١).

ومما يدعم الواجهة السيكولوجية لعلم الاجتماع الزيملي تحديده لمهمة علم الاجتماع في دراسة التفاعلات والعلاقات المتبادلة. وجاء ذلك في اطار علم الاجتماع الشكلي أو الصوري لديه Fernal Sociology . اذ يرى أن أشكال التفاعل تكون مميزة عن محتواها. ومن تحليله لمحتوى أو مضمون هذا التفاعل أوضح أنه محتوى سيكولوجيا، يتضمن الطاقات الدافعية والدوافع الفردية والأغراض والاهتمامات. أما أشكال وصور تلك التفاعلات فلم تكن تشكل لديه كيانات بنائية حقيقية، ولكنها تمثل كيانات أو واجهات مجردة تحليلية للواقع الاجتماعي^(٢).

وقد كشف كودروروسنبرج عن أن زيمل كان مؤسس ما أطلق عليه بالمدرسة الشكلية في علم الاجتماع. وكان سباقا إلى جمع اهتمام السوسيولوجيون حول أهمية العمليات التفاعلية Interactive Processes . وأتسع بإمكانية اكتشاف عددا من أشكال وصور التفاعل النمطية. ويتمثل ذلك في انماط الصراع والتعاون Conflict Cooperation والتنافس Compitation في اطار العلاقات الاجتماعية. وأن تلك الاشكال النمطية للعمليات الاجتماعية التفاعلية

(1) Cosr and Rosenbevg (eds) Sociological theory, Op. Cit., P. 55.

(2) Simmel, George, In International Encyclopedia of Social Science. Op. Cit., P. 255.

تختلف في محتواها السيكلوجى، وفقا للظروف الخاصة بكل موقف اجتماعى^(١).

وصوف نحاول فيما يلى ابضاح تفسير زيمل للمحتوى السيكلوجى لتلك الأشكال التفاعلية المجردة. والتي يرى أنها تعتمد فى مضمونها ومحتواها على الدوافع الفردية، والطاقت الدافعة، والاهتمامات المختلفة، والأعراض الرئاسية، ودور الغريب، والتغير فى عضوية الجماعة من عضوين إلى ثلاثة^(٢). ونعرض لها كما يلى :

(ب) «الصراع كشكل من أشكال المشاركة السيكلوجية»

لقد أوضح زيمل أن الصراع واحد من أغلب التفاعلات الواضحة، ويعبر فى جوهره عن المشاركة. بل أن العوامل السيكلوجية التى ينهض عليها وتعتبر سببا للتباعد بين الناس وتسبب الصراع تعتبر فى ذاتها مطلبا أساسيا لفهم الثنائيات المتأخرة. كما تمثل قوى دافعة للوصول إلى حالة الواحدة التى تتحقق بإبادة أحد العناصر المتصارعة^(٣).

وبوض زيمل أن ظاهرة الصراع تحمل الكثير من البساطة. فإذا أردنا على سبيل المثال السلام فيجب أن يعد للحرب If you want prepare for war. بمعنى أن الصراع فى ذاته يفسر القابلية للتشدد بين المتضادات، ويكون هدفه واضح فى التعبير عن طبيعته المتمثلة فى التوحيد والتآلف بين العناصر التى يعمل كل منها ضد الآخر ومن اجل الآخر Against and for one another. أى أن الاختلاف بين العناصر يكون سلبى تاما، وفى المقابل من تلك السلبية

(1) Cosr and Rosenbevg (eds) Sociological theory, Op. Cit., P. 55-56.

(2) Simmel, George, In International Encyclopedia of Social Science. Op. Cit., P.199.

(3) Ibid., P. 200.

للاختلاف يحتوى الصراع على بعض من الايجابية. وتبدو لنا الظاهرة الاجتماعية فى ضوء جديد حينما ينظر إليها فى ضوء تلك الطبيعة السوسولوجية للصراع. تلك الطبيعة التى تبدو بوضوح أكثر فى نطاق العلاقات بين الناس عنها بين الفرد والموضوعات. ومن خلال المادتين الذاتيتين المتمثلتين فى : الوحدة الفردية ووحدة الأفراد أو المجتمع^(١).

ويتضح لنا مما سبق أن زيمل ينظر إلى التفاعل بين الكائنات الانسانية باعتبارها كيانات ذاتية محتوى فى داخلها على مضامين سيكولوجية. وكذلك باعتباره مميّزا عن التفاعل بين الانسانية والبيئة الخارجية أو عالم الموضوعات بحيث يمكن ادراك الصراع فى ضوء التعبيرات والدلالات السيكولوجية من حب وكره، وتنافر وتناقض.

ولقد جاءت معالجة زيمل للصراع فى نطاق نزعتة الوظيفية. ومن خلال اتجاهه السيكولوجى فى دراسة العلاقات والتفاعلات الاجتماعية المختلفة بحيث تؤدي وظائفها فى اطار الوحدة الكلية المجتمعية. اذ أوضح زيمل أن أشكال وصور التفاعلات التى تأخذ هيئة صراع وتعتبر معوقة لوحدة الكل الاجتماعى مثل: علاقات التضاد Contrary والمعارضة Contradication والصراع Conflict، تعمل فى اطار تلك الوحدة الكلية. وأوضح زيمل فى هذا الصدد أن الاختلافات والتناقضات التى تأخذ اتجاهات سلبية أو ايجابية فى أشكال وصور الصراع تشكل فى مجموعها الصورة الكلية للمجتمع الذى يعيش فيه وتتطور من خلال. ولا يجب أن تعتبر اتجاهات الخلاف والمنافسة معوقة لوحدة الكل الاجتماعى. وبالتالى يمكن الاشارة إلى أن الوصول إلى التوافق والانسجام وتحقيق الوحدة ينبع من توحيد التفاعلات الفردية ضد النزاعات، إذ يشير تلك الوحدة وهذا التوافق إلى

(1) Simmel, George, "Cpnflict Sociation" , Op. Cit., P. 200.

التركيب الجماعى الكلى لاتجاهات الأشخاص فى تفاعلاتهم^(١).

كما أشار زيمل إلى أننا عادة نهتم بظاهرة الجماعة التى نشعر بوجودها الموحد فى إطار محتوياتها الوظيفية ووحدة الخارجية. ولا نهتم بالابعاد الأخرى المختلفة للوحدة والتعارض. ومن ثم يجب علينا أن ندرك أن التعارض إذا كان يتبعه تخطيط الشخصية لدى أفراد معينين، فقد يكون له كذلك دورا إيجابيا فى العديد من صور الصراعات الأخرى^(٢).

وننتهى من مناقشتنا للتفاعلات الاجتماعية التى تأخذ هيئة صراع فى إطار العمليات الاجتماعية لدى زيمل إلى أن اهتمامه بها قد جاء فى إطار علم الاجتماع الشكلى أو الصورى. وأن تلك الصور والأشكال المجردة للصراع هى فى مضمونها وتحتواها تحمل عناصر سيكولوجية مثل: الاتفاقات، والاختلافات، والاهتمامات، والدوافع الفردية الذاتية، واتجاهات إيجابية وسلبية. ولكن تلك العناصر السيكولوجية المتناقضة فى النهاية تعمل فى إطار اتجاهه الوظيفى ومنهجه القائم على التمييز بين الشكل والمضمون. وتتجه نحو تحقيق وحدة الصورة أو الشكل الكلى، وتعتبر جوهرية من خلال الدور الذى تؤديه وظيفيا فى إطار الشكل الذى تنتمى إليه. وبحيث تؤدي فى النهاية إلى تقدمنا وتطورنا فى إطار الكل الذى تنتمى إليه سواء كان جماعة أو مجتمع كبيرة.

(1) Simmel. George. "Conflict Sociation", Op. Cit., PP. 200-201.

(2) ويشرح زيمل تلك الواجهة الوظيفية العضوية السيكولوجية فى فهمه للصراع فى نطاق علم الاجتماع الشكل أو الصورى، بأن صورة الصراع تحتوى فى مضمونها على (قوى إيجابية)، (قوى سلبية) وأن تلك القوى تعبر عن حالة اجتماعية سيكولوجية للتناقض بين تصورين أكثر عمومية فى الحياة ويدعو أن بوجه عام متعارضين. فأحد هذين التصورين يقدم الواجهة الإيجابية للحياة، والآخر يقدم الواجهة السلبية. وبالتالي فهما يمثلان العلاقة بين السعادة والمعاناة، والحقيقة وعكسها. والنجاح والفشل. ولكن الواجب علينا أن نعتبر ذلك الاختلاف والتضاد يحدث بين تصورين فى حياة واحدة، وأن نسمح للمعنى الكلى لوجودنا أن ينمو فى إطار كلا الجانبين.

Simmel, George, Op. Cit., PP. 202 - 203.

(ج) سيكولوجية صور علاقات السيطرة كشكل من أشكال التفاعل:

لقد درس زيمل أشكال السيطرة Forms of Domination، وجاء اهتمامه بها في اطار اختلاف أشكال التفاعلات والعلاقات الاجتماعية التي ينهض بدراستها علم الاجتماع الشكل لديه. ورأى أن أشكال السيطرة لا تخرج عن كونها حالة من التفاعل توجد الرغبة في أن يفرض الفرد تأثيره التام وفكرة غنى الآخر، بحيث يكون هذا التأثير بعيدا عنه. وأوضح زيمل أن هذا الشكل من السيطرة يمثل حالة من حالات التفاعل. وعندما نقوم بتحليل مضمونه نجد أن حالات التأثير على الشخص الآخر سلبيا أو ايجابيا تفرض نفسها داخل الشخص المسيط .. وذلك على اعتبار أنها تعد نتاجا لارادته ويكمن مغزاها في احساسه الذاتي بقوته وقدرته على التأثير^(١)، كما أضاف زيمل في هذا الصدد «أن الرغبة في السيطرة لا تمثل في بعدها النهائي الأنانية أو حب الذات. وذلك على اعتبار أن السيطرة يكون القصد منها هو القضاء على الميل الداخلي للخضوع. أما الأنانية أو حب الذات فهو عادة يهدف إلى الانتصار على المقارنة الخارجية^(٢)».

ويتضح مما سبق أن زيمل ينظر إلى أشكال السيطرة على أنها علاقات تفاعلية تقوم في جوهرها على المشاركة. وهذا يعني أن السيطرة لا تعنى الخضوع التام من أحد الطرفين، طالما أن كلاهما يحمل نفس المعنى لمفهومها. ويجد لديه مقاومة داخلية للخضوع ويعمل على تحطيمها. وهذا يعني كذلك أن زيمل قد فهم التأثير الذي يفرضه الشخص على الآخر يكون من زاوية الاقتناع، كما يكون مصدره نابع من قدرته الذاتية وشعوره بقوته وقدرته. ويدعم هذه النظرة ما أوضحه تيماشيف من أن زيمل يرى لدوافع سيكولوجية وتتطلب فهمها تحليل التفاعل النفسى فيما بينهم^(٣).

(1) Simmel, George, "Forms of Domination " , In Coser and Rosenberge, (eds) Sociological Theory Op. Cit., PP. 124 - 125.

(2) Ibid., P. 125.

(٣) نيقولا تيماشيف ، مرجع سابق، ص ١٤٧ - ١٤٨.

ثم قدم زيميل تحليلًا سيكولوجيًا لمضمون شكل السلطة وعلاقتها بالهبة أو المكانة في إطار تحليلاته السيكلوجية غتويات صور العمليات الاجتماعية. وأوضح أن بناء السلطة وأهميته في الحياة الاجتماعية يأتي من سبيلين: «الأول يتمثل في أن الشخص يمثل السلطة قد يكون في ذاته مركز اهتمام، ومرغوب فيه بطريق مباشر أو غير مباشر من حيث وأن آرائه المستفيضة وإخلاصه وإقناعه. ومن ثم يكون متمتع بالامتياز والثقة البديهية في قراراته الذي يتفوق فيها على الأقل من خلال الجزء المتعلق بقيمة الذاتيه. والثاني يعنى أن السلطة يمكن أن تأتي من اتجاه مضاد يتمثل في القوى فوق الفردية مثال: الدولة State، أو الكنيسة Charch، أو المدرسة School، أو العائلة Family، أو التنظيمات العسكرية Millatry Organization. وذلك باعتبار أن تلك النظم تضيف على الشخص السمعة الحميدة وقوة في قراراته التي تتبع بثقة وموضوعية بعيدا عن ذاتيته. بمعنى أن الشخص يرتقى من القيم الشخصية إلى القيم فوق الشخصية التي تمنح شخصيته واجهة السيادة في السلطة الموضوعية»^(١).

ثم اشار زيميل بصدد التمييز بين كلا هذين النوعين من السلطة إلى أن النموذج الأول يطلق عليه بالهبة أو المكانة ويكون مميزاً عن السلطة الموضوعية، لأن السلطة الهبة تعتمد على الأساس الخاص بالذات العليا. وانتهى زيميل إلى أن الشخص موضع سلطة الهبة يحتاج في اثبات شخصيته وتدعيم قيادته إلى القوى الموضوعية، التي تعد جثماناً للشعور بجانب القوى الضرورية الداخلية. وبالتالي كانت السلطة الموضوعية. ولذلك كانت سلطة الهبة أو المكانة تملئ علينا في الغالب الولاء الاختياري للشخص المفضل. في حين يكون الاقتناع والقبول تجاه السلطة الموضوعية دافعا إلى حرية أكثر عمقا في أداء الفعل أكثر مما يحدثه السحر المنبعث من القائد الروحي Spiritual Leader^(٢).

(1) Simmel, George, " Forms of Domination", Op. Cit., 126 -127.

(2) Simmel, Ibid, P. 127.

ومما سبق يتضح لنا أن زيميل قد اتخذ اتجاهها سيكولوجيا في معالجته لمحتوى صور وأشكال السلطة، سواء أكانت سلطة موضوعية أو سلطة المكانة أو الهيبة. وحدد المبادئ السيكولوجية التي تنهض عليها شخصية موضع السلطة في كلا النوعين.. ثم قيام كلا نوعي السلطة على علاقات التفاعل والتأثير بين موضع السلطة وتابعيه. وقد أوضح كيرت وولف في هذا الصدد أن مناقشة زيميل السيكولوجية لمحتوى نوعي السلطة تسير مفهومه الرئيسي الذي وضعه لعلم الاجتماع الشكلي أو الصوري. والذي يوجب على عالم الاجتماع أن يجرد الصور والعلاقات والعمليات عن محتواها الاجتماعي، لأن الصور والأشكال تختلف عن محتوياتها الحسية.. إذ يتضح ذلك في تمايز الصور اللغوية المجردة عن محتوياتها اللفظية، وكما تنفصل الصور الهندسية عن مبنائها المادي الشخصي^(١).

ويتدعم هذا المحتوى السيكولوجي لكلا نوعي السلطة من خلال علاقة التأثير والتأثر بين القائد وتابعيه. إذ يشير زيميل في هذا الصدد إلى أن المحتوى الداخلي لأشكال العلاقات الاجتماعية يبين القادة والتابعين تبدو في : علاقة المتحدث بتابعيه، والمدرس بفصله.. وأوضح أنه في إطار علاقات التأثير والتأثر المتبادله فإن القادة يمكن أن يتقادون إلى تابعيهم في حالات عديدة. وأشار إلى قول أحد كبار القادة الألمان مشيرا إلى تابعيه أنا قائدهم ولهذا يجب أن أتبعهم. كما يظهر ذلك بصورة واضحة في عمل الصحفي Journalist الذي يبت اتجاه الآراء لدى الجمهور فيما يكتبه، وفي نفس الوقت يكون مستيقظ لتحسس ماذا تكون عليه الاتجاهات والميول لدى الجماهير Mass. كما أنه قد يكون وقد يكون واقع تحت التأثير الواسع للرأي العام في اطا ما هو سائد من آراء عامة Public Suggestions^(٢).

(1) Wolf, Kurt, The Sociology of George Simmel. (ed) and Trans (by) Kurt, Wolf., New York : A free press, 1964, P. 23.

(2) Simmel, George , "Forms of Domination", Op. Cit., PP. 128 - 129.

وهكذا يتضح لنا أن زيميل فى تحليله لمحتويات التفاعل الخاصة بصور وأشكال علاقات السلطة وأوضح أنها تنهض فى جوهرها على علاقات التأثير المتبادل سيكولوجيا بين القادة وتابعيهم. وهو ما يعكس تحليله السيكلوجى لمحتواها فى اطار المشاركة والتفاعل.

٤- سيكولوجية التغير فى عضوية الجماعات الشاذية :

عالج زيميل ظاهرة الجماعات الثنائية والثلاثية فى هيئة أشكال من العلاقات الاجتماعية المعقدة. وأوضح أنه يمكن تقديم الطبيعة السوسيلوجية النموذجية لشكل ظاهرة العلاقة بين العضوين فى الجماعة الثنائية من خلال المشاركة عن طريق حقيقتين : الأولى - تعنى أن التباين والاختلافات أو توحد الدوافع بين الأفراد لا يغير من ماهية هذه الأشكال من العلاقة. والثانية - تعنى أن تلك الأشكال الثنائية من العلاقات قد توجد بين : جماعتين أو تنظيمين أو دولتين، كما هو بالنسبة لوجودها بين الأفراد^(١).

وأوضح زيميل أن الاختلاف بين الجماعات الثنائية وغيرها من الجماعات الكبيرة يتمثل فى كونها فى اطار عنصرها تملك علاقات تختلف عما يوجد لدى الجماعات الكبيرة فى اعدادها . بمعنى أن كلا الطرفين يشعر بذاته فى مواجهة الآخر وليس فوقه، ويكون بناء الجماعة مرتكز على الفرد والآخر، وأن الانشقاق من أحد الطرفين سيكون مدمر للآخر. ومن ثم فالجماعة الثنائية لا تجلب الحياة الفردية التى يعتمد فيها الفرد على ذاته. لأن الاعتماد الثنائى بين الطرفين يجعل من التفكير فى وجودها مرتبط بفناءها بصورة دقيقة. وهذا يعنى أن تصور الموت بالرغم من كونه يشكل جزء من الوجود ذاته، ومن تكيف وتوافق

(1) Simmel, George, "The Dyad and the triad", In Coser and Rosenberg, (eds) Sociological theory. Op. Cit., PP. 56 - 57.

الأفراد مع الوجود لأنه يمثل حقيقة تكمن في الحياة منذ بدايتها. إلا أن حقيقة الموت بالنسبة لأى من طرفى الجماعة الثنائية لا تمثل تراجعها اجتماعية على المستوى الواقعى فقط، بل تمثل أيضا مشكلة عاطفية كبرى ترتبط بخطورة عدم التعويض. وذلك على عمس الجماعات الكبرى فى اعدادها والتي لا تؤثر حقيقة الموت على استمرارها فى الوجود^(١).

ويتضح لنا مما سبق أن زيميل أراد الوصول إلى أن الجماعة الثنائية كشكل اجتماعى إذا ما حللنا مضمونها سوف نجد محتواها سيكولوجيا يعتمد على علاقات المشاركة المباشرة والتأثير المتبادل والمعتمد على كلا الطرفين.. أى أن العلاقة بينهما تكون عضوية سيكولوجية تأتى فى اطار شعور كل واحد منهما لعدم تعويض الآخر وحاجته إليه من أجل استمرار الجماعة وبقائها.

ويشير زيميل فى هذا الصدد إلى امكانية التنسيق بين ثلاثة عناصر اجتماعية بعد دخول عنصر ثالث فى العلاقة. ومن ثم ناقش الوظيفة الاجتماعية التى تركز على مبادئ سيكولوجية لهذا العنصر الثالث أو الوسيط. وجاءت هذه المناقشة فى ضوء وجهة النظر التى ترى أن الأعضاء المتفصلين يكونوا متحدين فى اطار علاقاتهم المشتركة بالظاهرة التى تكمن خارجهم. فعلاقة الزوجين مثلا حينما يأتى الطفل كعنصر ثالث - وسيط - فهو يملك وظيفة التمسك بالكل مجتمعا، من خلال حاجته للرعاية والاهتمام لأطول وقت ممكن. والنتيجة أن الطفل يخلق دائرة العلاقة بين الزوجين ويقويها تجاه بعضها البعض. كما يخلق الوحدة العاطفية وبالتالي تتحقق المشاركة الداخلية بين الأعضاء الثلاثة من خلال ارتباطهم فى الواقع وأبضا ارتباط مشاعرهم وعواطفهم الداخلية^(٢).

(1) Simmel, George, "The Dayad and the traid", Op. Cit., PP. 57-58.

(2) Simmel, George, Ibid., Op. Cit., PP. 59 - 60.

كما كشف زيمل عن المغزى الهام للدور الذى يقوم به الوسيط فى تطوير المؤثرات السيكولوجية بين الطرفين. وذلك باعتبار أنه يمثل نموذج مرغوب فيه يؤدى إلى التوافق بينهما، كما يعمل على تجنب حالات الصراع التى تتحول فيها الجوانب الموضوعية إلى جوانب ذاتية بين العضوين. بحيث تصل تلك العلاقة إلى حالة المشاركة الداخلية بين الأعضاء الثلاثة والاتفاق والتوحد بدلا من الصراع والتنافر^(١). وقال زيمل فى هذا الصدد «أن وجود العضو الثالث يخدم استمرار الجماعة. فهو يكون موجهها لادراك وإرادة واحساس العضوان الآخران ... ولذلك ينظر إلى علاقتهما ... كثمرة لتلك الوحدة السيكولوجية التى استقرت فى حياة الجماعة من خلاله .. حيث يلف من غرائز الطرفين، ويكون موجهها لكل لحظة فى حياة الجماعة»^(٢).

وهكذا يتضح لنا أن زيمل قد عالج الانتقال والتغير فى شكل الجماعة الشاذية إلى الشكل الثلاثى فى اطار المحتوى السيكولوجى لها. وأيضاً من خلال التغير السيكولوجى الذى يحدثه وجود الوسيط. والذى يجعل علاقة الطرفين أكثر التصاقاً وعمقا، ويوجد الوحدة العاطفية بين الطرفين. بحيث يزداد حب الزوج لزوجته وتصل تلك الوحدة السيكولوجية العميقة إلى نوع من الاتفاق والتوحيد بدلا من التنافر. وقد أشار كيرت وولف إلى أن معالجة زيمل لعلاقة التغير فى عضوية الجماعات الثنائية «قد جاءت فى اطار المشكلة الرئيسية التى دار حولها البحث فى الفكر السوسيولوجية وهى التفسير السيكولوجى لأنماط العلاقات الانسانية فى ضوء العمليات الاجتماعية»^(٣).

(1) Simmel, George, Ibid. PP. 61 - 62.

(2) Ibid. P. 56.

(3) Wolff, Kurt, Sociology of George Simmel, Op. Cit., P. 23.

٥ - خاتمة الفصل الثامن

بعد عرضنا لاتجاه السلوكية الاجتماعية. فى دراسات جورج زيميل الاجتماعية. سنحاول الان الوقوف على مدى اسهامه فى تقديم اطار نظرى سيكولوجى؟ ومدى استخدامه له فى دراسته الاجتماعية؟ والتي شملت تطور الشخصية الانسانية وسلوكها. ثم تفسيره السيكولوجى للمعاملات الاجتماعية. وأخيرا تحليله السيكولوجى للتغير فى عضوية الجماعات الشائبة. كما سنحاول خلال عرضنا لمدخله السيكولوجى الذى استخدمه فى دراساته الاجتماعية أن نوضح المفاهيم والتصورات السيكولوجية التى اعتمد عليها فى تحليلاته وتفسيراته المختلفة.

ويمكن الاتفاق مع جراهام كينلوشن فى هذا الصدد أن اسهامات زيميل النظرية بوجه عام قد جاءت فى اطار السيكولوجية الاجتماعية، واتخذت اتجاها وظيفيا. اذ وضع هذا الاتجاه الوظيفى فى عدم نظره للمجتمع من الناحية العضوية. بل باعتباره مجموعة متفاعلة من الافراد ويعتمد على الوظائف المختلفة للمشاركات والتفاعلات أكثر من اعتماده على الواقع المستقل. وبالتالي فعلم الاجتماع لديه يهتم بدراسة اشكال التفاعل المختلفة والمشاركات^(١).

ولذلك يمكن القول أن أعمال (جورج زيميل) George Simmel الاجتماعية، قد يقبته على أرضه صلبة وإن (فون فير) Lepold Von Wiese قد عمل باتساع من خلال التقليد السيميل، وخصوصا مجهوداته فى تصنيف وترتيب الأشكال التحليلية للتفاعل الاجتماعى، وإذا كنا نجد «عميد الاجتماع الألماني» ماكس فير قد ذهب بتفكيره فيما يتعلق بالديانة المسيحية البروتستانتية فى اتجاهات سيكولوجية مختلفة فى علاقتها بالرأسمالية الحديثة، إلا أنها كانت غرض جزء كبير منها على تأكيدات (زيميل) على أهمية العمليات التفاعلية^(٢). تلك التى

(1) Kinloch, G.C., Op. Cit., P. 153.

(2) Goser and Rosenbery .: Sociological Theory : Op. Cit., P. 56.

أعتبر أن «مختواها» يتكون من القوى الدافعة، والدوافع الشورية، والأغراض ، والاهتمامات أما أشكال أو صوراً تلك العمليات التفاعلية فلم يكن يشكل كيانات بنائية حقيقة ولكنها تمثل واجهات تحليلية مجردة للواقع الاجتماعي^(١).

وقد بدأ هذا الاتجاه السلوكي الاجتماعي في دراسة زيمل للعمليات التفاعلية الاجتماعية في إطار مساهمة للاتجاهات العقلية السائدة في عصرها وتمثله في إطار التعديل المتلائم مع راجعات نظره، والتي شكلت الاتجاهات السيكولوجية جزءاً منها، فلم يقبل النظرية «المادية الماركسية» في تركيزها على الواقع المادي الخارجي، وفسر الاغتراب في إطار التناقض الناجم من الحالة الداخلية للفرد مع الواقع المادي الخارجي ، بل أنه في إطار تطويره لهذا التصور وصل الى أن المجتمع لا يمثل حالة فيزيقية بل يمثل ظاهرة «شعورية» ، وكان ذلك على عكس ما يرى «المذهب الكانطي» في تفسيره للحياة ونظرتيه اليها من خلال الطبيعه . وقد نمضى هذا الاتجاه لدى (زيمل) في ان رأى المجتمع يميل «بصورة أو الشكل الذى يتحقق في الحياة الاجتماعية وتتخذ شكلاً نمطياً يتميز عن مضمونه. أو محتواه الذى يخضع للتغير المستمر» وإن المهمة الرئيسية التى يجب أن يرضع بها على الاجتماع الصورى أو الشكلي هذا لديه تتمثل في تحليل تلك المحتويات المجتمعية التى تكون خاضعة للتغيرات وذات محتوى نفسى، وهى تشبه التحليل الهندسى لظواهر العلوم الطبيعية، بمعنى أن الأشكال الهندسية يمكن أن تكون تنوع «المضمون» والمحتوى كما هو فى الأشكال والصور الاجتماعية^(٢).

وإذا كان (ماكس فيبر) قد نبذ فكرة (زيمل) عن العلم «الاجتماعى الصورى» فى مقالته عن «الموضوعية فى علم الاجتماع» حيث قال «عندما نأخذ كلمة اجتماعى بمعناها العام ، فليس هناك وجهة خاصة فى تفسيرها ، غير

(1) Simmel, George.; "Encyclopedia of Social Science " Op. Cit., P. 255.

(2) Ibid, P. 56.

تلك التي ترى أن معزاها يوجد في الأسس الثقافية القابلة للتحليل»^(١). فإنه يمكن القول في هذا الصدد إن التحليل السيكولوجي في تفكير (فيبر) كان على مستوى دوافع الفعل حيث يعرف الفعل «بأنه سلوك انساني، ظاهر أو مستقر يمنحه الفرد الفاعل معنى ذاتيا، فالسلوك الذي يخلو من المعنى الذاتي لا ينتمي إلى الدراسة السوسولوجية المتعمقة»^(٢). أما التحليل السيكولوجي في محتوى علم الاجتماع الصوري لدى (جورج زيمل) لم يكن على المستوى الدافعي للفعل الفردي الموجه إلى سلوك الآخرين، بل كان ينصب على التحليل الوظيفي العضوي للتطور الاجتماعي للشخصية في إطار الاختلافات الاجتماعية والعمليات الاجتماعية، والجماعات الممتدة، تلك التي تلعب دورا هاما في نمو وتطوير الشخصية الإنسانية. وكان ذلك في إطار نظرية إلى «وحدة وشكل المجتمع» على أنها تتكون فقط بواسطة التفاعل الوظيفي العضوي بين أجزائه، والذي أستاذ معه (أو ثمار أسيمان) Othmar Spman وأطلق عليه بأنه عضوي اجتماعي سيكولوجي^(٣).

ولقد كان (جورج زيمل) بالإضافة التي كونه مؤسس المدرسة الشكلية في علم الاجتماع مباحا أيضا في تجميع اهتمام العلماء السوسولوجيون على أهمية دراسة العمليات التفاعلية في إطار اتجاهه الوظيفي العضوي السابق، ورأى أن هناك امكانية في اكتشاف الأشكال والصور الخاصة «بالتفاعل» من خلال عناصره النمطية الثابتة نسبيا، تلك التي عالجه في بحوثه المتعددة عن «الصراع» المنافسة، العلاقات الرئاسية، ودور الغريب، التغير في عضوية الجماعة من عضوين إلى ثلاثة^(٤). وتتناول تلك العمليات التفاعلية داخل إطار الجماعات الممتدة، والتي عالجهها فيما يتعلق بالاتجاه النفسي في دراسات جورج زيمل -

(1) Rex, John., Topology and Objectivity; Op. Cit., P. 30.

(٢) نيقولانثاشيف، مرجع سابق، ص ٢٦.

(3) Simmel, George; Op. Cit., P. 254.

(4) Ibid; P. 56.

يتضح لنا أن معالجة لتطور الشخصية الانسانية فى اطار العمليات الاجتماعية والجماعات الممتدة ومن منظور وظيفى عضوى ، حيث كانت هذه المعالجة فى اطار نظريته الأساسية التى يتناها فى دراسة الظواهر الاجتماعية والتى تتمثل فى اختلاف «الصورة عن المحتوى» بالاضافة إلى أنها أيضا كانت فى اطار المشكلة الرئيسية التى دار حولها البحث السوسولوجى الألمانى، وتجلت فى فكرة فى مطلب التفسير السيكولوجى Psychological Explanations لأنماط العلاقات الانسانية، فى ضوء تطور العمليات الاجتماعية، ودراستها على أنها أشكال خالصة تمتلئ فى محتواها بالتجربة السيكولوجية، وأنه ي جب دراستها وفهمها فى ضوء مضامينها السيكولوجية وجزيئاتها المتمثلة فى الدوافع الفردية، والقوى الباعثة، والاهتمامات المختلفة، والأغراض الذاتية، وكان ذلك إنطلاقا من تصوره الخاص لعلم الاجتماع الشكلى لديه الذى سيطر إلى المواقف الاجتماعية على أنها نتاج لمحتوى نفسى معين يوجد عند الأفراد فى هذه المواقف. وقد كان (زيمل) واضحا فى مجال تحديد مجال علم «الاجتماع الصورى لديه» والذى ينظر إلى المجتمع على أنه ظاهرة «شعورية» وليس «فيزيقية» كما هو عند (كانط)، وإن مكوناته التى تشكل «محتواه» هى : التفاعلات والاعتمادات الداخلية التى تشكل حقيقة كافية، بمعنى أن «تصور أو شكل ، المجتمع لديه فى جملة يمثّل مادة «للشعور» فى محتوياته المشكلة، حيث نظر «زيمل» إلى تلك التفاعلات الاجتماعية داخل اطار الجماعات الممتدة على أنها تقوم بأدوارها فى اطار الاختلافات المتباينة للوظائف التى يقوم بها الأعضاء فى اطار الاتجاهات نحو الحفاظ على الجماعة ووقايتها، بتلك الاتجاهات التى لا تعتمد على القوى التى توجد داخل الجماعة وتدافع من يكابنزماتها الكلية، بل أنها تعتمد أيضا على الاهتمامات الذاتية للأعضاء المشكّلة لها نحو تحقيق التضامن الجماعى تجاه انجاز الوظائف المختلفة داخل إطارها ، وهو ما يمثّل الميكانيزمات السيكولوجية الوظيفية العضوية فى نسقه السوسولوجى والتى تؤدى إلى تطور الشخصية الانسانية داخل إطار تلك الجماعات الممتدة.

ويمكر القول أن ريمل حاول تقديم مدحلا وظيفيا سيكولوجيا يسكر من خلاله دراسة وتحليل اشكال العمليات الاجتماعية . وصور اشركات متعددة كما حاول تحديد المهمة التي ينهض بدراستها علم الاجتماع من خلاله ، وحددها بالتمييز بين دراسة الشكل والمضمون لأشكال السلوك ، والعمليات التفاعلية ، والمشاركات الاجتماعية . ثم دراسة المحتوى السيكلولوجي لتلك الأشكال في ضوء المفاهيم والتصورات السيكلولوجية . وقد وضع ذلك في تحليله الوظيفي السيكلولوجي لتطور الشخصية الانسانية داخل الجماعات الممتدة ، من خلال عمليات التأثير والتأثر والتي تؤدي إلى نموها . وحلل زيمل ذلك النمو في اطار الاتجاهات الوظيفية السيكلولوجية المتعلقة بالتخصصات المختلفة للأفراد . والتي تؤدي إلى تضامنهم وتخلق اتجاهات ذاتية في حياتهم تفهم من حالات التفكك والصراع ، وبالتالي تتطور شخصياتهم . كما فسر زيمل السلوك الفردي داخل نطاق تلك الجماعات الممتدة وجاء تفسيره وتحليله في ضوء الدوافع الفردية وردود الافعال السيكلولوجية .

كما يبدو هذا الاتجاه الوظيفي السيكلولوجي بوضوح في تحليل زيمل للمحتوى السيكلولوجي لأشكال وصور العمليات الاجتماعية . وأولها - تحديد السيكلولوجي لمضمون أو محتوى أشكال التفاعل بالدوافع الفردية ، والطاقت الدافعة ، والاهتمامات والاعراض الذاتية . ثم في تحليله للمحتوى السيكلولوجي لشكل الصراع باعتباره يمثل نوعا من أنواع المشاركة . واعتبر أنه ينهض على الاختلافات ، والاهتمامات ، والدوافع الفردية التي تأخذ هيئة اتجاهات ذاتية أما ايجابية أو سلبية . كما وضع هذا التحليل الوظيفي السيكلولوجي . لدى زيمل في تمكين الأشكال المسيطرة والسلطة كشكل من أشكال التفاعل . وجاءت تحليلاته في ضوء المشاركات ، والرغبات والميول ، والقدرات الذاتية ، والقيم الشخصية والقيم الموضوعية ، وأحيرا علاقات التأثير والتأثر

كما يلاحظ كذلك أن معالجة كذلك أن معالجة زيمل للتغير في شكل الجماعة الثنائية إلى جماعة ثلاثية من خلال الشخص الثالث أو الوسيط هو تغير ذات محتوى سيكولوجي. ولقد جاء هذا التحليل في اطار نظريته الاساسية التي تبناها في دراسة السلوك، وعلاقات التفاعل، والظواهر الاجتماعية. فلقد انصب اهتمام اتجاهه النظري على ضرورة التمييز بين المضمون والشكل في دراسة تلك الموضوعات، وانتهى إلى أن المحتوى في الغالب يشمل نتائج سيكولوجي. وبالتالي حلل محتوى شكل الجماعة الثلاثية من خلال الدور السيكولوجي الذي يلعبه الطفل في توثيق العلاقة بين الزوجين. فهو الذي يأتي بالوحدة العاطفية الناجمة، كما يحقق الاتفاق والانسجام في الحياة الزوجية ويقلل من فر التافر.

أما عن اسهام زيمل في مجال منهج علم الاجتماع من خلال اتجاهه الوظيفي السيكولوجي، يمكن القول أنه في اطار علم الاجتماع الشكلي واهتمامه من خلاله بدراسة أشكال التفاعل والمشاركات الاجتماعية. استخدم زيمل أساليب منهجية متعددة منها «التجريد، والتحليل، والمقارنة»^(١). ولكن أهم هذه الأساليب المنهجية ويعتبر استخدامه لها اضافة إلى مناهج علم الاجتماع من خلال اتجاهه السيكولوجي، هو «تشجيعه استخدام النماذج الاجتماعية في التحليل والتي تسهم في دراسة البناء الاجتماعي. ومن ثم حلل نماذج: الغريب، الوسيط، والرجل الفقير»^(٢).

(1) Kinloch, G.C., Op. Cit., P. 154.

(2) Ibid., P. 154.

الفصل التاسع

السلوكية الاجتماعية لدى كارل مانهايم

٢- المحتوى الذاتى لتوافق السلوك أو العقل مع المعنى فى اطار العمليات الاجتماعية.

٣- اثر الغرائز فى تشكيل العادات كنمط سلوكى.

أ- العلاقة بين الغرائز وأثرها فى تكوين العادة.

ب- ميكانيزم صنع العادة.

ج- التطور فى نماذج التقليد.

٤- التفسيرات السوسيو سيكولوجية للشخصية الانسانية .

أ- الكبت أو القمع.

ب- التسامى أو المثالية.

٥- خاتمة الفصل التاسع.

الفصل التاسع

السلوكية الاجتماعية لدى كارل مانهايم

KARL MANHAIM

يرى مانهايم أن علم الاجتماع يهدف إلى التنسيق بين دراسات مجالات العلوم الاجتماعية المختلفة. وأوضح نيقولانيماشيف أن هذا الرأي يعود بنا إلى مبنس، ولكن مانهايم يختلف عن مبنس في أن تعريفه لعلم الاجتماع يأتي في اتجاه النظرية العامة في المجتمع أو العملية الاجتماعية. اذ يتفق مانهايم في تعريفه لعلم الاجتماع هذا مع تعريف سوروكن الذي يركز على دراسة عمليات الارتباط الاجتماعي اندماج الناس في جماعات بنائية. ثم دراسة المعاني التي تربط الناس أو تفرق بينهم في علاقاتهم بالأبنية الاجتماعية^(١).

وسوف نحاول أن نلقى ضوءاً على الاهتمامات السيكولوجية في دراسات كارل مانهايم الاجتماعية من خلال معالجتنا لكل من : أولاً - المحتوى السيكولوجي لتوافق السلوك أو الفعل في اطار العمليات الاجتماعية مع المعنى. وثانياً - تأثير الفرائز في تشكيل العادات كنمط سلوكي من خلال : (أ) العلاقة

(١) نيقولانيماشيف ، مرجع سابق ، ص ٤٦٧ .

عاش كارل مانهايم في الفترة من (١٨٩١ - ١٩٤٧) عالماً ألمانيا. وولد عن أب هنجاري وأم ألمانية، ثم درس في بونابست، وفرايبورج، وباريس، وهيدلبرج. وكان متأثراً بشكل قوي بالماركسية، كما بالكاتطية الحديثة. وتأثر أيضاً أكثر من أى عالم آخر بماكس فيبر وبعتبر الوريث العقلي لأبي لتقليد فيبر العقلي في جمهورية فايمار. وقدم مانهايم في مجال عمليات التطور واحد من الدراسات الهامة من سوسيولوجية المعرفة في كتابه Ideology and Utopia (١٩٢٩). ويصدد الأحداث السياسية في عام (١٩٣٣) أجبر مانهايم للذهاب إلى إنجلترا وأصبح أستاذاً في جامعة برلين. وأنتج باهتماماته إلى تشخيص وحل مشكلات التاريخ الاجتماعي الأوربي وأجمل آرائه في كتابه الانسان والمجتمع (١٩٤٠).

Martindall, Don, The mature and types of Sociological theory, Op. Cit., P. 44.

بين الفرائض وأثرها في تكوين العادة (ب) الميكانيزم النفسى فى تشكيل العادة. (ج) التطور فى نماذج التقليد. وثالثا - نستعرض التفسيرات السوسيو سيكولوجية للشخصية الانسانية من خلال مناقشتنا لبعض الأفكار الرئيسية فى التحليل بجانب الأنماط السلوكية السابقة. وهى : اللاشعورية أو الكتب أو القمع ، ثم التسامى أو المثالية.

٢- المحتوى الذاتى لتوافق السلوك أو الفعل فى اطار العمليات الاجتماعى مع المعنى :

أورد دون مارتندال أن الاسهامات الجوهرية التى قدمها مانهام فى مجال نظرية الفعل الاجتماعى تعتبر الانجاز الأكثر أهمية فى دراساته الاجتماعية. والتى جاء اهتمامه بها من خلال واجهته النظرية التى تمثلت سيكولوجية المعرفة ^(١).

وقد أوضح مانهام فى كتابه علم الاجتماع Sestematic Sociology - والذي اهتم من خلاله بدراسة العمليات الاجتماعية - أن كل النظم العلمية التى تعالج الانسان وسلوكه لا تعتمد فى الغالب على الطبيعة التى تقف فى مقابل العلوم الاجتماعية. وأن تلك النظم تبنى الثقافات الخاصة بالمجتمعات. وهذا يعنى أن المعرفة التى تساعدنا على الفهم ال جيد لتلك العمليات الاجتماعية والثقافية تمثل نظم تضاف إلى مجال العلوم الاجتماعية. ومن ثم كانت العلوم الثقافية تنتمى إلى مجال العلوم الاجتماعية كما هى فى : الفلسفة، تاريخ الأدب، تاريخ الفن، تاريخ المعرفة، الاقتصاديات، العلوم السياسية، العلوم الأنثروبولوجية. وأصبح علم الاجتماع يمثل الاطار المركزى فى مجال العلوم الاجتماعية، ويحاول بوجه عام توحيد نتائج النظم الفرعية. وفى الجانب المقابل يمثل ايضا نظاما تحليليا لأشكال الحياة الاجتماعية كما هو فى : التفاعلات الاجتماعية، والأبعاد الاجتماعية، والانعزال والفردية، والتعاون، والمنافسة، والتكامل الاجتماعى. وانتهى مانهام إلى أنه يوجد لدينا قسمين من علم الاجتماع هما : علم الاجتماع العام، وعلم الاجتماع النظامى ^(٢).

(1) Martindall, Din, Op. Cit., P. 44.

(2) Manhem, Karl, Systematic Sociology. (edited) by J.S. Eros & W.A.C.Stewart., London:Ratledge& Kegan Paul, 1957. PP.1-3.

وفى إطار علم الاجتماع النظامى يرى مانهايم أنه يجب على السوسيولوجى حتى يكون قادر على فحص الحقائق والعمليات الاجتماعية التى تمثل عناصر التحليل السوسيولوجى المتطلب أن يضع فى اعتباره بعض العناصر السيكولوجية والتى تمثل فى : أولاً - تحليل الحاجات السيكولوجية للإنسان فى علاقتها بفهم الحقائق الاجتماعية بجانب ما تبدو عليه فى الواقع الاجتماعى. ويبدو ذلك فى ادراك علاقة الغرائز بالعادات، التحول فى العواطف، فهم البیدو، وطبيعة الاهتمامات والاتجاهات. ثانياً - أن دراسة العمليات الاجتماعية Social Processes فى المجتمع مثل : التفاعلات Contacts، والانعزال Isolation، والتنفس Competition والتعاون Cooperation، ومكونات الشخصية، تؤدي إلى الامتثال Conformity مع القواعد والمعايير الاجتماعية أو مع الفردية Individualism ثالثاً - أن تلك الأدوار السيكولوجية والاجتماعية يجب أن ترتبط بطبيعة التحليل الاجتماعى المتكامل. بحيث تتمثل تلك الواجهات التحليلية الجمعية فى : الحشد Crowd، والجماعة Group، واجتماعات الاجتماعية Social Classes^(١).

ولقد تأثر هذا الاتجاه النفسى فى دراسة الفعل والعمليات الاجتماعية لدى مانهايم - فى مجال سوسيولوجية المعرفة - بالموقف الفينومينولوجى الذى اتخذه ماكس شيلر فى مجال علم اجتماع المعرفة. وأراد مانهايم فى متابعته لهذا الاتجاه الفينومينولوجى ألا يأخذ باتجاه النزعة الظاهرية لدى كانت وهيجل، والتى لم تعترف بوجود شئ يكمن خلف الوجود الواقعى للظواهر والمواقف الإنسانية. وبالتالي اتجه إلى ضرورة عدم فصل أى مرحلة من مراحل العملية الاجتماعية عن المعانى Meaning، التى تعد انعكاساً للعنصر الذاتى فيها^(٢). وقد أكد مانهايم فى هذا الصدد - كما يقول تيماشيف - «أن المعانى الذاتية ذات الأهمية الاجتماعية

(1) Manheim , Karl, Systematic Sociology, Op. Cit., P. 4.

(2) Manheim, Kart, Essays on Sociology of knowldge. London.

Rotedge and kegan paul, 1952. P. 7.

تلعب دورا هاما في تحليل العمليات الاجتماعية المتمثلة في المواقف التعاونية. وأن كانت هناك معان متضاربة قد تنشأ في اطار تغيير الناس لأدوارهم مما يؤدي إلى الصراع بين المثل الاجتماعية المختلفة. ومن ثم يجب الاهتمام بالمعنى الذاتي السيكولوجي في تصور البناء الاجتماعي. والذي يمثل تتابع اختبارات محددة ويحظى فيه الواقع الشخصي بدور هام^(١).

ولفهم هذا الاتجاه النفسى لدى مانهايم فى اطار الواجهة الفينومينولوجية، والتي تولي اهتمام إلى المعانى الذاتية التي تكمن خلف السلوك الانساني. وسواء أكان هذا السلوك فى واجهته الفردية أو البنائية ومن خلال العمليات الاجتماعية التي تمثل عناصر السلوك الانساني، أوضح مانهايم أننا كى نحصل على ورة سليمة لتلك المتطلبات السيكولوجية يجب أن نعمل من خلال المعانى الذاتية. والتي ترتبط ببعض الأفكار الرئيسية مثل: السلوك Behaviour والموقف Situatio والتوافق Adjustment ، والعلاقة بين العادات ومشكلة الفرائز، ثم التفسيرات السوسيوسيكولوجية للشخصية الانسانية^(٢).

وبصدد توافق السيكولوجى للفعل أو السلوك فى اطار العمليات الاجتماعية مع المعنى ، ضرب مانهايم مثلا مؤداه : أنك إذا دخلت فى علاقة جديدة وكان أعضاء الجماعة أما أعلى أو أدنى فى المستوى الاجتماعى فستكون أكثر ميلا للنفور وغير متأكد من تصرفك. ويحد هذا عندما تذهب إلى أحد الأقطار الأجنبية حيث تكون عاداتك غير مألوفة، ويكون النفور دلالة على الحاجة إلى التوافق مع الموقف الجديد.

وحتى تتحاشى هذا الارتباك فاما أن تتجه إلى نوع من السلوك يناسب الموقف الجديد، وأما تسأل أى شخص عن كيفية التصرف^(٣). وقد أوضح مانهايم فى هذا

(١) نيقولايتماشيف ، مرجع سابق ، ص ٤٦٨ .

(2) Maheim , Kart, Systemtic Sociology, Op. Cit., P. 7.

(3) Ibid., P. 8.

الصدد «أن نمط السلوك السائد في الموقف السابق هو الذى يحدد العلاقة بين الدوافع، والاستجابات التى تؤدى بالكائن الى التصرف بطريقة ذاتية، حينما تتوافر لديه دوافعه الشخصية. وأن نمط السلوك السائد هذا أما أن يكون موروث أو مكتسب - أى متعود عليه - ويحتوى على أغلب العمليات الأولية التى تشكل جوهر التوافق فى سلوكنا»^(١).

وتسأل مانهايم فى هذا الصدد عن الاختلاف بين التوافق الذى يديه سلوك الحيوان عن توافقنا فى المجتمع ؟ .. وأجاب بأن الاختلاف الرئيسى يكمن فى أن الحيوانات تكيف نفسها مع المواقف وفقا لأنماط السلوك المتوارث الذى يسمى بالغرائر أما الانسان فبالإضافة إلى غرائر الثابتة فهو يكون فى حاجة إلى أنماط جديدة فى حياته . ومن خلال تلك الأنماط الجديدة يمكنه التوافق مع البيئة وأيضاً مع الأنماط الأخرى السائدة فى المجالات النفسية الاجتماعية النظامية. وهذا هو المجال الذى يميز حياتنا الاجتماعية والثقافية ولا يمكن وصفه بالغريرة البيولوجية. وبالتالي نظر مانهايم الى الثقافة على أنها تكون مكتسبة فى حياة الأفراد - عكس ما تراه النظريات السلافية من أنها مورثة - وذلك لأنها تعتمد على وسائل اللغة والتقليد من جيل إلى آخر . كما أن الثقافة ليس لها نظم ولكن لها أشكال من التوافق تتقرر فى أطار العرف وتتخذ واقعها من خلال نسق الأشكال المادية^(٢).

وهكذا يتضح لنا إذا ما نظرنا إلى الاهتمام الذى أبداه كارل مانهايم إلى دراسة مدى التوافق الذى يديه السلوك أو الفعل - فى اطار العمليات الاجتماعية - مع المعانى الذاتية التى توجد لدى الأفراد فى المواقف الاجتماعية. نجد أن تلك المعانى الذاتية هى جوهر الاختلاف بين التوافق الانسانى الذى يديه الأفراد مع البيئة وفى اطار التفاعل مع الآخرين، وبين التوافق الغريزى الذى تبديه

(1) Maheim , Kart, Systemtic Sociology, Op. Cit., P. 8.

(2) Ibid., P. 10.

الحيوانات فى سلوكها مع البيئة وينبع من وراثه سلوكها. كما يتضح أيضا أنه اهتم بدراسة المعانى الذاتية ومدى الدور الذى تلعبه فى تشكيل نمط السلوك الانسانى. بجانب التوافق أيضا الذى يديه الأفراد فى اطار تحديد تلك المعانى للعلاقة بين الدوافع التى توجد لديهم وبين الاستجابات التى يديها هؤلاء الأفراد من خلال المواقف أو الجماعات التى ينتمون إليها.

٣- أثر الغرائز فى تشكيل العادات كنمط سلوكى

وبعد أن انتهى مانهايم إلى أننا نكون غير قادرين على فهم الحقائق الاجتماعية التى تمثل عناصر التحليل السوسولوجى المتطلب أو الحاجات السيكولوجية للانسان. وأن حصولنا على صورة سليمة لتلك المتطلبات يملى علينا أن نحلل علاقة الغرائز بالعادات ومدى تأثيرها فى أحداث التوافق فى السلوك الانسانى. نرى من الملائم تناول هذه العلاقة فى هذا الصدد من خلال ثلاثة عناصر : العلاقة بين العادة والغرائز، ثم الحديث عن ميكانيزم صنع العادة، وأخيرا معالجة تطور نماذج التقليد. وذلك بهدف اظهار الدور الذى تلعبه العادات فى توافق السلوك الانسانى.

(أ) العلاقة بين الغرائز وأثرها فى تكوين العادة :

عرف مانهايم العادات «بأنها نماذج السلوك التى لا تعتبر نتاجا للوراثة ولكنها تنتج من الخبرة»^(١). وأوضح أن العادات التى تشكل فى الواقع أنماط سلوكية مكتسبة يكون مغلوطة فى فهمها على أنها غرائز Instincts. والسبب يرجع إلى أن العادات تصبح بالممارسة ولطول الوقت أوتوماتيكية. كما يكون هناك بالفعل العديد من العادات الرئيسية المكتسبة فى مرحلة الطفولة المبكرة، ولذلك نجد بعض السيكولوجيون والسوسولوجيون يتحدثون عن غريزة بقاء الذات، أو غريزة التقليد. وذلك بالرغم من أن هناك العديد من العادات التى يمكن وصفها بأنها تكون

(1) Manheim , Kart, Systematic Sociology , Op. Cit., P. 10.

اتجاهها نحو بقاء الذات أو نحو التقليد. وتلك الاتجاهات ندرتها كمعادن تؤدي بنا إلى التوافق^(١).

ويعتقد مانهايم في هذا الصدد أن المواقف المتغيرة في عالم اليوم تتطلب توافقات جديدة وأنماط سلوكية جديدة . وأنا يمكن أن نميز علاقة العادات بمشكلة الغرائز في ضوء الثلاث مراحل الرئيسية في تطور علم النفس لحديث على النحو التالي : المرحلة الأولى - وتسمى بمرحلة تثقيف العقل أو العقلانية Intellectivalism . والتي كتب جيمس خلالها عام (١٨٩٠) بأنه لم يكن هناك شيء أكثر عمومية بين السيكلولوجيون أكثر من تأكيدهم على أن الحياة الإنسانية تكون محكومة Governed بواسطة العقل Reason في حين تكون الحيوانات الدنيا مضبوطة Controlled بواسطة الغرائز^(٢).

المرحلة الثانية - بدأت بعد عشرين عاما حينما تعرف السيكلولوجيون على العديد من الغرائز في الإنسان. ولكن المشكلة كانت تتمثل فيما تكون عليه تلك الدوافع والبيوعات. ثم حلت المشكلة بواسطة السيكلولوجيون الاجتماعيون أمثال ديوي ، وزناتسكي ، ووليامز ، وديوي ، والذين أوضحوا أن الغرائز لا تضع القوانين ولا تشكل النظم، وأن الثقافة لا توجد لا في الدم ولا في جرثومة البلازما، كما أن السلالة لا تعني شيئا بالنسبة للخبرة الاجتماعية وأنشطة الجماعة. وأوضح هؤلاء العلماء وفقا لذلك أن هناك اتجاهات أساسية في حياة الناس ، كما هو في حياة الفلاحين الأمريكيين والتي تكون ناتجة من التجارب والخبرة الاجتماعية لجماعات الفلاحين^(٣).

وفي المرحلة الثالثة - يرى مانهايم أننا لكي نتخلص من اعتبار أن الحياة الإنسانية تكون محكومة بالسبب أو مضبوطة بالغريزة يجب علينا الاهتمام

(1) Maheim, Kart, Systematic Sociology , Op. Cit., PP. 10-11.

(2) Ibid., P. 11.

(3) Ibid., P. 11 -12.

بالاتجاهات Tendencies. والتي تميل إلى الثبات في اطار واجباتها المتخصصة من خلال المواقف المختلفة. وأن هذا يمثل التصور الديناميكي للفرصة، ولا يستبعد في اطاره امكانية تأثير الواجهات اللاشعورية في الخبرة الاجتماعية (1).

ونخلص مما سبق الى أن مانهايم أراد أن يوضح دور الغرائز - باعتبارها قوى ثابتة موروثة في حياة الأفراد - في تشكيل السلوك الانساني والتأثير عليه. ولكن مع وجوب الا نمنحها الدور الرئيسي الذي يكمن في جوانب الخبرات والتجارب الاجتماعية. وذلك باعتبار أن الفرد ينمو ويتطور ويكتسب خبرات جديدة تأخذ طابع التواتر الى أن تصبح عادة متعود عليها. بل أن المواقف الجديدة التي يدخل فيها الفرد تفرض عليه أنماط سلوكية جديدة ليبدى التوافق مع الآخرين. ولذلك يجب أن ننظر إلى علاقة الغرائز بالعادات التي يأخذ بها الفرد في انماطه السلوكية على تلك الغرائز توجد لدى الفرد اتجاهات نوعية. والتي تتنوع الخبرات الاجتماعية والموقف الاجتماعية والواجبات المفروضة عليه ليبدى التوافق مع الآخرين.

(ب) ميكانيزم صنع العادة

وأوضح مانهايم أن مدخل اهتمامنا بالمشكلة المتعلقة بميكانيزم صنع العادة يأتي في اطار أن أنماط السلوك التي تقودنا إلى التوافق الجيد تصبح أكثر أهمية للإنسانية لأنها توفر الوقت والجهد. وبالتالي يجب أن تكون عاداتنا متوافقة مع الحالات الجديدة والمواقف المتغيرة بسرعة في المجتمع الحديث. ويصبح الاهتمام بميكانيزم صنع الأنماط السلوكية أكثر أهمية في خلق أشكال أو أنماط سلوكية جديدة تتلائم مع توقعاتنا. وأوضح زيمل أن بداية تشكيل العادة أو نمط السلوك يرتبط بالاستجابات الخاصة بالدوافع، وذلك باعتبار أن الدوافع الأولية تستوجب استجابات أوتوماتيكية في السلوك مباشرة. ويمثل ذلك حالة الطفل الجائع الذي

(1) Manheim . Op. Cit., 12.

يقبل على الرضاعة كنمط سلوكي غريزي، وتأتي الاستجابة متوافقة بيولوجيا مع الدافع^(١).

وأوضح مانهايم في هذا الصدد أن الانماط السلوكية أو العادة إذا كانت ترتبط في البداية بالاستجابات الخاصة بالدوافع. إلا أن للمجتمع الحديث أنماطه السلوكية والتي لا تتكون فقط من خلال الاستجابة للدافع الغريزي. وأن هناك ميكانيزمات أولية تمكن من تشكيل استجابات لا تعتمد على دوافع بيولوجية خالصة. بل تكون هذه الاستجابات مشروطة بانعكاسات مكتسبة. فإذا كان بافلوف Pavlov رأى أن الكلاب الجائعة تستجيب أساسا لتقديم الوجبة الخام التي تمثل الدافع البيولوجي الملائم لحفز الاستجابات الغريزية ب تدفق اللعاب. إلا أنه رأى أيضا أن دق الجرس وربطه بتقديم الوجبة، ثم دق الجرس وحده مع عدم تقديم الوجبة يؤدي نفس النتيجة بسيلان لعاب الكلاب الجائعة، وهذا يدل على أن العمليات الأولية التي تشكل أنماط السلوك الاجتماعية ليست بصورة مطلقة عمليات استجابية للدوافع الغريزية. وعلى سبيل المثال: هناك الاستجابات المشروطة عاطفيا مثل: تعلم حب الأطعمة التي يحبها الوالدين، والآراء السياسية التي يوافقون عليها، وتعلم الديانة والتي لا تكون مرتبطة بالدوافع الغريزية البيولوجية^(٢).

ويتضح لنا مما سبق أن الاتجاه السيكيولوجي لدى مانهايم بصدد ميكانيزم صنع العادة قد تمثل في نظره إلى أنماط السلوك الانساني - والتي يبدى من خلالها الفرد توافقه في اطار الحياة الاجتماعية - على أنها لا ترجع فقط إلى الدوافع الغريزية. ولا تمثل استجابات بيولوجية ثابتة وجامدة لتلك الدوافع. لأن الحياة الاجتماعية لا تتكون فقط في اطار هذا النوع من الاستجابات. بل أن هناك استجابات شرطية منعكسة أو مكتسبة تأتي من خلال المشاركات الاجتماعية، وتقوم بدورها في تشكيل أنماط السلوك الانساني المتوافق.

(1) Mannheim, Kart, Systematic Sociology. Op. Cit., P. 12.

(2) Mannheim, Kart, Op. Cit., PP. 13 - 14.

(ج) التطور في نماذج التقليد

ويصدد تطور الأنماط السلوكية المكتسبة التي تقود الطفل رلى التوافق في حياته الاجتماعية، أوضح مانهايم أنها تتطور من الأنماط السلوكية الأكثر تحديد وثباتا إلى الأنماط الأكثر تجريدا وانفتاحا . ومن الشخصيات القريبة إلى الشخصيات البعيدة في إطار عمليات التقليد . بمعنى أن الطفل يبدأ بتقليد والدته ومريته، ثم والده وأخوته ، ثم رفقائه في اللعب والمدرسة حتى يصل إلى التقليد الأنماط السلوكية لعواطفه كرجل البريد مثلا وأعضاء جماعته . وضرب مانهايم مثلا لتقليد الأنماط السلوكية الأكثر تجريدا ومثالة : بتقليد الأطفال للشخصيات الموضوفة في القصص التي تقدم لهم كموجودات قمية ، وحالها من عمليات تأثير وزدود أفعال مرتبطة بها . وأوضح أن هناك خطر في تقليد تلك الموديلات يكمن في أن الاحساس بالواقع يكون غير موجود . ومن هنا يأتي عدم توافق الرجل الحديث بوجه عام مع ما يقدم من معلومات تصل اليه عن طريق الجرائد، والكتب والسيما . والتي قد يكون ما تقدمه من أفكار وأنماط سلوكية غير متفق مع سمات الشخصية وقدراتها ونشاطها العقلي في الواقع . كما قد يكون متعارض كذلك مع المستوى البسيط من التجارب والخبرات التي يأخذ بها الطفل أثناء تقليده لمجالات محددة وموجودات قريبة منه ⁽¹⁾ . وقد انتهى مانهايم في هذا الصدد إلى أن مكنم الخطر بالنسبة للعديد من الأنماط العقلية المقلدة يكمن في أن تفكير الاشخاص وتصرفاتهم ربما يكون مختلف تماما مع الواقع دون ادراكهم شعوريا بهذا الاختلاف ⁽²⁾ .

وهكذا نخلص من معالجة مانهايم للعلاقة بين العادات ومشكلة الغرائز إلى أن الأنماط السلوكية في حياة الأفراد لا تعتمد في تشكيلها على الاستجابات للدوافع

(1) Mannheim, Kart, Systematic Sociology. Op. Cit., PP. 14 - 15.

(2) Ibid., P. 15.

الفريزية البسيطة فقط - تلك التى لا يستبعد دورها فى تشكيل تلك الأنماط السلوكية - وذلك لأن هناك أيضا الميكانيزم الاجتماعى النفسى الآخر، والذي يلعب دوره فى تشكيل تلك الأنماط السلوكية بحيث نجد هذا النموذج من الأنماط السلوكية يبدى التوافق المستمر مع حياة الأفراد فى نطاق المشاركة، ويعتمد على شكل التقليد الذى يبدأ من الأشكال الأكثر قربا وبساطة إلى الأشكال الأكثر اتساعا ومثالية .

٤ - التفسيرات السوسيو سيكولوجية للشخصية الانسانية :

وبصدد معالجة التفسيرات السوسيو سيكولوجية للشخصية الانسانية يرى مانهايم أننا حينما نهتم بردود الأفعال المشروطة Conditioned REflexes فانا نشير السؤال الخاص بالعلاقة بين مصادر ردود الأفعال تلك والمجتمع ؟ ثم يجيب « بان تجارب الانسان فى المجتمع هى تضافر لكل من التركيب الداخلى والضغط الخارجى . كما أن ردود فعله عليها تشتمل على كلا جانبيها الفردى والمغزى الاجتماعى»^(١) .

وأوضح مانهايم فى هذا الصدد أننا ما وصفنا المجتمع دون تحليل سابق لمحتويات السيكلوجية Psychic Equipment والقوى العقلية للانسان، نكون كمن يصف الموتور الكهربائى دون أن تكون له دراسة ومعرفة بطبيعة عمل الطاقة الكهربائية. وبالمثل اذا منحنا الأهمية لطبيعة القوى النفسية للفرد نكون كمن يشرح طبيعة القوى الكهربائية دون أن يعطى الوصف الدقيق للآلة التى يقودها. وأراد مانهايم أن يضمن تحليلاته أغلب الأفكار الهامة لدى المدخل السلوكى فى علم النفس. وكذلك رغبته للاهتمام ببعض المبادئ الهامة فى علم النفس الفردى. ومن ثم اختار بعض الآراء التى تعد ضرورية من كلا الاتجاهين للتفسير الكافى والعمل فى المجتمع. وأكد أنه ليس سلوكيا ولا فرويديا ولا ماركسيا، وهدفه

(1) Manheim , Kart, Systematic Sociology , Op. Cit., PP. 15 - 16.

الرئيسى هو تقديم نسق كلى يعتمد على نتائج الثلاث مدارس الجزئية بفرض الوصول الى صورة أكثر توافقا للعمل فى المجتمع^(١).

وقد أشار مانهايم بصدد تفسيراته للمدخل الفرويدى والمدخل السلوكى للشخصية الانسانية، أن هناك ثمة اختلاف بينهما. «وذلك على اعتبار أن المدخل السلوكى يكون اهتمامه خارجيا فى كليته، ويهتم بالسلوك الجهرى overt. أما المدخل الفرويدى فإنه يكون ميتافيزيقى فى اهتمامه بالملاحظة الداخلية أو الفهم التعاطفى، للحقائق الشعورية التى تعد فى المستوى الأدنى بالنسبة لحقائق السلوك العلى»^(٢).

وما سبق يرى مانهايم أن التفسير السوسيو سيكولوجى للشخصية الانسانية لا يتم فقط فى حدود المدخل السلوكى بما يحمله من أنماط سلوكية وعادات وتوافقات وتقليدات أو من استجابات متجددة للعمليات الشرطية المكتسبة.. بل يجب أن نأخذ إلى جانب المدخل السلوكى بعض الأفكار التحليلية النفسية لدى السيكلوجيين مثل : اللاشعورية أو القمع، والتسامى أو التعالى. ولكن دون العودة فقط بأى منهما^(٣). وهو ما سوف نتناوله لدى مانهايم فيما يلى :

أ- الكبت Repression

فقد فسر مانهايم توافق الانسان مع تصديق له فى الحياة اليومية فى اطار التوافق بين القوى التى تسمى دوافع - كما هى فى الحاجات الأولية العضوية مثل الانجاب وبقاء النوع - وبين الموقف الاجتماعى الذى تنجز من خلاله تلك الدوافع والرغبات. وأوضح أن كل توافق بهذا المعنى يكون مرتبط ببعض الجوانب السلبية المتمثلة فى كبت بعض من تلك الطاقات الغريزية السيكلوجية اللاشعورية.

(1) Manheim, Kart, Systematic Sociology , P. 16.

(٢) ويقصد مانهايم بالحدس أو الفهم التعاطفى Sympathetic Inuition الملاحظة الداخلية زو البداهة الحسية العاطفية فى الامراك.

(3) Ibid., PP. 16 - 17.

ومن هنا جاء فرويد بما أسماه بالرقيب فى تكوين الشخصية، وأصبح الكبت أو القمع واحد من تلك الدفاعات التكنيكية التى يقوم بها الرقيب لحماية الحياة الشعورية Conscious Life من الرغبات والدوافع اللاشعورية. والتى تؤدى إلى الصراعات المؤلمة، وفى نفس الوقت لا يمكن أن تصل إلى أهدافها فى واقع الحياة الاجتماعية^(١).

وفى ضوء تأكيدات المدرسة الفرويدية على ضرورة وأهمية العمليات المكبوتة، يرى مانهايم ضرورة فهمهما للعمل على تفادى آثارها وضررها على السلوك الفرد فى الحياة الاجتماعية. ولذلك يجب التعرف على نماذج التعبيرات النمطية السلوكية التى تتخذها الدوافع فى الواقع. وفرق بين نوعين من الكبت الأول يكون كبت أو قمع كلى للدوافع وهذا النوع ليس له أية خطورة فى سلوك الشخص. أما الكبت الجزئى للدوافع والذى يحاول أن يجد له تبيرا غير مباشر فى سلوكنا، وبصورة غير متوافقة مع الواقع فهو مكمّن الخطورة^(٢).

وحاول مانهايم تحديد بعض التعبيرات النمطية السلوكية للرغبات والدوافع غير المكبوتة كلية وخروجها فى هيئة أنماط سلوكية غير متوافقة مع الواقع على النحو التالى : أولا - نمط سلوكى يطلق عليه بالعصاب Nervosis، ويسود بين الجنود فى وقت الحرب من خلال الصراع الدائم أما من الخوف أو القلق أو الموت، أو من التشوه المخيف أثناء المعركة. وقد يأتى السلوك العصائى كذلك من خوف الجنود أن يلصق بهم الآخرون تهمة الجبن إذا لم يقدموا على المعركة بشجاعة. وتتطور تلك الصراعات المؤلمة بطريقة لا شعورية، وتتخذ أعراض مرضية عصائية: كالعمى Blinclness أو الشلل Paralysis. وتعتبر تلك الأمراض جوهرية وذات مغزى سيكولوجى خالص ويمكن معالجتها بالتحليلات السيكلوجية والتويم المغناطيسى^(١). ثانيا : هناك أنماط سلوكية للكبت تتمثل

(1) Manheim, Kart, Systematic Sociology , Op. Cit., PP. 17 - 18.

(2) Ibid .; PP. 18 - 19.

فى المكابرة أو تصنع الوقار. والذى لا يمثل شيئا أكثر من كونه اهتمام بالمواد الجنسية، ويتخذ صورة العداء للمشكلات الجنسية لدى الآخرين لابعاد الاهتمام بالرغبات الجنسية الخفية المكبوتة. ثالثا - النمط السلوكى الاسقاطى للكبت Projection . ويشتمل على المكبوتات غير المتلائمة فى تحقيقها مع الواقع الاجتماعى والأخلاقى. وتجد من خلاله الدوافع المكبوتة لدينا - باعتبارها نتائج اسقاطية لجنا لشخص ما. وقد يتخذ الاسقاط أيضا هيئة تعبيرات نمطية خاصة بالكراهية^(٢).

ب- التسامى أو التعالى كعمليات سيكولوجية ذات مغزى اجتماعى

Sublimation

وبصد رؤية مانهايم أن فهم المحتويات السوسيو سيكولوجية للشخصية الانسانية لا تتم فقط من خلال اهتمامات المدخل السلوكى الاجتماعى . بل يجب أن نتناولها كذلك من خلال بعض الأفكار السيكولوجية مثل : الكبت اللاشعورى، والتسامى أو المثالية: وبعد أن تناولنا المحتويات السيكولوجية للقمع لدى مانهايم ومدى تأثيرها فى تكوين الشخصية وعلاقتها بالواقع الاجتماعى . نتناول فى هذا الصدد التسامى أو المثالية كعمليات نفسية ذات مغزى اجتماعى لدى مانهايم فى فهم الشخصية الانسانية .

ويرى مانهايم فى هذا الصدد وأن هناك تشابها كبيرا بين أحلام اليقظة والعمليات المتعلقة بالتسامى . وأن الاختلاف الرئيسى فى الأخير يكمن فى أن القوى العاطفية الخاصة بالليبدو لا تؤدى الى خلق عالم أو واقع جديد. ولكنها تؤدى إلى اضفاء الطابع النفسى الروحى على عناصر الكائنات المحيطة . وكمثال :

(1) Manheim , Karl, Systematic Sociology . " Neurosis, Reaction formations and Projection", Op. Cit., P. 19.

(2) Ibid, PP. 19 -20.

فالقوى العاطفية الخاصة بالاعجاب يمكن أن تستخدم بعد تحويلها عن مصادرها الجنسية في اصفاء الطابع الروحي المثالي على الاشخاص والموضوعات المختلفة التي تحيط بنا، ويحدث هذا ايضا بالنسبة لحب شخصية المل، والملكة، والسياسي، ورجل الدين، أو شخصية القائد. بمعنى أن التسامي أو المثالية يمثل العمليات التي تهتم باعادة توجيه الدافع في اتجاه التسامي بالقوى العاطفية الخاصة بالليدو. وعلى وجه التحديد فيما يتعلق بحب الذات المبكر، والانتقال بها من مجال الذات Ego إلى نطاق الذات العليا Ego Ideal⁽¹⁾.

ويتضح لنا مما سبق إلى أن اتجاه مانهايم في دراسة الشخصية الانسانية يمثل اتجاه علماء الاجتماع النفسي الألمان في دراسة الشخصية الانسانية. في ضرورة دراستها دون معزل عن الحياة الاجتماعية التي نعيش فيها. وضرورة تفاعل تلك الحياة الاجتماعية مع المحتويات السيكولوجية العاطفية المتمثلة في نطاق التحليل النفسي مثل: الكبت، والتسامي أو المثالية. ولكن دون عودة إلى السيكولوجية الفردية كما هي عند فرويد. «وبعكس ذلك ثنائية توجد في تفكير مانهايم فيما يتعلق بدراسات الاجتماع، اذ يستكمل التحليل العلي بالتحليل الوظيفي. ويأتي ذلك في ضوء اعتقاده بأن يفسر عليا يجب أن يفهم وظيفته في الحفاظ على توازن النسق»⁽²⁾.

ونتهى مما سبق إلى أن مانهايم نظر إلى الشخصية الانسانية على أنها وحدة وظيفية سيكولوجية تشتمل على كل من المحتويات النفسية (الشعورية واللاشعورية)، وأيضاً الخبرات الاجتماعية التي تكتسبها الشخصية من البيئة الاجتماعية. وقد دعم مانهايم تلك الوحدة الوظيفية السيكولوجية للشخصية الانسانية على مستوى البناء أو النسق بقوله «أن المواقف الاجتماعية المتجددة إذا

(1) Manheim, Systematic Sociology " Sublimation and idealism and their social significance", op. cit., pp. 24 - 25.

(2) نيقولا تيمائيف، مرجع سابق، ص ٤٦٨.

كانت لا تقبل في أوقات ما دوافعاً ملائمة لتوافق تلك الكائنات الإنسانية مع تلك
المواقف، إلا أن ذلك لا يمنع من أن هناك اتجاهات تكون متوافقة على مستوى
النسق الاجتماعي. وتأتي في إطار التغير المستمر للتفكير والارادة^(١).

(1) Manheim, Karl, Man and Society, London : Rotledge &
Keganpaul, T. (by) Edward, Shils., 1940. P. 195.

٥- خاتمة الفصل التاسع :

بعد أن عرضنا للموضوعات التي تناولها مانهائم بالدراسة من خلال اتجاهه السلوكي في دراسته الاجتماعية. نحاول الآن الوقوف على مدى تقديمه لمنظور جديد في علم الاجتماع ؟ ومدى اعتماده على المدخل السيكولوجي في اقامة المنظور الاجتماعي ؟ وايضا مدى اسهام هذا المنظور في دراسة ومعالجة موضوعات ومشاكل علم الاجتماع ؟..

فلقد كان لمانهائم اهتمامات سوسولوجية متعددة. ولكن اسهاماته في مجال علم الاجتماع النفسى جاءت في اطار السلوكية الاجتماعية، ومن خلال دراسته لعلم الاجتماع النظامى على وجه التحديد. اذ حاول مانهائم تقديم اطار نظري يهدف من خلاله دراسة الحقائق الاجتماعية، والفعل الاجتماعى والعمليات الاجتماعية المختلفة، وكذلك تحليل الشخصية وتفسير السلوك الانسانى بوجه عام. وربط مانهائم تحقيق الفائدة من هذا الاطار النظرى بضرورة الاعتماد على عدد من المفاهيم والتصورات السيكولوجية : مثل : الغرائد، والعادات ، والاتجاهات، والليبدو، والعواطف. ثم اخيرا لوتقى بفهمه لتلك الحقائق والعمليات والسلوك الانسانى فى ضوء التصورات السلوكية فى ضوء للمعنى الذاتى - على المستوى البنائى لتلك العمليات السابقة يجب أن يتم داخل نطاق الجماعات والحشود والطبقات الاجتماعية .

وإذا ما أنتقلنا إلى مناقشة والتعقيب على الاسهامات التي قدمها (كارل مانهائم) في جمال قضايا علم الاجتماع المعاصر، من خلال الموضوعات التي أهتم بدراساتها ضمن اهتماماته السيكولوجية بدراسات الفعل في اطار العمليات الاجتماعية. حيث يقع هذا الاهتمام ويتضح من خلال معالجته لنظرية الفعل الاجتماعى وفي اطار علم الاجتماع/ التحليلي لديه الذي يدخل في نطاق سيولوجية المعرفة تلك التي يفسر من خلالها مختلفة النظريات والأنكار بالرجوع إلى المواقف الكلية التي صدرت عنها وحامل أن يفهم نشأة الفكر ومدى ارتباطه

بالتجمعات الكلية، ورأى أنه يجب أن ندرس الفكر فى علاقته بالوجود الاجتماعى، حتى تتضح لنا إارتباطات الداخلية التى تربط بين المعرفة وبين الثقافة والتاريخ^(١).

ولقد تمثل هذا الاتجاه النفسى فى دراسة الفعل داخل اطار العمائات الاجتماعىة لدى (مانهايم) وعكس بصورة واضحة تأثره «بالموقف الفينومينولوجى»، حيث ذهب فى هذا الصدد إلى أنه لا يمكن فصل أى مرحلة من مراحل العمليات الاجتماعية عن المعانى التى تعتبر انعكاسا للعنصر الذاتى، وذلك على عكس ما تؤكد عليه «النزعة الظاهرية» فى الموقف الفينومينولوجى والتى ترى إليه الادعاء بوجود أى معنى يكمن خلف الوجود الواقعى للظواهر والمواقف الإنسانية ليس إلا بدعه لا أساس لها^(٢). ومن ثم رأى أنه يجب على السوسولوجى لكى يكون قادر على فهم الحقائق الاجتماعية والتى تمثل عناصر التحليل السوسولوجى المطلوب أن يضع فى اعتباره ثلاثة أمور : الأول - هو تحليل المتطلبات السيكولوجية للإنسان من خلال إدراك علاقة الغرائز بالعادات، والتحول من العواطف، وطبيعة الاهتمامات، الاتجاهات، بحيث يمكننا أن ندرس الحقائق الاجتماعية ليس على ما تبدو عليه فى الواقع ولكن فى اطار المعانى الذاتية لدى الفاعلين والتى تكمن خلف الظواهر. ثانيا - أن الدراسة فى مجتمع كما رآها (مانهايم) يجب أن تعتبر أن أغلب عناصر العمليات الاجتماعية : مثل التفاعلات، الانعزالات، والزعامات الدينية، والتنافس، والتعاون، وتكوينات الشخصية، كل تلك العمليات تؤدى بنا إلى فهم أكثر الفردية وإلى التوافق. وثالثا - أن كل تلك الأدوار السيكولوجية الاجتماعية، يجب أن تكون مرتبطة بطبيعة الفهم والتحليل الاجتماعى المتكامل والحمص لتلك الواجهات الحمصية مثل : «الحشد»، «الجماعة»، الطبقات الاجتماعية^(٣).

(1) Manheim., Ideology and Utopia; Kegan Paul, London, 1940, P.12.

(2) Manheim ., Essays on Sociology of Knowledge; Op. Cit., P. 7.

(3) Manheim., Sestematic Sociology; Op. Cit., P. 4.

وترتيباً على ما سبق يتضح لنا أن (مانهايم) فى دراسته لحقائق الحياة الاجتماعية من كان يركز على فهم وتحليل العمليات السيكولوجية التى تكمن خلف الأفعال الانسانية مثل علاقة الغرائز بالعادات، وطبيعة الاهتمامات والاتجاهات، والتحول فى العواطف وذلك بفرض الوصول إلى فهم أعمق لسلوك الأفراد فى ضوء المعانى الذاتية التى تكمن خلفه، وأنه يمكن فهم هذا السلوك فى محتوياته السيكولوجية تلك فى اطار العمليات التفاعلية وكما هو فى التعاون، التنافس، الدعامات الدينية، وأخيراً يرى ضرورة فهم وتحليل تلك العمليات الاجتماعية السيكولوجية فى اطار التحليل الاجتماعى للواجهات الجمعية مثل الجماعات، والحشود، والطبقات الاجتماعية. وهذا ما يعكس لنا أيضاً تكمن خلفها، وهذا الموقف الفينومينولوجى الذى أتخذه (مانهايم) قد جعله لا يجاز إلى احدى الاتجاهين النفسين فى دراسة الحياة الاجتماعية وهى الاتجاه التقليدى والاتجاه السلوكى، بمعنى أنه قد ركز على دراسة المتطلبات السيكولوجية للشخصية الانسانية وضرورة فهمها فى اطار العمليات الاجتماعية التى تحدث وتم داخل نطاق الجماعات والحشود الاجتماعية وتبدو واضحة فى تأثيرها على سلوك الافراد داخل نطاق الجماعات، وهذا أيضاً ما يعكس لنا اتجاهه الوظيفى فى دراسة الحياة الاجتماعية فمثلاً فى بناء الجماعة أو النسق الكلى لها.

وما يدعم تلك الواجهة السيكولوجية الوظيفية لدى (كارل مانهايم). ما ذهب إليه (نيقولاتيماشيف) من أن هناك دراسة ثنائية للظواهر الاجتماعية لدى (مانهايم) شأنه شأن (ماكس فيبر) فإذا كان فيبر يستكمل التحليل العلى بالدراسة التفسيرية على المستوى الدافعى، فإننا نجد مانهايم يستكمل التحليل العلى بالتحليل الوظيفى، بمعنى أن ما يفسر عالياً يجب أن يفهم فى ضوء المعنى الذى يقوم به ويؤديه كوظيفة فى الحفاظ على توازن النسق الكلى للجماعة ككل^(١). وإذا كان يتماشيف فى هذا الصدد يرى أن (مانهايم) كان يقصد المعنى

(١) نيقولاتيماشيف، نظرية علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ٤٦٨.

الموضوعى الذى يوجد لدى الجماعة ككل، وهو ما يؤكد الاتجاه أو النزعة الوظيفية السيكولوجية السلوكية لديه، و أكده أيضا (دون مارتندال) Don Murtindal فى مقالته الانتقادية عن (مانهايم) حين قال : «أن نبذه لكل ما هو عضوى، والتجديدات الشكلية للواقع الاجتماعى، كان سبباً فى وصفه فى قائمة السلوكية الاجتماعية»^(١) إلا أنه يمكن القول فى هذا الصدد أن (مانهايم) كان لجميع بين الاتجاهين: السلوكى، والنفسى التحليلى فى دراسته للعمليات النفسية للشخصية الانسانية وضرورة فهمها فى إطار العمليات الاجتماعية التى تحدث داخل نطاق الجماعات الانسانية والحشود الاجتماعية، وما يؤدى هذا الرأى ما قاله مارتندال أيضا:

من «أنه بالرغم من ذلك قد عمل مع فيبر من خلال التصور بين القطبين :
«التقليدية»، و «العقلانية» فى التحليلات المتعلقة بالأفعال الفردية الداخلية»^(٢).

وترتيباً على ما سبق أتنهى (كارل مانهايم) إلى ضرورة بين الاتجاه الوظيفى السيكولوجى حينما أراد دراسة تطور الشخصية الانسانية فى إطار العمليات الاجتماعية داخل نطاق الجماعات الاجتماعى، وإن هذا الفهم لا يتحقق الا من خلال إدراك المتطلبات السيكولوجية للشخصية الانسانية تلك التى تمثل «الاتجاه التقليدى» فى التحليلات النفسية، بجانب ضرورة فهم تلك الشخصية الانسانية باعتبارها «شخصية اجتماعية» يجب دراستها أيضا من وجهة نظر «النزعة السلوكية» التى تهتم بدراسة الأنماط السلوكية، والعادات والتوافقات، والتقليدات، الايديولوجيات، وهذا يعنى أن تطور الشخصية الانسانية لدى (مانهايم) لم يكن بتشكل فقط فى حدود الاستجابات السلوكية للعمليات الشرطية العكسة، بل كان يتم أيضا فى حدود بعض من أفكار التحليل النفسى الذى يأخذ به

(1) Martindal, Don., The nature and Ty-pes of Sociological Theory; "Karl Manheim", Op. Cit., P. 44.

(2) Ibid ; P. 44.

السيكولوجيون: فى نطاقات «اللاشعور» و «الفتح» و «السمو أو المثالية»، وجددير بالذكر فى هذا الصدد أن (مانهايم) لم يأخذ تماماً بتلك «الأفكار الفرويدية». والتي تقتصر على التحليلات النفسية القاصرة على نطاق الذات الفردية فى علاقتها بالدوافع والغرائز البيولوجية "Id" بمعنى أنه قد ربط الذات الفردية والعمليات التى تؤدى إلى تطورها، بتلك المرحلة الخاصة فى تكوينها والتى يطلق عليها «بالذات العليا» Super.ego والتي تظهر فيها سلطة الرقيب الأخلاقى على تلك الدوافع والرغبات الغيرية الفجة، والتي لا يمكن أن يكون اشباعها بصورة كاملة متوافقة مع الهيئة الأخلاقية المجتمعة^(١). ولهذا يتفق (مانهايم) مع (فرويد) من «أن العمليات القمعية تعتبر عمليات عادية، تصاحب أى نوع من الاستجابة بالنسبة للدافع الموجود، نظراً لأن كل رغباتنا الفيزيقية، وما يترتب عليها، لا يمكن أن يكون مشبعه بصورة كاملة وحيدة»^(٢).

كما يتضح أيضاً أن هناك اتفاق بين كل من (جورج زيمل)، (وكارل مانهايم) بصدد تحليلها لتطور الشخصية الانسانية داخل اطار الجماعات الاجتماعية وعلى المستوى البنائى الوظيفى السيكولوجى من خلال العمليات التفاعلية المختلفة. فإذا كان (زيمل) قد حلل السلوك الفردى داخل الجماعة على أنه نتيجة للدوافع الفردية وردود الأفعال السيكولوجية الوسيطة فى بناء الموقف، كما أنه لم ينكر أن «الأشكال أو الصور الاجتماعية» تلعب دوراً فى تحديد السلوك الاجتماعى الفردى، وأن كان قد أولاهما اهتماماً بسيطاً على هذا المستوى التحليلى فربما كان ذلك راجع إلى اهتمامه السيكولوجى «بالمحتوى» النفسى لتلك الصور والأشكال المجتمعية التى نظر إليها على أنها تمثل واجهات نمطية ثابتة نسبياً ولا تخضع للتغير المستمر»^(٣).

(1) Manheim „, Sestematic Sociology; Op. Cit., P. 17.

(2) Ibid., P. 18.

(3) Simmel, George., International Encyelopedia of Social Science
"Karl Manheim " Op. Cit., P. 257.

والذى يمكن تفسيره وتحليله فى اطار محتوياتها، فهذا ما يعكس لنا وظيفتيه
السيكولوجية العضوية التى تقوم على الاختلافات المتباينة للوظائف التى يقوم بها
الأعضاء فى ضوء اتجاهاتهم نحو الحفاظ على الجماعة ووقايتها داخل اطار
العمليات الاجتماعية، ولما كانت تلك الاتجاهات تتبع من اهتمام ذاتى لدى الأفراد
فى الحفاظ على الجماعة واستمرارها فإنه يمكن وصف تلك الوظيفية
السيكولوجية لدى (زيمل) بأنها عضوية ، وبالتالى توجد الامكانية فى تطور
الشخصية الانسانية داخل اطارها.

وعلى نفس المستوى قد عالج (مانهايم) تطور الشخصية الانسانية فى اطار
المعاني الذاتية النابعة من الحياة الشعورية واللاشعورية للفرد، بالاضافة إلى المعاني
الموضوعية التى تتعلق بالجماعات أو الأنساق الاجتماعية الكلية وهذا هو الاتجاه
الوظيفى العضوى السيكولوجى، والذى عالجناه فى دراسة الأفكار المتعلقة :
بالسلوك والموقف والتوافق، ثم العلاقة بين العادات ومشكلة العرائز، وأخيراً
التفسيرات الخاصة بالتحليلات السيكمسيولوجية للشخصية الانسانية، ذلك
الاتجاه الذى يكشف لنا بوضوح عن مدى اتفاقه مع (جورج زيمل) فيما يتعلق
ببينه «التزعة السلوكية» بجانب التزعة «التقليدية التحليلية» فى معالجة تطور
السلوك الانسانى فى اطار العمليات الاجتماعية.

كما يمكن أن تنتهى فى هذا الصدد إلى أنه إذا كانت هناك ثنائية فى تفكير
علماء المدرسة الألمانية هذه متمثلة فى استكمال التحليل العلمى للفعل أو السلوك
فى اطار العمليات الاجتماعية، والذى يتخذ اتجاه «التزعة السلوكية» بالدراسة
التفسيرية على مستوى «المعنى» متمدة اتجاه «التزعة التقليدية» إلا أن هذه الثنائية
فى تفكير (فيبر) يستكمل التحليل العلمى بالتفسير والفهم للفعل على مستوى
الدافعى، بينما يستكمل كل من جورج (زيمل) (ومانهايم) هذا التحليل العلمى
فى فهم فعل أو سلوك الشخصية الانسانية وتطورها فى اطار العمليات الاجتماعية
داخل نطاق الجماعات الاجتماعية، بالتحليل الوظيفى العضوى السيكولوجى على

مستوى البناء أو النسق. حيث تستبدلان المعنى الذاتى للفعل أو العملية عند فيير بمعناه الموضوعى بالنسبة للجماعة ككل ، ذلك المعنى الذى ينتج من اهتمام واتجاهات الأفراد الذاتية نحو الحفاظ على الجماعة واستمرارها.

وقد اتضح هذا المنظور السيكولوجى لدى مانهايم فى تناوله وفهمه الفعل الاجتماعى والعمليات الاجتماعية فى ضوء المعانى الذاتية ذات الأهمية الاجتماعى - متأثرا فى ذلك بالاتجاه الفينومينولوجى الذى يربط فهم الأفعال والظواهر بالمعنى الذاتية التى تكمن خلفها - وقد ساوى مانهايم فى فهمه وتحليله لها سواء على المستوى الفردى أو البنائى. وأوقف هذا التحليل على الدوافع والمعانى الذاتية المرتبط بها والتى تبدو فى سلوك الأفراد فى إطار العمليات الاجتماعية. كما أوقف كذلك هذا التحليل على التوافق التى يبدية الأفراد فى استجاباتهم السلوكية لتلك الدوافع فى المواقف الاجتماعية المختلفة.

وبهدف اظهار الدور الذى تلعبه العادات كتصور سيكولوجى فى فهم السلوك الانسانى باعتباره أحد القضايا التى شغلت اهتمام مانهايم. وبالتالى جعل هذا السلوك متوافقا داخل العمليات الاجتماعية. ربط مانهايم ادراك هذا الدور الذى تقوم به العادات بفهمنا لأثر الغرائز فى تشكيل العادات. ولم يطلق العنان للغرائز فى تشكيل الأنماط السلوكية للأفراد . وأعطى للخبرات الاجتماعية من خلال التفاعل دورها فى تشكيل اتجاهات ذات محتوى عاطفى مكتسب. اذ تلعب دورها فى تشكيل العادات بجانب الاستجابات الغريزية البسيطة.

كما يلاحظ أن مانهايم ربط فهم الدور الذى تلعبه العادات فى تفسير السلوك الانسانى والعمليات الاجتماعية، بفهمنا لميكانيزم صنع العادة. وأوضح أنه بجانب الاستجابات السلوكية التى تعتمد على الدوافع الغريزية هناك أنماط سلوكية تمثل استجابات أولية لا تعتمد على دوافع بيولوجية. بل تعتمد على استجابات شرطية مكتسبة فى حياة الانسان. وأخيرا ربط مانهايم فهم هذا الدور

السيكولوجى الذى تلعبه العادات فى هذا التحليل للسلوك والعمليات الاجتماعية، بفهم كيفية تطور تلك الأنماط السلوكية التى تمثل عادة أو تقليد. ورأى ضرورة ادراك أن تقليد العادة كنمط سلوكى يبدأ من الأنماط السلوكية الأكثر ثباتا وقربا وبساطة. ثم يتطور إلى الأنماط السلوكية الأكثر اتساعا وبعدا ومثالية.

ويسدونا واضحا كذلك أن مفهوم الشخصية شكل أحد التصورات السيكولوجية الرئيسية التى شغلت اهتمام مانهام. فاعتمد عليه فى تقديمه لنسقه الاجتماعى السيكولوجى، وحاول من خلاله تحليل وتفسير السلوك الإنسانى سواء فى واجهته الفردية أو البنائية. ولذلك اعتمد فى تحليله للشخصية الانسانية على كلا من: المدخل السلوكى الاجتماعى بما يحتويه من أنماط سلوكية وعادات وتوافقات وتقليدات، وكذلك المدخل النفسى التحليلى الذى يعتمد فى تحليله للشخصية على الأفكار الداخلية مثل: الكبت أو اللاشعور، والتسامى أو المثالية. ثم أوضح مانهام الدور الذى تلعبه هذه الأفكار النفسية من فهم سلوك الشخصية وبالتالي تحقيق التوافق الاجتماعى. وهذا يعنى أنه نظر إلى الشخصية على أنها تمثل وحدة وظيفية اجتماعية نفسية. ويتطلب فهمها تحليل كلا من المحتويات السيكولوجية الشعورية واللاشعورية. وهذا يمثل اسهاما جوهريا لمانهام فيما يتعلق بدراسة الشخصية من خلال اتجاهه النفسى فى علم الاجتماع.

أما عن اسهام مانهام المنهجى من خلال اتجاهه النفسى فى علم الاجتماع فيمكن القول أنه اتبع منهجا تحليليا سيكولوجيا فى دراساته الاجتماعية النفسية. اذ اهتم نطاق هذا التحليل ليشتمل على اهتمامات كلا من: مدخل السلوكية الاجتماعية، والمدخل السيكولوجى أو التحليل النفسى. فقد «جذب اهتمامه التحليلات السيكولوجية لدى فرويد وتابعة من الأوربيين والأمريكيين»^(١). كما أوضح تيماشيف بوجه عام أن مانهام استخدم التحليل العلمى ثم استكمله بالتحليلى الوظيفى، فى ضوء نظريته البنائية التى ترى أن ما يفسر عليها يجب أن يفهم فى ضوء وظيفته فى الحفاظ على النسق^(٢).

(1) Coser, L.A., Masters of Sociological thought. Op. Cit., P. 456.

(٢) نيقولا تيماشيف، مرجع سابق، ص ٤٦٨.

مراجع البحث العربية

أولاً: الكتب والمقالات:

- ١- د. أحمد الخشاب، التفكير الاجتماعي: دراسة تكاملية للنظرية الاجتماعية - القاهرة، دار المعارف بمصر، ١٩٧٠.
- ٢- د. أحمد الخشاب، علم الاجتماع ومدارسه. القاهرة: مطبعة لجنة البيان العربي - ١٩٦٠.
- ٣- ارمان كوفيليه، مقدمة في علم الاجتماع. ترجمة السيد محمد بلوى، عباس الشربيني، الاسكندرية: دار المعارف، ١٩٨٠.
- ٤- اميل دوركيم، قواعد المنهج في علم الاجتماع، ترجمة محمود قاسم، مراجعة السيد محمد بلوى، القاهرة مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٤.
- ٥- د. انتصار يونس، السلوك الانساني. القاهرة: المكتب المصري الحديث للطباعة والنشر، ١٩٦٦.
- ٦- د. حسن سقمان، تاريخ الفكر الاجتماعي، القاهرة: مطبعة دار المعارف، ١٩٦٦.
- ٧- د. حسن سقمان، أسس علم الاجتماع، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٣.
- ٨- د. عاطف غيث، الموقف النظري في علم الاجتماع المعاصر. الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٠.
- ٩- د. على جليبي، قضايا علم الاجتماع المعاصر، الاسكندرية: دار المعارف، ١٩٧٩.
- ١٠- د. على جليبي، النظرية واتجاهات تطورها في علم الاجتماع المعاصر مقالة في كتاب دراسات في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، لمجموعة من أساتذة علم الاجتماع، القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٥.

١١- د. عبد الباسط عبد المعطى، اتجاهات نظرية فى علم الاجتماع. الكويت: عالم المعرفة، ١٩٨١.

١٢- د. غريب سيد أحمد، الجماعات الاجتماعية، الاسكندرية: دار الكتب الجامعية، ١٩٧٣.

١٣- د. محمد أحمد يومى، علم الاجتماع الدينى. الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٠.

١٤- د. محمد سعيد فرح، نظرية فى مدى اثر علم النفس للنظرية الاجتماعية مقال فى كتاب دراسات فى علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، القاهرة، دار المعارف بمصر، ١٩٧٥.

١٥- د. محمد على محمد، رواد علم الاجتماع المعاصر: قراءة معاصرة للفكر الغربى المعاصر. الاسكندرية: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦.

١٦- نيقولا تيماشيف، نظرية علم الاجتماع: طبيعتها وتطورها، ترجمة محمد عودة، محمد على محمد، محمد الجوهري، محمد الحسينى، القاهرة: دار للمعارف بمصر، ١٩٧٢.

١٧- هنرى تيرى، الجماعات هل هى قوى فعالة. ترجمة رشدى كامل صالح، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٨.

ثانيا: قواميس ودوائر المعارف:

١- د. محمد عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩.

٢- د. عبد الهادى الجوهري، معجم علم الاجتماع. القاهرة: مكتبة نهضة الشرق جامعة القاهرة، ١٩٨٠.

- 1- Bierstedt, R., **Emile Durkheim** New York: Mc-Graw- Hill, 1977.
- 2- Bocock, Robert, **Freud and Modern Society**. London: Toms Nelson and Sons., 1976.
- 3- Coser, Lewis, A., **Masters of Sociological Thought** New York: Harcourt Brace Jovanovich INC, 1977.
- 4- Cuizort, R.P. & King, E.W., (eds) **20 th Century Social Thought**. New York: Holt Rinehart and Winston, 1980.
- 5- Coser and Rosenberg, **Sociological Theory**. New York: Macmillan Cmapany, 1957.
- 6- Cooley, C.H., **Human Nature and Social Order**, New York: Schoken Books, 1967.
- 7- —————, **Soical Organization**. New York: schaken Books, 1909.
- 8- —————, "Primaru Group", In Coser and Rosenberg, (eds) **Sociological Theory.op.cit.** 1957.
- 9- Dawe, Alan, "The Relevance of Values" In Sahay (ed) **Max Weber and Modern Sociology**. London: Rotledge and Kegan Paul, 1971.
- 10- Friedrichs, R.W., **Sociology of Sociology**. New York: Free Press, 1975.
- 11- Fairs, Euswarth, "The Primary Groups" In Coser and Rosenberg., (eds) **Sociological Theory. op. cit.**, 1975.
- 12- Gerald, H.B., "Social Psychology" In **Encyclopidia of Social Science**. Valume (13 -14) New York: Macmillan Company & The Free Press, 1948.

- 13- Green, Arnold, W., **Sociology**. New York: Mc-Grow- Hill Books Company, 1960.
- 14- Giddens, A., **Capitalism and Modern Sociology** New York: Cambridge University Press, 1971.
- 15- Homans, G.C., **The Human Group**. London: Rotledge & Kegan-paul, 1959.
- 16- -----, **Soical Behaviour**, London: Rotledge & Kegan Paul., 1961.
- 17- -----, **Fundamental Social Processes** "In Nei 7 Smilser., (ed) **Sociology**. New York: John Wiley & Sons, 1967.
- 18- Inkles, Alex, "Soaiological Theory in Relation to Psychology", In John C. Mekinney and Edward A. Tiryakian., (eds) **Theoretical Sociology**. New York: Merdith Corporation, 1970.
- 19- Jones, J.K. Chadwick., **Social Exchange Theory**. New York: Academic Press, 1967.
- 20- Klark, T.N., "Gabriltard", In Davids, Sills., (ed) **Encyclopidia of Social Science**, Volume (15), New York: The Macmillan Company & The Free Press, 1948.
- 21- Kinloch, Graham, C., **Sociological Theory**. New York: Mac-Graw- Hill, 1977.
- 22- Kenkel, W.F., **Society in Action**. New York: Harper & Row Bu-blishers, 1980.
- 23- Lomis, C.Char' & Loomes. Tonak. **Modern Social Psychology**

New York: Selected American Writers, Company INC.,
1963.

- 24- Mead, G.H., "Role Taking and Reference Group" In Coser and Rosenberg., (eds) *Sociological op.cit.*, 1975.
- 25- -----, "The Self," In Perer, Worsely., (ed) *Modern Sociology*. New York: Penguin Education, 1970.
- 26- -----, "Play The Game and The Generalized Other," In Coser and Rosenberg., (eds) *Sociological Theory*. Op.cit., 1975.
- 27- -----, "The I and The Me", In W. Edger, Venack & W.R.Wilson & N. Merdith., (eds) *Demension of Social Psychology*. New York Scot Pressand Company of Chicago, 1974.
- 28- -----, "Psychology of Puntive Jastic", In Coser and Rosenberg., (eds) *Sociological Theory* .New York: Mac- Graw, 1975.
- 29- Melzzer, Bethnard & Petra, John & Raynal, Larry, (eds). *Symbolic Interaction*. London and Boston: Rotledge and Kegan Paul, 1975.
- 30- Mckinney, John,C & Tirykian, E.A. (eds). *Theoretical Sociology*. New York: Merdith Corporation, 1970.
- 31- Maheim. Karl, *Systeematic Sociology*. (edited) by J.S.Eros & W.A.C. Stewart, London: Rotledge and Kegan Paul, 1975.
- 32- -----, *Essays on Sociology of Knowledge*. London: Rotledge and Kegan Paul, 1952.

- 33- -----, **Man and Society**. London: Rotledge and Kegan Paul, 1940.
- 34- Martindale, John, **The Nature and Types of Sociological Theory**. London: Rotledge and Kegan Paul, 1961.
- 35- Parson, Talcott, **Social Structure and Personality**. New York: The Free Press., 1970.
- 36- -----, **The Structure of Social Action**. New York: The Free Press of Glencoe, 1961.
- 37- -----, "Introduction" to Weber's **The Theory of Social and Economic Organization**. New York Oxford University, 1974.
- 38- -----, "Introduction" to Weber's **On Religion**. Boston: Beacon Press, 1904.
- 39- Rex, John, "Topology and objectivity", In Sahay (ed) **Max Weber and Modern Society**. London: Rotledge and Kegan Paul, 1971.
- 40- Romon, Aron, **Main Currents in Sociology**. New York: Pelican Books, 1976.
- 41- Salmon, Albert, "German Sociology", In Georges Gervitch & Wilbert Moore., (eds.) **Twentieth Century Sociology**. New York: The Philosophical Library, 1945.
- 42- Simmel, George, "Conflict Sociation". In Coser and Rosenberg., (eds) **Sociological Theory**. op. cit., 1975.

- 43- -----, "Forms of Domination", In Coser and Rosenberg.,
(eds.) **Sociological Theory. op.cit., 1975.**
- 44- -----, "The Dayed and The Traid", In Coser and Rosenberg.,
(eds.) **Sociological Theory.op.cit. 1975.**
- 45- Taweny, R.h., **Capitalism and Modern Sociology.** New York:
Cambridge University Press, 1971.
- 46- Wolf, Kurt, (ed.) **Sociology of George Simmel.** New York: A Free
Press, 1964.
- 47- Weber, Max **Economy and Society**, Idiled By G. Roth and C. Wi-
lch., New York. 1948.
- 48- -----, **The Theory of Social and Economic Organization.**
(Thrans) by T. Parsons., New York: Copright Exoford
University Press, 1947.
- 49- Wallace, R. & Wolf, A., **Contemporary Sociological Theory.**
New York: Prentic-Hill, 1980.
- 50- Wilkins, E.J., **An Introduction to Society.** London: Danald &
Evans, LTD., 1970.
- 51- Woodard, G.W., "Social Psychology" In George, Gurvitch & Wil-
berte. Moore., (eds) **Twentieth Century Sociology.** New
York: The Philosophical Library, 1945.

المحتويات

الباب الأول

- ١٩ الاتجاه السلوكي في علم الاجتماع
الفصل الأول
٢٣ الاتجاه السلوكي في التفكير الاجتماعي
٢٥
٢٧ ٢- حقيقته وجذوره في تاريخ الفكر الاجتماعي.
٢٩ ٣- بدايات تطوره في فكر الرواد الأوائل في علم الاجتماع.
٣١ أ- الأسباب التي أدت علماء النفس إلى الاهتمام بدراسة الحياة الاجتماعية
٣٧ ب- الأسباب التي أدت بعلم الاجتماع إلى الاهتمام بدراسة الأسس
السيكولوجية للحياة الاجتماعية.
٤٣ أولاً : مدى بنى علم الاجتماع لنظرية فرويد في علم النفس.
٥٠ ثانياً - مدى اهتمام علم الاجتماع بالأسس السيكلوجية لنظرية جابريل
تارد.
٥٧ ثالثاً- معالجة مقارنة لوجهات نظر كل من (دوركيم، وفرويد، وتارد).

الفصل الثاني

- ٧٧ قضايا السلوكية الاجتماعية في علم الاجتماع المعاصر
٧٩
٨٠ ٢- القضايا النظرية للسلوكية الاجتماعية.
٨٠ أ- المفاهيم التي اعتمد عليها علماء السلوكية الاجتماعية.
٩٧ ب- القضايا النظرية التي شغلت تيار السلوكية الاجتماعية.
١٠٨ ٣- قواعد المنهج في دراسات السلوكية الاجتماعية.
١٢٠ ٤- خانة الباب الأول .

الباب الثاني

السلوكية الاجتماعية في قضايا علم الاجتماع الأمريكي

الفصل الثالث

السلوكية الاجتماعية في دراسات تشارلز

هورتون كولي

١٤١.

١٤٢ ٢- التفسير العضوي السيكولوجي للوقائع الاجتماعية عند كولي

١٤٢ أ- العلاقة بين الفرد والمجتمع.

١٤٧ ب- العلاقة بين الوراثة والبيئة في حياة الإنسان.

١٥٠ ٣- الفهم السيكولوجي للجماعات الأولية عند كولي :

١٥١ أ- طبيعة وخصائص الجماعات الأولية .

١٥٣ ب- دور الجماعات الأولية في تشكيل الذات أو الطبيعة الإنسانية.

١٥٣ ١- معنى ونبات الطبيعة الإنسانية.

١٥٦ ٢- دورها في تشكيل الذات الاجتماعية أو المبادئ الأولية.

١٥٦ أ- دور الجماعات الأولية في تشكيل الذات الاجتماعية.

١٦٠ ب- دور الجماعات الأولية في تشكيل المبادئ الأولية.

١٦٢ ٤- المعايير للجماعات السيكولوجية الأولية عند كولي.

١٦٦ ٥- الخاتمة.

الفصل الرابع

السلوكية الاجتماعية في دراسات

١٧١ جورج كوسبار هومانز

١٧٣

١٧٥ ٢- المفاهيم السيكولوجية في تفسير السلوك أو الظاهرة الاجتماعية.

١٧٦	أ- النشاط
١٧٧	ب- التفاعل.
١٧٨	ج- الاحساس.
١٧٩	٢- التفسير السيكولوجي للسلوك الانساني في اطار النسق الخارجى (البيئة).
١٨٠	أ- قضية النجاح.
١٨٠	ب- قضية الدافع.
١٨١	ج- قضية القيمة.
١٨٢	د- قضية الحرمان من الاشباع.
١٨٢	هـ- قضية العداء المحيط.
١٨٣	٤- الفهم السيكولوجي لدراسة السلوك الانساني في اطار التفاعل الاجتماعى.
١٨٧	٥- النزعة السيكولوجية الوظيفة لدراسة السلوك الانساني لدى هومانز.
١٩٥	٦- خاتمة.

الفصل الخامس

السلوكية الاجتماعية فى دراسات

١٩٩	جورج هيربرت ميد الاجتماعية
٢٠١	
٢٠٢	٢- التفسير الاجتماعى السيكولوجى لتطور الذات أو الطبيعة الانسانية.
٢٠٥	٣- الدور الذى تلعبه الأطر المرجعية فى تشكيل وحدة الذات الاجتماعية.
٢٠٩	٤- عناصر تحقيق انضبط الاجتماعى والسيكولوجى فى تكوين الشخصية بكلا
	اطارها الفردى والاجتماعى.
٢١٣	٥- سيكولوجية العقوبة فى الجماعة المرجعية .
٢١٨	٦- خاتمة .

الفصل السادس

- ٢٢٣ السلوكية الاجتماعية في دراسات هارولد جارفinkel الاجتماعية
٢٢٥
٢٢٥ ٢- تعريف النزعة السلوكية الاثوميثودولوجية عندما هارولد جارفinkel
٢٢٨ ٣- أبعاد النزعة السلوكية في دراساته الاثوميثودولوجية بوجه عام
٢٣١ ٤- المداخل المنهجية في دراساته السلوكية الاجتماعية.
٢٣٤ ٥- خاتمة.

الباب الثالث

السلوكية الاجتماعية في قضايا

- ٢٤٩ علم الاجتماع الألماني
الفصل السابع

- ٢٥٥ السلوكية الاجتماعية لدى ماكس فير
٢٥٧
٢٥٨ ٢- الاتجاه الذاتي في منهج ماكس فير
٢٦٣ ٣- النموذج المثالي كأداة منهجية لتحقيق الفهم السيكلوجي بين روح
البروتستانتية والرأسمالية الحديثة.
٢٧٠ ٤- التفسير السيكلوجي للفعل الاجتماعي عند فير .
٢٧٤ ٥- سيكلوجية نظرية القيمة في علم الاجتماع عند فير .
٢٧٩ ٦- خاتمة .

الفصل الثامن

- ٢٩١ السلوكية الاجتماعية في دراسات جورج زيمل
٢٩١
٢٩٢ ٢- الاتجاه الوظيفي السيكلوجي في دراسة تطور الشخصية الانسانية.

- ٢٩٤ ٢- التفسير البيكولوجى للعمليات الاجتماعية عند زيمبا :
- ٢٩٦ أ- العمليات التفاعلية البيكولوجية.
- ٢٩٩ ب- الصراع كشكل من أشكال المشاركة البيكولوجية.
- ج- بيكولوجية صور العلاقات الرئاسية كشكل من أشكال التفاعل.
- ٣٠٢ ٤- بيكولوجية التغير فى عضوية الجماعات الثابتة.
- ٣٠٥ ٥- خاتمة .

الفصل التاسع

- ٣١١ السلوكية الاجتماعية لدى كارل مانهايم
- ٣١٣
- ٣١٤ ٢- المحتوى الذاتى لتوافق السلوك أو العقل مع المعنى فى إطار العمليات الاجتماعية.
- ٣١٨ ٣- أثر الغرائز فى تشكيل العادات كنمط سلوكى.
- ٣١٨ أ- العلاقة بين الغرائز وأثرها فى تكوين العادة.
- ٣٢٠ ب- ميكانيزم صنع العادة.
- ٣٢٢ ج- التطور فى نماذج التقليد.
- ٣٢٢ ٤- التفسيرات السوسيبيكولوجية للشخصية الانسانية .
- ٣٢٤ أ- الكبت أو القمع.
- ٣٢٦ ب- التسامى أو المثالية.
- ٣٢٩ ٥- خاتمة الفصل التاسع.
- ٣٤٤ الخاتمة والتأليف.
- ٣٨١ مراجع البحث.

Bibliotheca Alexandrina



1508389

